مجاني الأدب

في

حدائق العرب

المطبعة الكاثوليكية - بيروت

مجاني الأدب

في

حدائق العرب

للأب لويس شيخو اليسوعي

الجزء الثالث

المطبعة الكاثوليكية
بيروت

الباب الأول
في التدين

في كمالاته تعالى

١ إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لم يَزَلْ ولا يزالُ . هو الكبيرُ المتعالِ . خالقُ الأعيانِ والآثارِ . ومكوِّرُ النهارِ على الليلِ والليلِ على النهارِ . العالِمُ بالخفياتِ . وما تنطوي عليهِ الأرضونَ والسماواتُ . سواءٌ عندهُ الجهرُ والإسرارُ . ومَنْ هو مستخفٍ بالليلِ وساربٌ بالنهارِ . ألا يعلمُ من خلقَ وهو اللطيفُ الخبيرُ خلقَ الخلقَ بقدرتهِ . وأحكمهم بعلمهِ وخصهم بمشيئتهِ . ودبرهم بحكمتهِ . لم يكنْ لهُ في خلقهم معينٌ . ولا في تدبيرهم مشيرٌ ولا ظهيرٌ . وكيفَ يستعينُ من لم يزلْ بمن لم يكنْ . لا تلزمهُ لِمَ . ولا يجاورهُ أينَ . ولا تلاصقهُ حيثُ . ولا تعدهُ كم . ولا تحصرهُ متى . ولا تحيطُ بهِ كيفَ . ولا تظهرهُ قبلُ . ولم تفتهُ بعدُ . ولم تجمعهُ كلٌّ . وصفهُ لا صفةَ لهُ . وكونهُ لا أمدَ لهُ . ولا تخالطهُ الأشكالُ والصورُ . ولا تغيرهُ الآثارُ والغيرُ . ولا تجوزُ عليهِ المماسةُ والمقاربةُ . وتستحيلُ عليهِ المحاذاةُ والمقابلةُ . إن قلتَ : أينَ هو . فقد سبقَ المكانَ وجودهُ . لم يفتقرْ وجودهُ إلى أينَ . هو بعدَ خلقِ المكانِ غنيٌّ بنفسهِ كما كانَ قبلَ خلقِ المكانِ . وكيفَ يحلُّ في ما منهُ بدا . وإن قلتَ : ما هو . فلا ماهيةَ لهُ (ما موضوعةٌ للسؤالِ عن الجنسِ . والقديمُ

تَعَالَى لَا جِنْسَ لَهُ) وَإِنْ قُلْتَ كَمْ هُوَ. فَهُوَ وَاحِدٌ فِي ذَاتِهِ. مُتَفَرِّدٌ بِصِفَاتِهِ. وَإِنْ قُلْتَ: مَتَى كَانَ فَقَدْ سَبَقَ الْوَقْتَ كَوْنُهُ وَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ هُوَ. فَمَنْ كَيَّفَ الْكَيْفِيَّةَ لَا يُقَالُ لَهُ كَيْفَ. وَمَنْ جَازَتْ عَلَيْهِ الْكَيْفِيَّةُ جَازَ عَلَيْهِ التَّغْيِيرُ وَإِنْ قُلْتَ هُوَ. فَالْهَاءُ وَالْوَاوُ خَلْقُهُ. فَمَا تَصَوَّرَ فِي الْأَوْهَامِ. فَهُوَ بِخِلَافِهِ. وَلَا تُمَثِّلُهُ الْعُيُونُ. وَلَا تُخَالِطُهُ الظُّنُونُ. وَلَا تَتَصَوَّرُهُ الْأَوْهَامُ. وَلَا يُحِيطُ بِهِ الْأَفْهَامُ. وَلَا تُقَدِّرُ قَدْرَهُ الْأَيَّامُ. وَلَا يَحْوِيهِ مَكَانٌ. وَلَا يُقَارِنُهُ زَمَانٌ. وَلَا يَحْصُرُهُ أَمَدٌ. وَلَا يَجْمَعُهُ عَدَدٌ. قُرْبُهُ كَرَامَتُهُ. وَبُعْدُهُ إِهَانَتُهُ. عُلُوُّهُ مِنْ غَيْرِ تَوَقُّلٍ. وَمَجِيئُهُ مِنْ غَيْرِ تَنَقُّلٍ. هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ. وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ. الْقَرِيبُ الْبَعِيدُ. الَّذِي لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ وَأَشْهَدُ لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ وَبِمَا شَهِدَ بِهِ لِنَفْسِهِ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى وَالصِّفَاتِ الْعُلَى

(سراج الملوك للطرطوشي)

الدعاء لله

٢ دَعَا أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: يَا عِمَادَ مَنْ لَا عِمَادَ لَهُ. وَيَا رُكْنَ مَنْ لَا رُكْنَ لَهُ. وَيَا مُجِيرَ الضُّعَفَى وَيَا مُنْقِذَ الْهَلْكَى. وَيَا عَظِيمَ الرَّجَاءِ أَنْتَ الَّذِي سَبَّحَ لَكَ سَوَادُ اللَّيْلِ وَبَيَاضُ النَّهَارِ. وَضَوْءُ الْقَمَرِ وَشُعَاعُ الشَّمْسِ. وَحَفِيفُ الشَّجَرِ وَدَوِيُّ الْمَاءِ. يَا مُحْسِنُ يَا مُجْمِلُ. اللَّهُمَّ إِنَّكَ آنَسُ الْمُؤْنِسِينَ لِلْمُتَّكِلِينَ عَلَيْكَ أَنْتَ شَاهِدُهُمْ وَغَائِبُهُمْ وَالْمُطَّلِعُ عَلَى ضَمَائِرِهِمْ. وَسِرِّي لَكَ مَكْشُوفٌ. وَأَنَا إِلَيْكَ مَلْهُوفٌ. إِذَا أَوْحَشَتْنِي الْغُرْبَةُ

آنسني ذكرك. وإذا أكبت علي الغموم لجأت إلى الاستجارة بك. علما بأن أزمة الأمور كلها بيدك ومصدرها عن قضائك. فأقلني إليك مغفورا لي معصوما بطاعتك باقي عمري يا أرحم الراحمين

٣ لما ولي أبو بكر الخلافة صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا أيها الناس إني داع فأمنوا. اللهم إني غليظ فلينِّي لأهل طاعتك بموافقة الحق ابتغاء وجهك والدار الآخرة. وارزقني الغلظة والشدة على أعدائك وأهل الدعارة والنفاق من غير ظلم مني لهم ولا اعتداء عليهم. اللهم إني شحيح فسخني في نوائب المعروف قصدا من غير سرف ولا تبذير ولا رئاء ولا سمعة. واجعلني أبتغي بذلك وجهك والدار الآخرة. اللهم ارزقني خفض الجناح ولين الجانب للمؤمنين. اللهم إني كثير الغفلة والنسيان فألهمني ذكرك على كل حال وذكر الموت في كل حين. اللهم إني ضعيف عند العمل بطاعتك فارزقني النشاط فيها والقوة عليها بالنية الحسنة التي لا تكون إلا بعزتك وتوفيقك. اللهم ثبتني باليقين والبر والتقوى وذكر المقام بين يديك والحياء منك. وارزقني الخشوع فيما يرضيك عني والمحاسبة لنفسي وإصلاح الساعات والحذر من الشبهات (العقد الفريد لابن عبد ربه)

٤ دعا بعضهم فقال: اللهم إني أسألك يا من احتجب بشعاع نوره عن نواظر خلقه. يا من تسربل بالجلال والكبرياء واشتهر بالتجبر في قدسه. يا من تعالى بالجلال والكبرياء في تفرد مجده. يا من انقادت

الأمورُ بأزمّتها طوعاً لأمرِه. يا من قامتِ السماواتُ والأرضُ مجيباتٍ لدعوتِه. يا من زيّنَ السماءَ بالنجومِ الطالعةِ وجعلها هاديةً لخلقِه. يا من أنارَ القمرَ المنيرَ في سوادِ الليلِ المظلمِ بلطفِه. يا من أنارَ الشمسَ المنيرةَ وجعلها معاشاً لخلقِه. وجعلها مفرقةً بين الليلِ والنهارِ لعظمتِه. يا من استوجبَ الشكرَ بنشرِه سحائبَ نعمِه. أسألُكَ بمعاقدِ العزِّ من عرشِكَ وبكلِّ اسمٍ هو لكَ سمّيتَ به نفسكَ واستأثرتَ به في علمِ الغيبِ عندكَ وبكلِّ اسمٍ هو لكَ أثبتَّه في قلوبِ الحافّين حولَ عرشِكَ وأسألُكَ بالأسماءِ التي تجلّيتَ بها للكليمِ موسى على الجبلِ العظيمِ. فلمّا بدا شعاعُ نورِ الحجبِ من بهاءِ العظمةِ خرّتِ الجبالُ متدكدكةً لعظمتِكَ وجلالِكَ وهيبتِكَ وخوفاً من سطوتِكَ راهبةً منكَ. أنتَ اللهُ فلا إلهَ إلا أنتَ. وأسألُكَ بالاسمِ الذي فتقتَ به رتقَ عظيمِ جفونِ العيونِ للناظرين. الذي به تدبّرتَ حكمتَكَ وشواهدُ حججِ أنبيائِكَ. يعرفونكَ بنظرِ القلوبِ. وأنتَ في غوامضِ سوائدِ القلوبِ. أسألُكَ أن تصرفَ عني وأهلِ خزانتي وجميعِ المؤمنينَ والمؤمناتِ جميعَ الآفاتِ والعاهاتِ والأعراضِ والأمراضِ والخطايا والذنوبِ. والشكَّ والكفرَ والنفاقَ والشقاقَ والضلالةَ والجهلَ والمقتَ والغضبَ والعسرَ والضيقَ وفسادَ الضميرِ وحلولَ النقمةِ وشماتةَ الأعداءِ وغلبةَ الرجالِ إنّكَ سميعُ الدعاءِ لطيفٌ

(الكشكول لبهاء الدين العاملي)

منتخب من قصيدة علي بن ابي طالب في المناداة

٥ يا سامِعَ الدُّعاءِ . يا رافِعَ السَّماءِ . يا دائِمَ البَقاءِ . يا واسِعَ العَطاءِ . يا عالِمَ الغُيوبِ . يا غافِرَ الذُّنوبِ . يا ساتِرَ العُيوبِ . يا كاشِفَ الكُروبِ . يا فائِقَ الصِّفاتِ . يا مُخرِجَ النَّباتِ . يا جامِعَ الشَّتاتِ . يا مُنشِرَ الرُّفاتِ . يا فالِقَ الصَّباحِ . يا مُرسِلَ الرِّياحِ . فَجرامعَ الرَّواحِ . يَجلُنَ في النَّواحِ . يا هادِيَ الرَّشادِ . يا مُلهِمَ السَّدادِ . يا رازِقَ العِبادِ . يا مُحيِيَ البِلادِ . يا مُطلِقَ الأَسيرِ . يا جابِرَ الكَبيرِ . يا مُغنِيَ الفَقيرِ . يا غاذِيَ الصَّغيرِ . يا مالِكَ النَّواصي . مِن طائِعٍ وعاصٍ . ما عَنهُ مِن مَناصٍ . لِلعَبدِ أَو خَلاصٍ . أَجِر مِنَ الجَحيمِ . مِن هَولِها العَظيمِ . مِن عَيشِها الذَّميمِ . مِن حَرِّها المُقيمِ . أَسكِنّي الجِنانا . بَلِّغنِيَ الأَمانا . في مَنزِلٍ تَعالى . بِالحَقِّ قَد تَوالى . بِالنُّورِ قَد تَلالا . تَلقَى بِهِ الجَلالا (ديوان عليّ)

٦ قالَ الأَصمعي سَمِعتُ غُلامًا يُمَجِّدُ رَبَّهُ بِأَبياتٍ مِنَ الشِّعرِ وَهِيَ هٰذِهِ :

يا فاطِرَ الخَلقِ البَديعَ وَكافِلًا رِزقَ الجَميعِ سَحابُ جُودِكَ هاطِلُ
يا مُسبِغَ البِرِّ الجَزيلِ وَمُسبِلَ السِّترِ الجَميلِ عَميمُ طَولِكَ طائِلُ
يا عالِمَ السِّرِّ الخَفِيِّ وَمُنجِزَ الوَعدِ الوَفِيِّ قَضاءُ حُكمِكَ عادِلُ
عَظُمَت صِفاتُكَ يا عَظيمُ فَجَلَّ أَن يُحصِي الثَّناءَ عَلَيكَ فيها قائِلُ
الذَّنبُ أَنتَ لَهُ بِمَنِّكَ غافِرٌ وَلِتَوبَةِ العاصي بِحِلمِكَ قابِلُ
رَبٌّ يُرَبِّي العالَمينَ بِبِرِّهِ وَنَوالُهُ أَبَدًا إِلَيهِم واصِلُ

تُقْصِيهِ وَهْوَ يَسُوقُ نَحْوَكَ دَائِمًا — مَا لَا تَكُونُ لِبَعْضِهِ تَسْتَأْهِلُ
مُتَفَضِّلٌ أَبَدًا وَأَنْتَ لِجُودِهِ — بِقَبَائِحِ الْعِصْيَانِ مِنْكَ تُقَابِلُ
وَإِذَا دَجَا لَيْلُ الْخُطُوبِ وَأَظْلَمَتْ — سُبُلُ الْخَلَاصِ وَخَابَ فِيهَا الْآمِلُ
وَأَيِسْتَ مِنْ وَجْهِ النَّجَاةِ فَمَا لَهَا — سَبَبٌ وَلَا يَدْنُو لَهُ مُتَنَاوِلُ
يَأْتِيكَ مِنْ أَلْطَافِهِ الْفَرَجُ الَّذِي — لَمْ تَحْتَسِبْهُ وَأَنْتَ عَنْهُ غَافِلُ
يَا مُوجِدَ الْأَشْيَاءِ مَنْ أَلْقَى إِلَى — أَبْوَابِ غَيْرِكَ فَهْوَ غِرٌّ جَاهِلُ
وَمَنِ اسْتَرَاحَ بِغَيْرِ ذِكْرِكَ أَوْ رَجَا — أَحَدًا سِوَاكَ فَذَاكَ ظِلٌّ زَائِلُ
رَأْيٌ يُلِمُّ إِذَا عَرَتْهُ مُلِمَّةٌ — بِسِوَى جَنَابِكَ فَهْوَ رَأْيٌ مَائِلُ
عَمَلٌ أُرِيدُ بِهِ سِوَاكَ فَإِنَّهُ — عَمَلٌ وَإِنْ زَعَمَ الْمُرَائِي بَاطِلُ
وَإِذَا رَضِيتَ فَكُلُّ شَيْءٍ هَيِّنٌ — وَإِذَا حَصَلْتَ فَكُلُّ شَيْءٍ حَاصِلُ
أَنَا عَبْدُ سُوءٍ آبِقٌ كُلٌّ عَلَى — مَوْلَاهُ أَوْزَارَ الْكَبَائِرِ حَامِلُ
قَدْ أَثْقَلَتْ ظَهْرِي الذُّنُوبُ وَسَوَّدَتْ — صُحُفِي الْعُيُوبُ وَسِتْرُ عَفْوِكَ شَامِلُ
هَا قَدْ أَتَيْتُ وَحُسْنُ ظَنِّي شَافِعِي — وَوَسَائِلِي نَدَمٌ وَدَمْعٌ سَائِلُ
فَاغْفِرْ لِعَبْدِكَ مَا مَضَى وَارْزُقْهُ تَوْ — فِيقًا لِمَا تَرْضَى فَفَضْلُكَ كَامِلُ
وَافْعَلْ بِهِ مَا أَنْتَ أَهْلُ جَمِيلِهِ — وَالظَّنُّ كُلُّ الظَّنِّ أَنَّكَ فَاعِلُ

٧ قَالَ الشَّيْخُ إِسْمَاعِيلُ الزَّمْزَمِيُّ:

يَا مَنْ تُحَلُّ بِذِكْرِهِ — عُقَدُ النَّوَائِبِ وَالشَّدَائِدْ
يَا مَنْ إِلَيْهِ الْمُشْتَكَى — وَإِلَيْهِ أَمْرُ الْخَلْقِ عَائِدْ
يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ يَا — صَمَدًا تَنَزَّهَ عَنْ مُضَادِدْ

أنتَ الرقيبُ على العبا ۝ دِ وأنتَ في الملكوتِ واحِد
أنتَ العليمُ بما ابتُليـ ۝ ـتُ بهِ وأنتَ عليَّ شاهِدْ
إنَّ الهمومَ جيوشُها ۝ قد أصبحتْ قلبي تطارِدْ
فرِّجْ بحولِكَ كُربتي ۝ يا مَنْ لهُ حُسْنُ العوائِدْ
فخفيُّ لُطفِكَ يُستعا ۝ نُ بهِ على الزمنِ المعانِدْ
أنتَ الميسِّرُ والمسبِّـ ۝ ـبُ والمسهِّلُ والمساعِدْ
سبِّبْ لنا فرجًا قريـ ۝ ـبًا يا إلاهي لا تُباعِدْ
كُنْ راحِمي فلقدْ يئسْـ ۝ ـتُ من الأقاربِ والأباعِدْ
وعلى العِدى كُنْ ناصِري ۝ لا تُشمِتَنَّ بيَ الحواسِدْ
يا ذا الجلالِ وعافِني ۝ مِمّا منَ البلوى أُكابِدْ
وعنِ الورى كُنْ ساترًا ۝ عيبي بفضلٍ منكَ وارِدْ
يا ربِّ قدْ ضاقتْ بيَ الـ ۝ أحوالُ واغتالَ المعانِدْ
فامنُنْ بنصرِكَ عاجلًا ۝ فضلًا على كيدِ الحواسِدْ
هذي يدي وبشِدَّتي ۝ قدْ جئتُ يا ربّاهُ قاصِدْ
فلكمْ إلهي قدْ شهدْ ۝ تُ لفيضِ لُطفِكَ مِنْ عوائِدْ

محبة الله والثقة به

٨ أخبرَ يحيى بنُ بسطامٍ قالَ: دخلتُ يومًا مع نفرٍ من أصحابنا على عُفيرةَ العابدةِ الضريرةِ وكانتْ قد تعبّدتْ وبكتْ خوفًا من اللهِ جلَّ شأنه حتى عميتْ. فقال بعضُ أصحابنا لرجلٍ إلى جنبِهِ: ما أشدَّ العمى على من

كَانَ بَصِيرًا. فَسَمِعَتْ عُفَيْرَةُ قَوْلَهُ فَقَالَتْ: يَا عَبْدَ ٱللهِ عَمَى ٱلْقَلْبِ عَنِ ٱللهِ أَشَدُّ مِنْ عَمَى ٱلْعَيْنِ عَنِ ٱلدُّنْيَا. وَإِنِّي لَوَدِدْتُ أَنَّ ٱللهَ وَهَبَ لِي كُنْهَ مَحَبَّتِهِ وَأَنْ لَمْ يَبْقَ مِنِّي جَارِحَةٌ إِلَّا أَخَذَهَا: (لليمني)

قَالَ بَعْضُ ٱلزَّاهِدِينَ مُتَغَزِّلًا فِي حُبِّهِ تَعَالَى:

هَجَرْتُ ٱلْخَلْقَ طُرًّا فِي رِضَاكَا ... وَيَتَّمْتُ ٱلْعِيَالَ لِكَيْ أَرَاكَا
فَلَوْ قَطَّعْتَنِي فِي ٱلْحُبِّ إِرْبًا ... لَمَا حَنَّ ٱلْفُؤَادُ إِلَى سِوَاكَا

قَالَ غَيْرُهُ:

إِذَا أَمْسَى وِسَادِي مِنْ تُرَابٍ ... وَبِتُّ مُجَاوِرَ ٱلرَّبِّ ٱلرَّحِيمِ
فَهَنُّونِي أُصَيْحَابِي وَقُولُوا ... لَكَ ٱلْبُشْرَى قَدِمْتَ عَلَى كَرِيمِ

قَالَ آخَرُ:

مَا زَالَ يَحْتَقِرُ ٱلدُّنْيَا بِهِمَّتِهِ ... حَتَّى تَرَقَّتْ إِلَى ٱلْأُخْرَى بِهِ هِمَمُهْ
رَثُّ ٱللِّبَاسِ جَدِيدُ ٱلْقَلْبِ مُسْتَتِرٌ ... فِي ٱلْأَرْضِ مُشْتَهِرٌ فَوْقَ ٱلسَّمَا نَسَمُهْ
طُوبَى لِعَبْدٍ بِحَبْلِ ٱللهِ مُعْتَصِمٍ ... عَلَى صِرَاطٍ سَوِيٍّ ثَابِتٍ قَدَمُهْ

قَالَ ٱبْنُ ٱلصَّيْفِيِّ:

يَا طَالِبَ ٱلطِّبِّ مِنْ دَاءٍ أُصِيبَ بِهِ ... إِنَّ ٱلطَّبِيبَ ٱلَّذِي أَبْلَاكَ بِٱلدَّاءِ
هُوَ ٱلطَّبِيبُ ٱلَّذِي يُرْجَى لِعَافِيَةٍ ... لَا مَنْ يُذِيبُ لَكَ ٱلتِّرْيَاقَ فِي ٱلْمَاءِ

٩ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ:

لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ أَنْتَ مَوْلَاهُ ... فَٱرْحَمْ عُبَيْدًا فَأَنْتَ مَلْجَاهُ
يَا ذَا ٱلْمَعَالِي إِلَيْكَ مُعْتَمَدِي ... طُوبَى لِمَنْ كُنْتَ أَنْتَ مَوْلَاهُ

طُوبى لِمَنْ كانَ نادماً أرِقاً يشكُو إلى ذي الجَلالِ بَلْواهُ
وما بهِ عِلَّةٌ ولا سَقَمٌ أكْثَرُ من حُبِّهِ لِمَوْلاهُ
إذا خَلا في الظَّلامِ مُبتهِلاً أجابَهُ اللهُ ثُمَّ لبَّاهُ
سألتَ عبدي وأنتَ في كنفي وكُلُّ ما قُلتَ قد سَمِعناهُ
صوتُكَ تشتاقُهُ ملائِكَتي فذنبُكَ الآنَ قد غفرناهُ
في جنَّةِ الخُلدِ ما تمنّاهُ طُوباهُ طُوباهُ ثُمَّ طُوباهُ
سَلْني بِلا خَشيةٍ ولا رَهَبٍ ولا تَخَفْ إنَّني أنا اللهُ

١٠ أوَّلُ مقاماتِ الانْتِباهِ هو اليقظةُ مِن سِنَةِ الغفلةِ . ثُمَّ التوبةُ وهي الرُّجوعُ إلى اللهِ بعدَ الإباقِ . ثُمَّ الوَرَعُ والتقوى لكنْ ورعُ أهلِ الشَّريعةِ عن المحرَّماتِ وورعُ أهلِ الطَّريقةِ عن الشُّبهاتِ . ثُمَّ المحاسبةُ وهي تَعدادُ ما صدرَ عن الإنسانِ بينَهُ وبينَ نفسهِ وبينهُ وبينَ بني نوعهِ . ثُمَّ الإرادةُ وهي الرَّغبةُ في نيلِ المرادِ مع الكدِّ . ثُمَّ الزُّهدُ وهو تَرْكُ الدُّنيا وحقيقتُهُ التبرُّؤُ عن غيرِ المولى . ثُمَّ الفقرُ وهو تخليةُ القلبِ عمّا خلتْ عنهُ اليدُ . والفقيرُ مَن عرفَ أنَّهُ لا يقدرُ على شيءٍ . ثُمَّ الصِّدقُ وهو استواءُ الظّاهرِ والباطنِ . ثُمَّ التَّصبُّرُ وهو حملُ النَّفسِ على المكارهِ . ثُمَّ الصَّبرُ وهو تركُ الشَّكوى وقمعُ النَّفسِ . ثُمَّ الرِّضاءُ وهو التلذُّذُ بالبلوى . ثُمَّ الإخلاصُ وهو إخراجُ الخلقِ عن معاملةِ الحقِّ . ثُمَّ التوكُّلُ وهو الاعتمادُ في كلِّ أمورهِ على اللهِ سبحانهُ وتعالى مع العلمِ بأنَّ الخيرَ فيما اختارهُ

(لبهاء الدين العاملي)

قَالَ بَعْضُ الشُّعَرَاءِ :

يَا رَبُّ هَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدَا   وَٱجْعَلْ مَعُونَتَكَ فِي عُمْرِنَا مَدَدَا
وَلَا تَكِلْنَا إِلَى تَدْبِيرِ أَنْفُسِنَا   فَٱلنَّفْسُ تَعْجِزُ عَنْ إِصْلَاحِ مَا فَسَدَا

الاستغفار الى الله

١١ قَالَ أَبُو حَاتِمٍ : أَمْلَى عَلَيْنَا أَعْرَابِيٌّ يُقَالُ لَهُ مُرْشِدٌ : أَللّٰهُمَّ ٱغْفِرْ لِي قَبْلَ أَنْ لَا أَقْدِرَ عَلَى ٱسْتِغْفَارِكَ حَتَّى يَفْنَى ٱلْأَجَلُ . وَيَنْقَطِعَ ٱلْعَمَلُ . أَعِنِّي عَلَى ٱلْمَوْتِ وَكُرْبَتِهِ وَعَلَى ٱلْقَبْرِ وَغُمَّتِهِ . وَعَلَى ٱلْمِيزَانِ وَخِفَّتِهِ وَعَلَى ٱلصِّرَاطِ وَزَلَّتِهِ وَعَلَى يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ وَرَوْعَتِهِ . ٱغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً عَزْمًا لَا تُغَادِرُ ذَنْبًا وَلَا تَدَعُ كَرْبًا . ٱغْفِرْ لِي جَمِيعَ مَا تُبْتُ إِلَيْكَ مِنْهُ . ثُمَّ عُدْتُ فِيهِ يَا رَبُّ تَظَاهَرَتْ عَلَيَّ مِنْكَ ٱلنِّعَمُ . وَتَدَارَكَتْ عِنْدَكَ مِنِّي ٱلذُّنُوبُ . فَلَكَ ٱلْحَمْدُ عَلَى ٱلنِّعَمِ ٱلَّتِي تَظَاهَرَتْ وَأَسْتَغْفِرُكَ لِلذُّنُوبِ ٱلَّتِي تَدَارَكَتْ . وَأَمْسَيْتُ عَنْ عَذَابِي غَنِيًّا وَأَصْبَحْتُ إِلَى رَحْمَتِكَ فَقِيرًا . أَللّٰهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ نَجَاحَ ٱلْأَمَلِ عِنْدَ ٱنْقِطَاعِ ٱلْأَجَلِ . أَللّٰهُمَّ ٱجْعَلْ خَيْرَ عَمَلِي مَا وَلِيَ أَجَلِي . أَللّٰهُمَّ ٱجْعَلْنِي مِنَ ٱلَّذِينَ إِذَا أَعْطَيْتَهُمْ شَكَرُوا . وَإِذَا ٱبْتَلَيْتَهُمْ صَبَرُوا . وَإِذَا أَذْكَرْتَهُمْ ذَكَرُوا . وَٱجْعَلْ لِي قَلْبًا تَوَّابًا أَوَّابًا . لَا فَاجِرًا وَلَا مُرْتَابًا . ٱجْعَلْنِي مِنَ ٱلَّذِينَ إِذَا أَحْسَنُوا ٱزْدَادُوا وَإِذَا أَسَاؤُوا ٱسْتَغْفَرُوا . أَللّٰهُمَّ لَا تُحَقِّقْ عَلَيَّ ٱلْعَذَابَ . وَلَا تَقْطَعْ بِيَ ٱلْأَسْبَابَ وَٱحْفَظْنِي فِي كُلِّ مَا تُحِيطُ بِهِ شَفَقَتِي . وَتَأْتِي مِنْ وَرَائِهِ سُبْحَتِي . وَتَعْجِزُ عَنْهُ قُوَّتِي . أَدْعُوكَ دُعَاءَ ضَعِيفٍ عَمَلُهُ . مُتَظَاهِرَةٍ ذُنُوبُهُ . ضَنِينٍ عَلَى نَفْسِهِ . دُعَاءَ مَنْ بَدَنُهُ

ضعيفٌ ومِنَّته عاجزةٌ. قدِ انتهتْ عِدَّتُه. وخلِقتْ جِدَّتُه. وتمَّ ظِمؤه. اللهمَّ لا تُخيِّبني وأنا أرجوك. ولا تعذِّبني وأنا أدعوك. الحمدُ للهِ على طُولِ النَّسيئةِ. وحُسنِ التِّباعةِ وتشنُّجِ العروقِ وإساغةِ الرِّيقِ وتأخُّرِ الشَّدائدِ. والحمدُ للهِ على حِلمِه بعدَ عِلمِه. وعلى عفوِه بعدَ قدرتِه. اللهمَّ إني لأعوذُ بكَ من الفقرِ إلَّا إليكَ ومن الذلِّ إلَّا لكَ. وأعوذُ بكَ أنْ أقولَ زُورًا أو أغشَى فُجُورًا. أو أكونَ بكَ مغرورًا. وأعوذُ بكَ من شماتةِ الأعداءِ. وعُضالِ الداءِ وخيبةِ الرجاءِ (لابن عبد ربه)

١٢ قالَ أحمدُ بنُ الأقليشي مستعطِفًا:

أسيرُ الخطايا عِندَ بابِكَ واقِفُ ... لهُ عن طريقِ الحقِّ قلبٌ مُخالِفُ
قديمًا عصى عمدًا وجهلًا وغِرَّةً ... ولمْ ينهَهُ قلبٌ منَ اللهِ خائفُ
تزيدُ سِنُوهُ وهوَ يزدادُ ضِلَّةً ... فها هُوَ في ليلِ الضَّلالةِ عاكِفُ
تطلَّعَ صُبحُ الشَّيبِ والقلبُ مُظلِمٌ ... فما طافَ منهُ مِن سَنى الحقِّ طائفُ
ثلاثونَ عامًا قدْ تولَّتْ كأنَّها ... حُلومٌ تقضَّتْ أوْ بُروقٌ خواطِفُ
وجاءَ المشيبُ المنذِرُ المرءَ أنَّهُ ... إذا رحلَتْ عنهُ الشَّبيبةُ تالِفُ
فيا أحمدُ الخوَّانُ قدْ أدبرَ الصِّبا ... وناداكَ مِنْ سِنِّ الكهولةِ هاتِفُ
فهلْ أرَقَ الطَّرفَ الزَّمانُ الَّذي مضى ... وأبكاهُ ذنبٌ قدْ تقدَّمَ سالِفُ
فجُدْ بالدُّموعِ الحُمْرِ حُزنًا وحسرةً ... فدمعُكَ يُنبي أنَّ قلبَكَ آسِفُ

قالَ آخرُ:

إلهَ الخلقِ قدْ عظُمتْ ذُنوبي ... فسامِحْ ما لِعفوِكَ مِنْ مُشارِكْ

أجِرْ يا سيِّدي عبداً فقيراً ... أناخَ ببابِكَ العالي ودارِكْ

قال غيرُه:

وإنّي لأدعو اللهَ أسألُ عفوَهُ ... وأعلمُ أنَّ اللهَ يعفو ويغفرُ

لئنْ أعظمَ النّاسُ الذّنوبَ فإنّها ... وإنْ عظُمتْ في رحمةِ اللهِ تصغرُ

١٣ قال ابو القاسم بنُ الخطيبِ مستغفراً:

يا مَنْ يرى ما في الضّميرِ ويسمعُ ... أنتَ المُعَدُّ لكلِّ ما يُتوقَّعُ

يا مَنْ يُرجّى للشّدائدِ كلِّها ... يا مَنْ إليهِ المشتكى والمفزعُ

يا مَنْ خزائنُ رزقِهِ في قولِ كُنْ ... أمْنُنْ فإنَّ الخيرَ عندكَ أجمعُ

ما لي سوى فقري إليكَ وسيلةٌ ... فبالافتقارِ إليكَ فقري أدفعُ

ما لي سوى قرعي لبابِكَ حيلةٌ ... فلئنْ رُدِدتُ فأيَّ بابٍ أقرعُ

ومَنِ الّذي أدعو وأهتفُ باسمِهِ ... إنْ كانَ فضلُكَ عن فقيرٍ يُمنَعُ

حاشا لجودِكَ أنْ يُقنِّطَ عاصياً ... الفضلُ أجزلُ والمواهبُ أوسعُ

١٤ قال ابنُ الفرضيِّ:

أسيرُ الخطايا عندَ بابِكَ واقفُ ... على وجلٍ ممّا بِهِ أنتَ عارفُ

يخافُ ذنوباً لمْ يغبْ عنكَ غيبُها ... ويرجوكَ فيها فهوَ راجٍ وخائفُ

فيا سيّدي لا تخزِني في صحيفتي ... إذا نُشِرتْ يومَ الحسابِ الصّحائفُ

فكنْ مؤنسي في ظلمةِ القبرِ عندما ... يصدُّ ذوو القربى ويجفو المؤالفُ

لئنْ ضاقَ عنّي عفوُكَ الواسعُ الّذي ... أُرجّي لإسرافي فإنّي لتالفُ

العالم العقلي

١٥ من التلويحات عن أفلاطون الإلهي أنه قال: ربما خلوت بنفسي كثيرا عند الرياضات. وتأملت أحوال الموجودات المجردة عن الماديات. وخلعت بدني جانبا وصرت كأني مجرد بلا بدن عار عن الملابس الطبيعية. فأكون داخلا في ذاتي لا أعقل غيرها ولا أنظر فيما عداها وخارجا عن سائر الأشياء. فحينئذ أرى في نفسي من الحسن والبهاء والسناء والضياء والمحاسن الغريبة العجيبة الأنيقة ما أبقى معه متعجبا حيرانا باهتا. فأعلم أني جزء من أجزاء العالم الأعلى الروحاني الكريم الشريف. وأني ذو حياة فعالة. ثم ترقيت بذهني من ذلك العالم إلى العوالم الإلهية والحضرة الربوبية. فصرت كأني موضوع فيها معلق بها فوق العوالم العقلية النورية. فأرى كأني واقف في ذلك الموقف الشريف وأرى هناك من البهاء والنور ما لا تقدر الألسن على وصفه ولا الأسماع على قبول نعته. فإذا استغرقني ذلك الشأن وغلبني ذلك النور والبهاء ولم أقو على احتماله هبطت من هناك إلى عالم الفكرة. فحينئذ حجبت الفكرة عني ذلك النور فأبقى متعجبا أني كيف انحدرت من ذلك العالم. وعجبت كيف رأيت نفسي ممتلئة نورا وهي مع البدن كهيئتها. فعندها تذكرت قول مطريوس حيث أمرنا بالطلب والبحث عن جوهر النفس الشريف والارتقاء إلى العالم العقلي

(لبهاء الدين)

الباب الثاني
في الزهد

في الخوف

١٦ قَالَ عَلِيٌّ : أَلَا إِنَّ عِبَادَ ٱللهِ ٱلْمُخْلَصِينَ لَمَنْ رَأَى أَهْلَ ٱلْجَنَّةِ فِي ٱلْجَنَّةِ فَاكِهِينَ . وَأَهْلَ ٱلنَّارِ فِي ٱلنَّارِ مُعَذَّبِينَ . شُرُورُهُمْ مَأْمُونَةٌ . وَقُلُوبُهُمْ مَحْزُونَةٌ . وَأَنْفُسُهُمْ عَفِيفَةٌ . وَحَوَائِجُهُمْ خَفِيفَةٌ . صَبَرُوا أَيَّامًا قَلِيلَةً . لِعُقْبَى رَاحَةٍ طَوِيلَةٍ . أَمَّا بِٱللَّيْلِ فَصَفُّوا أَقْدَامَهُمْ فِي صَلَاتِهِمْ تَجْرِي دُمُوعُهُمْ عَلَى خُدُودِهِمْ يَجْأَرُونَ إِلَى رَبِّهِمْ : رَبَّنَا رَبَّنَا . يَطْلُبُونَ فِكَاكَ رِقَابِهِمْ . وَأَمَّا بِٱلنَّهَارِ فَعُلَمَاءُ حُلَمَاءُ بَرَرَةٌ أَتْقِيَاءُ كَأَنَّهُمُ ٱلْقِدَاحُ (ٱلْقِدَاحُ ٱلسِّهَامُ يُرِيدُ فِي ضُمْرَتِهَا) . يَنْظُرُ إِلَيْهَا ٱلنَّاظِرُ فَيَقُولُ : مَرْضَى وَمَا بِٱلْقَوْمِ مِنْ مَرَضٍ . (وَقَالَ مَنْصُورُ بْنُ عَمَّارٍ) فِي مَجْلِسِ ٱلزُّهْدِ إِنَّ لِلهِ عِبَادًا جَعَلُوا مَا كُتِبَ عَلَيْهِمْ مِنَ ٱلْمَوْتِ مِثَالًا بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ وَقَطَعُوا ٱلْأَسْبَابَ ٱلْمُتَّصِلَةَ بِقُلُوبِهِمْ مِنْ عَلَائِقِ ٱلدُّنْيَا . فَهُمْ أَنْضَاءُ عِبَادَتِهِ . حُلَفَاءُ طَاعَتِهِ . قَدْ نَضَحُوا خُدُودَهُمْ بِوَابِلِ دُمُوعِهِمْ وَٱفْتَرَشُوا جِبَاهَهُمْ فِي مَحَارِيبِهِمْ . يُنَاجُونَ ذَا ٱلْكِبْرِيَاءِ وَٱلْعَظَمَةِ فِي فِكَاكِ رِقَابِهِمْ

زهد النعمان بن امرئ القيس

١٧ إِنَّ ٱلنُّعْمَانَ بْنَ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ ٱلْأَكْبَرِ ٱلَّذِي بَنَى ٱلْخَوَرْنَقَ وَٱلسَّدِيرَ أَشْرَفَ عَلَى ٱلْخَوَرْنَقِ يَوْمًا فَأَعْجَبَهُ مَا أُوتِيَ مِنَ ٱلْمُلْكِ وَٱلسَّعَةِ وَنُفُوذِ

الأَمرِ وإقبالِ الوُجُوهِ عليه فقالَ لأَصحابِهِ: هل أُوتي أحدٌ مِثلَ ما أُوتيتُ. فقالَ له حكيمٌ مِن حكماءِ أصحابِهِ: هذا الّذي أُوتيتَ شيءٌ لم يزَلْ ولا يزُولُ أم شيءٌ كان لمن قبلكَ زالَ عنهُ وصارَ إليكَ. قالَ: بل شيءٌ كانَ لمن قبلي زالَ عنه وصارَ إليَّ وسيزُولُ عنّي. قالَ: فسُرِرتَ بشيءٍ تذهبُ عنكَ لذّتهُ وتبقى تبعتهُ. قالَ: فأينَ المهربُ. قالَ: إمّا أن تُقيمَ وتعملَ بطاعةِ اللهِ أو تلبسَ أمساحًا وتلحقَ بجبلٍ تعبُدُ ربّكَ فيهِ وتفرّ مِن النّاسِ حتّى يأتيكَ أجلكَ. قالَ: فإذا فعلتُ ذلكَ فما لي. قالَ: حياةٌ لا تموتُ. وشبابٌ لا يهرمُ. وصحّةٌ لا تسقمُ. ومُلكٌ جديدٌ لا يبلى. قالَ: فأيّ خيرٍ فيما يفنى واللهِ لأطلبنَّ عيشًا لا يزُولُ أبدًا. فانخلعَ مِن مُلكهِ ولبسَ الأمساحَ وساحَ في الأرضِ. وتبعهُ الحكيمُ وجعلا يسيحانِ ويعبُدانِ اللهَ تعالى حتّى ماتا. وفيهِ يقولُ عديّ بنُ زيدٍ:

وتفكّرْ ربَّ الخَوَرْنقِ إذ أشـرفَ يومًا وللهُدى تفكيرُ
سرَّهُ مالُهُ وكثرةُ ما يمـلكُ والبحرُ مُعرِضًا والسَّديرُ
فارعوى قلبُهُ وقالَ فما غِبـطةُ حيٍّ إلى المماتِ يصيرُ
ثُمَّ بعدَ الفلاحِ والمُلكِ والنّعـمةِ وارتهم هناكَ القبورُ
ثُمَّ صاروا كأنّهم ورقٌ جفَّ م فألوتْ بهِ الصَّبا والدَّبورُ

عدي بن زيد والنعمان

١٨ رُوِيَ أنّ النّعمانَ بنَ المُنذرِ خرجَ متصيّدًا ومعهُ عديُّ بنُ زيدٍ

فمرّا بشجرة . فقال عديّ بن زيد : أيها الملك أتدري ما تقول هذه الشجرة . قال : لا . قال فإنها تقول :

من رآنا فليحدّث نفسه ... أنّه موفٍ على قرب زوال
فصروف الدهر لا تبقى لها ... ولما تأتي به صمّ الجبال
ربّ ركبٍ قد أناخوا حولنا ... يشربون الخمر بالماء الزلال
والأباريق عليها فدمٌ ... وجياد الخيل تجري بالجلال
عمّروا الدهر بعيش حسنٍ ... أمنى دهرهم غير عجال
عصف الدهر بهم فانقرضوا ... وكذاك الدهر حالًا بعد حال

(قال) ثمّ جاوزا الشجرة فمرّا بمقبرة . فقال له عديّ : أتدري ما تقول هذه المقبرة . قال : لا . قال : فإنها تقول :

أيها الركب المخبّو ... ن على الأرض المجدّونا
كما أنتم كذا كنّا ... وكما نحن تكونونا

فقال النعمان : قد علمت أنّ الشجرة والمقبرة لا تتكلّمان . وقد علمت أنك إنما أردت عظتي فجزاك الله عنّي خيرًا فما السبيل الذي تدرك به النجاة . قال : تدع عبادة الأوثان وتعبد الله وحده قال : وفي هذا النجاة . قال : نعم . قال فترك عبادة الأوثان وتنصّر حينئذٍ وأخذ في العبادة والاجتهاد (للطرطوشي)

ذلّة الدنيا وزوالها

١٩ (من المنهج) أمّا بعد فإنّ الدنيا قد أدبرت وآذنت بوداع . وإنّ

ٱلْآخِرَةَ قَدْ أَقْبَلَتْ وَأَشْرَفَتْ بِاطِّلَاعٍ • أَلَا وَإِنَّ ٱلْيَوْمَ ٱلْمِضْمَارُ • وَغَدًا ٱلسِّبَاقَ وَٱلسُّبْقَةُ ٱلْجَنَّةُ وَٱلْغَايَةُ ٱلنَّارُ • أَفَلَا تَائِبٌ مِنْ خَطِيئَتِهِ • قَبْلَ مَنِيَّتِهِ • أَلَا عَامِلٌ لِنَفْسِهِ • قَبْلَ يَوْمِ بُؤْسِهِ • أَلَا وَإِنَّكُمْ فِي أَيَّامِ أَمَلٍ مِنْ وَرَائِهِ أَجَلٌ • فَمَنْ عَمِلَ فِي أَيَّامِ أَمَلِهِ • قَبْلَ حُضُورِ أَجَلِهِ • نَفَعَهُ عَمَلُهُ • وَلَمْ يَضُرَّهُ أَجَلُهُ • وَمَنْ قَصَّرَ فِي أَيَّامِ عَمَلِهِ قَبْلَ حُضُورِ أَجَلِهِ • فَقَدْ خَسِرَ عَمَلَهُ • وَضَرَّ أَجَلُهُ • أَلَا فَاعْمَلُوا فِي ٱلرَّغْبَةِ • كَمَا تَعْمَلُونَ فِي ٱلرَّهْبَةِ • أَلَا وَإِنِّي لَمْ أَرَ كَالْجَنَّةِ نَامَ طَالِبُهَا • وَلَا كَالنَّارِ نَامَ هَارِبُهَا • أَلَا وَإِنَّهُ مَنْ لَا يَنْفَعُهُ ٱلْحَقُّ يَضُرُّهُ ٱلْبَاطِلُ • وَمَنْ لَا يَسْتَقِيمُ بِهِ ٱلْهُدَى • يَجُرُّ بِهِ ٱلضَّلَالُ إِلَى ٱلرَّدَى • أَلَا وَإِنَّكُمْ قَدْ أُمِرْتُمْ بِالظَّعْنِ وَدُلِلْتُمْ عَلَى ٱلزَّادِ • وَإِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ ٱتِّبَاعُ ٱلْهَوَى وَطُولُ ٱلْأَمَلِ • تَزَوَّدُوا فِي ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلدُّنْيَا مَا تَحْرُزُونَ بِهِ أَنْفُسَكُمْ غَدًا

٢٠ (عَنْ نَوْفٍ ٱلْبِكَالِيِّ) قَالَ: رَأَيْتُ أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلِيًّا كَرَّمَ ٱللهُ وَجْهَهُ ذَاتَ لَيْلَةٍ وَقَدْ خَرَجَ مِنْ فِرَاشِهِ فَنَظَرَ إِلَى ٱلنُّجُومِ فَقَالَ: يَا نَوْفُ أَرَاقِدٌ أَنْتَ أَمْ رَامِقٌ • قُلْتُ: بَلْ رَامِقٌ يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ • قَالَ: يَا نَوْفُ طُوبَى لِلزَّاهِدِينَ فِي ٱلدُّنْيَا ٱلرَّاغِبِينَ فِي ٱلْآخِرَةِ أُولٰئِكَ قَوْمٌ ٱتَّخَذُوا ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا وَتُرَابَهَا فِرَاشًا وَمَاءَهَا طِيبًا وَٱلدِّينَ شِعَارًا وَٱلدُّعَاءَ دِثَارًا • ثُمَّ قَرَضُوا ٱلدُّنْيَا قَرْضًا عَلَى مِنْهَاجِ ٱلْمَسِيحِ (لبهاء الدين)

الراهب الجرجاني مع الشيخ عمر الصيني

٢١ قَالَ ٱلشَّيْخُ عُمَرُ: مَرَرْتُ بِرَاهِبٍ وَهُوَ فِي صَوْمَعَتِهِ فَجَرَى بَيْنِي

وبينه مؤانسة . فقلت له : يا راهب لمن تعبد . فقال : أعبد الله الذي خلق العالم بقدرته . وألف نظامه بحكمته . وقد حوت عظمته كل شيء . لا تبلغ الألسن وصف قدرته . ولا العقول لج رحمته . له الشكر على ما نتقلب فيه من نعمته التي صحت بها الأبصار . ووعت بها الأسماع . ونطقت بها الألسن . وسكنت بها العروق وامتزجت بها الطبائع . فقلت : يا راهب ما أفضل الحكمة . فقال : خوف الله . فقلت : وما أكمل العقل . قال : معرفة الإنسان بقدرته . قلت : ما يعين على التخلص من الدنيا . قال : أن تجعل بقيـة يومك انقضاء أملك . فقلت : وما حملك على أن عقلت على نفسك في هذه الصومعـة . فقال : لأحبس هذا السبع عن الناس (وأومأ بيده إلى لسانه) . قلت : من أين تعيش . قال : من تدبير اللطيف الخبير الذي خلق الرحى وهو يأتيها بالطحين . قلت : لم لا تنزل إلينا وتخالطنا . فقال : لأن الأشياء الموبقة بأسرها بينكم والسلامـة من ذلك إنما تكون في الوحدة . قلت : وكيف صبرت على الوحدة . فقال : لو ذقت حلاوة الوحدة لاستوحشت إليها من نفسك . قلت : كيف لبست السواد . فقال : لأن الدنيا دار مأتم وأهلها في حداد . وإذا حزنت لبست السواد . فقلت : كيف تذكر الموت . فقال : ما أطرف طرفة عين إلا ظننت أني مت . قلت : ما لنا نحن نكره الموت . فقال : لأنكم عمرتم دنياكم وأخربتم آخرتكم . فأنتم تكرهون النقلة من العمران

إلى الخراب . قلت : يا راهب عظني . فقال : أبلغ العظات النظر إلى محلة الأموات . وفي تغيير الساعات والآجلات . وإن شيعت جنازة فكن كأنك المحمول مثل ذلك . ولا تنس من لا ينساك . وأحسن سريرتك . يحسن الله علانيتك . واعلم أن من خاف الله أخاف منه كل شيء . ومن لم يخف الله خاف من كل شيء . واطلب العلم لتعمل به ولا تطلبه للتباهي أو تماري به السفهاء . وإياك والأهواء فإنها موبقة . والهرب الهرب من الجهل . والهرب الهرب ممن يمدح الحسنات فيتجنبها ويذم السيئات فيرتكبها . ولا تشرب المسكر فإن عاجلته غرامة . وعاقبته ندامة . ولا تجالس من يشغلك بالكلام ويزين لك الخطأ ويوقعك في هذه الغموم . ويتبرأ منك وينقلب عليك . ولا تتشبه في طعامك وشرابك ولباسك بالعظماء ولا في مشيك بالجبابرة . وكن ممن يرجى خيره . ولا تكن ممن يخاف شره . واعلم أن من أحبه الله ابتلاه . ومن صبر رضي الله عنه . وإذا اعتللت فأكثر من ذكر الله وحمده وشكره . وإياك والنميمة فإنها تزرع في القلوب الضغائن وتفرق بين المحبين . وانظر ما استحسنته من غيرك فامتثله لنفسك . وما أنكرته من غيرك فتجنبه . وارض للناس ما ترضاه لنفسك . فإنه كمال الوصال والصلاح في الدين والدنيا . وقال : إني أستودعك الله وأقرأ عليك السلام . ثم إنه نهض إلى صلاته فسمعته يقول : إلهنا تقدس اسمك يأتي ملكوتك . تكون

مَشِيئَتُكَ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ عَلَى الأَرْضِ. أُرْزُقْنَا الكَفَافَ يَوْمًا بِيَوْمٍ. اغْفِرْ لَنَا خَطَايَانَا وَآثَامَنَا. وَلَا تُدْخِلْنَا فِي التَّجَارِبِ وَخَلِّصْنَا مِنْ إِبْلِيسَ لِنُسَبِّحَكَ وَنُقَدِّسَكَ وَنُمَجِّدَكَ إِلَى دَهْرِ الدَّاهِرِينَ. ثُمَّ جَعَلَ يَقُولُ أَيْضًا: أَللَّهُمَّ إِنَّ رَحْمَتَكَ كَعَظَمَتِكَ. أَللَّهُمَّ إِنَّ نِعْمَتَكَ أَعْظَمُ مِنْ رَجَائِنَا. فَصُنْعُكَ أَفْضَلُ مِنْ آمَالِنَا. أَللَّهُمَّ اجْعَلْنَا شَاكِرِينَ لِنَعْمَائِكَ حَتَّى تَشْتَغِلَ بِذِكْرِكَ جَوَارِحُنَا. وَتَمْتَلِئَ قُلُوبُنَا. أَللَّهُمَّ أَعِنَّا عَلَى أَنْ نَحْذَرَ مِنْ سُخْطِكَ وَنَبْتَغِيَ طَاعَتَكَ وَرِضَاكَ. أَللَّهُمَّ وَفِّقْنَا لِلْعَمَلِ بِمَا نَفُوزُ بِهِ مِنْ مَلَكُوتِكَ. مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ يَنْبَغِي لَكَ العِزُّ وَالسُّلْطَانُ وَالقُدْرَةُ. قَالَ الشَّيْخُ: فَاسْتَحْسَنْتُ ذَلِكَ مِنْهُ. وَسَأَلْتُهُ أَنْ يَدْعُوَ لَنَا وَانْصَرَفْتُ وَأَنَا مُتَعَجِّبٌ مِنْ حُسْنِ مَقَالِهِ

٢٢ قَالَ قُثَمُ الزَّاهِدُ: رَأَيْتُ رَاهِبًا عَلَى بَابِ بَيْتِ المَقْدِسِ. فَقُلْتُ لَهُ: أَوْصِنِي فَقَالَ: كُنْ كَرَجُلٍ احْتَوَشَتْهُ السِّبَاعُ فَهُوَ خَائِفٌ مَذْعُورٌ يَخَافُ أَنْ يَسْهُوَ فَتَفْتَرِسَهُ أَوْ يَلْهُوَ فَتَنْهَشَهُ. فَلَيْلُهُ لَيْلُ مَخَافَةٍ إِذَا أَمِنَ فِيهِ المُغْتَرُّونَ. وَنَهَارُهُ نَهَارُ حُزْنٍ إِذَا فَرِحَ فِيهِ البَطَّالُونَ. ثُمَّ إِنَّهُ وَلَّى وَتَرَكَنِي فَقُلْتُ: زِدْنِي. فَقَالَ: إِنَّ الظَّمْآنَ يَقْنَعُ بِيَسِيرِ المَاءِ

٢٣ إِنَّ الحَاسَّةَ الجَلِيدِيَّةَ إِذَا كَانَتْ مُؤَوَّفَةً بِرَمَدٍ وَنَحْوِهِ فَهِيَ مَحْرُومَةٌ مِنَ الأَشِعَّةِ الفَائِضَةِ مِنَ الشَّمْسِ. كَذَلِكَ البَصِيرَةُ إِذَا كَانَتْ مُؤَوَّفَةً بِالهَوَى وَاتِّبَاعِ الشَّهَوَاتِ وَالاخْتِلَاطِ بِأَبْنَاءِ الدُّنْيَا فَهِيَ مَحْرُومَةٌ مِنْ إِدْرَاكِ الأَنْوَارِ القُدْسِيَّةِ مَحْجُوبَةٌ عَنْ ذَوْقِ اللَّذَّاتِ الإِنْسِيَّةِ. وَلِلَّهِ دَرُّ مَنْ قَالَ:

ذَا مُرْتَفِعٌ ذَا مُنْتَصِبٌ ذَا مُنْخَفِضٌ ذَا مُنْجَزِمُ
لَا يَفْتَكِرُونَ لِمَا وُجِدُوا لَا يَعْتَبِرُونَ لِمَا عُدِمُوا
أَهْوَاءَ نُفُوسِهِمِ عَبَدُوا وَالنَّفْسُ لِعَابِدِهَا صَنَمُ

(لبهاء الدين)

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ الْحِمْيَرِيُّ :

عَجِبْتُ لِمُبْتَاعِ الضَّلَالَةِ بِالْهُدَى وَلَلْمُشْتَرِي دُنْيَاهُ بِالدِّينِ أَعْجَبُ
وَأَعْجَبُ مِنْ هَذَيْنِ مَنْ بَاعَ دِينَهُ بِدُنْيَا سِوَاهُ فَهْوَ مِنْ ذَيْنِ أَخْيَبُ

٢٤ قَالَ الْحَسَنُ ابْنَ آدَمَ : أَنْتَ أَسِيرُ الدُّنْيَا رَضِيتَ مِنْ لَذَّاتِهَا بِمَا يَنْقَضِي . وَمِنْ نَعِيمِهَا بِمَا يَمْضِي . وَمِنْ مُلْكِهَا بِمَا يَنْفَدُ . تَجْمَعُ لِنَفْسِكَ الْأَوْزَارَ وَلِأَهْلِكَ الْأَمْوَالَ . فَإِذَا مُتَّ حَمَلْتَ أَوْزَارَكَ إِلَى قَبْرِكَ وَتَرَكْتَ أَمْوَالَكَ لِأَهْلِكَ . أَخَذَهُ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ فَقَالَ :

أَبْقَيْتَ مَا لَكَ مِيرَاثًا لِوَارِثِهِ يَا لَيْتَ شِعْرِي مَا أَبْقَى لَكَ الْمَالُ
أَلْقَوْمُ بَعْدَكَ فِي حَالٍ تَسُرُّهُمُ فَكَيْفَ بَعْدَهُمُ دَارَتْ بِكَ الْحَالُ
مَلُّوا الْبُكَاءَ فَمَا يَبْكِيكَ مِنْ أَحَدٍ وَاسْتَحْكَمَ الْقِيلُ فِي الْمِيرَاثِ وَالْقَالُ

قَالَ ابْنُ عَبْدِ رَبِّهِ :

أَلَا إِنَّمَا الدُّنْيَا غَضَارَةُ أَيْكَةٍ إِذَا اخْضَرَّ مِنْهَا جَانِبٌ جَفَّ جَانِبُ
هِيَ الدَّارُ مَا الْآمَالُ إِلَّا فَجَائِعٌ عَلَيْهَا وَلَا اللَّذَّاتُ إِلَّا مَصَائِبُ
فَكَمْ سَخُنَتْ بِالْأَمْسِ عَيْنًا قَرِيرَةً وَقَرَّتْ عُيُونًا دَمْعُهَا الْآنَ سَاكِبُ
فَلَا تَكْتَحِلْ عَيْنَاكَ فِيهَا بِعَبْرَةٍ عَلَى ذَاهِبٍ مِنْهَا فَإِنَّكَ ذَاهِبُ

وَقَالَ ابْنُ عِمْرَانَ :

أُفٍّ لِدُنْيَا قَدْ شُغِفْنَا بِهَا جَهْلًا وَعَقْلًا لِلْهَوَى مُتَّبِعْ
فَتَّانَةٌ تَخْدَعُ طُلَّابَهَا فَلَا تَكُنْ مِمَّنْ بِهَا يَنْخَدِعْ
أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ إِذَا حَصَلَتْ أَوْ كَوَمِيضِ الْبَرْقِ مَهْمَا لَمَعْ

٢٥ (مِنْ خُطْبَةٍ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ) أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنْتُمْ خَلَفُ مَاضِينَ وَبَقِيَّةُ الْمُتَقَدِّمِينَ . كَانُوا أَكْثَرَ مِنْكُمْ بَسْطَةً وَأَعْظَمَ سَطْوَةً . أُزْعِجُوا عَنْهَا أَسْكَنَ مَا كَانُوا إِلَيْهَا فَغَدَرَتْ بِهِمْ أَوْثَقَ مَا كَانُوا بِهَا . فَلَمْ تُغْنِ عَنْهُمْ قُوَّةُ عَشِيرَةٍ وَلَا قُبِلَ مِنْهُمْ بَذْلُ فِدْيَةٍ . فَارْحَلُوا نُفُوسَكُمْ بِزَادٍ مُبَلِّغٍ قَبْلَ أَنْ تُؤْخَذُوا عَلَى فَجْأَةٍ . فَقَدْ غَفَلْتُمْ عَنِ الْاسْتِعْدَادِ وَجَفَّ الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ . فَحَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا . وَمَهِّدُوا لَهَا قَبْلَ أَنْ تُعَذَّبُوا . وَتَزَوَّدُوا لِلرَّحِيلِ قَبْلَ أَنْ تُزْعَجُوا . فَإِنَّمَا هُوَ مَوْقِفُ عَدْلٍ . وَقَضَاءُ حَقٍّ . وَلَقَدْ أَبْلَغَ فِي الْإِعْذَارِ . مَنْ تَقَدَّمَ فِي الْإِنْذَارِ

٢٦ (وَمِنْ كَلَامِهِ) أَلدُّنْيَا دَارُ بَلَاءٍ . وَمَنْزِلُ قُلْعَةٍ وَعَنَاءٍ . قَدْ نَزَعَتْ مِنْهَا نُفُوسُ السُّعَدَاءِ . وَانْتُزِعَتْ بِالْكُرْهِ مِنْ أَيْدِي الْأَشْقِيَاءِ . فَأَسْعَدُ النَّاسِ فِيهَا أَرْغَبُهُمْ عَنْهَا . وَأَشْقَاهُمْ بِهَا أَرْغَبُهُمْ فِيهَا هِيَ الْغَاشَّةُ لِمَنِ انْتَصَحَهَا وَالْمُغْوِيَةُ لِمَنْ أَطَاعَهَا . وَالْهَالِكُ مَنْ هَوَى فِيهَا . طُوبَى لِعَبْدٍ اتَّقَى فِيهَا رَبَّهُ وَنَصَحَ نَفْسَهُ وَقَدَّمَ تَوْبَتَهُ وَأَخَّرَ شَهْوَتَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْفِظَهُ الدُّنْيَا إِلَى الْآخِرَةِ . فَيُصْبِحَ فِي دِمَنٍ غَبْرَاءَ . مُدْلَهِمَّةٍ ظَلْمَاءَ . لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَزِيدَ فِي حَسَنَةٍ . وَلَا أَنْ يَنْقُصَ مِنْ سَيِّئَةٍ . ثُمَّ يُنْشَرُ فَيُحْشَرُ إِمَّا إِلَى

جنَّةٍ يدومُ نعيمُها أو نارٍ لا ينفدُ عذابُها

٢٧ مِن كلامِ بعضِ ٱلبُلَغاء: ٱلدُّنيا إنْ أقبلتْ بلتْ. وإنْ أدبرتْ برتْ. أو أطنبتْ نبتْ. أو أركبتْ كبتْ. أو أبهجتْ هجتْ. أو أسعفتْ عفتْ. أو أينعتْ نعتْ. أو أكرمتْ رمتْ. أو عاونتْ ونتْ. أو ماجنتْ جنتْ. أو سامحتْ محتْ. أو صالحتْ لحتْ. أو وصلتْ صلتْ. أو بالغتْ لغتْ. أو وفرتْ فرتْ. أو زوَّجتْ وجتْ. أو نوَّهتْ وهتْ. أو ولهتْ لهتْ. أو بسطتْ سطتْ (لبهاء الدين)

قال عليُّ بنُ أبي طالبٍ:

ذهبَ ٱلذين عليهمِ وجدي وبقيتُ بعدَ فراقِهم وحدي
من كانَ بينَكَ في ٱلترابِ وبينَهُ شبرانِ فهوَ بغايةِ ٱلبُعدِ
لو بُعثِرتْ للخلقِ أطباقُ ٱلثرى لم يُعرفِ ٱلمولى من ٱلعبدِ
مَن كانَ لا يطأُ ٱلترابَ برجلهِ يطأُ ٱلترابَ بناعمِ ٱلخدِّ

٢٨ وقد رُوي أنَّ عليًّا كتبَ إلى معاويةَ هذهِ ٱلأبياتَ:

أما وٱللهِ إنَّ ٱلظلمَ شؤمٌ ولا زالَ ٱلمسيءُ هوَ ٱلظلومُ
إلى ٱلديَّانِ يومَ ٱلدينِ نمضي وعندَ ٱللهِ تجتمعُ ٱلخصومُ
ستعلمُ في ٱلحسابِ إذا ٱلتقينا غدًا عندَ ٱلمليكِ منِ ٱلظلومُ
ستنقطعُ ٱللذاذةُ عن أناسٍ منَ ٱلدنيا وتنقطعُ ٱلهمومُ
لأمرٍ ما تصرَّفتِ ٱلليالي لأمرٍ ما تحرَّكتِ ٱلنجومُ
سلِ ٱلأيامَ عن أممٍ تقضَّتْ ستخبرُكَ ٱلمعالمُ وٱلرسومُ

تَرُومُ ٱلْخُلْدَ فِي دَارِ ٱلْمَنَايَا   فَكَمْ قَدْ رَامَ مِثْلَكَ مَا تَرُومُ
تَنَامُ وَلَمْ تَنَمْ عَنْكَ ٱلْمَنَايَا   تَنَبَّهْ لِلْمَنِيَّةِ يَا نَؤُومُ
لَهَوْتَ عَنِ ٱلْفَنَاءِ وَأَنْتَ تَفْنَى   فَمَا شَيْءٌ مِنَ ٱلدُّنْيَا يَدُومُ

قَالَ بَعْضُهُمْ:

عَجِبْتُ لِمَنْ جَدَّ فِي شَأْنِهِ   لِحَرِّ ٱلرَّجَاءِ وَنَارِ ٱلْأَمَلْ
يُؤَمِّلُ مَا لَمْ يُقَدَّرْ لَهُ   وَيَضْحَكُ مِنْهُ دُنُوُّ ٱلْأَجَلْ
يَقُولُ سَأَفْعَلُ هٰذَا غَدًا   وَدُونَ غَدٍ لِلْمَنَايَا عَمَلْ

قَالَ آخَرُ:

عَجِبْتُ لِمَفْتُونٍ يُخَلِّفُ بَعْدَهُ   لِوَارِثِهِ مَا كَانَ يَجْمَعُ مِنْ كَسْبِ
حَوَوْا مَالَهُ ثُمَّ ٱسْتَهَلُّوا لِقَبْرِهِ   بِبَادِي بُكَاءٍ تَحْتَهُ ضَحِكُ ٱلْقَلْبِ

قَالَ غَيْرُهُ:

وَٱللّٰهِ لَوْ كَانَتِ ٱلدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا   تَبْقَى عَلَيْنَا وَيَأْتِي رِزْقُهَا رَغَدَا
مَا كَانَ مِنْ حَقِّ حُرٍّ أَنْ يَذِلَّ لَهَا   فَكَيْفَ وَهْيَ مَتَاعٌ يَضْمَحِلُّ غَدَا

قَالَ آخَرُ:

إِنَّمَا هٰذِهِ ٱلْحَيَاةُ مَتَاعٌ   فَٱلْجَهُولُ ٱلْجَهُولُ مَنْ يَصْطَفِيهَا
مَا مَضَى فَاتَ وَٱلْمُؤَمَّلُ غَيْبٌ   وَلَكَ ٱلسَّاعَةُ ٱلَّتِي أَنْتَ فِيهَا

٢٩ أَوْرَدَ ٱبْنُ خِلِّكَانَ لِلْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ ٱلْخَازِنِ:

عَنَتِ ٱلدُّنْيَا لِطَالِبِهَا   وَٱسْتَرَاحَ ٱلزَّاهِدُ ٱلْفَطِنُ
كُلُّ مَلْكٍ نَالَ زُخْرُفَهَا   حَسْبُهُ مِمَّا حَوَى كَفَنُ

يَقْتَنِي مالًا وَيَتْرُكُهُ فِي كِلَا ٱلْحَالَيْنِ مُفْتَتَنُ
أَمَلِي كَوْنِي عَلَى ثِقَةٍ مِنْ لِقَاءِ ٱللهِ مُرْتَهَنُ
أَكْرَهُ ٱلدُّنْيَا وَكَيْفَ بِهَا وَٱلَّذِي تَحْوِي بِهِ وَسَنُ
لَمْ تَدُمْ قَبْلِي عَلَى أَحَدٍ فَلِمَاذَا ٱلْهَمُّ وَٱلْحَزَنُ

وَأَنْشَدَ عَدِيُّ بْنُ زَيْدٍ:

أَيْنَ كِسْرَى كِسْرَى ٱلْمُلُوكِ أَنُوشِرْ وَانُ أَمْ أَيْنَ قَبْلَهُ سَابُورُ
وَبَنُو ٱلْأَصْفَرِ ٱلْكِرَامُ مُلُوكُ ٱلـ رُّومِ لَمْ يَبْقَ مِنْهُمُ مَذْكُورُ
وَأَخُو ٱلْحِضْنِ إِذْ بَنَاهُ وَإِذْ دِجْـ لَةُ تُجْبَى إِلَيْـهِ وَٱلْخَابُورُ
شَادَهُ مَرْمَرًا وَجَلَّلَهُ كِلْـ سًا فَلِلطَّيْرِ فِي ذُرَاهُ وُكُورُ
لَمْ يَهَبْهُ رَيْبُ ٱلْمَنُونِ فَبَادَ ٱلْـ مُلْكُ عَنْهُ فَبَابُهُ مَهْجُورُ

قَالَ غَيْرُهُ:

تَأَمَّلْ فِي ٱلْوُجُودِ بِعَيْنِ فِكْرٍ تَرَى ٱلدُّنْيَا ٱلدَّنِيَّةَ كَالْخَيَالِ
وَمَنْ فِيهَا جَمِيعًا سَوْفَ يَفْنَى وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذِي ٱلْجَلَالِ

قَالَ آخَرُ:

دُنْيَاكَ شَيْئَانِ فَانْظُرْ مَا ذَلِكَ ٱلشَّيْئَانِ
مَا فَاتَ مِنْهَا فَحُلْمٌ وَمَا بَقِي فَأَمَانِي

٣٠ إِسْتَنْشَدَ ٱلْمُتَوَكِّلُ أَبَا ٱلْحَسَنِ عَلِيَّ بْنَ مُحَمَّدٍ. فَقَالَ: إِنِّي لَقَلِيلُ ٱلرِّوَايَةِ فِي ٱلشِّعْرِ. فَقَالَ: لَا بُدَّ. فَأَنْشَدَهُ:

بَاتُوا عَلَى قُلَلِ ٱلْأَجْبَالِ تَحْرُسُهُمْ غُلْبُ ٱلرِّجَالِ فَلَمْ تَنْفَعْهُمُ ٱلْقُلَلُ

وَٱسْتُنْزِلُوا بَعْدَ عِزٍّ عَنْ مَعَاقِلِهِمْ ... وَأُودِعُوا حُفَرًا يَا بِئْسَ مَا نَزَلُوا
نَادَاهُمُ صَارِخٌ مِنْ بَعْدِ مَا دُفِنُوا ... أَيْنَ ٱلْأَسِرَّةُ وَٱلتِّيجَانُ وَٱلْحُلَلُ
أَيْنَ ٱلْوُجُوهُ ٱلَّتِي كَانَتْ مُنَعَّمَةً ... مِنْ دُونِهَا تُضْرَبُ ٱلْأَسْتَارُ وَٱلْكِلَلُ
فَأَفْصَحَ ٱلْقَبْرُ عَنْهُمْ حِينَ سَاءَلَهُمْ ... تِلْكَ ٱلْوُجُوهُ عَلَيْهَا ٱلدُّودُ يَقْتَتِلُ
قَدْ طَالَمَا أَكَلُوا دَهْرًا وَمَا شَرِبُوا ... فَأَصْبَحُوا بَعْدَ طُولِ ٱلْأَكْلِ قَدْ أُكِلُوا
وَطَالَمَا كَثَّرُوا ٱلْأَمْوَالَ وَٱدَّخَرُوا ... فَخَلَّفُوهَا عَلَى ٱلْأَعْدَاءِ وَٱرْتَحَلُوا
وَطَالَمَا شَيَّدُوا دُورًا لِتُحْصِنَهُمْ ... فَفَارَقُوا ٱلدُّورَ وَٱلْأَهْلِينَ وَٱنْتَقَلُوا
أَضْحَتْ مَسَاكِنُهُمْ وَحْشًا مُعَطَّلَةً ... وَسَاكِنُوهَا إِلَى ٱلْأَجْدَاثِ قَدْ رَحَلُوا
سَلِ ٱلْخَلِيفَةَ إِذْ وَافَتْ مَنِيَّتُهُ ... أَيْنَ ٱلْجُنُودُ وَأَيْنَ ٱلْخَيْلُ وَٱلْخَوَلُ
أَيْنَ ٱلْكُنُوزُ ٱلَّتِي كَانَتْ مَفَاتِحُهَا ... تَنُوءُ بِٱلْعُصْبَةِ ٱلْمُقْوِينَ لَوْ حَمَلُوا
أَيْنَ ٱلْعَبِيدُ ٱلْأُلَى أَرْصَدْتَهُمْ عُدَدًا ... أَيْنَ ٱلْحَدِيدُ وَأَيْنَ ٱلْبِيضُ وَٱلْأَسَلُ
أَيْنَ ٱلْفَوَارِسُ وَٱلْغِلْمَانُ مَا صَنَعُوا ... أَيْنَ ٱلصَّوَارِمُ وَٱلْخَطِّيَّةُ ٱلذُّبُلُ
أَيْنَ ٱلْكُفَاةُ أَلَمْ يَكْفُوا خَلِيفَتَهُمْ ... لَمَّا رَأَوْهُ صَرِيعًا وَهْوَ يَبْتَهِلُ
أَيْنَ ٱلْكُمَاةُ أَمَا حَامُوا أَمَا غَضِبُوا ... أَيْنَ ٱلْحُمَاةُ ٱلَّتِي يُحْمَى بِهَا ٱلدُّوَلُ
أَيْنَ ٱلرُّمَاةُ أَلَمْ تُمْنَعْ بِأَسْهُمِهِمْ ... لَمَّا أَتَتْكَ سِهَامُ ٱلْمَوْتِ تَنْتَصِلُ
هَيْهَاتَ مَا مَنَعُوا ضَيْمًا وَلَا دَفَعُوا ... عَنْكَ ٱلْمَنِيَّةَ إِذْ وَافَى بِهَا ٱلْأَجَلُ
وَلَا ٱلرُّشَى دَفَعَتْهَا صَاحِ وْ بَذَلُوا ... وَلَا ٱلرُّقَى نَفَعَتْ شَيْئًا وَلَا ٱلْحِيَلُ
مَا سَاعَدُوكَ وَلَا وَاسَاكَ أَقْرَبُهُمْ ... بَلْ أَسْلَمُوكَ لَهَا يَا بِئْسَ مَا فَعَلُوا
مَا بَالُ قَبْرِكَ لَا يَمْشِي بِهِ أَحَدٌ ... وَلَا يَطُورُ بِهِ مِنْ بَيْنِهِمْ رَجُلُ

مَا بَالُ قَصْرِكَ وَحشاً لاَ أَنِيسَ بِهِ يَغْشَاكَ مِن كَنَفَيهِ ٱلرَّوْعُ وَٱلْوَهَلُ
مَا بَالُ ذِكْرِكَ مَنسِيّاً وَمُطَّرَحاً وَكُلُّهُمْ بِٱقتِسَامِ ٱلْمَالِ قَدْ شُغِلُوا
لاَ تُنْكِرَنَّ فَمَا دَامَتْ عَلَى مَلِكٍ وَلاَ أَنَاخَ عَلَيْهِ ٱلْمَوْتُ وَٱلْوَجَلُ
وَكَيفَ يَرْجُو دَوَامَ ٱلْعَيشِ مُتَّصِلاً وَرُوحُهُ بِحِبَالِ ٱلْمَوْتِ مُتَّصِلُ
وَجِسْمُهُ لِبُنَيَّاتِ ٱلرَّدَى غَرَضٌ وَمُلْكُهُ زَائِلٌ عَنْهُ وَمُنْتَقِلُ

(وتُروى هذه القصيدة في ديوان عليّ بن ابي طالب)

حفظ الحواس

٣١ قَالَ ٱلْمُعَلَّى ٱلصُّوفِيُّ: شَكَوْتُ إِلَى بَعْضِ ٱلزُّهَّادِ فَسَاداً أَجِدُهُ فِي قَلْبِي. فَقَالَ: هَلْ نَظَرْتَ إِلَى شَيْءٍ فَتَاقَتْ إِلَيْهِ نَفْسُكَ. قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: ٱحْفَظْ عَيْنَيْكَ فَإِنَّكَ إِنْ أَطْلَقْتَهُمَا أَوْقَعَتَاكَ فِي مَكْرُوهٍ. وَإِنْ مَلَكْتَهُمَا مَلَكْتَ سَائِرَ جَوَارِحِكَ. (قَالَ) مُسْلِمٌ ٱلْخَوَّاصُ لِمُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ ٱلصُّوفِيِّ: أَوْصِنِي. فَقَالَ: أُوصِيكَ بِتَقْوَى ٱللهِ فِي أَمْرِكَ كُلِّهِ. وَإِيثَارِ مَا يَجِبُ عَلَى مَحَبَّتِكَ. وَإِيَّاكَ وَٱلنَّظَرَ إِلَى كُلِّ مَا دَعَاكَ إِلَيْهِ طَرْفُكَ وَشَوَّقَكَ إِلَيْهِ قَلْبُكَ. فَإِنَّهُمَا إِنْ مَلَكَاكَ لَمْ تَمْلِكْ شَيْئاً مِنْ جَوَارِحِكَ حَتَّى تَبْلُغَ بِهِمَا مَا يُطَالِبَانِكَ بِهِ. وَإِنْ مَلَكْتَهُمَا كُنْتَ ٱلدَّاعِيَ لَهُمَا إِلَى مَا أَرَدْتَ. فَلَمْ يَعْصِيَا لَكَ أَمْراً وَلاَ يَرُدَّا لَكَ قَوْلاً. (قَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ): إِنَّ ٱللهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ ٱلْقَلْبَ أَمِيرَ ٱلْجَسَدِ وَمَلِكَ ٱلْأَعْضَاءِ. فَجَمِيعُ ٱلْجَوَارِحِ تَنْقَادُ لَهُ وَكُلُّ ٱلْحَوَاسِّ تُطِيعُهُ وَهُوَ مُدَبِّرُهَا وَمُصَرِّفُهَا وَقَائِدُهَا وَسَائِقُهَا وَبِإِرَادَتِهِ تَنْبَعِثُ وَفِي طَاعَتِهِ تَتَقَلَّبُ. وَوَزِيرُهُ ٱلْعَقْلُ. وَعَاضِدُهُ

الفهمُ . ورائدهُ العينانِ . وطليعتهُ الأذنانِ . وهما في النقلِ سواءٌ لا يكتمانهِ أمرًا ولا يطويانِ دونهُ سرًّا (يريد العين والأذن)

الدهر وحوادثهُ

٣٢ لقي رجلٌ حكيمًا فقال : كيف ترى الدهرَ قال يُخلِقُ الأبدانَ ويُجدِّدُ الآمالَ ويُقرِّبُ المنيَّةَ . ويُباعدُ الأمنيَّةَ قال : فما حالُ أهلهِ . قال : من ظفرَ منهم تعِبَ . ومن فاتهُ نصِبَ . قال : فما يُغني عنهُ . قال : قطعُ الرجاءِ منهُ . قال : فأيُّ الأصحابِ أبرُّ وأوفى . قال : العملُ الصالحُ والتقوى . قال أيُّهم أضرُّ وأردى . قال : النفسُ والهوى . قال : فأينَ المخرجُ . قال : سلوكُ المنهجِ (زهر الآداب للقيرواني)

٣٣ قال بعض الحكماء : أفٍّ للدهرِ ما أكدرَ صافيَهُ وأخيبَ راجيَهُ . وأعدى أيامَهُ ولياليَهُ . وقيل : يسارُ الدهرِ في الأخذِ أسرعُ من يمينهِ في البذلِ . لا يُعطي بهذهِ إلّا ارتجعَ بتلكَ . وقال آخر : الدهرُ لا يؤمَنُ يومُهُ . ويُخافُ غدُهُ . يرضعُ ثديُهُ وتجرحُ يدُهُ . وقيل : الدهرُ يغرُّ ويمرُّ . ويسوءُ من حيثُ يسرُّ . وقال آخر الدهرُ لا تنتهي فيهِ المواهبُ . حتّى تتخلَّلها المصائبُ . ولا تصفو فيهِ المشاربُ . حتّى تكدّرها الشوائبُ . (وفي فصل لابن المعتز) : هذا زمانٌ متلوّنُ الأخلاقِ متداعي البنيانِ . موقظُ الشرِّ منيمُ الخيرِ . مطلقُ أعنّةِ الظلمِ . حابسُ روحِ العدلِ . قريبُ الأخذِ من الإعطاءِ والكآبةِ من البهجةِ والقطوبِ من البشرِ . مرُّ الثمرةِ بعيدُ المجتنى . قابضٌ على النفوسِ

بِكُرْبَتِهِ. مُنِيخٌ عَلَى الأَجْسَامِ بِوَحْشَتِهِ. لَا يَنْطِقُ إِلَّا بِالشَّكْوَى. وَلَا يَسْكُتُ إِلَّا عَلَى غُصَصٍ وَبَلْوَى. (وَمِثْلُهُ فَضْلُ لِلصَّاحِبِ): الزَّمَانُ حَدِيدُ الظُّفْرِ. لَئِيمُ الظَّفَرِ. حُلْوُ الْمَوْرِدِ مُرُّ الْمَصْدَرِ. أَثَرُهُ عِنْدَ الْمَرْءِ كَأَثَرِ السَّيْفِ فِي الضَّرِيبَةِ وَاللَّيْثِ فِي الْفَرِيسَةِ. (وَلِشَمْسِ الْمَعَالِي قَابُوسٍ): الدَّهْرُ شَرٌّ كُلُّهُ. مُفَصَّلُهُ وَمُجْمَلُهُ. إِنْ أَضْحَكَ سَاعَةً أَبْكَى سَنَةً. وَإِنْ أَتَى بِسَيِّئَةٍ جَعَلَهَا سُنَّةً. وَمَنْ أَرَادَ مِنْهُ غَيْرَ هَذَا سِيرَةً. أَرَادَ مِنَ الْأَعْمَى عَيْنًا بَصِيرَةً. وَمَنِ ابْتَغَى مِنْهُ الرِّعَايَةَ. ابْتَغَى مِنَ الْغُولِ الْهِدَايَةَ

(طرائف اللطائف للمقدسي)

قَالَ بَعْضُهُمْ:

يَا طَالَمَا طَالَ حِرْصُ النَّاسِ فِي حَذَرٍ عَلَى الْحَيَاةِ فَضَاعَ الْحِرْصُ وَالْحَذَرُ
قَدْ غَرَّهُمْ زُخْرُفُ الدُّنْيَا وَبَهْجَتُهَا نِعْمَ الْغُصُونُ وَلَكِنْ بِئْسَمَا الثَّمَرُ

قَالَ آخَرُ:

مَا أَنْتَ إِلَّا كَزَرْعٍ عِنْدَ خُضْرَتِهِ بِكُلِّ شَيْءٍ مِنَ الْآفَاتِ مَقْصُودُ
فَإِنْ سَلِمْتَ مِنَ الْآفَاتِ أَجْمَعِهَا فَأَنْتَ عِنْدَ كَمَالِ الْأَمْرِ مَحْصُودُ

قَالَ بَعْضُهُمْ يَذْكُرُ فَجَائِعَ الدَّهْرِ:

وَأَصْبَحْتُ كَالْبَازِي الْمُنَتَّفِ رِيشُهُ يَرَى حَسَرَاتٍ كُلَّمَا طَارَ طَائِرُ
يَرَى خَرِقَاتِ الْجَوِّ يَخْرُقْنَ فِي الْهَوَا فَيَذْكُرُ رِيشًا مِنْ جَنَاحَيْهِ وَافِرُ
وَقَدْ كَانَ دَهْرًا فِي الرِّيَاضِ مُنَعَّمًا عَلَى كُلِّ مَا يَهْوَى مِنَ الصَّيْدِ قَادِرُ
إِلَى أَنْ أَصَابَتْهُ مِنَ الدَّهْرِ نَكْبَةٌ فَأَصْبَحَ مَقْصُوصَ الْجَنَاحَيْنِ خَاسِرُ

قَالَ غَيْرُهُ :

فِي ٱلدَّهْرِ تَحَيَّرَتِ ٱلْأُمَمُ ... وَٱلْحَاصِلُ مِنْهُ لَهُمْ أَلَمْ
بِعَجَائِبِهِ وَمَصَائِبِهِ ... أَمْوَاجُ زَوَاخِرَ تَلْتَطِمُ
وَٱلْعُمْرُ يَسِيرُ مَسِيرَ ٱلشَّمْسِ ... فَلَيْسَ تَقِرُّ لَهُ قَدَمُ
قَدَمَانِ لَهُ يَسْعَى بِهِمَا ... فَضُحًى وَدُجًى ضَوْءٌ ظُلَمُ
وَٱلنَّاسُ بِحُلْمِ جَهَالَتِهِمْ ... فَإِذَا ذَهَبُوا ذَهَبَ ٱلْحُلُمُ
صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ بِهِمُ ... نَعَمٌ قُسِمَتْ لَهُمُ نِعَمُ
فِرَقُوا فِرَقًا فَرِقُوا فِرَقًا ... وَمَضَوْا طُرُقًا لَا تَلْتَئِمُ

قَالَ آخَرُ :

وَمَا ٱلدَّهْرُ إِلَّا سُلَّمٌ فَبِقَدْرِ مَا ... يَكُونُ صُعُودُ ٱلْمَرْءِ فِيهِ هُبُوطُهُ
وَهَيْهَاتَ مَا فِيهِ يَزُولُ وَإِنَّمَا ... شُرُوطُ ٱلَّذِي يَرْقَى إِلَيْهِ سُقُوطُهُ
فَمَنْ كَانَ أَعْلَى كَانَ أَوْفَى تَهَشُّمًا ... وَفَاءً بِمَا قَامَتْ عَلَيْهِ شُرُوطُهُ

ذكر الموت

٣٤ قَالَ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ :

نَسِيرُ إِلَى ٱلْآجَالِ فِي كُلِّ سَاعَةٍ ... وَأَيَّامُنَا تُطْوَى وَهُنَّ مَرَاحِلُ
وَلَمْ أَرَ مِثْلَ ٱلْمَوْتِ حَقًّا فَإِنَّهُ ... إِذَا مَا تَخَطَّتْهُ ٱلْأَمَانِيُّ بَاطِلُ
فَمَا أَقْبَحَ ٱلتَّفْرِيطَ فِي زَمَنِ ٱلصِّبَا ... فَكَيْفَ بِهِ وَٱلشَّيْبُ فِي ٱلرَّأْسِ شَاعِلُ
تَرَحَّلْ مِنَ ٱلدُّنْيَا بِزَادٍ مِنَ ٱلتُّقَى ... فَعُمْرُكَ أَيَّامٌ تُعَدُّ قَلَائِلُ

وَقَالَ أَبُو ٱلْعَتَاهِيَةِ فِي وَصْفِ ٱلْمَوْتِ :

كَأَنَّ الأَرْضَ قَدْ طُوِيَتْ عَلَيَّا وَقَدْ أُخْرِجْتُ مِمَّا فِي يَدَيَّا
كَأَنِّي صِرْتُ مُنْفَرِدًا وَحِيدًا وَمُرْتَهَنًا لَدَيْكَ بِمَا عَلَيَّا
كَأَنَّ الْبَاكِيَاتِ عَلَيَّ يَوْمًا وَلَا يُغْنِي الْبُكَاءُ عَلَيَّ شَيَّا
ذَكَرْنَ مَنِيَّتِي فَنَعَيْتُ نَفْسِي أَلَا أَسْعِدْ أُخَيَّكَ يَا أُخَيَّا

وَقَالَ ابْنُ عَبْدِ رَبِّهِ:

أَتَلْهُو بَيْنَ بَاطِيَةٍ وَزِيرٍ وَأَنْتَ مِنَ الْهَلَاكِ عَلَى شَفِيرِ
فَيَا مَنْ غَرَّهُ أَمَلٌ طَوِيلٌ يُؤَدِّيهِ إِلَى أَجَلٍ قَصِيرِ
أَتَفْرَحُ وَالْمَنِيَّةُ كُلَّ يَوْمٍ تُرِيكَ مَكَانَ قَبْرِكَ فِي الْقُبُورِ
هِيَ الدُّنْيَا فَإِنْ سَرَّتْكَ يَوْمًا فَإِنَّ الْحُزْنَ عَاقِبَةُ السُّرُورِ
سَتُسْلَبُ كُلَّ مَا جَمَّعْتَ مِنْهَا كَعَارِيَةٍ تُرَدُّ إِلَى الْمُعِيرِ

٣٥ وَقَالَ بَعْضُهُمْ عَنْ لِسَانِ مَيْتٍ:

ضَعُوا خَدِّي عَلَى لَحْدِي ضَعُوهُ وَمِنْ عَفَرِ التُّرَابِ فَوَسِّدُوهُ
وَشُقُّوا عَنْهُ أَكْفَانًا رِقَاقًا وَفِي الرَّمْسِ الْبَعِيدِ فَغَيِّبُوهُ
فَلَوْ أَبْصَرْتُمُوهُ إِذَا تَقَضَّتْ صَبِيحَةُ ثَالِثٍ أَنْكَرْتُمُوهُ
وَلَوْ سَالَتْ نَوَاظِرُ مُقْلَتَيْهِ عَلَى وَجَنَاتِهِ لَرَفَضْتُمُوهُ
وَقَدْ نَادَى الْبِلَى هٰذَا فُلَانٌ هَلُمُّوا فَانْظُرُوا هَلْ تَعْرِفُوهُ
خَلِيلُكُمُ وَجَارُكُمُ الْمُفَدَّى تَقَادَمَ عَهْدُهُ فَنَسِيتُمُوهُ

قَالَ بَعْضُهُمْ:

مَنْ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ الْمَوْتَ مُدْرِكُهُ وَالْقَبْرَ مَسْكَنُهُ وَالْبَعْثَ مُخْرِجُهُ

وَأَنَّهُ بَيْنَ جَنَّاتٍ سَتُبْهِجُهُ   يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَوْ نَارٍ سَتُنْضِجُهُ
فَكُلُّ شَيْءٍ سِوَى التَّقْوَى بِهِ سَمِجٌ   وَمَا أَقَامَ عَلَيْهِ مِنْهُ أَسْمَجُهُ
تَرَى الَّذِي اتَّخَذَ الدُّنْيَا لَهُ سَكَنًا   لَمْ يَدْرِ أَنَّ الْمَنَايَا سَوْفَ تُزْعِجُهُ

وَقَالَ آخَرُ مُتَشَوِّقًا إِلَى الْمَوْتِ:

جَزَى اللهُ عَنَّا الْمَوْتَ خَيْرًا فَإِنَّهُ   أَبَرُّ بِنَا مِنْ كُلِّ بَرٍّ وَأَرْأَفُ
يُعَجِّلُ تَخْلِيصَ النُّفُوسِ مِنَ الْأَذَى   وَيُدْنِي مِنَ الدَّارِ الَّتِي هِيَ أَشْرَفُ

وَقَالَ غَيْرُهُ:

مَنْ كَانَ يَرْجُو أَنْ يَعِيشَ فَإِنَّنِي   أَصْبَحْتُ أَرْجُو أَنْ أَمُوتَ فَأُعْتَقَا
فِي الْمَوْتِ أَلْفُ فَضِيلَةٍ لَوْ أَنَّهَا   عُرِفَتْ لَكَانَ سَبِيلُهُ أَنْ يُعْشَقَا

وَقَالَ بَعْضُهُمْ:

مَا لِي مَرَرْتُ عَلَى الْقُبُورِ مُسَلِّمًا   عَلَى الرَّمِيمِ فَلَمْ يَرُدَّ جَوَابِي
يَا صَاحِ مَا لَكَ لَا تُجِيبُ مُنَادِيًا   أَنَكِرْتَ بَعْدِي خُلَّةَ الْأَصْحَابِ
قَالَ الرَّمِيمُ وَكَيْفَ لِي بِجَوَابِكُمْ   وَأَنَا رَهِينُ جَنَادِلٍ وَتُرَابِ
أَكَلَ التُّرَابُ مَحَاسِنِي فَنَسِيتُكُمْ   وَحُجِبْتُ عَنْ أَهْلِي وَعَنْ أَحْبَابِي

٣٦ وَقَالَ آخَرُ:

إِسْتَعِدِّي يَا نَفْسُ لِلْمَوْتِ وَاسْعَيْ   لِنَجَاةٍ فَالْحَازِمُ الْمُسْتَعِدُّ
قَدْ تَبَيَّنْتِ أَنَّهُ لَيْسَ لِلْحَيِّ   خُلُودٌ وَمَا مِنَ الْمَوْتِ بُدُّ
إِنَّمَا أَنْتِ مُسْتَعِيرَةٌ مَا سَوْ   فَ تَرُدِّينَ وَالْعَوَارِي تُرَدُّ
أَنْتِ تَسْهِينَ وَالْحَوَادِثُ لَا تَسْهُو   وَتَلْهِينَ وَالْمَنَايَا تَجِدُّ

أَيُّ مُلْكٍ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ أَيُّ حَظٍّ لِٱمْرِئٍ حَظُّـهُ مِنَ ٱلْأَرْضِ لَحْدُ
لَا تُرَجِّي ٱلْبَقَاءَ فِي مَعْـدِنِ ٱلْمَوْ تِ وَدَارٍ حُتُوفُهَـا لَكَ وِرْدُ

التوبة الى الله

٣٧ قَالَ غَيْرُهُ :

سَلَوْتُ عَنِ ٱلْأَحِبَّـةِ وَٱلْمُدَامِ وَمِلْتُ عَنِ ٱلتَّهَتُّكِ وَٱلْهُيَـامِ
وَسَلَّمْتُ ٱلْأُمُورَ إِلَى إِلٰهِي وَوَدَّعْتُ ٱلْغَوَايَةَ بِٱلسَّـلَامِ
وَمِلْتُ إِلَى ٱكْتِسَابِ ثَوَابِ رَبِّي وَقِدْمًا طَالَ غَرْمِي بِٱلْغَرَامِ
وَمَا أَنَا بَعْدَهَا مُعْطِي عِنَانِي ٱلْـهَوَى لٰكِنْ تُرَى بِيَدِي زِمَامِي
أَبَعْدَ ٱلشَّيْبِ وَهْوَ أَخُو سُكُونٍ يَلِيقُ بِأَنْ أَمِيـلَ إِلَى ٱلْغَرَامِ
فَشُرْبُ ٱلرَّاحِ نَقْصٌ بَعْدَ هٰذَا وَلَوْ مِنْ رَاحَتِي بَدْرُ ٱلتَّمَامِ
فَكَمْ أَجْرَيْتُ فِي مَيْدَانِ لَهْوٍ خُيُولَ هَوًى وَكَمْ ضُرِبَتْ خِيَامِي
سَأُوتِي ٱلْكَأْسَ تَعْبِيسًا وَصَدًّا وَإِنْ جَاءَتْ تُقَابِلُ بِٱبْتِسَامِ
عَزَمْتُ عَلَى ٱلرُّجُوعِ عَنِ ٱلْمَنَاهِي وَمِثْلِي مَنْ يَدُومُ عَلَى ٱعْتِزَامِ

٣٨ صَعِدَ ٱلْوَلِيدُ بْنُ يَزِيدَ ٱلْمِنْبَرَ فَخَطَبَ ٱلْقَوْمَ بِٱلشِّعْرِ فَقَالَ :

أَلْحَمْـدُ لِلّٰهِ وَلِيِّ ٱلْحَمْـدِ أَحْمَـدُهُ فِي يُسْرِنَا وَٱلْجُهْـدِ
مَنْ يُطِعِ ٱللّٰهَ فَقَـدْ أَصَابَا أَوْ يَعْصِـهِ أَوِ ٱلضَّمِيرَ خَابَا
كَأَنَّهُ لَمَّا بَقِي لَدَيْكُمْ حَيٌّ صَحِيحٌ لَا يَزَالُ فِيكُمْ
إِنَّكُمُ مِنْ بَعْدِ أَنْ تَزِلُّوا عَنْ قَصْدِهِ أَوْ نَهْجِـهِ تَضِلُّوا
لَا تَتْرُكُنْ نُصْحِي فَإِنِّي نَاصِحُ إِنَّ ٱلطَّرِيقَ فَٱعْلَمَنْ وَاضِحُ

مَن يَتَّقِ ٱللهَ يَجِدْ غِبَّ ٱلتُّقَى ... يَوْمَ ٱلْحِسَابِ صَائِرًا إِلَى ٱلْهُدَى
إِنَّ ٱلتُّقَى أَفْضَلُ شَيْءٍ فِي ٱلْعَمَلْ ... أَرَى جِمَاعَ ٱلْبِرِّ فِيهِ قَدْ دَخَلْ
خَافُوا ٱلْجَحِيمَ إِخْوَتِي لَعَلَّكُمْ ... يَوْمَ ٱللِّقَاءِ تَعْرِفُوا مَا سَرَّكُمْ
قَدْ قِيلَ فِي ٱلْأَمْثَالِ لَوْ عَلِمْتُمُ ... فَٱنْتَفِعُوا بِذَاكَ إِنْ عَقَلْتُمُ
مَا يَزْرَعِ ٱلزَّارِعُ يَوْمًا يَحْصُدُهْ ... وَمَا يُقَدِّمْ مِنْ صَلَاحٍ يَحْمَدُهْ
فَٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمُ وَتُوبُوا ... فَٱلْمَوْتُ مِنْكُمْ فَٱعْلَمُوا قَرِيبُ

(الأغاني)

٣٩ قَالَ بَعْضُهُمْ:

حَتَّامَ أَنْتَ بِمَا يُلْهِيكَ مُشْتَغِلُ ... عَنْ نَهْجِ قَصْدِكَ مِنْ خَمْرِ ٱلْهَوَى ثَمِلُ
تَمْضِي مِنَ ٱلدَّهْرِ بِٱلْعَيْشِ ٱلذَّمِيمِ إِلَى ... كَمْ ذَا ٱلتَّوَانِي وَكَمْ يُغْرِي بِكَ ٱلْأَمَلُ
وَتَدَّعِي بِطَرِيقِ ٱلْقَوْمِ مَعْرِفَةً ... وَأَنْتَ مُنْقَطِعٌ وَٱلْقَوْمُ قَدْ وَصَلُوا
فَٱنْهَضْ إِلَى ذُرْوَةِ ٱلْعَلْيَاءِ مُبْتَدِرًا ... عَزْمًا لِتَرْقَى مَكَانًا دُونَهُ زُحَلُ
فَإِنْ ظَفِرْتَ فَقَدْ جَاوَزْتَ مَكْرُمَةً ... بَقَاؤُهَا بِبَقَاءِ ٱللهِ مُتَّصِلُ
وَإِنْ قَضَيْتَ بِهِمْ وَجْدًا فَأَحْسَنُ مَا ... يُقَالُ عَنْكَ قَضَى مِنْ وَجْدِهِ ٱلرَّجُلُ

٤٠ قَالَ بَهَاءُ ٱلدِّينِ ٱلْعَامِلِيُّ فِي كِتَابِ رِيَاضِ ٱلْأَرْوَاحِ:

أَلَا يَا خَائِضًا بَحْرَ ٱلْأَمَانِي ... هَدَاكَ ٱللهُ مَا هٰذَا ٱلتَّوَانِي
أَضَعْتَ ٱلْعُمْرَ عِصْيَانًا وَجَهْلًا ... فَمَهْلًا أَيُّهَا ٱلْمَغْرُورُ مَهْلَا
مَضَى عَصْرُ ٱلشَّبَابِ وَأَنْتَ غَافِلْ ... وَفِي ثَوْبِ ٱلْعَمَى وَٱلْغَيِّ رَافِلْ
إِلَى كَمْ كَٱلْبَهَائِمِ أَنْتَ هَائِمْ ... وَفِي وَقْتِ ٱلْغَنَائِمِ أَنْتَ نَائِمْ

وَطَرْفُكَ لَا يُرَى إِلَّا طَمُوحَا وَنَفْسُكَ لَمْ تَزَلْ أَبَدًا جَمُوحَا
وَقَلْبُكَ لَا يُفِيقُ عَنِ الْمَعَاصِي فَوَيْلَكَ يَوْمَ يُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي
بَلَالُ الشَّيْبِ نَادَى فِي الْمَفَارِقْ بِحَيِّ عَلَى الذَّهَابِ وَأَنْتَ غَارِقْ
بِبَحْرِ الْإِثْمِ لَا تُصْغِي لِوَاعِظْ وَإِنْ أَطْرَى وَأَطْنَبَ فِي الْمَوَاعِظْ
وَقَلْبُكَ هَائِمٌ فِي كُلِّ وَادِ وَجَهْلُكَ كُلَّ يَوْمٍ فِي ازْدِيَادِ
عَلَى تَحْصِيلِ دُنْيَاكَ الدَّنِيَّهْ مُجِدًّا فِي الصَّبَاحِ وَفِي الْعَشِيَّهْ
وَجُهْدُ الْمَرْءِ فِي الدُّنْيَا شَدِيدُ وَلَيْسَ يَنَالُ مِنْهَا مَا يُرِيدُ
وَكَيْفَ يَنَالُ فِي الْأُخْرَى مَرَامَهْ وَلَمْ يَجْهَدْ لِمَطْلَبِهَا قُلَامَهْ

٤١ قَالَ بَهَاءُ الدِّينِ زُهَيْرٌ :

نَزَلَ الْمَشِيبُ وَإِنَّهُ فِي مَفْرِقِي لَأَعَزُّ نَازِلْ
وَبَكَيْتُ إِذْ رَحَلَ الشَّبَا بُ فَآهِ آهِ عَلَيْهِ رَاحِلْ
بِاللهِ قُلْ لِي يَا فُلَا نُ وَلِي أَقُولُ وَلِي أُسَائِلْ
أَتُرِيدُ فِي السَّبْعِينَ مَا قَدْ كُنْتَ فِي الْعِشْرِينَ فَاعِلْ
هَيْهَاتِ لَا وَاللهِ مَا هٰذَا الْحَدِيثُ حَدِيثَ عَاقِلْ
قَدْ كُنْتَ تَعْذِرُ بِالصِّبَا وَالْيَوْمَ ذَاكَ الْعُذْرُ زَائِلْ
مَنَّيْتَ نَفْسَكَ بَاطِلًا وَإِلَى مَتَى تَرْضَى بِبَاطِلْ
قَدْ صَارَ مِنْ دُونِ الَّذِي تَرْجُوهُ مِنْ مَرَحٍ مَرَاحِلْ
ضَيَّعْتَ ذَا الزَّمَنَ الطَّوِيلَ وَلَمْ تَفُزْ فِيهِ بِطَائِلْ

البابُ الثالث
في المراثي

رثاء داود الطائي

٤٢ لمَّا ماتَ داودُ الطائيُّ تكلَّمَ ابنُ السَّمّاكِ مُثنياً عليهِ فقالَ: إنَّ داودَ نظرَ إلى ما بينَ يديهِ مِن آخرتهِ فأغشى بصرُ القلبِ بصرَ العينِ فكأنَّهُ لم ينظرْ إلى ما إليهِ تنظرونَ. وكأنَّكم لم تنظروا إلى ما إليهِ نظرَ. وأنتم منهُ تعجبونَ وهوَ منكم يعجبُ. فلمّا رآكم مفتونينَ مغرورينَ قد أذهلتِ الدُّنيا عقولَكم وأماتت بحبِّها قلوبَكم استوحشَ منكم. فكنتَ إذا نظرتَ إليهِ حسبتَهُ حيّاً وسطَ أمواتٍ. يا داودُ ما أعجبَ شأنكَ بينَ أهلِ زمانكَ أهنتَ نفسكَ وإنَّما تريدُ إكرامَها وأتعبتَها وإنَّما تريدُ راحتَها. أخشنتَ المطعمَ وإنَّما تريدُ طيبَهُ. وخشَّنتَ الملبسَ وإنَّما تريدُ لينَهُ. ثمَّ أمتَّ نفسكَ قبلَ أن تموتَ وقبرتَها قبلَ أن تُقبرَ. وعذَّبتَها قبلَ أن تعذَّبَ سجنتَ نفسكَ في بيتكَ ولا محدِّثَ لها ولا جليسَ معها. ولا فراشَ تحتكَ ولا سترَ على بابكَ. ولا قلَّةَ تبرِّدُ فيها ماءكَ ولا صحفةَ يكونُ فيها غداؤكَ وعشاؤكَ. يا داودُ ما تشتهي من الماءِ باردَهُ ولا منَ الطعامِ طيِّبَهُ ولا منَ اللِّباسِ لينَهُ بلى ولكن زهدتَ فيهِ لما بينَ يديكَ. فما أصغرَ ما بذلتَ وما أحقرَ ما تركتَ في جنبِ ما رغبتَ وأمَّلتَ. لم تقبلْ منَ النّاسِ عطيَّةً ولا من

الإخوانِ هديةً فلمّا متَّ شهرك ربُّك بفضلك وألبسك رداء عملك. فلو رأيت من حضرك علمت أنّ ربَّك قد أكرمك (لابن عبد ربّه)

رثاء الاسكندر

٤٣ مختارٌ من قول الحكماء عند وفاة الإسكندر لمّا جعل في تابوتٍ من ذهبٍ تقدّم إليه أحدهم فقال: كان الملك يخبأ الذهب وقد صار الآن الذهب يخبأه. وتقدّم إليه آخر فقال: قد طاف الأرضين وتملّكها ثمّ جعل منها في أربعة أذرعٍ. (ووقف عليه آخر) فقال: انظر إلى حلم النائم كيف انقضى إلى ظلّ الغمام وقد انجلى. (ووقف عليه آخر) فقال: ما لك لا تقلّ عضواً من أعضائك وقد كنت تستقلّ ملك العباد. (وقال آخر): ما لك لا ترغب بنفسك عن ضيق المكان وقد كنت ترغب بها عن رحب البلاد (وقال آخر): أمات هذا الميت كثيراً من الناس لئلّا يموت وقد مات الآن. (وقال آخر): ما كان أقبح إفراطك في التجبّر أمس مع شدّة خضوعك اليوم. (قالت بنت دارا): ما علمت أنّ غالب أبي يغلب. (وقال رئيس الطبّاخين): قد نضدت النضائد وألقيت الوسائد ونصبت الموائد ولست أرى عميد المجلس (للقيرواني)

٤٤ قال ابن عبد ربّه يرثي ولده:

واكبدا قد تقطّعت كبدي قد حرّقتها لواعج الكمدِ
ما مات حيٌّ لميّتٍ أسفاً أعذر من والدٍ على ولدِ

يَا رَحْمَةَ ٱللهِ جَاوِرِي جَدَثاً   دَفَنْتُ فِيهِ حُشَاشَتِي بِيَدِي
وَنَوِّرِي ظُلْمَةَ ٱلْقُبُورِ عَلَى   مَنْ لَمْ يَصِلْ ظُلْمُهُ إِلَى أَحَدِ
مَنْ كَانَ خِلْواً مِنْ كُلِّ بَائِقَةٍ   وَطَيِّبَ ٱلرُّوحِ طَاهِرَ ٱلْجَسَدِ
يَا مَوْتَ يَحْيَى لَقَدْ ذَهَبْتَ بِهِ   لَيْسَ بِزُمَّيْلَةٍ وَلَا نَكِدِ
يَا مَوْتَهُ لَوْ أَقَلْتَ عَثْرَتَهُ   يَا يَوْمَهُ لَوْ تَرَكْتَهُ لِغَدِ
يَا مَوْتُ لَوْ لَمْ تَكُنْ تُعَاجِلُهُ   لَكَانَ لَا شَكَّ بَيْضَةَ ٱلْبَلَدِ
أَوْ كُنْتَ رَاخَيْتَ فِي ٱلْعِنَانِ لَهُ   حَازَ ٱلْعُلَا وَٱحْتَوَى عَلَى ٱلْأَمَدِ
أَيَّ حُسَامٍ سَلَبْتَ رَوْنَقَهُ   وَأَيَّ رُوحٍ سَلَلْتَ مِنْ جَسَدِ
وَأَيَّ سَاقٍ قَطَعْتَ مِنْ قَدَمٍ   وَأَيَّ كَفٍّ أَزَلْتَ مِنْ عَضُدِ
يَا قَمَراً أَجْحَفَ ٱلْخُسُوفُ بِهِ   قَبْلَ بُلُوغِ ٱلسَّوَاءِ فِي ٱلْعَدَدِ
أَيُّ حَشاً لَمْ يَذُبْ لَهُ أَسَفاً   وَأَيُّ عَيْنٍ عَلَيْهِ لَمْ تَجُدِ
لَا صَبْرَ لِي بَعْدَهُ وَلَا جَلَدٌ   فُجِعْتُ يَا صَبْرُ فِيهِ وَٱلْجَلَدِ
لَوْ لَمْ أَمُتْ عِنْدَ مَوْتِهِ كَمَداً   لَحَقَّ لِي أَنْ أَمُوتَ مِنْ كَمَدِي
يَا لَوْعَةً لَا يَزَالُ لَاعِجُهَا   يَقْدَحُ نَارَ ٱلْأَسَى عَلَى كَبِدِي

٤٥ وَقَالَ فِيهِ أَيْضاً:

لَا بَيْتَ يَسْكُنُ إِلَّا فَارَقَ ٱلسَّكَنَا   وَلَا ٱمْتَلَا فَرَحاً إِلَّا ٱمْتَلَا حَزَنَا
لَهْفِي عَلَى مَيِّتٍ مَاتَ ٱلسُّرُورُ بِهِ   لَوْ كَانَ حَيّاً لَأَحْيَا ٱلدِّينَ وَٱلسُّنَنَا
إِذَا ذَكَرْتُكَ يَوْماً قُلْتُ وَاحَزَنَا   وَمَا يَرُدُّ عَلَيْكَ ٱلْقَوْلُ وَاحَزَنَا
يَا سَيِّدِي وَمُرَاحَ ٱلرُّوحِ فِي جَسَدِي   هَلَّا دَنَا ٱلْمَوْتُ مِنِّي حِينَ مِنْكَ دَنَا

حَتَّى يَمُرَّ بِنَا فِي قَعْرِ مُظْلِمَةٍ لَحْدٍ وَيُلْبِسَنَا فِي وَاحِدٍ كَفَنَا
يَا أَطْيَبَ ٱلنَّاسِ رُوحًا ضَمَّهُ بَدَنٌ أَسْتَوْدِعُ ٱللهَ ذَاكَ ٱلرُّوحَ وَٱلْبَدَنَا
لَوْ كُنْتُ أُعْطَى بِهِ ٱلدُّنْيَا مُعَاوَضَةً مِنْهُ لَمَا كَانَتِ ٱلدُّنْيَا لَهُ ثَمَنَا

٤٦ قَالَ ٱلْحَسَنُ بْنُ هَانِئٍ فِي ٱلْأَمِينِ:

طَوَى ٱلْمَوْتُ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ وَلَيْسَ لِمَا تَطْوِي ٱلْمَنِيَّةُ نَاشِرُ
وَكُنْتُ عَلَيْهِ أَحْذَرُ ٱلْمَوْتَ وَحْدَهُ فَلَمْ يَبْقَ لِي شَيْءٌ عَلَيْهِ أُحَاذِرُ
لَئِنْ عَمَرَتْ دُورٌ بِمَنْ لَا أُحِبُّهُ لَقَدْ عَمَرَتْ مِمَّنْ أُحِبُّ ٱلْمَقَابِرُ

وَمَاتَ ٱبْنٌ لِأَعْرَابِيٍّ فَٱشْتَدَّ حُزْنُهُ عَلَيْهِ وَكَانَ ٱلْأَعْرَابِيُّ يُكْنَى بِهِ فَقِيلَ لَهُ لَوْ صَبَرْتَ لَكَانَ أَعْظَمَ لِثَوَابِكَ. فَقَالَ:

بِأَبِي وَأُمِّي مَنْ عَبَأْتُ حَنُوطَهُ بِيَدِي وَفَارَقَنِي بِمَاءِ شَبَابِهِ
كَيْفَ ٱلسُّلُوُّ وَكَيْفَ أَنْسَى ذِكْرَهُ وَإِذَا دُعِيتُ فَإِنَّمَا أُدْعَى بِهِ

وَقَالَ آخَرُ يَرْثِي أَخَاهُ:

أَخٌ طَالَمَا سَرَّنِي ذِكْرُهُ فَقَدْ صِرْتُ أَشْجَى إِلَى ذِكْرِهِ
وَقَدْ كُنْتُ أَغْدُو إِلَى قَصْرِهِ فَقَدْ صِرْتُ أَغْدُو إِلَى قَبْرِهِ

٤٧ قَالَتِ ٱلْخَنْسَاءُ تَرْثِي أَخَاهَا:

أَعَيْنَيَّ جُودَا وَلَا تَجْمُدَا أَلَا تَبْكِيَانِ لِصَخْرِ ٱلنَّدَى
أَلَا تَبْكِيَانِ ٱلْجَرِيَّ ٱلْجَوَادَا أَلَا تَبْكِيَانِ ٱلْفَتَى ٱلسَّيِّدَا
طَوِيلُ ٱلنِّجَادِ رَفِيعُ ٱلْعِمَا دِ سَادَ عَشِيرَتَهُ أَمْرَدَا
يُحَمِّلُهُ ٱلْقَوْمُ مَا عَالَهُمْ وَإِنْ كَانَ أَصْغَرَهُمْ مَوْلِدَا

جموعُ الضيوفِ إلى بابِهِ يرى أفضلَ الكسبِ أن يُحمدا

وقالت أختُ الوليدِ ابنِ طريفٍ ترثي أخاها المذكور :

أيا شجرَ الخابورِ مالكَ مورقًا كأنكَ لم تجزعْ على ابنِ طريفِ
فتًى لا يريدُ العزَّ إلّا منَ التقى ولا المالَ إلّا من قنًا وسيوفِ
فقدناهُ فقدانَ الربيعِ فليتنا فديناهُ من ساداتِنا بألوفِ
خفيفٌ على ظهرِ الجوادِ إذا عدا وليسَ على أعدائِهِ بخفيفِ
عليكَ سلامُ اللهِ وقفًا فإنّني أرى الموتَ وقّاعًا بكلِّ شريفِ

قال ابنُ معتوقٍ يرثي الحسينَ بنَ عليِّ بنِ أبي طالب

حزني عليهِ دائمٌ لا ينقضي وتصبُّري منّي عليَّ تعذّرا
وارحمتاهُ لصارخاتٍ حولَهُ تبكي لهُ ولوجهِها لن تسترا
ملقًى على وجهِ الترابِ تظنُّهُ داودَ في المحرابِ حينَ تسوّرا
لهفي على الهاوي الصريعِ كأنّهُ قمرٌ هوى من أوجِهِ فتكوّرا
لهفي على تلكَ البنانِ تقطّعتْ لو أنّها اتّصلتْ لكانتْ أبحرا
لهفي على العبّاسِ وهوَ مجندلٌ عرضتْ منيّتُهُ لهُ فتعثّرا
لحقَ الغبارُ جبينَهُ ولطالما في شأوِهِ لحقَ الكرامَ وغبّرا

٤٨ وقالَ الأصمعي :

لعمرُكَ ما الرزيّةُ فقدُ مالٍ ولا فرسٌ يموتُ ولا بعيرُ
ولكنَّ الرزيّةَ فقدُ حرٍّ يموتُ لموتِهِ خلقٌ كثيرُ

وقالَ الصفدي :

يا غائباً في الثرى تبلى محاسنه الله يوليك غفراناً وإحسانا
إن كنت جرعت كأس الموت واحدة في كل يوم أذوق الموت أحيانا

رثى بعض الشعراء القاضي الباقلاني البصري:

أنظر إلى جبل تمشي الرجال به وانظر إلى القبر ما يحوي من الصلف
وانظر إلى صارم الإسلام معتمداً وانظر إلى درة الإسلام في الصدف

قال بعضهم:

أفي كل يوم لي خليل مودع لقد خفت أن أبقى بغير خليل
ولا بد يوماً أن تجيء منيتي ويفرد مني صاحبي ودخيلي

قال آخر يرثي أخاه:

كأني يوم فارقني حبيب رزئت ذوي المودة أجمعينا
وكان على الزمان أخي حبيب يميناً لي وكنت له يمينا
فإن يفرح بمصرعه الأعادي فما نلقى لهم متخشعينا

قال إبرهيم الصولي يرثي ابناً له مات يافعاً مترعرعاً:

كنت السواد لمقلتي فبكى عليك الناظر
من شاء بعدك فليمت فعليك كنت أحاذر

٤٩ كان ابن بسام يرثي علي بن يحيى المنجم:

قد زرت قبرك يا علي مسلماً ولك الزيارة من أقل الواجب
ولو استطعت حملت عنك ترابه فلطالما عني حملت نوائبي

قال العتبي في ابن له توفي صغيراً:

إنْ يكُنْ ماتَ صغيرًا فالأسى غيرُ صغيرِ
كانَ رَيحانِي فأمسى وهوَ رَيحانُ القبورِ
غرَسَتْهُ في بَساتِينِ البِلَى أيدِي الدُّهورِ

قالَ مُتمِّم بن نُوَيرةَ يرثي أخاه مالِكًا:

لقدْ لامني عندَ القبورِ على البُكا   رفيقي لتَذرافِ الدُّموعِ السَّوافكِ
فقالَ أتبكي كلَّ قبرٍ رأيتَهُ   لقبرٍ ثوَى بينَ اللِّوى فالدَّكادِكِ
فقلتُ لهُ إنَّ الشَّجا يبعثُ الشَّجا   فدَعْني فهذا كلُّهُ قبرُ مالِكِ

قالَ آخرُ:

لِكلِّ أُناسٍ مَقبَرٌ بِفِنائِهِمْ   فهُمْ ينقُصونَ والقبورُ تزيدُ
وما إنْ يزالُ رسمُ دارٍ قدْ أخلَقَتْ   وبيتٌ لميْتٍ بالفِناءِ جديدُ
هُمُ جيرةُ الأحياءِ أمّا جِوارُهُمْ   فدانٍ وأمّا المُلتَقى فبعيدُ

٥٠ قالَ العَطَمَّشُ الضَّبِّي:

إلى اللهِ أشكو لا إلى النّاسِ أنَّني   أرى الأرضَ تبقى والأخِلّاءُ تذهبُ
أخِلّاءُ لوْ غيرُ الحِمامِ أصابكُمْ   عتبتُ ولكنْ ما على الموتِ مَعتَبُ

قالَ آخرُ:

أَجارِيَ ما أزدادُ إلّا صبابةً   إليكَ وما تزدادُ إلّا تنائِيا
أَجارِيَ لوْ نفسٌ فدَتْ نفسَ ميِّتٍ   فدَيتُكَ مسرورًا بنفسي وماليا
وقدْ كنتُ أرجو أنْ أملّاكَ حِقبةً   فحالَ قضاءُ اللهِ دونَ رجائيا
ألا فليمتْ مَنْ شاءَ بعدَكَ إنَّما   عليكَ مِنَ الأقدارِ كانَ حِذاريا

٥١ قَالَ أَبُو ٱلشَّغْبِ ٱلْعَبْسِيُّ فِي خَالِدٍ ٱلْقَسْرِيِّ وَهُوَ أَسِيرٌ:

أَلَا إِنَّ خَيْرَ ٱلنَّاسِ حَيًّا وَهَالِكًا أَسِيرُ ثَقِيفٍ عِنْدَهُمْ فِي ٱلسَّلَاسِلِ
لَعَمْرِي لَئِنْ عَمَّرْتُمُ ٱلسِّجْنَ خَالِدًا وَأَوْطَأْتُمُوهُ وَطْأَةَ ٱلْمُتَثَاقِلِ
لَقَدْ كَانَ يَبْنِي ٱلْمَكْرُمَاتِ لِقَوْمِهِ وَيُعْطِي ٱللُّهَى فِي كُلِّ حَقٍّ وَبَاطِلِ
فَإِنْ تَسْجُنُوا ٱلْقَسْرِيَّ لَا تَسْجُنُوا ٱسْمَهُ وَلَا تَسْجُنُوا مَعْرُوفَهُ فِي ٱلْقَبَائِلِ

قَالَتْ صَفِيَّةُ ٱلْبَاهِلِيَّةُ:

كُنَّا كَغُصْنَيْنِ فِي جُرْثُومَةٍ سَمَقَا حِينًا بِأَحْسَنِ مَا يَسْمُو لَهُ ٱلشَّجَرُ
حَتَّى إِذَا قِيلَ قَدْ طَالَتْ فُرُوعُهُمَا وَطَابَ فَيْآهُمَا وَٱسْتُنْظِرَ ٱلثَّمَرُ
أَخْنَى عَلَى وَاحِدِي رَيْبُ ٱلزَّمَانِ وَمَا يُبْقِي ٱلزَّمَانُ عَلَى شَيْءٍ وَلَا يَذَرُ
كُنَّا كَأَنْجُمِ لَيْلٍ بَيْنَهَا قَمَرٌ يَجْلُو ٱلدُّجَى فَهَوَى مِنْ بَيْنِهَا ٱلْقَمَرُ

٥٢ وَقَالَ ٱلتَّيْمِيُّ فِي مَنْصُورٍ:

لَهْفِي عَلَيْكَ كَلَهْفَةٍ مِنْ خَائِفٍ يَبْغِي جِوَارَكَ حِينَ لَيْسَ مُجِيرُ
أَمَّا ٱلْقُبُورُ فَإِنَّهُنَّ أَوَانِسٌ بِجِوَارِ قَبْرِكَ وَٱلدِّيَارُ قُبُورُ
عَمَّتْ فَوَاضِلُهُ فَعَمَّ مُصَابُهُ فَٱلنَّاسُ فِيهِ كُلُّهُمْ مَأْجُورُ
يُثْنِي عَلَيْكَ لِسَانُ مَنْ لَمْ تُولِهِ خَيْرًا لِأَنَّكَ بِٱلثَّنَاءِ جَدِيرُ
رَدَّتْ صَنَائِعُهُ إِلَيْهِ حَيَاتَهُ فَكَأَنَّهُ مِنْ نَشْرِهَا مَنْشُورُ
فَٱلنَّاسُ مَأْتَمُهُمْ عَلَيْهِ وَاحِدٌ فِي كُلِّ دَارٍ رَنَّةٌ وَزَفِيرُ
عَجَبًا لِأَرْبَعِ أَذْرُعٍ فِي خَمْسَةٍ فِي جَوْفِهَا جَبَلٌ أَشَمُّ كَبِيرُ

(الحماسة لابي تمّام)

الباب الرابع
في الحلم

٥٣ قِيلَ : لَا تَسْتَصْغِرَنَّ أَمْرَ عَدُوِّكَ إِذَا حَارَبْتَهُ . لِأَنَّكَ إِنْ ظَفِرْتَ بِهِ لَمْ تُحْمَدْ وَإِنْ ظَفِرَ بِكَ لَمْ تُعْذَرْ . وَالضَّعِيفُ ٱلْمُحْتَرِسُ مِنَ ٱلْعَدُوِّ ٱلْقَوِيِّ أَقْرَبُ إِلَى ٱلسَّلَامَةِ مِنَ ٱلْقَوِيِّ ٱلْمُغْتَرِّ بِٱلْعَدُوِّ ٱلضَّعِيفِ . وَقِيلَ : ٱلْعَدُوُّ ٱلْمُحْتَقَرُ رُبَّمَا ٱشْتَدَّ . كَٱلْغُصْنِ ٱلنَّضِرِ رُبَّمَا صَارَ شَوْكًا . وَقِيلَ : لَا تَأْمَنَنَّ ٱلْعَدُوَّ ٱلضَّعِيفَ أَنْ يُوَرِّطَكَ . فَٱلرُّمْحُ قَدْ يُقْتَلُ بِهِ وَإِنْ عَدِمَ ٱلسِّنَانَ وَٱلزُّجَّ . قَالَ ٱلْمُوسَوِيُّ :

أَلْفِيلُ يَضْجَرُ وَهْوَ أَعْظَمُ مَا رَأَيْتَ مِنَ ٱلْبَعُوضِ

٥٤ يُقَالُ إِنَّ ٱبْنَ ٱلْقِرِّيَّةِ دَخَلَ عَلَى ٱلْحَجَّاجِ وَقَالَ لَهُ : مَا ٱلْكُفْرُ . فَقَالَ : ٱلْبَطَرُ بِٱلنِّعْمَةِ وَٱلْيَأْسُ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ . فَقَالَ : مَا ٱلرِّضَاءُ . فَقَالَ : ٱلْقُنُوعُ بِعَطَاءِ ٱللّٰهِ تَعَالَى وَٱلصَّبْرُ عَلَى ٱلْمَكَارِهِ . فَقَالَ : مَا ٱلصَّبْرُ . فَقَالَ : كَظْمُ ٱلْغَيْظِ وَٱلِٱحْتِمَالُ لِمَا لَا يُرَادُ . فَقَالَ : مَا ٱلْحِلْمُ . فَقَالَ : إِظْهَارُ ٱلرَّحْمَةِ عِنْدَ ٱلْقُدْرَةِ وَٱلرِّضَاءُ عِنْدَ ٱلْغَضَبِ . فَقَالَ : مَا ٱلْكَرَمُ . فَقَالَ : حِفْظُ ٱلصَّدِيقِ وَقَضَاءُ ٱلْحُقُوقِ . فَقَالَ : مَا ٱلْحَمِيَّةُ . فَقَالَ : ٱلْوُقُوفُ عَلَى رَأْسِ مَنْ هُوَ دُونَكَ . فَقَالَ : مَا ٱلشَّجَاعَةُ . فَقَالَ : ٱلْحَمْلَةُ فِي وُجُوهِ ٱلْأَعْدَاءِ وَٱلْكُفَّارِ . وَٱلثَّبَاتُ فِي مَوْضِعِ ٱلْفِرَارِ . وَإِرْضَاءُ ٱلرِّجَالِ . قَالَ : مَا ٱلْعَدْلُ . قَالَ : تَرْكُ ٱلْمُرَادِ . وَصِحَّةُ ٱلسِّيرَةِ وَٱلِٱعْتِقَادِ . فَقَالَ :

ما الإنصاف. قال: المساواة عند الدعاوى بين الناس. فقال: ما الذل. قال: المرض عند خلو اليد والانكسار من قلة الرزق. فقال: ما الحرص. قال: حدة الشهوة عند الرجاء. فقال: ما الأمانة. قال: قضاء الواجب. فقال: ما الخيانة قال: التراخي مع القدرة. فقال: ما الفهم. قال: التفكر وإدراك الأشياء على حقائقها (للغزالي)

٥٥ (فائدة جامعة ولمعة ساطعة ومقالة نافعة عن علي بن أبي طالب) قال: للمؤمن على أخيه المؤمن ثلاثون حقاً لا براءة له منها إلا بالأداء أو العفو. يغفر زلته. ويرحم عبرته. ويستر عورته. ويقيل عثرته. ويقبل معذرته. ويرد غيبته. ويديم نصيحته. ويحفظ خلته. ويرعى ذمته. ويعود مرضته. ويشهد ميتته. ويجيب دعوته. ويقبل هديته. ويكافئ صلته. ويشكر نعمته. ويحسن نصرته. ويحفظ حرمته. ويقضي حاجته. ويقبل شفاعته. ولا يخيب مقصده. ويشمت عطسته. ويرشد ضالته. ويرد سلامه. ويطيب كلامه. ويبر إنعامه. ويصدق أقسامه. وينظر ظالماً يرده عن ظلمه ومظلوماً بإعانته على وفاء حقه. ويواليه ولا يعاديه. ولا يخذله ولا يشتمه. ويحب له من الخير ما يحب لنفسه. ويكره له من الشر ما يكره لنفسه فلا يترك واحداً منها إلا طالبه به يوم القيامة (الترغيب للاصبهاني)

٥٦ قال حكيم: المؤمن شريف ظريف لطيف لا لعان ولا نمام. ولا مغتاب ولا قتات. ولا حسود ولا حقود. ولا بخيل ولا مختال. يطلب

مِنَ ٱلْخَيْرَاتِ أَعْلاهَا. وَمِنَ ٱلْأَخْلَاقِ أَسْنَاهَا. إِنْ سَلَكَ مَعَ أَهْلِ ٱلْآخِرَةِ كَانَ أَوْرَعَهُمْ. غَضِيضُ ٱلطَّرْفِ. سَخِيُّ ٱلْكَفِّ. لَا يَرُدُّ سَائِلًا. وَلَا يَبْخَلُ بِنَائِلٍ. مُتَوَاصِلُ ٱلْأَحْزَانِ مُتَرَادِفُ ٱلْإِحْسَانِ. يَزِنُ كَلَامَهُ وَيَحْرُسُ لِسَانَهُ. وَيُحْسِنُ عَمَلَهُ وَيُكْثِرُ فِي ٱلْحَقِّ أَمَلَهُ. مُتَأَسِّفٌ عَلَى مَا فَاتَهُ مِنْ تَضْيِيعِ أَوْقَاتِهِ. كَأَنَّهُ نَاظِرٌ إِلَى رَبِّهِ مُرَاقِبٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ. لَا يَرُدُّ ٱلْحَقَّ عَلَى عَدُوِّهِ. وَلَا يَقْبَلُ ٱلْبَاطِلَ مِنْ صَدِيقِهِ. كَثِيرُ ٱلْمَعُونَةِ قَلِيلُ ٱلْمُؤْنَةِ. يَعْطِفُ عَلَى أَخِيهِ عِنْدَ عَثْرَتِهِ لِمَا مَضَى مِنْ قَدِيمِ صُحْبَتِهِ. فَهٰذِهِ صِفَاتُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْخَالِصِينَ (للدميري)

٥٧ (مِنْ كَلَامِ ٱلْمُلُوكِ ٱلْجَارِي مَجْرَى ٱلْأَمْثَالِ:) قَالَ أَرْدَشِيرُ إِذَا رَغِبَتِ ٱلْمُلُوكُ عَنِ ٱلْعَدْلِ رَغِبَتِ ٱلرَّعِيَّةُ عَنِ ٱلطَّاعَةِ. (أَفْرِيدُونُ) ٱلْأَيَّامُ صَحَائِفُ آجَالِكُمْ فَخَلِّدُوهَا أَحْسَنَ أَعْمَالِكُمْ. (أَنُوشِرْوَانُ ٱلْمَلِكُ) إِذَا كَثُرَ مَالُهُ مِمَّا يَأْخُذُ مِنْ رَعِيَّتِهِ كَانَ كَمَنْ يَعْمُرُ سَطْحَ بَيْتِهِ بِمَا يَقْتَلِعُهُ مِنْ قَوَاعِدِ بُنْيَانِهِ. (أَبْرَوِيزُ) أَطِعْ مَنْ فَوْقَكَ يُطِعْكَ مَنْ دُونَكَ. قَالَ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ:

كَمْ فُرْصَةٍ ذَهَبَتْ فَعَادَتْ غُصَّةً   تُشْجِي بِطُولِ تَلَهُّفٍ وَتَنَدُّمِ

لَمَّا عَزَمَ ٱلْمَنْصُورُ عَلَى ٱلْفَتْكِ بِأَبِي مُسْلِمٍ فَزِعَ مِنْ ذٰلِكَ عِيسَى بْنُ مُوسَى فَكَتَبَ إِلَيْهِ:

إِذَا كُنْتَ ذَا رَأْيٍ فَكُنْ ذَا تَدَبُّرٍ   فَإِنَّ فَسَادَ ٱلرَّأْيِ أَنْ تَتَعَجَّلَا

فَأَجَابَهُ ٱلْمَنْصُورُ:

إِذَا كُنْتَ ذَا رَأْيٍ فَكُنْ ذَا عَزِيمَةٍ   فَإِنَّ فَسَادَ ٱلرَّأْيِ أَنْ تَتَرَدَّدَا
وَلَا تُمْهِلِ ٱلْأَعْدَاءَ يَوْمًا بِغُدْوَةٍ   وَبَادِرْهُمُ أَنْ يَمْلِكُوا مِثْلَهَا غَدَا
(ٱلْمُعْتَصِمُ) إِذَا نَصَرَ ٱلْهَوَى بَطَلَ ٱلرَّأْيُ   (للقيرواني)

٥٨ (قَالَ أَيُّوبُ بْنُ ٱلْقِرِّيَّةِ): ٱلنَّاسُ ثَلَاثَةٌ عَاقِلٌ وَأَحْمَقُ وَفَاجِرٌ. فَٱلْعَاقِلُ ٱلدِّينُ شَرِيعَتُهُ وَٱلْحِلْمُ طَبِيعَتُهُ وَٱلرَّأْيُ ٱلْحَسَنُ سَجِيَّتُهُ. إِنْ سُئِلَ أَجَابَ. وَإِنْ نَطَقَ أَصَابَ. وَإِنْ سَمِعَ ٱلْعِلْمَ وَعَى. وَإِنْ حَدَّثَ رَوَى. وَأَمَّا ٱلْأَحْمَقُ فَإِنْ تَكَلَّمَ عَجِلَ. وَإِنْ حَدَثَ وَهِلَ. وَإِنِ ٱسْتُنْزِلَ عَنْ رَأْيِهِ نَزَلَ. فَإِنْ حُمِلَ عَلَى ٱلْقَبِيحِ حَمَلَ. وَأَمَّا ٱلْفَاجِرُ فَإِنِ ٱئْتَمَنْتَهُ خَانَكَ. وَإِنْ حَدَّثْتَهُ شَانَكَ. وَإِنْ وَثِقْتَ بِهِ لَمْ يَرْعَكَ. وَإِنِ ٱسْتُكْتِمَ لَمْ يَكْتُمْ. وَإِنْ عَلِمَ لَمْ يَعْلَمْ. وَإِنْ حَدَّثَ لَمْ يَفْهَمْ. وَإِنْ فُقِّهَ لَمْ يَفْقَهْ

٥٩ دَخَلَ رَجُلٌ عَلَى هِشَامٍ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱحْفَظْ عَنِّي أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ فِيهِنَّ صَلَاحُ مُلْكِكَ وَٱسْتِقَامَةُ رَعِيَّتِكَ. قَالَ: مَاهُنَّ. قَالَ: لَا تَعِدْ عِدَةً لَا تَثِقُ مِنْ نَفْسِكَ بِإِنْجَازِهَا. وَلَا يَغُرَّنَّكَ ٱلْمُرْتَقَى وَإِنْ كَانَ سَهْلًا إِذَا كَانَ ٱلْمُنْحَدَرُ وَعْرًا. وَٱعْلَمْ أَنَّ لِلْأَعْمَالِ جَزَاءً فَٱتَّقِ ٱلْعَوَاقِبَ. وَأَنَّ لِلْأُمُورِ بَغَتَاتٍ فَكُنْ عَلَى حَذَرٍ. قَالَ عِيسَى بْنُ دَابٍ: فَحَدَّثْتُ بِهٰذَا ٱلْحَدِيثِ ٱلْمَهْدِيَّ وَفِي يَدِهِ لُقْمَةٌ قَدْ رَفَعَهَا إِلَى فِيهِ. فَأَمْسَكَهَا وَقَالَ: وَيْحَكَ أَعِدْ عَلَيَّ فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَسِغْ لُقْمَتَكَ. فَقَالَ: حَدِيثُكَ أَعْجَبُ إِلَيَّ   (للقزويني)

أَرْبَعَةُ أَشْيَاءَ سُمٌّ قَاتِلٌ وَأَرْبَعَةُ أَشْيَاءَ دِرْيَاقُهَا. أَلدُّنْيَا سُمٌّ قَاتِلٌ

وَالزُّهدُ فِيهَا دِرياقُهُ . وَالْمَالُ سُمٌّ قَاتِلٌ وَالزَّكَاةُ دِرياقُهُ . وَالْكَلَامُ سُمٌّ قَاتِلٌ وَذِكْرُ اللهِ دِرياقُهُ . وَمُلْكُ الدُّنيَا سُمٌّ قَاتِلٌ وَالْعَدلُ دِرياقُهُ

٦٠ قَالَ بَعضُهُمْ : الصَّومُ ثَلَاثُ دَرَجَاتٍ . صَوْمُ الْعُمُومِ وَصَوْمُ الْخُصُوصِ وَصَوْمُ خُصُوصِ الْخُصُوصِ . فَأَمَّا صَوْمُ الْعُمُومِ فَهُوَ كَفُّ الْبَطْنِ عَنِ الشَّهْوَةِ . وَأَمَّا صَوْمُ الْخُصُوصِ فَهُوَ كَفُّ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَاللِّسَانِ وَالْيَدِ وَالرِّجْلِ وَسَائِرِ الْجَوَارِحِ عَنِ الْآثَامِ . وَأَمَّا صَوْمُ خُصُوصِ الْخُصُوصِ فَصَوْنُ الْقَلْبِ عَنِ الْهُمُومِ الدَّنِيَّةِ وَالْأَفْكَارِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَكَفُّهُ عَمَّا سِوَى اللهِ بِالْكُلِّيَّةِ (الكنز المدفون)

٦١ (فَصْلٌ) مِنْ نَوَادِرِ بُزُرْجُمْهِرَ حَكِيمِ الْفُرْسِ (قَالَ) : نَصَحَنِي النُّصَحَاءُ وَوَعَظَنِي الْوُعَّاظُ شَفَقَةً وَنَصِيحَةً وَتَأْدِيبًا فَلَمْ يَعِظْنِي أَحَدٌ مِثْلُ شَيْبِي وَلَا نَصَحَنِي مِثْلُ فِكْرِي . وَلَقَدِ اسْتَضَأْتُ بِنُورِ الشَّمْسِ وَضَوْءِ الْقَمَرِ فَلَمْ أَسْتَضِئْ بِضِيَاءٍ أَضْوَأَ مِنْ نُورِ قَلْبِي . وَمَلَكْتُ الْأَحْرَارَ وَالْعَبِيدَ فَلَمْ يَمْلِكْنِي أَحَدٌ وَلَا قَهَرَنِي غَيْرُ هَوَايَ . وَعَادَانِي الْأَعْدَاءُ فَلَمْ أَرَ أَعْدَى إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي إِذَا جَهِلْتُ وَاحْتَرَزْتُ لِنَفْسِي بِنَفْسِي مِنَ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ حَذَرًا عَلَيْهَا وَشَفَقَةً فَوَجَدْتُهَا شَرَّ الْأَنْفُسِ لِنَفْسِهَا . وَرَأَيْتُ أَنَّهُ لَا يَأْتِيهَا الْفَسَادُ إِلَّا مِنْ قِبَلِهَا وَزَاحَمَتْنِي الْمَضَايِقُ فَلَمْ يَزْحَمْنِي مِثْلُ الْخُلُقِ السَّوْءِ وَوَقَعْتُ مِنْ أَبْعَدِ الْبُعْدِ وَأَطْوَلِ الطُّولِ فَلَمْ أَقَعْ فِي شَيْءٍ أَضَرَّ عَلَيَّ مِنْ لِسَانِي . وَمَشَيْتُ عَلَى الْجَمْرِ وَوَطِئْتُ عَلَى الرَّمْضَاءِ فَلَمْ أَرَ نَارًا أَحَرَّ عَلَيَّ مِنْ غَضَبِي . إِذَا تَمَكَّنَ مِنِّي وَطَالَبَنِي الطُّلَّابُ فَلَمْ

يُذَكِّرُنِي مُدْرِكُ مِثْلِ إِسَاءَتِي . وَنَظَرْتُ مَا الدَّاءُ الْقَاتِلُ وَمِنْ أَيْنَ يَأْتِينِي فَوَجَدْتُهُ مِنْ مَعْصِيَةِ رَبِّي سُبْحَانَهُ . وَالْتَمَسْتُ الرَّاحَةَ لِنَفْسِي فَلَمْ أَجِدْ شَيْئًا أَرْوَحَ لَهَا مِنْ تَرْكِهَا مَا لَا يَعْنِيهَا . وَرَكِبْتُ الْبِحَارَ وَرَأَيْتُ الْأَهْوَالَ فَلَمْ أَرَ هَوْلًا مِثْلَ الْوُقُوفِ عَلَى بَابِ سُلْطَانٍ جَائِرٍ . وَتَوَحَّشْتُ فِي الْبَرِّيَّةِ وَالْجِبَالِ فَلَمْ أَرَ أَوْحَشَ مِنْ قَرِينِ السُّوءِ . وَعَالَجْتُ السِّبَاعَ وَالضِّبَاعَ وَالذِّئَابَ وَعَاشَرْتُهَا وَعَاشَرَتْنِي وَغَلَبْتُهَا فَغَلَبَنِي صَاحِبُ الْخُلُقِ السُّوءِ . وَأَكَلْتُ الطَّيِّبَ وَشَرِبْتُ الْمُسْكِرَ فَلَمْ أَجِدْ شَيْئًا أَلَذَّ مِنَ الْعَافِيَةِ وَالْأَمْنِ . وَتَوَسَّطْتُ الشَّيَاطِينَ وَالْجِبَالَ فَلَمْ أَجْزَعْ إِلَّا مِنَ الْإِنْسَانِ السُّوءِ . وَأَكَلْتُ الصَّبْرَ وَشَرِبْتُ الْمُرَّ فَلَمْ أَرَ شَيْئًا أَمَرَّ مِنَ الْفَقْرِ . وَشَهِدْتُ الْحُرُوبَ وَلَقِيتُ الْجُيُوشَ وَبَاشَرْتُ السُّيُوفَ وَصَارَعْتُ الْأَقْرَانَ فَلَمْ أَرَ قِرْنًا أَغْلَبَ مِنَ الْمَرْأَةِ السُّوءِ . وَعَالَجْتُ الْحَدِيدَ وَنَقَلْتُ الصَّخْرَ فَلَمْ أَرَ حِمْلًا أَثْقَلَ مِنَ الدَّيْنِ . وَنَظَرْتُ فِيمَا يُذِلُّ الْعَزِيزَ وَيَكْسِرُ الْقَوِيَّ وَيَضَعُ الشَّرِيفَ فَلَمْ أَرَ أَذَلَّ مِنْ ذَوِي فَاقَةٍ وَحَاجَةٍ . وَرُشِقْتُ بِالنُّشَّابِ وَرُجِمْتُ بِالْحِجَارَةِ فَلَمْ أَرَ أَنْفَذَ مِنَ الْكَلَامِ السُّوءِ يَخْرُجُ مِنْ فَمِ مُطَالِبٍ بِحَقٍّ . عُمِّرْتُ السِّجْنَ وَشُدِدْتُ فِي الْوَثَاقِ وَضُرِبْتُ بِعَمَدِ الْحَدِيدِ فَلَمْ يَهْدِمْنِي شَيْءٌ مِثْلُ مَا هَدَمَنِي الْغَمُّ وَالْهَمُّ وَالْحُزْنُ . وَاصْطَنَعْتُ الْإِخْوَانَ وَانْتَخَبْتُ الْأَقْوَامَ لِلْعُدَّةِ وَالشِّدَّةِ وَالنَّائِبَةِ فَلَمْ أَرَ شَيْئًا أَخْيَرَ مِنَ الْكَرَمِ عِنْدَهُمْ . وَطَلَبْتُ الْغِنَى مِنْ وُجُوهِهِ فَلَمْ أَرَ أَغْنَى مِنَ الْقُنُوعِ . وَتَصَدَّقْتُ بِالذَّخَائِرِ فَلَمْ أَرَ صَدَقَةً أَنْفَعَ مِنْ رَدِّ ذِي

ضَلالةٍ إلى هُدى . ورأيتُ الوحدةَ والغربةَ والمذلّةَ فلم أرَ أذلَّ من مُقاساةِ الجارِ السوءِ . وشيّدتُ البُنيانَ لأعزَّ بهِ وأُذكرَ فلم أرَ شرفًا أرفعَ من اصطناعِ المعروفِ . ولبستُ الكُسى الفاخرةَ فلم ألبسْ شيئًا مثلَ الصلاحِ . وطلبتُ أحسنَ الأشياءِ عندَ الناسِ فلم أرَ شيئًا أحسنَ من حُسنِ الخُلُقِ

٦٢ (فصلٌ) من حِكَمِ شاناقَ الهنديِّ من كتابِهِ الذي سمّاه مُنتحلَ الجواهرِ للملكِ ابنِ قمّابصَ الهنديِّ : يا أيُّها الوالي اتّقِ عثراتِ الزمانِ واخشَ تسلّطَ الأيّامِ ولؤمَ غلبةِ الدهرِ . واعلمْ أنَّ للأعمالِ جزاءً فاتّقِ العواقبَ وللأيّامِ غدراتٍ فكنْ على حذرٍ والزمانُ مُتقلّبٌ مُتوّلٌ فاحذرْ تقلّبهُ . لئيمُ الكرّةِ فخفْ سطوتَهُ . سريعُ الغيرةِ فلا تأمنْ دولتَهُ . واعلمْ أنَّ من لم يُداوِ نفسَهُ من سقامِ الآثامِ في أيّامِ حياتِهِ فما أبعدَهُ من الشفاءِ في دارٍ لا دواءَ لهُ فيها . ومَن أذلَّ حواسَّهُ واستعبدَها فيما يُقدّمُ من خيرِ نفسِهِ بانَ فضلُهُ وظهرَ نُبلُهُ . ومن لم يضبطْ نفسَهُ وهي واحدةٌ لم يضبطْ حواسَّهُ وهي خمسٌ . وإذا لم يضبطْ حواسَّهُ مع قلّتِها وذلّتِها صعبَ عليهِ ضبطُ الأعوانِ مع كثرتِهم وخشونةِ جانبِهم . فكانتْ عامّةُ الرعيّةِ في نواحي البلادِ وأطرافِ المملكةِ أبعدَ من الضبطِ . فليبدأِ الملكُ بسلطانِهِ على نفسِهِ فليسَ من عدوٍّ أحقَّ من أن يبدأهُ بالقهرِ من نفسِهِ . ثمَّ يشرعْ في قهرِ حواسِّهِ الخمسِ . لأنَّ قوّةَ الواحدةِ منهنَّ دونَ صويحباتِها قد تأتي على النفسِ

ٱلْقَوِيَّةِ ٱلْحَذِرَةِ فَكَيْفَ إِذَا ٱجْتَمَعَتْ خَمْسُ أَنْفُسٍ عَلَى وَاحِدَةٍ . وَٱعْلَمْ أَنَّ لِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ شَرًّا لَيْسَ لِلْأُخْرَى فَأَقْهَرْهَا تَسْلَمْ مِنْ شَرِّهَا . وَإِنَّمَا يَهْلِكُ ٱلْحَيَوَانُ بِٱلشَّهَوَاتِ . أَلَا تَرَى أَنَّ ٱلْفَرَاشَ يَكْرَهُ ٱلشَّمْسَ فَيَسْتَكِنُّ مِنْ حَرِّهَا وَيُعْجِبُهُ ضِيَاءُ ٱلنَّارِ فَيَدْنُو مِنْهَا فَتُحْرِقُهُ . وَٱلظَّبْيُ عَلَى نِفَارِ قَلْبِهِ وَشِدَّةِ حِرْصِهِ يَنْصَبُّ لِسَمَاعِ ٱلْمَلَاهِي فَيُمَكِّنُ ٱلْقَانِصَ مِنْ نَفْسِهِ . وَٱلسَّمَكُ فِي ٱلْبَحْرِ تَحْمِلُهُ لَذَّةُ ٱلطَّعْمِ أَنْ يَبْتَلِعَهُ فَتَحْصُلُ ٱلسِّنَّارَةُ فِي جَوْفِهِ فَيَكُونُ فِيهِ حَتْفُهُ

٦٣ يَحْسُنُ بِٱلْمَلِكِ أَنْ يُشَبِّهَ تَصَارِيفَ تَدْبِيرِهِ بِطِبَاعِ ثَمَانِيَةِ أَشْيَاءَ : ٱلْغَيْثِ وَٱلشَّمْسِ وَٱلْقَمَرِ وَٱلرِّيحِ وَٱلنَّارِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْمَاءِ وَٱلْمَوْتِ . فَأَمَّا شَبَهُ (ٱلْغَيْثِ) فَتَوَاتُرُهُ فِي أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ مِنَ ٱلسَّنَةِ وَمَنْفَعَتُهُ لِجَمِيعِ ٱلسَّنَةِ كَذَلِكَ يَنْبَغِي لِلْمَلِكِ أَنْ يُعْطِيَ جُنْدَهُ وَأَعْوَانَهُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ تَقْدِيرًا لِتَتِمَّةِ ٱلسَّنَةِ . فَيَجْعَلُ رَفِيعَهُمْ وَوَضِيعَهُمْ فِي ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي يَسْتَوْجِبُونَهُ بِمَنْزِلَةٍ وَاحِدَةٍ كَمَا يَسْرِي ٱلْمَطَرُ بَيْنَ كُلِّ أَكَمَةٍ وَشَرَفٍ وَغَائِطٍ مُسْتَفِلٍ . وَيَغْمُرُ كُلًّا مِنْ مَائِهِ بِقَدْرِ حَاجَتِهِ . ثُمَّ يَسْتَجْبِي ٱلْمَلِكُ فِي ٱلثَّمَانِيَةِ أَشْهُرًا حُقُوقَهُ مِنْ غَلَّاتِهِمْ وَخَرَاجِهِمْ كَمَا تَجْبِي ٱلشَّمْسُ بِحَرِّهَا وَحِدَّةِ فِعْلِهَا نَدَاوَةَ ٱلْغَيْثِ فِي أَرْبَعَةِ أَشْهُرِ ٱلْإِمْطَارِ . وَأَمَّا شَبَهُ (ٱلرِّيحِ) فَإِنَّ ٱلرِّيحَ لَطِيفَةُ ٱلْمَدَاخِلِ تَسْرَحُ فِي جَمِيعِ ٱلْمَنَافِذِ حَتَّى لَا يَفُوتَهَا مَكَانٌ كَذَلِكَ ٱلْمَلِكُ يَنْبَغِي أَنْ يَتَوَلَّجَ فِي قُلُوبِ ٱلنَّاسِ بِجَوَاسِيسِهِ وَعُيُونِهِ لَا يُخْفُونَ عَنْهُ شَيْئًا حَتَّى يَعْرِفَ مَا يَأْتَمِرُونَ بِهِ فِي بُيُوتِهِمْ وَأَسْوَاقِهِمْ .

وَكَالْقَمَرِ) إِذَا اسْتَهَلَّ تَمَامُهُ فَأَضَاءَ وَاعْتَدَلَ نُورُهُ عَلَى الْخَلْقِ وَسُرَّ النَّاسُ بِضَوْئِهِ. يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ بَهْجَتِهِ وَزِينَتِهِ وَإِشْرَاقِهِ فِي مَجْلِسِهِ وَإِينَاسِهِ رَعِيَّتَهُ بِبِشْرِهِ فَلَا يَخُصُّ شَرِيفًا دُونَ وَضِيعٍ بِعَدْلِهِ. (وَكَالنَّارِ) عَلَى أَهْلِ الدَّعَارَةِ وَالْفَسَادِ. (وَكَالْأَرْضِ) عَلَى كِتْمَانِ السِّرِّ وَالِاحْتِمَالِ وَالصَّبْرِ وَالْأَمَانَةِ. (وَكَعَاقِبَةِ الْمَوْتِ) فِي الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ يَكُونُ ثَوَابُهُ لَا يُقَصِّرُ عَنْ إِقَامَةِ حَدٍّ وَلَا يَتَجَاوَزُهُ. (وَكَالْمَاءِ) فِي لِينِهِ لِمَنْ لَايَنَهُ. وَهَدْمِهِ وَاقْتِلَاعِهِ عَظِيمَ الشَّجَرِ لِمَنْ جَاذَبَهُ (للطرطوشي)

اشعار حكمية

٦٤ قَالَ ٱبْنُ عَرَبْشَاه :

أَلسَّيْلُ يَقْلَعُ مَا يَلْقَاهُ مِنْ شَجَرٍ ... بَيْنَ الْجِبَالِ وَمِنْهُ الصَّخْرُ يَنْفَطِرُ
حَتَّى يُوَافِي عُبَابَ الْبَحْرِ تَنْظُرُهُ ... قَدِ اضْمَحَلَّ فَلَا يَبْقَى لَهُ أَثَرُ

وَقَالَ أَيْضًا :

وَالشَّرُّ كَالنَّارِ تَبْدُو حِينَ تَقْدَحُهُ ... شَرَارَةٌ فَإِذَا بَادَرْتَهُ خَمَدَا
وَإِنْ تَوَانَيْتَ عَنْ إِطْفَائِهِ كَسَلًا ... أَوْرَى قَبَائِلَ تَشْوِي الْقَلْبَ وَالْكَبِدَا
فَلَوْ تَجَمَّعَ أَهْلُ الْأَرْضِ كُلُّهُمُ ... لَمَا أَفَادُوكَ فِي إِخْمَادِهَا أَبَدَا

وَقَالَ أَيْضًا :

أَرَى النَّاسَ يُولُونَ الْغَنِيَّ كَرَامَةً ... وَإِنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلًا لِرِفْعَةِ مِقْدَارِ
وَيَلْوُونَ عَنْ وَجْهِ الْفَقِيرِ وُجُوهَهُمْ ... وَإِنْ كَانَ أَهْلًا أَنْ يُلَاقَى بِإِكْبَارِ
بَنُو الدَّهْرِ جَاءَتْهُمْ أَحَادِيثُ جَمَّةٌ ... فَمَا صَحَّحُوا إِلَّا حَدِيثَ ٱبْنِ دِينَارِ

٦٥ قَالَ غَيْرُهُ:

لَا تُعَامِلْ مَا عِشْتَ غَيْرَكَ إِلَّا بِالَّذِي أَنْتَ تَرْتَضِيهِ لِنَفْسِكْ
ذَاكَ عَيْنُ الصَّوَابِ فَالْزَمْهُ فِيمَا تَبْتَغِيهِ فِي كُلِّ أَبْنَاءِ جِنْسِكْ

قَالَ آخَرُ:

لَا يُعْجِبَنَّكَ حُسْنُ الْقَصْرِ تَنْزِلُهُ فَضِيلَةُ الشَّمْسِ لَيْسَتْ فِي مَنَازِلِهَا
لَوْ زِيدَتِ الشَّمْسُ فِي أَبْرَاجِهَا مِئَةً مَا زَادَ ذَلِكَ شَيْئًا فِي فَضَائِلِهَا

قَالَ غَيْرُهُ:

إِنَّ الْكَبِيرَ إِذَا هَوَى وَأَطَاعَهُ قَوْمٌ هَوَوْا مَعَهُ فَضَاعَ وَضِيعَا
مِثْلَ السَّفِينَةِ إِنْ هَوَتْ فِي لُجَّةٍ غَرِقَتْ وَيَغْرَقُ كُلُّ مَنْ فِيهَا مَعَا

قَالَ آخَرُ:

إِزْرَعْ جَمِيلًا وَلَوْ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ فَلَا يَضِيعُ جَمِيلٌ أَيْنَمَا زُرِعَا
إِنَّ الْجَمِيلَ وَإِنْ طَالَ الزَّمَانُ بِهِ فَلَيْسَ يَحْصُدُهُ إِلَّا الَّذِي زَرَعَا

قَالَ أَبُو أَحْمَدَ بْنُ مَاهَانَ الْخُزَاعِيُّ:

إِقْضِ الْحَوَائِجَ مَا اسْتَطَعْـ تَ وَكُنْ لِهَمِّ أَخِيكَ فَارِجْ
فَلَخَيْرُ أَيَّامِ الْفَتَى يَوْمٌ قَضَى فِيهِ الْحَوَائِجْ

٦٦ قَالَ الْقَطَامِيُّ الشَّاعِرُ النَّصْرَانِيُّ:

قَدْ يُدْرِكُ الْمُتَأَنِّي بَعْضَ حَاجَتِهِ وَقَدْ يَكُونُ مَعَ الْمُسْتَعْجِلِ الزَّلَلُ
وَقَدْ تَفُوتُ عَلَى قَوْمٍ حَوَائِجُهُمْ مَعَ التَّرَاخِي وَكَانَ الرَّأْيُ لَوْ عَجِلُوا

وَقَالَ آخَرُ:

وَإِيَّاكَ وَٱلْأَمْرَ ٱلَّذِي إِنْ تَوَسَّعَتْ　مَوَارِدُهُ ضَاقَتْ عَلَيْكَ ٱلْمَصَادِرُ
فَمَا حَسَنٌ أَنْ يَعْذِرَ ٱلْمَرْءُ نَفْسَهُ　وَلَيْسَ لَهُ مِنْ سَائِرِ ٱلنَّاسِ عَاذِرُ

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ بَشِيرٍ :

لَأَنْ أُزَجِّيَ عِنْدَ ٱلْعُرْيِ بِٱلْخَلَقِ　وَأَجْتَزِي مِنْ كَثِيرِ ٱلزَّادِ بِٱلْعَلَقِ
خَيْرٌ وَأَكْرَمُ لِي مِنْ أَنْ أَرَى مِنَنًا　مَعْقُودَةً لِلِئَامِ ٱلنَّاسِ فِي عُنُقِي
إِنِّي وَإِنْ قَصُرَتْ عَنْ هِمَّتِي جِدَتِي　وَكَانَ مَا لِي لَا يَقْوَى عَلَى خُلُقِي
لَتَارِكٌ كُلَّ أَمْرٍ كَانَ يُلْزِمُنِي　عَارًا وَيُشْرِعُنِي فِي ٱلْمَنْهَلِ ٱلرَّنِقِ

٦٧　وَقَالَ أَيْضًا :

مَاذَا يُكَلِّفُكَ ٱلرَّوْحَاتِ وَٱلدُّلَجَا　أَلْبَرَّ طَوْرًا وَطَوْرًا تَرْكَبُ ٱللُّجَجَا
كَمْ مِنْ فَتًى قَصُرَتْ فِي ٱلرِّزْقِ خُطْوَتُهُ　أَلْفَيْتَهُ بِسِهَامِ ٱلرِّزْقِ قَدْ فَلَجَا
إِنَّ ٱلْأُمُورَ إِذَا ٱنْسَدَّتْ مَسَالِكُهَا　فَٱلصَّبْرُ يَفْتُقُ مِنْهَا كُلَّ مَا ٱرْتُتِجَا
لَا تَيْأَسَنَّ وَإِنْ طَالَتْ مُطَالَبَةٌ　إِذَا ٱسْتَعَنْتَ بِصَبْرٍ أَنْ تَرَى فَرَجَا
أَخْلِقْ بِذِي ٱلصَّبْرِ أَنْ يَحْظَى بِحَاجَتِهِ　وَمُدْمِنِ ٱلْقَرْعِ لِلْأَبْوَابِ أَنْ يَلِجَا
قَدِّرْ لِرِجْلِكَ قَبْلَ ٱلْخَطْوِ مَوْضِعَهَا　فَمَنْ عَلَا زَلَقًا عَنْ غِرَّةٍ زَلَجَا
وَلَا يَغُرَّنْكَ صَفْوٌ أَنْتَ شَارِبُهُ　فَرُبَّمَا كَانَ بِٱلتَّكْدِيرِ مُمْتَزِجَا

٦٨　قَالَ ٱلْمُتَنَبِّي :

عَلَى قَدْرِ أَهْلِ ٱلْعَزْمِ تَأْتِي ٱلْعَزَائِمُ　وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ ٱلْكِرَامِ ٱلْمَكَارِمُ
وَتَعْظُمُ فِي عَيْنِ ٱلصَّغِيرِ صِغَارُهَا　وَتَصْغُرُ فِي عَيْنِ ٱلْعَظِيمِ ٱلْعَظَائِمُ

قَالَ آخَرُ :

فَقْرُ ٱلْفَتَى يُذْهِبُ أَنْوَارَهُ   كَمَا ٱصْفِرَارُ ٱلشَّمْسِ عِنْدَ ٱلْمَغِيبْ
إِنْ غَابَ لَا يُذْكَرُ بَيْنَ ٱلْوَرَى   وَمَا لَهُ فِي قَوْمِهِ مِنْ نَصِيبْ
يَجُولُ فِي ٱلْأَسْوَاقِ مُسْتَخْفِيًا   وَفِي ٱلْفَلَا يَبْكِي بِدَمْعٍ صَبِيبْ
وَٱللهِ مَا ٱلْإِنْسَانُ فِي أَهْلِهِ   إِذَا بُلِي بِٱلْفَقْرِ إِلَّا غَرِيبْ

قَالَ نَاهِضُ ٱلْكِلَابِيُّ:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ جَمْعَ ٱلْقَوْمِ يُخْشَى   وَأَنَّ حَرِيمَ وَاحِدِهِمْ مُبَاحُ
وَأَنَّ ٱلْقِدْحَ حِينَ يَكُونُ فَرْدًا   فَيُهْصَرُ لَا يَكُونُ لَهُ ٱقْتِدَاحُ

قَالَ آخَرُ:

مَا مِنَ ٱلْحَزْمِ أَنْ تُقَارِبَ أَمْرًا   تَطْلُبُ ٱلْبُعْدَ مِنْهُ بَعْدَ قَلِيلِ
فَإِذَا مَا هَمَمْتَ بِٱلشَّيْءِ فَٱنْظُرْ   كَيْفَ مِنْهُ ٱلْخُرُوجُ بَعْدَ ٱلدُّخُولِ

٦٩ كَتَبَ عَلِيٌّ إِلَى ٱبْنِهِ حُسَيْنٍ

أَحُسَيْنُ إِنِّي وَاعِظٌ وَمُؤَدِّبٌ   فَٱفْهَمْ فَإِنَّ ٱلْعَاقِلَ ٱلْمُتَأَدِّبُ
وَٱحْفَظْ وَصِيَّةَ وَالِدٍ مُتَحَنِّنٍ   يَغْذُوكَ بِٱلْآدَابِ كَيْلَا تَعْطَبُ
أَبُنَيَّ إِنَّ ٱلرِّزْقَ مَكْفُولٌ بِهِ   فَعَلَيْكَ بِٱلْإِجْمَالِ فِيمَا تَطْلُبُ
لَا تَجْعَلَنَّ ٱلْمَالَ كَسْبَكَ مُفْرَدًا   وَتُقَى إِلٰهِكَ فَٱجْعَلَنْ مَا تَكْسِبُ
كَفَلَ ٱلْإِلٰهُ بِرِزْقِ كُلِّ بَرِيَّةٍ   وَٱلْمَالُ عَارِيَةٌ تَجِيءُ وَتَذْهَبُ
وَٱلرِّزْقُ أَسْرَعُ مِنْ تَلَفُّتِ نَاظِرٍ   سَبَبًا إِلَى ٱلْإِنْسَانِ حِينَ يُسَبَّبُ
وَمِنَ ٱلسُّيُولِ إِلَى مَقَرِّ قَرَارِهَا   وَٱلطَّيْرِ لِلْأَوْكَارِ حِينَ تُصَوَّبُ
أَبُنَيَّ إِنَّ ٱلذِّكْرَ فِيهِ مَوَاعِظٌ   فَمَنِ ٱلَّذِي بِعِظَاتِهِ يَتَأَدَّبُ

وَٱعْبُدْ إِلٰهَكَ ذَا ٱلْمَعَارِجِ مُخْلِصًا — وَٱنْصِتْ إِلَى ٱلْأَمْثَالِ فِيمَا تُضْرَبُ
وَإِذَا مَرَرْتَ بِآيَةٍ مَخْشِيَّةٍ — تَصِفُ ٱلْعَذَابَ وَدَمْعُ عَيْنِكَ يَسْكُبُ
يَا مَنْ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ بِعَدْلِهِ — لَا تَجْعَلَنِّي فِي ٱلَّذِينَ تُعَذِّبُ
إِنِّي أَبُوءُ بِعَثْرَتِي وَخَطِيئَتِي — هٰذَا وَهَلْ إِلَّا إِلَيْكَ ٱلْمَهْرَبُ
وَإِذَا مَرَرْتَ بِآيَةٍ فِي ذِكْرِهَا — وَصْفُ ٱلْوَسِيلَةِ وَٱلنَّعِيمِ ٱلْمُعْجِبُ
فَٱسْأَلْ إِلٰهَكَ بِٱلْإِنَابَةِ مُخْلِصًا — دَارَ ٱلْخُلُودِ سُؤَالَ مَنْ يَتَقَرَّبُ
وَٱجْهَدْ لَعَلَّكَ أَنْ تَحُلَّ بِأَرْضِهَا — وَتَنَالَ مُلْكَ كَرَامَةٍ لَا تُسْلَبُ
بَادِرْ هَوَاكَ إِذَا هَمَمْتَ بِصَالِحٍ — خَوْفَ ٱلْغَوَالِبِ إِذْ تَجِيءُ وَتَغْلِبُ
وَإِذَا هَمَمْتَ بِسَيِّءٍ فَأَغْمِضْ لَهُ — كَأْبٍ عَلَى أَوْلَادِهِ يَتَحَدَّبُ
وَٱلضَّيْفَ أَكْرِمْ مَا ٱسْتَطَعْتَ جِوَارَهُ — حَتَّى يَعُدَّكَ وَارِثًا يَتَنَسَّبُ
وَٱجْعَلْ صَدِيقَكَ مَنْ إِذَا آخَيْتَهُ — حَفِظَ ٱلْإِخَاءَ وَكَانَ دُونَكَ يَقْرُبُ
وَٱطْلُبْهُمُ طَلَبَ ٱلْمَرِيضِ شِفَاءَهُ — وَدَعِ ٱلْكَذُوبَ فَلَيْسَ مِمَّنْ يُصْحَبُ
يُعْطِيكَ مَا فَوْقَ ٱلْمُنَى بِلِسَانِهِ — وَيَرُوغُ عَنْكَ كَمَا يَرُوغُ ٱلثَّعْلَبُ
وَٱحْذَرْ ذَوِي ٱلْمَلَقِ ٱللِّئَامَ فَإِنَّهُمْ — فِي ٱلنَّائِبَاتِ عَلَيْكَ مِمَّنْ يَخْطُبُ
يَسْعَوْنَ حَوْلَ ٱلْمَاءِ مَا طَمِعُوا بِهِ — وَإِذَا نَبَا دَهْرٌ جَفَوْا وَتَغَيَّبُوا
وَلَقَدْ نَصَحْتُكَ إِنْ قَبِلْتَ نَصِيحَتِي — وَٱلنُّصْحُ أَرْخَصُ مَا يُبَاعُ وَيُوهَبُ

٧٠ وَكَتَبَ لَهُ أَيْضًا:

عَلَيْكَ بِبِرِّ ٱلْوَالِدَيْنِ كِلَيْهِمَا — وَبِرِّ ذَوِي ٱلْقُرْبَى وَبِرِّ ٱلْأَبَاعِدِ
فَلَا تَصْحَبَنْ إِلَّا تَقِيًّا مُهَذَّبًا — عَفِيفًا زَكِيًّا مُنْجِزًا لِلْمَوَاعِدِ

وكُفَّ الأذى واحفظ لسانك واتّقِ ... فديتك في ودّ الخليل المساعدِ
ونافس ببذل المال في طلب العلى ... بهمّة محمود الخلائق ماجدِ
وكن واثقاً بالله في كلّ حادثٍ ... يصنك مدى الأيام من عين حاسدِ
وبالله فاستعصم ولا ترجُ غيره ... ولا تكُ في النعماء عنه بجاحدِ
وغضّ عن المكروه طرفك واجتنب ... أذى الجار واستمسك بحبل المحامدِ
ولا تبنِ في الدنيا بناء مؤمّلٍ ... خلوداً فما حيٌّ عليها بخالدِ
وكلّ صديقٍ ليس في الله ودّه ... فنادِ عليه هل به من مزايدِ

٧١ وقال أيضاً :

قدّم لنفسك في الحياة تزوّدا ... فلقد تفارقها وأنت مودّعُ
واهتمّ للسفر القريب فإنّه ... أنأى من السفر البعيد وأشنعُ
واجعل تزوّدك المخافة والتقى ... فلعلّ حتفك في مسائك أسرعُ
واقنع بقوتك فالقناع هو الغنى ... والفقر مقرونٌ بمن لا يقنعُ
واحذر مصاحبة اللئام فإنّهم ... منعوك صفو ودادهم وتصنّعوا
أهل المودّة ما أنلتهم الرضا ... وإذا منعت فسمّهم لك منقعُ
لا تفشِ سرّاً ما استطعت إلى امرئٍ ... يفشي إليك سرائراً يستودعُ
فكما تراه بسرّ غيرك صانعاً ... فكذا بسرّك لا محالة يصنعُ
لا تبدأنّ بمنطقٍ في مجلسٍ ... قبل السؤال فإنّ ذلك يشنعُ
فالصمت يحسن كلّ ظنٍّ بالفتى ... ولعلّه خرقٌ سفيهٌ أرقعُ
ودعِ المزاح فربّ لفظة مازحٍ ... جلبت إليك بلابلاً لا تدفعُ

وَحِفَاظَ جَارٍ لَا تُضِعْهُ فَإِنَّهُ ... لَا يَبْلُغُ ٱلشَّرَفَ ٱلْجَسِيمَ مُضَيِّعُ
وَإِذَا ٱسْتَقَالَكَ ذُو ٱلْإِسَاءَةِ عَثْرَةً ... فَأَقِلْهُ إِنَّ ثَوَابَ ذٰلِكَ أَوْسَعُ
وَإِذَا ٱؤْتُمِنْتَ عَلَى ٱلسَّرَائِرِ فَٱخْفِهَا ... وَٱسْتُرْ عُيُوبَ أَخِيكَ حِينَ تَطَلَّعُ
لَا تَجْزَعَنَّ مِنَ ٱلْحَوَادِثِ إِنَّمَا ... خَرِقُ ٱلرِّجَالِ عَلَى ٱلْحَوَادِثِ يَجْزَعُ
وَأَطِعْ أَبَاكَ بِكُلِّ مَا أَوْصَى بِهِ ... إِنَّ ٱلْمُطِيعَ أَبَاهُ لَا يَتَضَعْضَعُ

٧٢ وَقَالَ أَيْضًا:

صُنِ ٱلنَّفْسَ وَٱحْمِلْهَا عَلَى مَا يَزِينُهَا ... تَعِشْ سَالِمًا وَٱلْقَوْلُ فِيكَ جَمِيلُ
وَلَا تُرِيَنَّ ٱلنَّاسَ إِلَّا تَجَمُّلًا ... نَبَا بِكَ دَهْرٌ أَوْ جَفَاكَ خَلِيلُ
وَإِنْ ضَاقَ رِزْقُ ٱلْيَوْمِ فَٱصْبِرْ إِلَى غَدٍ ... عَسَى نَكَبَاتُ ٱلدَّهْرِ عَنْكَ تَزُولُ
يَعِزُّ غَنِيُّ ٱلنَّفْسِ إِنْ قَلَّ مَالُهُ ... وَيَغْنَى غَنِيُّ ٱلْمَالِ وَهْوَ ذَلِيلُ
وَلَا خَيْرَ فِي وُدِّ ٱمْرِئٍ مُتَلَوِّنٍ ... إِذَا ٱلرِّيحُ مَالَتْ مَالَ حَيْثُ تَمِيلُ
جَوَادٌ إِذَا ٱسْتَغْنَيْتَ عَنْ أَخْذِ مَالِهِ ... وَعِنْدَ ٱحْتِمَالِ ٱلْفَقْرِ عَنْكَ بَخِيلُ
فَمَا أَكْثَرَ ٱلْإِخْوَانَ حِينَ تَعُدُّهُمْ ... وَلٰكِنَّهُمْ فِي ٱلنَّائِبَاتِ قَلِيلُ

٧٣ وَمَا أَحْسَنَ مَا أَنْشَدَهُ صَالِحُ بْنُ عَبْدِ ٱلْقُدُّوسِ قَالَ:

أَلْمَرْءُ يَجْمَعُ وَٱلزَّمَانُ يُفَرِّقُ ... وَيَظَلُّ يَرْقَعُ وَٱلْخُطُوبُ تُمَزِّقُ
وَلَأَنْ يُعَادَى عَاقِلًا خَيْرٌ لَهُ ... مِنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ صَدِيقٌ أَحْمَقُ
فَٱرْبَأْ بِنَفْسِكَ أَنْ تُصَادِقَ أَحْمَقًا ... إِنَّ ٱلصَّدِيقَ عَلَى ٱلصَّدِيقِ مُصَدَّقُ
وَزِنِ ٱلْكَلَامَ إِذَا نَطَقْتَ فَإِنَّمَا ... يُبْدِي عُقُولَ ذَوِي ٱلْعُقُولِ ٱلْمَنْطِقُ
وَمِنَ ٱلرِّجَالِ إِذَا ٱسْتَوَتْ أَخْلَاقُهُمْ ... مَنْ يُسْتَشَارُ إِذَا ٱسْتُشِيرَ فَيُطْرِقُ

حتى يحلّ بكل وادٍ قلبهُ فيرى ويعرف ما يقول فينطق
لا ألفينك ثاويا في غربة إنّ الغريب بكل سهم يرشق
ما الناس إلّا عاملان فعاملٌ قد مات من عطش وآخر يغرق
والناس في طلب المعاش وإنما بالجدّ يرزق منهم من يرزق
لو يرزقون الناس حسب عقولهم ألفيت أكثر من ترى يتصدق
لكنّه فضل المليك عليهم هذا عليه موسّع ومضيّق
وإذا الجنازة والعروس تلاقيا ورأيت دمع نوائح يترقرق
سكت الذي تبع العروس مبهتا ورأيت من تبع الجنازة ينطق
وإذا امرؤ لسعته أفعى مرة تركته حين يجر حبل يفرق
بقي الذين إذا يقولوا يكذبوا ومضى الذين إذا يقولوا يصدقوا

٧٤ قال ديز بن عبد الله:

لكل ضيق من الأمور سعة والصبح والليل لا فلاح معه
ما بال من سره مصابك لا يملك شيئا لأمره وزعه
أذود عن حوضه ويدفعني يا قوم من عاذري من الخدعه
قد يجمع المال غير آكله ويأكل المال غير من جمعه
ويقطع الثوب غير لابسه ويلبس الثوب غير من قطعه
فاقبل من الدهر ما أتاك به من قرّ عينا بعيشه نفعه
وصل حبال البعيد إن وصل الحبل وأقص القريب إن قطعه
ولا تعاد الفقير علّك أن تركع يوما والدهر قد رفعه

البابُ الخامس
في الأمثال

فصل من نوادر كلام العرب

٧٥ (مِنْ حِكَمِ أَكْثَمَ بنِ صَيْفِيّ) وَهٰذَا رَجُلٌ كَانَ لَهُ عَقْلٌ وَحِلْمٌ وَمَعْرِفَةٌ وَتَجْرِبَةٌ . وَقَدْ عَلَّقُوا عَنْهُ حِكَماً لَطِيفَةً وَأَلَّفُوا فِيهَا تَصَانِيفَ . فَمِنْ حِكَمِهِ قَالَ : مَنْ فَسَدَتْ بِطَانَتُهُ كَانَ كَمَنْ غَصَّ بِالْمَاءِ . أَفْضَلُ مِنَ السُّؤَالِ رُكُوبُ الْأَهْوَالِ . مَنْ حَسَدَ النَّاسَ بَدَأَ بِمَضَرَّةِ نَفْسِهِ . أَلْعَدِيمُ مَنِ احْتَاجَ إِلَى لَئِيمٍ . مَنْ لَمْ يَعْتَبِرْ فَقَدْ خَسِرَ . مَا كُلُّ عَثْرَةٍ تُقَالُ . وَلَا كُلُّ فُرْصَةٍ تُنَالُ . قَدْ يُشْهَرُ السِّلَاحُ . فِي بَعْضِ الْمِزَاحِ . رُبَّ عِتْقٍ . شَرٌّ مِنْ رِقٍّ . أَنْتَ مُزْرٍ بِنَفْسِكَ إِنْ صَحِبْتَ مَنْ هُوَ دُونَكَ . لَيْسَ مَنْ خَادَنَ الْجَهُولَ . بِذِي مَعْقُولٍ . مَنْ جَالَسَ الْجُهَّالَ فَلْيَسْتَعِدَّ لِقِيلٍ وَقَالٍ . أَلْمِزَاحُ يُورِثُ الضَّغَائِنَ . غَثُّكَ خَيْرٌ مِنْ سَمِينِ غَيْرِكَ . مَنْ جَدَّ الْمَسِيرَ أَدْرَكَ الْمَقِيلَ . جَارُ الرَّجُلِ الْجَوَادِ كَمُجَاوِرِ الْبَحْرِ لَا يَخَافُ الْعَطَشَ . مَنْ طَلَبَ مِنَ اللَّئِيمِ حَاجَةً . كَانَ كَمَنْ طَلَبَ السَّمَكَ فِي الْمَفَازَةِ . عِدَةُ الْكَرِيمِ نَقْدٌ وَعِدَةُ اللَّئِيمِ تَسْوِيفٌ . أَلْأَنَامُ فَرَائِسُ الْأَيَّامِ . قَدْ تُكْسَرُ الْيَوَاقِيتُ فِي بَعْضِ الْمَوَاقِيتِ . مَنْ أَعَزَّ نَفْسَهُ . أَذَلَّ فَلْسَهُ . مَنْ سَلَكَ الْجَدَدَ أَمِنَ الْعِثَارَ (للطرطوشي)

نبذ من كلام الزمخشري والبستي

٧٦ مَن بَلَغَ غَايَةَ مَا يُحِبُّ فَلْيَتَوَقَّعْ غَايَةَ مَا يَكْرَهُ . لَا تَشْرَبِ ٱلسُّمَّ ٱتِّكَالًا عَلَى مَا عِندَكَ مِنَ ٱلتِّرْيَاقِ . لَا تَكُنْ مِمَّنْ يَلْعَنُ إِبْلِيسَ فِي ٱلْعَلَانِيَةِ وَيُوَالِيهِ فِي ٱلسِّرِّ . عَادَاتُ ٱلسَّادَاتِ سَادَاتُ ٱلْعَادَاتِ . ٱللُّطْفُ رُشْوَةُ مَنْ لَا رُشْوَةَ لَهُ . مَنْ تَاجَرَ ٱللهَ لَمْ يُوكَسْ بَيْعُهُ . وَلَمْ يُبْخَسْ رَيْعُهُ . أَدْوِيَةُ ٱلدُّنْيَا تَقْصُرُ عَنْ سُمُومِهَا . وَنَسِيمُهَا لَا يَفِي بِسَمُومِهَا . مَنْ زَرَعَ ٱلْإِحَنَ . حَصَدَ ٱلْمِحَنَ . لَا بُدَّ لِلْفَرَسِ مِنْ سَوْطٍ . وَإِنْ كَانَ بَعِيدَ ٱلشَّوْطِ . شُعَاعُ ٱلشَّمْسِ لَا يَخْفَى . وَنُورُ ٱلْحَقِّ لَا يُطْفَى . أَعْمَالُكَ نِيَّةٌ . إِنْ لَمْ تُنْضِجْهَا بِنِيَّةٍ . لَا يَجِدُ ٱلْأَحْمَقُ لَذَّةَ ٱلْحِكْمَةِ . كَمَا لَا يَلْتَذُّ بِٱلْوَرْدِ صَاحِبُ ٱلزُّكْمَةِ . طُوبَى لِمَنْ كَانَتْ خَاتِمَةُ عُمْرِهِ كَفَاتِحَتِهِ . وَلَيْسَتْ أَعْمَالُهُ بِفَاضِحَتِهِ . أَفْضَلُ مَا ٱدَّخَرْتَ ٱلتَّقْوَى . وَأَجْمَلُ مَا لَبِسْتَ ٱلْوَرَعُ . وَأَحْسَنُ مَا ٱكْتَسَبْتَ ٱلْحَسَنَاتُ . كَفَى بِٱلظَّفَرِ شَفِيعًا بِٱلذَّنْبِ . أَحَقُّ ٱلنَّاسِ بِٱلزِّيَادَةِ فِي ٱلنِّعَمِ أَشْكَرُهُمْ لِمَا أُوتِيَ مِنْهَا . ظَهْرُ ٱلْعِتَابِ خَيْرٌ مِنْ مَكْنُونِ ٱلْحِقْدِ . قَالَ ٱلْجِدَارُ لِلْوَتِدِ : لِمَ تَشُقُّنِي . قَالَ : سَلْ مَنْ يَدُقُّنِي . مَنْ نَصَرَ ٱلْحَقَّ قَهَرَ ٱلْخَلْقَ . رُبَّمَا كَانَ حَتْفُ ٱمْرِئٍ فِي مَا تَمَنَّى

ما ضُرب به المثل من الحيوان وغيره

٧٧ إِنَّمَا كَانَتِ ٱلْعَرَبُ أَكْثَرُ أَمْثَالِهَا مَضْرُوبَةٌ بِٱلْبَهَائِمِ فَلَا يَكَادُونَ يَذُمُّونَ وَلَا يَمْدَحُونَ إِلَّا بِذٰلِكَ لِأَنَّهُمْ جَعَلُوا مَسَاكِنَهُمْ بَيْنَ ٱلسِّبَاعِ وَٱلْأَحْنَاشِ وَٱلْحَشَرَاتِ فَٱسْتَعْمَلُوا ٱلتَّمْثِيلَ بِهَا . قَالُوا : أَشْجَعُ مِنْ أَسَدٍ .

وَأَجبَنُ مِنَ ٱلصَّافِرِ . وَأَمضَى مِن لَيثِ عِفرِينَ . وَأَحذَرُ مِن غُرَابٍ . وَأَبصَرُ مِن عُقَابٍ . وَأَزهَى مِن ذُبَابٍ . وَأَذَلُّ مِن قُرَادٍ . وَأَسمَعُ مِن فَرَسٍ . وَأَنوَمُ مِن فَهدٍ . وَأَعَقُّ مِن ضَبٍّ . وَأَجبَنُ مِن صِفرِدٍ . وَأَضرَعُ مِن سِنَّورٍ . وَأَسرَقُ مِن زَبَابَةٍ . وَأَصبَرُ مِن عُودٍ . وَأَظلَمُ مِن حَيَّةٍ . وَأَحَنُّ مِن نَابٍ . وَأَكذَبُ مِن فَاخِتَةٍ . وَأَعَزُّ مِن بَيضِ ٱلأَنُوقِ . وَأَجوَعُ مِن كَلبَةِ حَومَلٍ . وَأَعَزُّ مِنَ ٱلأَبلَقِ ٱلعَقُوقِ . (أَلصَّافِرُ ٱلصَّغِيرُ مِنَ ٱلطَّيرِ . وَٱلعَودُ ٱلمُسِنُّ مِنَ ٱلجِمَالِ . وَٱلأَنُوقُ طَيرٌ يُقَالُ إِنَّهُ يَبِيضُ فِي ٱلهَوَاءِ . وَٱلزَّبَابَةُ ٱلفَأرَةُ تَسرِقُ دُودَ ٱلحَرِيرِ . وَفَاخِتَةٌ طَيرٌ يَطِيرُ بِٱلرُّطَبِ فِي غَيرِ أَيَّامِهِ)

(مَا ضُرِبَ بِهِ ٱلمَثَلُ مِن غَيرِ ٱلحَيَوَانِ) . قَالُوا : أَهدَى مِنَ ٱلنَّجمِ . وَأَجوَدُ مِنَ ٱلدِّيَمِ . وَأَصبَحُ مِنَ ٱلصُّبحِ . وَأَسمَحُ مِنَ ٱلبَحرِ . وَأَنوَرُ مِنَ ٱلنَّهَارِ . وَأَمضَى مِنَ ٱلسَّيلِ . وَأَحمَقُ مِن دِجلَةَ . وَأَحسَنُ مِن دُمْيَةٍ . وَأَنزَهُ مِن رَوضَةٍ . وَأَوسَعُ مِنَ ٱلدَّهنَاءِ . وَآنَسُ مِن جَدوَلٍ . وَأَضيَقُ مِن قَرَارِ حَافِرٍ . وَأَوحَشُ مِن مَفَازَةٍ . وَأَثقَلُ مِن جَبَلٍ . وَأَبقَى مِنَ ٱلوَحيِ فِي صُمِّ ٱلصِّلَابِ . وَأَخَفُّ مِن رِيشِ ٱلحَوَاصِلِ (لابن عبد ربه)

٧٨ أَشعَارٌ جَارِيَةٌ مَجرَى ٱلمَثَلِ وَهِيَ لِشُعَرَاءَ مُختَلِفِينَ :

أَخَاكَ أَخَاكَ إِنَّ مَن لَا أَخَا لَهُ كَسَاعٍ إِلَى ٱلهَيجَا بِغَيرِ سِلَاحِ

إِذَا كَانَ غَيرُ ٱللهِ لِلمَرءِ عُدَّةً أَتَتهُ ٱلرَّزَايَا مِن وُجُوهِ ٱلمَكَاسِبِ

إِذَا مَا أَتَيتَ ٱلأَمرَ مِن غَيرِ بَابِهِ ضَلَلتَ وَإِن تَقصِدْ إِلَى ٱلبَابِ تَهتَدِي

إِذَا لَمْ يَكُنْ عِنْدِي نَوَالٌ هَجَرْتَنِي ... وَإِنْ كَانَ لِي مَالٌ فَأَنْتَ صَدِيقِي

إِذَا أَنْتَ لَمْ تُعْلِمْ طَبِيبَكَ كُلَّ مَا ... يَسُوءُكَ أَبْعَدْتَ الدَّوَاءَ عَنِ السُّقْمِ

إِنِ اخْتَفَى مَا فِي الزَّمَانِ الْآتِي ... فَقِسْ عَلَى الْمَاضِي مِنَ الْأَوْقَاتِ

إِذَا لَمْ يُعِنْ قَوْلَ النَّصِيحِ قَبُولُ ... فَإِنَّ مَعَارِيضَ الْكَلَامِ فُضُولُ

أَرَى مَاءً وَبِي عَطَشٌ شَدِيدٌ ... وَلٰكِنْ لَا سَبِيلَ إِلَى الْوُرُودِ

إِذَا رُمْتَ أَنْ تُصْفِي لِنَفْسِكَ صَاحِبًا ... فَمِنْ قَبْلِ أَنْ تُصْفِي لَهُ الْوُدَّ أَغْضِبْهُ

أَلَمْ تَرَ أَنَّ السَّيْفَ يُزْرَى بِقَدْرِهِ ... إِذَا قِيلَ هٰذَا السَّيْفُ أَمْضَى مِنَ الْعَصَا

إِنَّ الْأُمُورَ إِذَا بَدَتْ لِزَوَالِهَا ... فَعَلَامَةُ الْإِدْبَارِ فِيهَا تَظْهَرُ

إِذَا سَاءَ فِعْلُ الْمَرْءِ سَاءَتْ ظُنُونُهُ ... وَصَدَّقَ مَا يَعْتَادُهُ مِنْ تَوَهُّمِ

إِنْ تَجِدْ عَيْبًا فَسُدَّ الْخَلَلَا ... جَلَّ مَنْ لَا عَيْبَ فِيهِ وَعَلَا

تَفَرَّقَتْ غَنَمِي يَوْمًا فَقُلْتُ لَهَا ... يَا رَبِّ سَلِّطْ عَلَيْهَا الذِّئْبَ وَالضَّبُعَا

تَرَقَّبْ جَزَا الْحُسْنَى إِذَا كُنْتَ مُحْسِنًا ... وَلَا تَخْشَ مِنْ سُوءٍ إِذَا أَنْتَ لَا تُسِي

الْخَيْرُ لَا يَأْتِيكَ مُتَّصِلًا ... وَالشَّرُّ يَسْبِقُ سَيْلَهُ الْمَطَرُ

ذِكْرُ الْفَتَى عُمْرُهُ الثَّانِي وَحَاجَتُهُ ... مَا قَاتَهُ وَفُضُولُ الْعَيْشِ أَشْغَالُ

ذُو الْفَضْلِ لَا يَسْلَمُ مِنْ قَدْحٍ ... وَإِنْ غَدَا أَقْوَمَ مِنْ قِدْحِ

الرَّأْيُ يَصْدَأُ كَالْحُسَامِ لِعَارِضٍ ... يَطْرَا عَلَيْهِ وَصَقْلُهُ التَّذْكِيرُ

سَبَكْنَاهُ وَنَحْسَبُهُ لُجَيْنًا ... فَأَبْدَى الْكِيرُ عَنْ خَبَثِ الْحَدِيدِ

عَفَافُكَ غَيٌّ إِنَّمَا عِفَّةُ الْفَتَى ... إِذَا عَفَّ مِنْ لَذَّاتِهِ وَهْوَ قَادِرُ

غُلَامٌ أَتَاهُ اللُّؤْمُ مِنْ شَطْرِ نَفْسِهِ ... وَلَمْ يَأْتِهِ مِنْ شَطْرِ أُمٍّ وَلَا أَبِ

فقال قم قلت رجلي لا تطاوعني ... فقال خذ قلت كفي لا تواتيني

فلا تجعل الحسن الدليل على الفتى ... فما كل مصقول الحديد يماني

فالدر وهو أجل شيء يقتنى ... ما حط قيمته هوان الغائص

قد قيل ذلك إن صدقا وإن كذبا ... فما احتيالك في شيء وقد قيلا

لا يعجبن مضيما حسن بزته ... وهل تروق دفينا جودة الكفن

لا ترج شيئا خالصا نفعه ... فالغيث لا يخلو من الغث

لا تغرنك هذه الأوجه الغر ... فيا رب حية في رياض

لا تحسب المجد رطبا أنت آكله ... لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى ... حتى يراق على جوانبه الدم

لا تحقرن شأن العدو وكيده ... ولربما صرع الأسود الثعلب

لعل عتبك محمود عواقبه ... وربما صحت الأجساد بالعلل

ماذا لقيت من الدنيا وأعجبها ... أني بما أنا باك منه محسود

ما لقوي عن ضعيف غنى ... لا بد للسهم من الريش

من ليس يخشى أسود الغاب إن زأرت ... فكيف يخشى كلاب الحي إن نبحت

لا يحمل الحقد من تعلو به الرتب ... ولا ينال العلى من طبعه الغضب

المرء يحيا بلا ساق ولا عضد ... ولا يعيش بلا قلب ولا أدب

نبني كما كانت أوائلنا ... تبني ونفعل مثلما فعلوا

وقد يكسف المرء من دونه ... كما يكسف الشمس جرم القمر

ولا تقرب الأمر الحرام فإنه ... حلاوته تفنى ويبقى مريرها

(٦٢)

وَلَوْ لَبِسَ الْحِمَارُ ثِيَابَ خَزٍّ   لَقَالَ النَّاسُ يَا لَكَ مِنْ حِمَارِ
وَإِذَا افْتَقَرْتَ إِلَى الذَّخَائِرِ لَمْ تَجِدْ   ذُخْرًا يَكُونُ كَصَالِحِ الأَعْمَالِ
وَإِنِّي أَرَى فِي عَيْنِكَ الْجِذْعَ مُعْرِضًا   وَتَعْجَبُ إِنْ أَبْصَرْتَ فِي عَيْنِي الْقَذَى
وَمَا أَقْبَحَ التَّفْرِيطَ فِي زَمَنِ الصِّبَا   فَكَيْفَ بِهِ وَالشَّيْبُ لِلرَّأْسِ شَامِلُ
وَتَشَتُّتُ الأَعْدَاءِ فِي آرَائِهِمْ   سَبَبٌ لِجَمْعِ خَوَاطِرِ الأَحْبَابِ
وَكُلُّ جَدِيدٍ قَدْ يَؤُولُ إِلَى بِلًى   وَكُلُّ امْرِئٍ يَوْمًا يَصِيرُ إِلَى كَانَا
وَإِذَا كَانَتِ النُّفُوسُ كِبَارًا   تَعِبَتْ فِي مُرَادِهَا الأَجْسَامُ
وَمَاذَا أُرَجِّي مِنْ حَيَاةٍ تَكَدَّرَتْ   وَلَوْ قَدْ صَفَتْ كَانَتْ كَأَحْلَامِ نَائِمِ
وَلَمْ أَرَ مِثْلَ الشُّكْرِ جُنَّةَ غَارِسٍ   وَلَا مِثْلَ حُسْنِ الصَّبْرِ جُبَّةَ لَابِسِ
وَفِي السَّمَاءِ نُجُومٌ مَا لَهَا عَدَدٌ   وَلَيْسَ يُكْسَفُ إِلَّا الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ
وَنَارٌ إِنْ نَفَخْتَ بِهَا أَضَاءَتْ   وَلَكِنْ أَنْتَ تَنْفُخُ فِي رَمَادِ
وَإِنِّي رَأَيْتُ الْحُزْنَ لِلْحُزْنِ مَاحِيًا   كَمَا خُطَّ فِي الْقِرْطَاسِ سَطْرٌ عَلَى سَطْرِ
وَيُمْكِنُ وَصْلُ الْحَبْلِ بَعْدَ انْقِطَاعِهِ   وَلَكِنَّهُ يَبْقَى بِهِ عُقْدَةُ الرَّبْطِ
وَعَيْنُ الرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ   كَمَا أَنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدِي الْمَسَاوِيَا
وَإِذَا كَانَ مُنْتَهَى الْعُمْرِ مَوْتًا   فَسَوَاءٌ طَوِيلُهُ وَالْقَصِيرُ
وَإِذَا أَرَادَ اللهُ نُصْرَةَ عَبْدِهِ   كَانَتْ لَهُ أَعْدَاؤُهُ أَنْصَارَا
وَمَنْ يَتَشَبَّثْ فِي الْعَدَاوَةِ كَفُّهُ   بِأَكْبَرَ مِنْهُ فَهُوَ لَا شَكَّ هَالِكُ
يَهْوَى الثَّنَاءَ مُبَرِّزٌ وَمُقَصِّرٌ   حُبُّ الثَّنَاءِ طَبِيعَةُ الإِنْسَانِ
يَقُولُونَ لِي أَهْلًا وَسَهْلًا وَمَرْحَبًا   وَلَوْ ظَفِرُوا بِي سَاعَةً قَتَلُونِي

البابُ السّادسُ
في أمثالٍ عن ألسنةِ الحيواناتِ

البازي والديك

٧٩ بازٌ وديكٌ تناظرا . فقالَ البازي للديكِ : ما أعرفُ أقلَّ وفاءً منكَ لأصحابِكَ . قالَ : وكيفَ . قالَ : تُؤخذُ بيضةً وتحضنُكَ أهلُكَ وتخرجُ على أيديهم فيطعمونكَ بأيديهم . حتّى إذا كبرتَ صرتَ لا يدنو منكَ أحدٌ إلّا طرتَ من هنا إلى هنا وصحتَ . وعلوتَ على حائطِ دارٍ كنتَ فيها سنينَ طرتَ منها إلى غيرِها . وأمّا أنا فأُوخذُ من الجبالِ وقد كبرَ سنّي فتُخاطُ عيني . وأُطعَمُ الشيءَ اليسيرَ وأُساهَرُ فأُمنعُ من النومِ وأُنسى اليومَ واليومينِ . ثمّ أُطلَقُ على الصيدِ وحدي فأطيرُ إليهِ وآخذُهُ وأجيءُ بهِ إلى صاحبي . فقالَ لهُ الديكُ : ذهبتْ عنكَ الحجّةُ أما لو رأيتَ بازيينِ في سفودِ النارِ ما عدتَ لهم . وأنا في كلِّ وقتٍ أرى السفافيدَ مملوءةً ديوكًا . فلا تكنْ حليمًا عندَ غضبِ غيرِكَ (لبهاء الدين)

برغوث وبعوضة

٨٠ حُكيَ أنّهُ اجتمعَ برغوثٌ وبعوضةٌ . فقالتِ البعوضةُ للبرغوثِ : إنّي لأعجبُ من حالي وحالِكَ . أنا أفصحُ منكَ لسانًا . وأوضحُ بيانًا . وأرجحُ ميزانًا . وأكبرُ شأنًا . وأكثرُ طيرانًا . ومعَ هذا فقد أضرَّ بي

ٱلْجوعُ . وحرمني ٱلْهجوعَ . ولا أزالُ عليلةً مجهودةً . مُبعدةً عنِ الطّريقِ مطرودةً . وأنتَ تأكلُ وتشبعُ . وفي نواعمِ ٱلْأبدانِ ترتعُ . فقالَ لها ٱلْبرغوثُ : أنتِ بينَ ٱلْعالمِ مُطنطنةٌ . وعلى رؤوسهم مدندنةٌ . وأنا قد توصلتُ إلى قوتي . بِسببِ سكوتي

اللبوة والغزال والقرد

٨١ حكيَ أنَّ لبوةً كانتْ ساكنةً بغابةٍ . وبجوارِها غزالٌ وقردٌ قد ألِفتْ جوارَهما وٱستحسنتْ عِشرتَهما . وكانَ لِتلكَ ٱللبوةِ شبلٌ صغيرٌ قدْ شُغفتْ بهِ حبًّا وقرّتْ بهِ عينًا . وطابتْ بهِ قلبًا . وكانَ لجارِها ٱلْغزالِ أولادٌ صِغارٌ . وكانتِ ٱللبوةُ تذهبُ كلَّ يومٍ تبتغي قوتًا لِشبلِها مِنَ ٱلنباتِ وصِغارِ ٱلْحيوانِ . وكانتْ تمرُّ في طريقِها على أولادِ ٱلْغزالِ . وهنَّ يلعبنَ ببابِ جُحرِهنَّ . فحدّثتْ نفسَها يومًا بٱقتناصِ واحدٍ فتجعلُه قوتَ ذلكَ ٱلْيومِ وتستريحَ فيهِ مِنَ ٱلذهابِ . ثمَّ أقلعتْ عنْ هذا ٱلْعزمِ لِحرمةِ ٱلْجوارِ ثمَّ عاودَها ٱلشرهُ ثانيًا معَ ما تجدُ مِنَ ٱلْقوّةِ وٱلْعظمِ . وأكّدَ ذلكَ ضعفُ ٱلْغزالِ وٱستلامهُ لأمرِ ٱللبوةِ . فأخذتْ ظبيًا منهم ومضتْ فلمّا علِمَ ٱلْغزالُ داخلهُ ٱلْحزنُ وٱلْقلقُ ولمْ يقدرْ على إظهارِ ذلكَ وشكا لجارهِ ٱلْقردِ . فقالَ لهُ : هوّنْ عليكَ فلعلّها تُقلعُ عنْ هذا ونحنُ لا نستطيعُ مكاشفتَها ولعلّي أنْ أذكّرَها عاقبةَ ٱلْعدوانِ وحرمةَ ٱلْجيرانِ . فلمّا كانَ ٱلْغدُ أخذتْ ظبيًا ثانيًا فلقيَها ٱلْقردُ في طريقِها فسلّمَ عليها وحيّاها وقالَ لها : إنّي لا آمنُ

عَلَيْكَ عاقِبَةُ ٱلْبَغْيِ وَإِساءَةِ ٱلْجِوارِ. فَقالَتْ لَهُ: وَهَلِ ٱقْتِناصِي لِأَوْلادِ ٱلْغِزالِ. إِلَّا كَٱقْتِناصِي مِنْ أَطْرافِ ٱلْجِبالِ. وَما أَنا تارِكَةٌ قُوتِي وَقَدْ ساقَهُ ٱلْقَدَرُ إِلَى بابِ بَيْتِي. فَقالَ لَها ٱلْقِرْدُ: هٰكَذا ٱغْتَرَّ ٱلْفِيلُ بِعَظِيمِ جُثَّتِهِ. وَوُفُورِ قُوَّتِهِ فَبَحَثَ عَنْ حَتْفِهِ بِظِلْفِهِ. وَأَوْبَقَهُ ٱلْبَغْيُ رَغْمَ أَنْفِهِ. فَقالَتِ ٱللَّبُوَةُ: كَيْفَ كانَ ذٰلِكَ. قالَ ٱلْقِرْدُ: ذَكَرُوا أَنَّ قُنْبُرَةً كانَ لَها عُشٌّ فَباضَتْ وَفَرَّخَتْ فِيهِ وَكانَ فِي نَواحِي تِلْكَ ٱلْأَرْضِ فِيلٌ وَكانَ لَهُ مَشْرَبٌ يَتَرَدَّدُ إِلَيْهِ. وَكانَ يَمُرُّ فِي بَعْضِ ٱلْأَيّامِ عَلَى عُشِّ ٱلْقُنْبُرَةِ. فَفِي ذاتِ يَوْمٍ أَرادَ مَشْرَبَهُ فَعَمَدَ إِلَى ذٰلِكَ ٱلْعُشِّ وَوَطِئَهُ وَهَشَّمَ رُكْنَهُ. وَأَتْلَفَ بَيْضَها وَأَهْلَكَ فِراخَها. فَلَمّا نَظَرَتِ ٱلْقُنْبُرَةُ إِلَى ما حَلَّ بِعُشِّها ساءَها ذٰلِكَ وَعَلِمَتْ أَنَّهُ مِنَ ٱلْفِيلِ. فَطارَتْ حَتَّى وَقَعَتْ عَلَى رَأْسِهِ باكِيَةً وَقالَتْ لَهُ: أَيُّها ٱلْمَلِكُ ما ٱلَّذِي حَمَلَكَ عَلَى أَنْ وَطِئْتَ عُشِّي وَهَشَّمْتَ بَيْضِي وَقَتَلْتَ أَفْراخِي وَإِنَّنا فِي جِوارِكَ. أَفَعَلْتَ ذٰلِكَ ٱسْتِضْعافًا بِحالِي وَقِلَّةَ مُبالاةٍ بِأَمْرِي. قالَ ٱلْفِيلُ: هُوَ كَذٰلِكَ فَٱنْصَرَفَتِ ٱلْقُنْبُرَةُ إِلَى جَماعَةِ ٱلطُّيُورِ فَشَكَتْ إِلَيْهِمْ ما نالَها مِنَ ٱلْفِيلِ فَقالَتْ لَها ٱلطُّيُورُ: وَما عَسانا أَنْ نَبْلُغَ مِنَ ٱلْفِيلِ وَنَحْنُ طُيُورٌ. فَقالَتْ لِلْعَقاعِقِ وَٱلْغِرْبانِ: إِنِّي أُرِيدُ مِنْكُمْ أَنْ تَسِيرُوا مَعِي إِلَيْهِ فَتَفْقَؤُوا عَيْنَيْهِ. فَأَنا بَعْدَ ذٰلِكَ أَحْتالُ عَلَيْهِ بِحِيلَةٍ أُخْرَى. فَأَجابُوها إِلَى ذٰلِكَ وَمَضَوْا إِلَى ٱلْفِيلِ. وَلَمْ يَزالُوا بِهِ يَتَجاذَبُونَهُ بَيْنَهُمْ وَيَنْقُرُونَ عَيْنَيْهِ إِلَى أَنْ فَقَؤُوهُما وَبَقِيَ لا يَهْتَدِي إِلَى طَرِيقِ مَطْعَمِهِ وَلا مَشْرَبِهِ. فَلَمّا عَلِمَتْ

ذٰلِكَ جاءَتْ إلَى نَهَرٍ فِيهِ ضَفَادِعُ فَشَكَتْ مَا نَالَهَا مِنَ ٱلْفِيلِ . فَقَالَتِ ٱلضَّفَادِعُ : مَا حِيلَتُنَا مَعَ ٱلْفِيلِ وَلَسْنَا كُفْأَهُ وَأَيْنَ نَبْلُغُ مِنْهُ . قَالَتِ ٱلْقُنْبَرَةُ : أُحِبُّ مِنْكُنَّ أَنْ تَذْهَبْنَ مَعِي إلَى وَهْدَةٍ بِٱلْقُرْبِ مِنْهُ فَتَقِقْنَ تَضْجَجْنَ بِهَا . فَإذَا سَمِعَ أَصْوَاتَكُنَّ لَمْ يَشُكَّ أَنَّ بِهَا مَاءً فَيَكُبَّ نَفْسَهُ فِيهَا . فَأَجَابَهَا ٱلضَّفَادِعُ إلَى ذٰلِكَ فَلَمَّا سَمِعَ ٱلْفِيلُ أَصْوَاتَهُنَّ فِي قَعْرِ ٱلْحُفْرَةِ تَوَهَّمَ أَنَّ بِهَا مَاءً . وَكَانَ عَلَى جُهْدٍ مِنَ ٱلْعَطَشِ فَجَاءَ مُكِبًّا عَلَى طَلَبِ ٱلْمَاءِ فَسَقَطَ فِي ٱلْوَهْدَةِ وَلَمْ يَجِدْ مَخْرَجًا مِنْهَا . فَجَاءَتِ ٱلْقُنْبَرَةُ تُرَفْرِفُ عَلَى رَأْسِهِ وَقَالَتْ لَهُ : أَيُّهَا ٱلْمُغْتَرُّ بِقُوَّتِهِ ٱلصَّائِلُ عَلَى ضُعْفِي كَيْفَ رَأَيْتَ عَظِيمَ حِيلَتِي مَعَ صِغَرِ جُثَّتِي . وَبَلَادَةَ فَهْمِكَ مَعَ كِبَرِ جِسْمِكَ . وَكَيْفَ رَأَيْتَ عَاقِبَةَ ٱلْبَغْيِ وَٱلْعُدْوَانِ . وَمُسَالَمَةَ ٱلزَّمَانِ . فَلَمْ يَجِدِ ٱلْفِيلُ مَسْلَكًا لِجَوَابِهَا . وَلَا طَرِيقًا لِخِطَابِهَا . فَلَمَّا ٱنْتَهَى ٱلْقِرْدُ فِي غَايَةِ مَا ضَرَبَهُ لِلَّبُوَةِ مِنَ ٱلْمَثَلِ أَوْسَعَتْهُ ٱنْتِهَارًا وَأَعْرَضَتْ عَنْهُ ٱسْتِكْبَارًا . ثُمَّ إنَّ ٱلْغَزَالَ ٱنْتَقَلَتْ بِمَا بَقِيَ مِنْ أَوْلَادِهَا تَبْتَغِي لَهَا جُحْرًا آخَرَ . وَإنَّ ٱللَّبُوَةَ خَرَجَتْ ذَاتَ يَوْمٍ تَطْلُبُ صَيْدًا وَتَرَكَتْ شِبْلَهَا . فَمَرَّ بِهِ فَارِسٌ فَلَمَّا رَآهُ حَمَلَ عَلَيْهِ فَقَتَلَهُ وَسَلَخَ جِلْدَهُ وَأَخَذَهُ وَتَرَكَ لَحْمَهُ وَذَهَبَ فَلَمَّا رَجَعَتِ ٱللَّبُوَةُ وَرَأَتْ شِبْلَهَا مَقْتُولًا مَسْلُوخًا رَأَتْ أَمْرًا فَظِيعًا . فَٱمْتَلَأَتْ غَيْظًا وَنَاحَتْ نَوْحًا عَالِيًا وَدَاخَلَهَا هَمٌّ شَدِيدٌ . فَلَمَّا سَمِعَ ٱلْقِرْدُ صَوْتَهَا أَقْبَلَ عَلَيْهَا مُسْرِعًا فَقَالَ لَهَا : وَمَا دَهَاكِ . فَقَالَتِ ٱللَّبُوَةُ : مَرَّ صَيَّادٌ بِشِبْلِي فَفَعَلَ بِهِ مَا تَرَى . فَقَالَ لَهَا : لَا تَجْزَعِي وَلَا تَحْزَنِي وَأَنْصِفِي مِنْ نَفْسِكِ وَٱصْبِرِي عَنْ غَيْرِكِ

كما صبر غيرك عنك. فكما يدين الفتى يدان. وجزاء الدهر بميزان. ومن بذر حباً في أرض فبقدر بذره يكون الثمر. والجاهل لا يبصر من أين تأتيه سهام الدهر. وإن حقاً عليك أن لا تجزعي من هذا الأمر. وأن تتدرعي له بالرضا والصبر. فقالت اللبوة: كيف لا أجزع وهو قرة العين وواحد القلب ونزهة الفكر. وأي حياة تطيب لي بعده. فقال لها القرد: أيتها اللبوة ما الذي كان يغذيك ويعشيك. قالت: لحوم الوحوش. قال القرد: أما كان لتلك الوحوش التي كنت تأكلينها آباء وأمهات. قالت: بلى. قال القرد: فما بالنا لا نسمع لتلك الآباء ولا الأمهات صياحاً وصراخاً كما سمع منك ولقد أنزل بك هذا الأمر جهلك بالعواقب وعدم تفكرك فيها. وقد نصحتك حين حقرت حق الجوار. وألحقت بنفسك العار. وجاوزت بقوتك حد الإنصاف. وسطوت على الظباء الضعاف. فكيف وجدت طعم مخالفة الصديق الناصح. قالت اللبوة: وجدته مر المذاق. ولما علمت اللبوة أن ذلك بما كسبت يدها من ظلم الوحوش رجعت عن صيدها ورمت نفسها باللوم. وصارت تقنع بأكل النبات وحشيش الفلوات (بستان الاذهان للشبراوي)

ساعة

وهو مثل من يمنعه التفكر في مستقبل الأمر عن الانتفاع بالحاضر

٨٢ حكي أن ساعة قديمة كانت مركوزة في مطبخ أحد الدهاقنة

مُدَّةَ خَمْسِينَ سَنَةً مِنْ دُونِ أَنْ يَبْدُوَ مِنْهَا أَدْنَى سَبَبٍ يُكَدِّرُهُ . غَيْرَ أَنَّهَا فِي صَبِيحَةِ ذَاتِ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الصَّيْفِ . وَقَفَتْ عَنِ الْحَرَكَةِ قَبْلَ أَنْ يَسْتَيْقِظَ أَصْحَابُ الْمَحَلِّ . فَتَغَيَّرَ مَنْظَرُ وَجْهِهَا بِسَبَبِ ذٰلِكَ وَدُهِشَ . وَبَذَلَتِ الْعَقَارِبُ جُهْدَهَا وَوَدَّتْ لَوْ تَبْقَى عَلَى حَالَةِ سَيْرِهَا الْأُولَى . وَغَدَتِ الدَّوَالِيبُ عَدِيمَةَ الْحَرَكَةِ لِمَا شَمِلَهَا مِنَ التَّعَجُّبِ . وَأَصْبَحَ الثِّقَلُ وَاقِفًا لَا يُبْدِي وَلَا يُعِيدُ . وَرَامَتْ كُلُّ آلَةٍ أَنْ تُحِيلَ الذَّنْبَ عَلَى أُخْتِهَا وَطَفِقَ الْوَجْهُ يَبْحَثُ عَنْ هٰذَا الْوُقُوفِ . وَبَيْنَمَا كَانَتِ الدَّوَالِيبُ وَالْعَقَارِبُ تُبَرِّئُ نَفْسَهَا بِالْيَمِينِ إِذَا بِصَوْتٍ خَفِيٍّ سُمِعَ مِنَ الدَّقَّاقِ بِأَسْفَلِ السَّاعَةِ يَقُولُ هٰكَذَا : إِنِّي أُقِرُّ عَلَى نَفْسِي بِأَنِّي أَنَا كُنْتُ عِلَّةَ هٰذَا الْوُقُوفِ . وَسَأُبَيِّنُ لَكُمْ سَبَبَ ذٰلِكَ لِسُكُوتِكُمْ وَإِقْنَاعِكُمْ أَجْمَعِينَ . وَالْحَقَّ أَقُولُ إِنِّي مَلِلْتُ مِنَ الدَّقِّ . فَلَمَّا سَمِعَتِ السَّاعَةُ مَقَالَتَهُ كَادَتْ تَتَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ . وَقَالَ لَهُ الْوَجْهُ وَهُوَ رَافِعٌ يَدَيْهِ : تَبًّا لَكَ مِنْ سِلْكٍ ذِي كَسَلٍ . فَأَجَابَهُ الدَّقَّاقُ : لَا بَأْسَ بِذٰلِكَ يَا سَيِّدِي الْوَجْهُ : لَاجَرَمَ أَنَّكَ تُرْضِيكَ هٰذِهِ الْحَالُ . إِذْ قَدْ رُفِعْتَ عَلَى نَفْسِكَ كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ لَدَى الْجَمِيعِ . وَأَنَّهُ يَسْهُلُ عَلَيْكَ أَنْ تَدْعُوَ غَيْرَكَ كَسِلًا وَتَنْسُبَهُ إِلَى التَّوَانِي . فَإِنَّكَ قَدْ قَضَيْتَ عُمْرَكَ كُلَّهُ بِغَيْرِ شُغْلٍ وَلَمْ يَكُنْ لَكَ فِيهِ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا التَّحْدِيقُ فِي وُجُوهِ النَّاسِ وَالِانْشِرَاحُ بِرُؤْيَةِ مَا يَحْدُثُ فِي الْمَطْبَخِ . أَرَأَيْتَكَ لَوْ كُنْتَ مِثْلِي فِي مَوْضِعٍ ضَنْكٍ مُظْلِمٍ كَهٰذَا . وَتُجِيزُ حَيَاتَكَ كُلَّهَا بَيْنَ مَجِيءٍ وَذَهَابٍ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ

وَعامًا بعد عام. فقَالَ له الْوَجْه: أَوَلَيس في مَوضعك طاقة تنظرُ مِنها. فقَالَ الدَّقَّاق: بَلَى. ولكنها مُظلمة. عَلَى أَنَّه وإن تكن لي طَاقة فلا أتجاسر على التطلع منها. حيث لا يُمكن لي الوقوف ولو طَرفة عين. والحاصل أني مللتُ هذا الحال. وإن استزدتني شرحًا. فإني أُخبرك بما سبب لي الضجر من شغلي. وذلك أني حسبت في صَباح هذا اليوم كمية المرار التي أغدو وأروح فيها مدة أربع وعشرين ساعة. فعظم ذلك علي. وقد يمكن تحقيق ذلك بمعرفة أحد الجلوس الذين فوق. فبادر عقرب الدقائق إلى العدد وقال بديهًا: إن عدة المرار التي ينبغي لك فيها المجيء والذهاب في هذه المدة الوجيزة. إنما تبلغ ستًا وثمانين ألفًا وأربع مئة مرة. فقال الدقاق: هو هكذا. فهل (والحالة هذه وقصتي قد رفعت لكم) يُخال أن مجرد التفكر في هذا العمل لا يوجب عناء وتعبًا لمن يعانيه. على أني حين شرعت في ضرب دقائق ذلك اليوم في مستقبل الشهور والأعوام زالت مني قوتي ووهن عظمي وعزمي. وما ذلك بغريب. وبعد تخيلات شتى عمدت إلى الوقوف كما ترونني. فكاد الوجه في أثناء هذه المكالمة أن لا يتمالك عنه. ولكنه كظم غيظه وخاطبه بحلم وقال: يا سيدي الدقاق العزيز إني لفي تعجب عظيم من انقلاب شخص فاضل نظيرك لمثل هذه الوساوس بغتة. نعم إنك وليت في عمرك أعمالًا جسيمة كما عملنا نحن كلنا أيضًا. وإنّ

اَلتَّفَكُّرُ فِي هٰذِهِ ٱلْأَشْغَالِ وَحْدَهُ يُوجِبُ ٱلْعَنَاءَ غَيْرَ أَنِّي أَظُنُّ مُبَاشَرَتَهَا لَيْسَتْ كَذٰلِكَ . فَأَلْتَمِسُ مِنْكَ أَنْ تُسْدِيَ إِلَيَّ مَعْرُوفَكَ بِأَنْ تَدُقَّ ٱلْآنَ سِتَّ دَقَّاتٍ لِيَتَّضِحَ مِصْدَاقُ مَا قُلْتَ . فَرَضِيَ ٱلدَّقَّاقُ بِهٰذَا وَدَقَّ سِتَّ دَقَّاتٍ جَرْيًا عَلَى عَادَتِهِ . فَقَالَ لَهُ ٱلْوَجْهُ حِينَئِذٍ: نَاشَدْتُكَ ٱللّٰهَ هَلْ أَبْدَى لَكَ مَا بَاشَرْتَهُ ٱلْآنَ نَصَبًا وَتَعَبًا . فَقَالَ ٱلدَّقَّاقُ : كَلَّا فَإِنَّ مَلَلِي وَتَضَجُّرِي لَمْ يَنْشَأْ عَنْ سِتِّ دَقَّاتٍ . وَلَا عَنْ سِتِّينَ دَقَّةً . بَلْ عَنْ أُلُوفٍ وَأُلُوفِ أُلُوفٍ . فَقَالَ لَهُ ٱلْوَجْهُ : صَدَقْتَ . وَلٰكِنَّهُ يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَعْلَمَ هٰذَا ٱلْأَمْرَ ٱلضَّرُورِيَّ . وَهُوَ أَنَّكَ حِينَ تُفَكِّرُ فِي هٰذِهِ ٱلْأُلُوفِ بِلَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ . فَإِنَّ ٱلَّذِي يَجِبُ عَلَيْكَ مِنْهَا إِنَّمَا هُوَ مُبَاشَرَةُ دَقَّةٍ وَاحِدَةٍ لَا غَيْرُ . ثُمَّ مَهْمَا لَزِمَكَ بَعْدَهُ مِنَ ٱلدَّقِّ يَفْسَحُ ٱللّٰهُ لَكَ فِي أَجَلٍ لِإِتْمَامِهِ فَقَالَ ٱلدَّقَّاقُ : أَشْهَدُ أَنَّ كَلَامَكَ هٰذَا حَاكَ فِيَّ وَأَمَالَنِي . فَقَالَ ٱلْوَجْهُ : عَسَى بَعْدَ ذٰلِكَ أَنْ نَعُودَ بِأَجْمَعِنَا إِلَى مَا كُنَّا عَلَيْهِ مِنَ ٱلْعَمَلِ . لِأَنَّنَا إِذَا بَقِينَا كَذٰلِكَ يَظَلُّ أَهْلُ ٱلْمَنْزِلِ مُسْتَغْرِقِينَ فِي ٱلنَّوْمِ إِلَى ٱلظُّهْرِ . ثُمَّ إِنَّ ٱلْأَثْقَالَ ٱلَّتِي لَمْ تَكُنْ وُصِفَتْ قَطُّ بِٱلْخِفَّةِ مَا بَرِحَتْ تُغْرِي ٱلدَّقَّاقَ عَلَى ٱلشُّغْلِ حَتَّى أَخَذَ فِي مُبَاشَرَةِ خِدْمَتِهِ كَمَا كَانَ . وَحِينَئِذٍ شَرَعَتِ ٱلدَّوَالِيبُ فِي ٱلدَّوَرَانِ . وَطَفِقَتِ ٱلْعَقَارِبُ تَسِيرُ . حَتَّى إِذَا ظَهَرَ شُعَاعُ ٱلشَّمْسِ فِي ٱلْمَطْبَخِ ٱلْمُغْلَقِ مِنْ كُوَّةٍ فِيهِ ٱمْتَلَأَ ٱلْوَجْهُ ضِيَاءً وَٱنْجَلَى تَعْبِيسُهُ . كَأَنْ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِمَّا كَانَ . فَأَمَّا صَاحِبُ ٱلْمَنْزِلِ فَلَمَّا نَزَلَ إِلَى ٱلْمَطْبَخِ لِيَفْطِرَ فِيهِ . نَظَرَ إِلَى ٱلسَّاعَةِ ٱلْمَرْكُوزَةِ فَقَالَ : إِنَّ

السَّاعَةَ الَّتِي بِجَيْبِي تَأَخَّرَتْ فِي السَّيْرِ لَيْلًا بِنَحْوِ ثَلَاثِينَ دَقِيقَةً

قردٌ وغيلم

وَهُوَ مَثَلُ مَنْ يَطْلُبُ الْحَاجَةَ فَإِذَا ظَفِرَ بِهَا أَضَاعَهَا

٨٣ زَعَمُوا أَنَّ قِرْدًا يُقَالُ لَهُ مَاهِرٌ كَانَ مَلِكَ الْقِرَدَةِ وَكَانَ قَدْ كَبِرَ وَهَرِمَ. فَوَثَبَ عَلَيْهِ قِرْدٌ شَابٌّ مِنْ بَيْتِ الْمَمْلَكَةِ فَتَغَلَّبَ عَلَيْهِ وَأَخَذَ مَكَانَهُ. فَخَرَجَ هَارِبًا عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى انْتَهَى إِلَى السَّاحِلِ. فَوَجَدَ شَجَرَةَ تِينٍ فَارْتَقَى إِلَيْهَا وَاتَّخَذَهَا لَهُ مَقَامًا. فَبَيْنَمَا هُوَ ذَاتَ يَوْمٍ يَأْكُلُ مِنْ ثَمَرِهَا. إِذْ سَقَطَتْ مِنْ يَدِهِ تِينَةٌ فِي الْمَاءِ فَسَمِعَ لَهَا صَوْتًا وَإِيقَاعًا. فَجَعَلَ يَأْكُلُ وَيَرْمِي فِي الْمَاءِ فَأَطْرَبَهُ ذَلِكَ فَأَكْثَرَ مِنْ تَطْرِيحِ التِّينِ فِيهِ. وَكَانَ ثَمَّ غَيْلَمٌ كُلَّمَا وَقَعَتْ تِينَةٌ أَكَلَهَا. فَلَمَّا كَثُرَ ذَلِكَ ظَنَّ أَنَّ الْقِرْدَ إِنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ لِأَجْلِهِ فَرَغِبَ فِي مُصَادَقَتِهِ وَأَنِسَ إِلَيْهِ وَكَلَّمَهُ. وَأَلِفَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ. وَطَالَتْ غَيْبَةُ الْغَيْلَمِ عَلَى زَوْجَتِهِ. فَجَزِعَتْ عَلَيْهِ وَشَكَتْ ذَلِكَ إِلَى جَارَةٍ لَهَا وَقَالَتْ: قَدْ خِفْتُ أَنْ يَكُونَ عَرَضَ لَهُ عَارِضُ سُوءٍ فَاغْتَالَهُ. فَقَالَتْ لَهَا: إِنَّ زَوْجَكِ بِالسَّاحِلِ قَدْ أَلِفَ قِرْدًا وَأَلِفَهُ الْقِرْدُ. فَهُوَ مُؤَاكِلُهُ وَمُشَارِبُهُ وَمُجَالِسُهُ. ثُمَّ إِنَّ الْغَيْلَمَ انْطَلَقَ بَعْدَ مُدَّةٍ إِلَى مَنْزِلِهِ. فَوَجَدَ زَوْجَتَهُ سَيِّئَةَ الْحَالِ مَهْمُومَةً. فَقَالَ لَهَا: مَا لِي أَرَاكِ هٰكَذَا فَأَجَابَتْهُ جَارَتُهَا: إِنَّ قَرِينَتَكَ مَرِيضَةٌ مِسْكِينَةٌ. وَقَدْ وَصَفَتْ لَهَا الْأَطِبَّاءُ قَلْبَ قِرْدٍ وَلَيْسَ لَهَا دَوَاءٌ سِوَاهُ. فَقَالَ: هٰذَا أَمْرٌ عَسِيرٌ مِنْ أَيْنَ لَنَا قَلْبُ قِرْدٍ وَنَحْنُ فِي الْمَاءِ وَلٰكِنْ سَأُشَاوِرُ صَدِيقِي. ثُمَّ

انطَلَقَ إلَى سَاحِلِ البَحرِ فَقَالَ لَهُ القِرْدُ: يا أخِي ما حبسكَ عَنِّي. قَالَ لَهُ الغَيْلَمُ: مَا ثَبَّطَنِي عَنكَ إلَّا حيائي. كيفَ أجازيكَ على إحسانِكَ إليَّ وإنَّما أرِيدُ الآنَ أنْ تتمّ هذَا الإحسانَ بزيارَتِكَ لي في مَنزِلي. فإنّي ساكِنٌ في جزيرةٍ طيّبةِ الفاكِهَةِ كثيرةِ الأثمارِ. فاركَبْ ظهري لأسبحَ بِكَ. فرَغِبَ القِرْدُ في ذلِكَ ونزَلَ فامتطَى مطَا الغَيْلَمِ. حتّى إذَا سَبَحَ بِهِ ما سَبَحَ عرَضَ لَهُ قُبْحُ ما أضمَرَ في نفسِهِ مِنَ الغَدْرِ فنكَّسَ رأسَه. فقالَ لَهُ القِرْدُ: ما لي أراكَ مُهتمًّا. فقالَ الغَيْلَمُ: إنّما همّي لأنّي ذكرتُ أنَّ قرينتي شديدةُ المرضِ. وذلكَ يمنعني عن كثيرٍ ممّا أريدُ أنْ أبلغَكَهُ مِنَ الإكرامِ والإلطافِ. قالَ القِردُ: إنَّ الذي أعتقِدُ مِن حِرصِكَ على كرامتي يكفيكَ مؤونةَ التكلُّفِ. قالَ الغَيْلَمُ: أجلْ. ومضَى بالقِردِ ساعةً ثمَّ توقَّفَ بِهِ ثانيةً. فساءَ ظنُّ القِردِ وقالَ في نفسِهِ: ما احتباسُ الغَيْلَمِ وبطؤهُ إلّا لأمرٍ. ولستُ آمِنًا أنْ يكونَ قلبُهُ قد تغيّرَ عليَّ وحالَ عن مودّتي فأرادَ بي سوءًا. فإنّهُ لا شيءَ أخفُّ وأسرعُ تقلّبًا مِنَ القلبِ. ويقالُ: ينبغي للعاقِلِ أنْ لا يغفلَ عن التماسِ ما في نفسِ أهلِهِ وولدِهِ وإخوانِهِ وصديقِهِ عندَ كلِّ أمرٍ وفي كلِّ لحظةٍ وكلمةٍ. وعندَ القيامِ والقعودِ وعلى كلِّ حالٍ. وإنّهُ إذا دخلَ قلبَ الصديقِ مِن صديقِهِ ريبةٌ. فليأخذْ بالحزمِ في التحفّظِ منهُ ويتفقّدْ ذلكَ في لحظاتِهِ وحالاتِهِ. فإنْ كانَ ما يظنُّ حقًّا ظفرَ بالسّلامةِ. وإنْ كانَ باطلًا ظفرَ بالحزمِ ولم يضرَّهُ. ثمَّ قالَ للغَيْلَمِ: ما الذي

يَحْبِسُكَ. وَمَا لِي أَرَاكَ مُهْتَمّاً كَأَنَّكَ تُحَدِّثُ نَفْسَكَ مَرَّةً أُخْرَى. قَالَ: يَهُمُّنِي أَنَّكَ تَأْتِي مَنْزِلِي فَلا تَلْقَى أَمْرِي كَمَا أُحِبُّ لِأَنَّ زَوْجَتِي مَرِيضَةٌ. قَالَ ٱلْقِرْدُ: لَا تَهْتَمَّ. فَإِنَّ ٱلْهَمَّ لا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً. وَلٰكِنِ ٱلْتَمِسْ مَا يُصْلِحُ زَوْجَتَكَ مِنَ ٱلْأَدْوِيَةِ وَٱلْأَغْذِيَةِ. فَإِنَّهُ يُقَالُ: يَبْذُلُ ذُو ٱلْمَالِ مَالَهُ فِي ثَلاثَةِ مَوَاضِعَ: فِي ٱلصَّدَقَةِ. وَفِي وَقْتِ ٱلْحَاجَةِ. وَعَلَى ٱلزَّوْجَةِ. قَالَ ٱلْغَيْلَمُ: صَدَقْتَ. وَإِنَّمَا قَالَتِ ٱلْأَطِبَّاءُ: إِنَّهُ لا دَوَاءَ لَهَا إِلَّا قَلْبُ قِرْدٍ. فَقَالَ ٱلْقِرْدُ فِي نَفْسِهِ: وَاسَوْءَتَاهُ لَقَدْ أَدْرَكَنِي ٱلْحِرْصُ وَٱلشَّرَهُ عَلَى كِبَرِ سِنِّي حَتَّى وَقَعْتُ فِي شَرِّ مُوَرِّطٍ. وَلَقَدْ صَدَقَ ٱلَّذِي قَالَ: يَعِيشُ ٱلْقَانِعُ ٱلرَّاضِي مُسْتَرِيحاً مُطْمَئِنّاً. وَذُو ٱلْحِرْصِ وَٱلشَّرَهِ يَعِيشُ مَا عَاشَ فِي تَعَبٍ وَنَصَبٍ. وَإِنِّي قَدِ ٱحْتَجْتُ ٱلْآنَ إِلَى عَقْلِي فِي ٱلْتِمَاسِ ٱلْمَخْرَجِ مِمَّا وَقَعْتُ فِيهِ. ثُمَّ قَالَ لِلْغَيْلَمِ: وَمَا مَنَعَكَ أَنْ تُعْلِمَنِي حَتَّى كُنْتُ أَحْمِلُ قَلْبِي مَعِي. وَهٰذِهِ سُنَّةٌ فِينَا مَعَاشِرَ ٱلْقِرَدَةِ إِذَا خَرَجَ أَحَدُنَا لِزِيَارَةِ صَدِيقٍ لَهُ خَلَّفَ قَلْبَهُ عِنْدَ أَهْلِهِ أَوْ فِي مَوْضِعِهِ. لِنَنْظُرَ إِذَا نَظَرْنَا إِلَى حُرَمِ ٱلْمَزُورِ وَمَا قُلُوبُنَا مَعَنَا. قَالَ ٱلْغَيْلَمُ: وَأَيْنَ قَلْبُكَ ٱلْآنَ. قَالَ: خَلَّفْتُهُ فِي ٱلشَّجَرَةِ فَإِنْ شِئْتَ فَٱرْجِعْ بِي إِلَيْهَا حَتَّى آتِيَكَ بِهِ. فَفَرِحَ ٱلْغَيْلَمُ بِذٰلِكَ وَرَجَعَ بِٱلْقِرْدِ إِلَى مَكَانِهِ. فَلَمَّا قَارَبَ ٱلسَّاحِلَ وَثَبَ ٱلْقِرْدُ عَنْ ظَهْرِهِ فَٱرْتَقَى ٱلشَّجَرَةَ. فَلَمَّا أَبْطَأَ عَلَى ٱلْغَيْلَمِ نَادَاهُ يَا خَلِيلِي ٱحْمِلْ قَلْبَكَ وَٱنْزِلْ فَقَدْ عُقْتَنِي. فَقَالَ ٱلْقِرْدُ. هَيْهَاتَ وَلٰكِنَّكَ ٱحْتَلْتَ عَلَيَّ وَخَدَعْتَنِي فَخَدَعْتُكَ بِمِثْلِ خَدِيعَتِكَ. وَٱسْتَدْرَكْتُ

فَارِطَ أَمْرِي . وَقَدْ قِيلَ : الَّذِي يُفْسِدُهُ الْحِلْمُ . لَا يُصْلِحُهُ إِلَّا الْعِلْمُ . قَالَ الْغَيْلَمُ : صَدَقْتَ . إِلَّا أَنَّ الرَّجُلَ الصَّالِحَ يَعْتَرِفُ بِزَلَّتِهِ . وَإِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا لَمْ يَسْتَحْيِ أَنْ يُؤَدَّبَ . وَإِنْ وَقَعَ فِي وَرْطَةٍ أَمْكَنَهُ التَّخَلُّصُ مِنْهَا . كَالرَّجُلِ الَّذِي يَعْثُرُ عَلَى الْأَرْضِ وَعَلَى الْأَرْضِ يَنْهَضُ وَيَعْتَمِدُ . فَهَذَا مَثَلُ الرَّجُلِ الَّذِي يَطْلُبُ الْحَاجَةَ فَإِذَا ظَفِرَ بِهَا أَضَاعَهَا (كليله ودمنه)

الضبعة والرجل

٨٤ قَالَ الْمَدَائِنِيُّ : خَرَجَ فِتْيَانٌ فِي صَيْدٍ لَهُمْ . فَأَثَارُوا ضَبُعَةً فَنَفَرَتْ وَمَرَّتْ فَاتَّبَعُوهَا . فَلَجَأَتْ إِلَى بَيْتِ رَجُلٍ فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ بِالسَّيْفِ مَسْلُولًا . فَقَالُوا لَهُ : يَا عَبْدَ اللهِ لِمَ تَمْنَعُنَا مِنْ صَيْدِنَا . فَقَالَ : إِنَّهَا اسْتَجَارَتْ بِي فَخَلُّوا بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ . فَنَظَرَ إِلَيْهَا فَإِذَا هِيَ مَهْزُولَةٌ مَضْرُورَةٌ . فَجَعَلَ يَسْقِيهَا اللَّبَنَ صَبُوحًا وَمَقِيلًا وَغَبُوقًا حَتَّى سَمِنَتْ وَحَسُنَتْ حَالُهَا . فَبَيْنَمَا هُوَ ذَاتَ يَوْمٍ رَاقِدًا عَدَتْ عَلَيْهِ فَشَقَّتْ بَطْنَهُ وَشَرِبَتْ دَمَهُ . فَقَالَ ابْنُ عَمٍّ لَهُ :

وَمَنْ يَصْنَعِ الْمَعْرُوفَ فِي غَيْرِ أَهْلِهِ ... يُلَاقِي الَّذِي لَاقَى مُجِيرُ أُمِّ عَامِرِ
أَعَدَّ لَهَا لَمَّا اسْتَجَارَتْ بِقُرْبِهِ ... مَعَ الْأَمْنِ أَلْبَانَ اللِّقَاحِ الدَّرَائِرِ
فَأَشْبَعَهَا حَتَّى إِذَا مَا تَمَكَّنَتْ ... فَرَتْهُ بِأَنْيَابٍ لَهَا وَأَظَافِرِ
فَقُلْ لِذَوِي الْمَعْرُوفِ هٰذَا جَزَاءُ مَنْ ... يُوَجِّهُ مَعْرُوفًا إِلَى غَيْرِ شَاكِرِ

اسد وذئب وغراب وابن آوى وجمل

وَهُوَ مَثَلُ مَنْ يُعَاشِرُ مَنْ لَا يُشَارِكُهُ حَتَّى يُهْلِكَ نَفْسَهُ

٨٥ زَعَمُوا أَنَّ أَسَدًا كَانَ فِي أَجَمَةٍ مُجَاوِرًا لِأَحَدِ الطُّرُقِ الْمَسْلُوكَةِ . وَكَانَ

لَهُ أَصْحَابٌ ثَلاثَةٌ: ذِئْبٌ وَغُرَابٌ وَابْنُ آوَى. وَإِنَّ رُعَاةً مَرُّوا بِذَلِكَ الطَّرِيقِ وَمَعَهُمْ جِمَالٌ. فَتَخَلَّفَ مِنْهَا جَمَلٌ فَدَخَلَ تِلْكَ الْأَجَمَةَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى الْأَسَدِ. فَقَالَ لَهُ أَبُو فِرَاسٍ: مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ. قَالَ: مِنْ مَوْضِعِ كَذَا. قَالَ: فَمَا حَاجَتُكَ. قَالَ: مَا يَأْمُرُنِي بِهِ الْمَلِكُ. قَالَ: تُقِيمُ عِنْدَنَا فِي السَّعَةِ وَالْأَمْنِ وَالْخِصْبِ. فَلَبِثَ عِنْدَهُ زَمَانًا طَوِيلًا ثُمَّ إِنَّ الْأَسَدَ مَضَى فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ لِطَلَبِ الصَّيْدِ فَلَقِيَ فِيلًا عَظِيمًا. فَقَاتَلَهُ قِتَالًا شَدِيدًا وَأَفْلَتَ مِنْهُ مُثْقَلًا مُثْخَنًا بِالْجِرَاحِ يَسِيلُ مِنْهُ الدَّمُ. وَقَدْ أَنْشَبَ الْفِيلُ فِيهِ أَنْيَابَهُ. فَلَمْ يَكَدْ يَصِلُ إِلَى مَكَانِهِ. حَتَّى رَزَحَ لَا يَسْتَطِيعُ حِرَاكًا وَحُرِمَ طَلَبَ الصَّيْدِ. فَلَبِثَ الذِّئْبُ وَالْغُرَابُ وَابْنُ آوَى أَيَّامًا لَا يَجِدُونَ طَعَامًا. لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَأْكُلُونَ مِنْ فَضَلَاتِ الْأَسَدِ وَفَوَاضِلِهِ. فَأَجْهَدَهُمُ الْجُوعُ وَالْهُزَالُ. وَعَرَفَ الْأَسَدُ ذَلِكَ مِنْهُمْ فَقَالَ: لَقَدْ جُهِدْتُمْ وَاحْتَجْتُمْ إِلَى مَا تَأْكُلُونَ. فَقَالُوا: إِنَّهُ لَا تُهِمُّنَا أَنْفُسُنَا. لَكِنَّا نَرَى الْمَلِكَ عَلَى مَا نَرَاهُ فَلَيْتَنَا نَجِدُ مَا يَأْكُلُهُ وَيَصْلُحُ بِهِ. قَالَ الْأَسَدُ: مَا أَشُكُّ فِي نَصِيحَتِكُمْ. وَلَكِنِ انْتَشِبُوا لَعَلَّكُمْ تُصِيبُونَ صَيْدًا فَأَكْسِبَكُمْ وَنَفْسِي مِنْهُ. فَخَرَجَ الذِّئْبُ وَالْغُرَابُ وَابْنُ آوَى مِنْ عِنْدِ الْأَسَدِ. فَتَنَحَّوْا نَاحِيَةً وَائْتَمَرُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ وَقَالُوا. مَا لَنَا وَلِهَذَا الْآكِلِ الْعُشْبَ الَّذِي لَيْسَ شَأْنُهُ مِنْ شَأْنِنَا. وَلَا رَأْيُهُ مِنْ رَأْيِنَا. أَلَا نُزَيِّنُ لِلْأَسَدِ فَيَأْكُلَهُ وَيُطْعِمَنَا مِنْ لَحْمِهِ. قَالَ ابْنُ آوَى: هَذَا مِمَّا لَا نَسْتَطِيعُ ذِكْرَهُ لِلْأَسَدِ. لِأَنَّهُ قَدْ أَمَّنَ الْجَمَلَ وَجَعَلَ لَهُ مِنْ ذِمَّتِهِ.

قَالَ ٱلْغُرَابُ : أَنَا أَكْفِيكُمُ ٱلْأَسَدَ . ثُمَّ ٱنْطَلَقَ فَدَخَلَ عَلَى ٱلْأَسَدِ فَقَالَ لَهُ : هَلْ أَصَبْتُمْ شَيْئًا . قَالَ ٱلْغُرَابُ : إِنَّمَا يُصِيبُ مَنْ يَسْعَى وَيُبْصِرُ . وَنَحْنُ فَلَا سَعْيَ لَنَا وَلَا بَصَرَ لِمَا بِنَا مِنَ ٱلْجُوعِ . وَلٰكِنْ قَدْ وُفِّقْنَا لِرَأْيٍ وَٱجْتَمَعْنَا عَلَيْهِ . فَإِنْ وَافَقَنَا ٱلْمَلِكُ فَنَحْنُ لَهُ مُجِيبُونَ . قَالَ ٱلْأَسَدُ : وَمَا ذَاكَ . قَالَ ٱلْغُرَابُ : هٰذَا ٱلْجَمَلُ آكِلُ ٱلْعُشْبِ ٱلْمُتَمَرِّغُ بَيْنَنَا مِنْ غَيْرِ مَنْفَعَةٍ لَنَا مِنْهُ وَلَا رَدِّ عَائِدَةٍ . وَلَا عَمَلٍ يُعْقِبُ مَصْلَحَةً . فَلَمَّا سَمِعَ ٱلْأَسَدُ ذٰلِكَ . غَضِبَ وَقَالَ : مَا أَخْطَأَ رَأْيَكَ . وَمَا أَعْجَزَ مَقَالَكَ وَأَبْعَدَكَ مِنَ ٱلْوَفَاءِ وَٱلرَّحْمَةِ . وَمَا كُنْتَ حَقِيقًا أَنْ تَجْتَرِئَ عَلَيَّ بِهٰذِهِ ٱلْمَقَالَةِ وَتَسْتَقْبِلَنِي بِهٰذَا ٱلْخِطَابِ . مَعَ مَا عَلِمْتَ أَنِّي قَدْ أَمَّنْتُ ٱلْجَمَلَ وَجَعَلْتُ لَهُ مِنْ ذِمَّتِي . أَوَلَمْ يَبْلُغْكَ أَنَّهُ لَمْ يَتَصَدَّقْ مُتَصَدِّقٌ بِصَدَقَةٍ هِيَ أَعْظَمُ أَجْرًا مِمَّنْ أَمَّنَ نَفْسًا خَائِفًا وَحَقَنَ دَمًا مَهْدُورًا . وَقَدْ أَمَّنْتُهُ وَلَسْتُ بِٱلْغَادِرِ بِهِ . قَالَ ٱلْغُرَابُ : إِنِّي لَأَعْرِفُ مَا يَقُولُ ٱلْمَلِكُ . وَلٰكِنِ ٱلنَّفْسُ ٱلْوَاحِدَةُ يُفْتَدَى بِهَا أَهْلُ ٱلْبَيْتِ . وَأَهْلُ ٱلْبَيْتِ يُفْتَدَى بِهِمِ ٱلْقَبِيلَةُ . وَٱلْقَبِيلَةُ يُفْتَدَى بِهَا أَهْلُ ٱلْمِصْرِ . وَأَهْلُ ٱلْمِصْرِ فِدَى ٱلْمَلِكِ . وَقَدْ نَزَلَتْ بِٱلْمَلِكِ ٱلْحَاجَةُ . وَأَنَا أَجْعَلُ لَهُ مِنْ ذِمَّتِهِ مَخْرَجًا عَلَى أَنْ لَا يَتَكَلَّفَ ذٰلِكَ وَلَا يَلِيَهُ بِنَفْسِهِ وَلَا يَأْمُرَ بِهِ أَحَدًا . وَلٰكِنَّا نَحْتَالُ عَلَيْهِ بِحِيلَةٍ لَنَا وَلِلْمَلِكِ فِيهَا صَلَاحٌ وَظَفَرٌ . فَسَكَتَ ٱلْأَسَدُ عَنْ جَوَابِ ٱلْغُرَابِ عَنْ هٰذَا ٱلْخِطَابِ . فَلَمَّا عَرَفَ ٱلْغُرَابُ إِقْرَارَ ٱلْأَسَدِ أَتَى أَصْحَابَهُ فَقَالَ لَهُمْ : قَدْ كَلَّمْتُ ٱلْأَسَدَ فِي أَكْلِهِ ٱلْجَمَلَ : عَلَى أَنْ نَجْتَمِعَ نَحْنُ وَٱلْجَمَلُ لَدَى حَضْرَتِهِ .

فَنَذْكُرَ مَا أَصَابَهُ وَنَتَوَجَّعَ لَهُ ٱهْتِمَامًا مِنَّا بِأَمْرِهِ وَحِرْصًا عَلَى صَلَاحِهِ . وَيَعْرِضَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا نَفْسَهُ عَلَيْهِ . فَيَرُدَّهُ ٱلْآخَرَانِ وَيُسَفِّهَ رَأْيَهُ وَيُبَيِّنَ ٱلضَّرَرَ فِي أَكْلِهِ . فَإِذَا فَعَلْنَا ذٰلِكَ سَلِمْنَا كُلُّنَا وَرَضِيَ ٱلْأَسَدُ عَنَّا فَفَعَلُوا ذٰلِكَ وَتَقَدَّمُوا إِلَى ٱلْأَسَدِ فَقَالَ ٱلْغُرَابُ : قَدِ ٱحْتَجْتَ أَيُّهَا ٱلْمَلِكُ إِلَى مَا يُقَوِّيكَ . وَنَحْنُ أَحَقُّ أَنْ نَهَبَ أَنْفُسَنَا لَكَ فَإِنَّا بِكَ نَعِيشُ . فَإِذَا هَلَكْتَ فَلَيْسَ لِأَحَدٍ مِنَّا بَقَاءٌ بَعْدَكَ . وَلَا لَنَا فِي ٱلْحَيَاةِ مِنْ خِيرَةٍ . فَلْيَأْكُلْنِي ٱلْمَلِكُ فَقَدْ طِبْتُ بِذٰلِكَ نَفْسًا . فَأَجَابَهُ ٱلذِّئْبُ وَٱبْنُ آوَى أَنِ ٱسْكُتْ . فَلَا خَيْرَ لِلْمَلِكِ فِي أَكْلِكَ وَلَيْسَ فِيكَ شِبَعٌ . قَالَ ٱبْنُ آوَى : لٰكِنْ أَنَا أُشْبِعُ ٱلْمَلِكَ . فَلْيَأْكُلْنِي فَقَدْ رَضِيتُ بِذٰلِكَ وَطِبْتُ عَنْهُ نَفْسًا . فَرَدَّ عَلَيْهِ ٱلذِّئْبُ وَٱلْغُرَابُ بِقَوْلِهِمَا لَهُ: إِنَّكَ مُنْتِنٌ قَذِرٌ . قَالَ ٱلذِّئْبُ : أَنَا لَسْتُ كَذٰلِكَ . فَلْيَأْكُلْنِي ٱلْمَلِكُ عَنْ طِيبِ نَفْسٍ مِنِّي وَإِخْلَاصِ طَوِيَّةٍ . فَٱعْتَرَضَهُ ٱلْغُرَابُ وَٱبْنُ آوَى وَقَالَا: قَدْ قَالَتِ ٱلْأَطِبَّاءُ : مَنْ أَرَادَ قَتْلَ نَفْسِهِ . فَلْيَأْكُلْ لَحْمَ ذِئْبٍ . فَظَنَّ ٱلْجَمَلُ أَنَّهُ إِذَا عَرَضَ نَفْسَهُ عَلَى ٱلْأَكْلِ ٱلْتَمَسُوا لَهُ عُذْرًا كَمَا ٱلْتَمَسَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ فَيَسْلَمُ وَيَرْضَى عَنْهُ ٱلْأَسَدُ . فَقَالَ : لٰكِنْ أَنَا فِي لِلْمَلِكِ شِبَعٌ وَرِيٌّ . وَلَحْمِي طَيِّبٌ هَنِيٌّ وَبَطْنِي نَظِيفٌ . فَلْيَأْكُلْنِي ٱلْمَلِكُ وَيُطْعِمْ أَصْحَابَهُ وَحَشَمَهُ . فَقَدْ سَمَحْتُ بِذٰلِكَ طَوْعًا وَرِضًا . فَقَالَ ٱلذِّئْبُ وَٱلْغُرَابُ وَٱبْنُ آوَى : لَقَدْ صَدَقَ ٱلْجَمَلُ وَتَكَرَّمَ وَقَالَ مَا دَرَى . ثُمَّ إِنَّهُمْ وَثَبُوا عَلَيْهِ وَمَزَّقُوهُ

(كليله ودمنه)

الجدي السالم والذئب النادم

٨٦ حُكِيَ أَنَّهُ كَانَ فِي بَعْضِ ٱلْغِيَاضِ لِذِئْبٍ وِجَارٌ . وَأَهْلٌ وَجَارٌ . فَخَرَجَ يَوْمًا لِطَلَبِ صَيْدٍ . وَنَصَبَ لِذٰلِكَ شِبَاكَ ٱلْكَيْدِ . وَصَارَ يَجُولُ وَيَصُولُ . وَلَا يَقَعُ عَلَى مَحْصُولٍ . فَأَثَّرَ فِيهِ ٱلْجُوعُ وَٱللُّغُوبُ . وَآذَنَتِ ٱلشَّمْسُ لِلْغُرُوبِ . فَصَادَفَ بَعْضَ ٱلرُّعْيَانِ . يَسُوقُ قَطِيعًا مِنَ ٱلضَّأْنِ . وَفِيهَا بَعْضُ جِدْيَانٍ . فَهَمَّ عَلَيْهَا لِشِدَّةِ ٱلْجُوعِ بِٱلْهُجُومِ . ثُمَّ أَدْرَكَهُ مِنْ خَوْفِ ٱلرَّاعِي ٱلْوُجُومُ . لِأَنَّهُ كَانَ مُتَيَقِّظًا . وَمِنَ ٱلذِّئْبِ عَلَى مَاشِيَتِهِ مُتَحَفِّظًا . فَجَعَلَ يُرَاقِبُهُ مِنْ بَعِيدٍ . وَٱلْحِرْصُ وَٱلشَّرَهُ يَزِيدُ . وَٱلرَّاعِي سَائِقٌ . وَلِلذِّئْبِ عَائِقٌ . فَتَخَلَّفَ جَدْيٌ غَبِيٌّ . غَفَلَ عَنْهُ ٱلرَّاعِي ٱلذَّكِيُّ . فَأَدْرَكَهُ ٱلذِّئْبُ ٱلنَّشِيطُ . وَأَقْطَعَهُ بِأَمَلٍ بَسِيطٍ . وَبَشَّرَ نَفْسَهُ بِٱلظَّفَرِ . وَطَارَ بِٱلْفَرَحِ وَٱسْتَبْشَرَ . فَلَمَّا رَأَى ٱلْجَدْيُ ٱلذِّئْبَ . عَلِمَ أَنَّهُ أُصِيبَ بِيَوْمٍ عَصِيبٍ . وَظَفِرَ قَصَّابُ ٱلْبَلَاءِ مِنْ قَصْبِهِ بِأَوْفَرِ نَصِيبٍ . فَتَدَارَكَ نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ . وَٱسْتَحْضَرَ حِيلَةَ جَأْشِهِ وَحَدْسِهِ . وَعَلِمَ أَنَّهُ لَا يُنْجِيهِ مِنْ تِلْكَ ٱلْوَرْطَةِ ٱلْوَبِيلَةِ . إِلَّا مُغِيثُ ٱلْخِدَاعِ وَٱلْحِيلَةِ . وَأَذْكَرَهُ مُذَكِّرُ ٱلْخَاطِرِ . مَا قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

وَلٰكِنْ أَخُو ٱلْحَزْمِ ٱلَّذِي لَيْسَ نَازِلًا   بِهِ ٱلْخَطْبُ إِلَّا وَهُوَ لِلْقَصْدِ مُبْصِرُ

فَتَقَدَّمَ بِجَاشٍ صَلِيبٍ . وَقَبَّلَ ٱلْأَرْضَ بَيْنَ يَدَيِ ٱلذِّئْبِ . وَقَالَ لَهُ مُحِبُّكَ ٱلرَّاعِي . لِجَنَابِكَ دَاعٍ . يُسَلِّمُ عَلَيْكَ . وَقَدْ أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ . يَشْكُرُ صَدَاقَتَكَ وَشَفَقَتَكَ . وَحِشْمَتَكَ وَمُرَافَقَتَكَ . وَيَقُولُ قَدْ تَرَكْتَ بِحُسْنِ

إبائِكَ. عادةَ أجدادِكَ وآبائِكَ. فلم تتعرضْ لمواشيهِ. وحفظتَ بنظرِكَ ضِعافَ حواشيهِ. وقد حصلَ لِضِعافِها الشبعُ. وأمنتْ بجوارِكَ الجوعَ والفزعَ. وحصلَ الأمنُ من الجزعِ. فسيجملُ جوارُكَ وغياضُكَ أحسنَ مُنتجعٍ. لأنَّ ضِعافَ ماشيتِهِ شبعتْ ورويتْ. وانتعشتْ وقويتْ. فأرادَ مكافأتَكَ. وطابَ مصادقتَكَ ومصافاتَكَ. فأرسلني إليكَ لتأكلني . وأوصاني أن أطربَكَ بما أغني. فإني حسنُ الصوتِ في الغناء. وصوتي يزيدُ شهوةَ الغذاء. فإن اقتضى رأيُكَ الأسعدُ. غنيتُكَ غناءً يُنسي أبا إسحاقَ ومعبدْ. وهو شيءٌ لم يظفرْ به آباؤكَ وأجدادُكَ . وما ينالُه أعقابُكَ وأولادُكَ. يقوي كرمَكَ. وشهوتَكَ وقرمَكَ. ويطيبُ مأكلَكَ. ويسني مأملَكَ. وإنَّ صوتي اللذيذَ. ألذُّ للجائعِ من جدْيٍ حنيذٍ. وخبزٍ سميذٍ. وللعطشانِ من قدحِ نبيذٍ. فرأيُكَ أعلى . وامتثالُكَ أولى. فقالَ الذئبُ : لا بأسَ والكَ. فغنِّ ما بدا لكَ. فرفعَ الجديُ عقيرتَهُ. ورأى في الصراخِ خيرتَهُ. وأنشدَ :

وعصفورُ الحشا يهوى جرادَهْ كما عشقَ الخروفُ أبو جعادَهْ

فاهتزَّ الذئبُ طربًا. وتمايلَ عجبًا وعجبًا. وقالَ: أحسنتَ يا زينَ الغنمِ. ولكنْ هذا الصوتُ في البمِّ. فارفعْ صوتَكَ في الزيرِ. فقد أخجلتَ البلابلَ والزرازيرَ. وزدني يا مغني. وغنِّ لي. ما يلي قولي :

أقرَّ هذا الزمانُ عيني بالجمعِ بينَ المنى وبيني

وَلٰكِنْ هٰذَا يَا سَيِّدَ الجِدَاءِ فِي أَوْجِ الحُسَيْنِي . فَاغْتَنَمَ الجَدْيُ الفُرْصَةَ وَأَزَاحَ بِعِيَاطِهِ الغُصَّةَ . وَصَرَخَ صَرْخَةً أُخْرَى . أَذْكَرَ الطَّامَّةَ الكُبْرَى . وَرَفَعَ الصَّوْتَ . كَمَنْ عَايَنَ المَوْتَ . وَخَرَجَ مِنْ دَائِرَةِ الحِجَازِ إِلَى العِرَاقِ . وَكَادَ يَحْصُلُ لَهُ مِنْ ذٰلِكَ الٱنْفِتَاقُ . وَقَالَ :

قِفُوا ثُمَّ ٱنْظُرُوا حَالِي أَبُو مَذْقَةٍ أَكَّالِي

فَسَمِعَهُ الرَّاعِي يَشْدُو . فَأَقْبَلَ بِالمِطْرَقِ يَعْدُو . فَلَمْ يَشْعُرِ الذِّئْبُ الذَّاهِلُ . وَهُوَ بِحُسْنِ السَّمَاعِ غَافِلٌ . إِلَّا وَالرَّاعِي بِالعَصَا عَلَى قَفَاهُ نَازِلٌ . فَرَأَى الذِّئْبُ الغَنِيمَةَ فِي النَّجَاةِ . وَأَخَذَ فِي طَرِيقِ الحَيَاةِ . وَتَرَكَ الجَدْيَ وَأَفْلَتَ . وَنَجَا مِنْ سَيْفِ المَوْتِ المُصْلَتِ . وَصَعِدَ إِلَى تَلٍّ يَتَلَفَّتُ . إِذْ تَفَلَّتَ . وَأَقْعَى يَعَضُّ يَدَيْهِ نَدَامَةً . وَيُخَاطِبُ نَفْسَهُ بِالمَلَامَةِ . وَيَقُولُ : أَيُّهَا الغَافِلُ الذَّاهِلُ . الأَحْمَقُ الجَاهِلُ . مَتَى كَانَ عَلَى سِمَاطِ السِّرْحَانِ . القَبْزُ وَالأَوْزَانُ . وَأَيُّ جَدٍّ لَكَ فَانٍ . أَوْ أَبٍ مُفْسِدٍ جَانٍ . كَانَ لَا يَأْكُلُ إِلَّا بِالمَغَانِي . وَعَلَى صَوْتِ المَثَالِثِ وَالمَثَانِي . فَلَوْلَا أَنَّكَ عَدَلْتَ عَنْ طَرِيقَةِ آبَائِكَ . مَا فَاتَكَ لَذِيذُ عَشَائِكَ . وَلَا أَمْسَيْتَ جَائِعًا تَتَلَوَّى . وَبِجَمْرَةِ فَوَاتِ الفُرْصَةِ تَتَكَوَّى . ثُمَّ بَاتَ يَحْرُقُ ضِرْسَهُ وَنَابَهُ . وَيُخَاطِبُ نَفْسَهُ لِمَا نَابَهُ :

وَعَاجِزُ الرَّأْيِ مِضْيَاعٌ لِفُرْصَتِهِ حَتَّى إِذَا فَاتَ أَمْرٌ عَاتَبَ القَدَرَا

فارة وهر

٨٧ كَانَ رَجُلٌ فَقِيرٌ عِنْدَهُ هِرٌّ رَبَّاهُ . وَأَحْسَنَ مَأْوَاهُ . وَكَانَ القِطُّ قَدْ

عَرَفَ مِنهُ الشَّفَقَةَ . وَأَلِفَ مِنهُ المَوَدَّةَ وَالمِقَةَ . فَكَانَ لا يَبرَحُ مِن مَبِيتِهِ . وَلا يَسعَى لِطَلَبِ قُوتِهِ . فَحَصَلَ لَهُ الهُزَالُ . وَتَغَيَّرَ حَالُهُ بَينَ أَمرٍ وَحَالٍ . فَلا عِندَ صَاحِبِهِ مَا يُغَذِّيهِ . وَلا لَهُ قُوَّةٌ عَلَى الاِصطِبَارِ تُغنِيهِ . إِلَى أَن عَجَزَ عَنِ الصَّيدِ . وَصَارَ يَسخَرُ بِهِ مِن أَرَاذِلِ الفَارِ عَمرٌو وَزَيدٌ . وَكَانَ فِي ذَلِكَ المَكَانِ . مَأوَى لِرَئِيسِ الجُرذَانِ . وَبِجِوَارِهِ مَخزَنُ سَمَّانٍ . فَاجتَرَأَ الجُرذُ لِضَعفِ أَبِي غَزوَانَ . وَتَمَكَّنَ مِن نَقلِ مَا يَحتَاجُ إِلَيهِ . وَصَارَ يَمُرُّ عَلَى القِطِّ آمِنًا وَيَضحَكُ عَلَيهِ . إِلَى أَنِ امتَلأَ وَكرُهُ مِن أَنوَاعِ المَطَاعِمِ . وَحَصَلَ لَهُ الفَرَاغُ مِنَ المَخَاوِفِ وَالمَزَاحِمِ . فَاستَطَالَ عَلَى الجِيرَانِ . وَاستَعَانَ بِطَوَائِفِ الفَارِ عَلَى العُدوَانِ . وَافتَكَرَ يَومًا فِي نَفسِهِ . فِكرًا أَدَّاهُ إِلَى حُلُولِ رَمسِهِ . وَهُوَ أَنَّ هَذَا القِطَّ وَإِن كَانَ عَدُوًّا قَدِيمًا . وَمَلِكًا عَظِيمًا . وَلَكِنَّهُ قَد وَقَعَ فِي الاِنتِحَالِ . وَضَعُفَ عَنِ الصَّيدِ وَالاِغتِيَالِ . وَقُوَّتِي إِنَّمَا هِيَ بِسَبَبِ ضَعفِهِ . وَهَذَا الفَتحُ إِنَّمَا هُوَ حَاصِلٌ بِحَتفِهِ . وَلَكِنَّ الدَّهرَ الغَدَّارَ . لَيسَ لَهُ عَلَى حَالَةٍ استِمرَارٌ . فَرُبَّمَا يَعُودُ الدَّهرُ إِلَيهِ . وَيُعِيدُ صِحَّتَهُ وَعَافِيَتَهُ عَلَيهِ . فَإِنَّ الزَّمَانَ الدَّوَّارَ يَنهَبُ وَيَهَبُ . وَيُعطِي مَا سَلَبَ . وَيَرجِعُ فِيمَا وَهَبَ . كُلُّ ذَلِكَ مِن غَيرِ مُوجِبٍ وَلا سَبَبٍ . وَإِذَا عَادَ القِطُّ إِلَى مَا كَانَ عَلَيهِ . يَتَذَكَّرُ مِن غَيرِ شَكٍّ إِسَاءَتِي إِلَيهِ . فَيَثُورُ قَلَقُهُ . وَيَفُورُ حَنَقُهُ . وَيَأخُذُهُ لِلاِنتِقَامِ مِنِّي أَرَقُهُ . فَلا يَقِرُّ لِي مَعَهُ قَرَارٌ . فَاضطَرُّ إِلَى التَّحَوُّلِ عَن هَذِهِ الدَّارِ . وَالخُرُوجِ عَنِ الوَطَنِ المَألُوفِ . وَمُفَارَقَةِ

ٱلسَّكَنِ ٱلْمَعْرُوفِ . فَلَا بُدَّ مِنَ ٱلِٱهْتِمَامِ قَبْلَ حُلُولِ هٰذَا ٱلْغَرَامِ . وَٱلْأَخْذِ فِي طَرِيقَةِ ٱلْخَلَاصِ . قَبْلَ ٱلْوُقُوعِ فِي شَرَكِ ٱلِٱقْتِنَاصِ ثُمَّ إِنَّهُ ضَرَبَ أَخْمَاسًا لِأَسْدَاسٍ . فِي كَيْفِيَّةِ ٱلْخَلَاصِ مِنْ هٰذَا ٱلْبَاسِ . فَأَدَّاهُ ٱلْفِكْرُ إِلَى إِصْلَاحِ ٱلْمَعَاشِ . بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِي حِرَاشٍ . لِيَدُومَ لَهُ هٰذَا ٱلنَّشَاطُ . وَيَسْتَمِرَّ بِوَاسِطَةِ ٱلصُّلْحِ بِسَاطُ ٱلِٱنْبِسَاطِ . فَرَأَى أَنَّهُ لَا يُفِيدُهُ إِلَّا أَنْ يَزْرَعَ ٱلْجَمِيلَ . مِنْ كَثِيرٍ وَقَلِيلٍ . خُصُوصًا فِي وَقْتِ ٱلْفَاقَةِ . فَإِنَّهُ أَجْلَبُ لِلصَّدَاقَةِ . وَأَبْقَى فِي ٱلْوَثَاقَةِ . ثُمَّ بَعْدَ ذٰلِكَ يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا ٱلْعُهُودُ . وَيَتَأَكَّدُ مَا يَقَعُ عَلَيْهِ ٱلِٱتِّفَاقُ مِنَ ٱلْعُقُودِ . وَهُوَ أَنْ يَلْتَزِمَ كَبِيرُ ٱلْجِرْذَانِ فِي كُلِّ غَدَاةٍ . مَا يَكْفِيهِ مِنْ طَيِّبِ ٱلْغِذَاءِ صَبَاحَهُ وَمَسَاهُ . لِأَنَّ ٱلشَّيْخَ قَالَ فِي ٱلدَّرْسِ : خَيْرُ ٱلْمَالِ مَا وَقَيْتَ بِهِ ٱلنَّفْسَ . إِلَى أَنْ يَصِحَّ جَسَدُهُ . وَيَرُدَّ عَلَيْهِ مِنْ عَيْشِهِ رَغَدُهُ . وَيَكُونَ ذٰلِكَ سَبَبًا لِعُقُودِ ٱلصَّدَاقَةِ وَتَرْكِ ٱلْعَدَاوَةِ ٱلْقَدِيمَةِ . فَجَمَعَ لَهُ مِنَ ٱلْخُبْزِ وَٱلْجُبْنِ وَٱللَّحْمِ ٱلْقَدِيدِ . مَا قَدَرَ عَلَى حَمْلِهِ . وَنَهَضَتْ قُوَّتُهُ بِنَقْلِهِ . وَقَدِمَ مَقَامَ ٱلْهِرِّ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ سَلَامَ مُكْرِمٍ مُبِرٍّ . وَقَدَّمَ مَا لَدَيْهِ إِلَيْهِ . وَتَرَامَى بِكَثْرَةِ ٱلِٱشْتِيَاقِ وَٱلتَّوَدُّدِ عَلَيْهِ . وَقَالَ : يَعِزُّ عَلَيَّ . وَيَعْظُمُ لَدَيَّ . أَنْ أَرَاكَ يَا خَيْرَ جَارٍ . فِي هٰذَا ٱلِٱضْطِرَارِ . وَسَيَكْفِيكَ ٱللهُ هٰذَا ٱلْجَهْدَ وَٱلضَّيْرَ . وَلٰكِنِ ٱلْعَاقِبَةُ إِنْ شَاءَ ٱللهُ إِلَى خَيْرٍ . فَتَنَاوَلَ ٱلْقِطُّ مِنْ تِلْكَ ٱلسَّرِقَةِ . مَا سَدَّ رَمَقَهُ . وَشَكَرَ لَهُ تِلْكَ ٱلصَّدَقَةَ . ثُمَّ قَالَ : إِنَّ لِي عَلَيْكَ مِنَ ٱلْحُقُوقِ . مِثْلَ مَا لِلْجَارِ ٱلصَّدُوقِ . عَلَى ٱلْجَارِ ٱلشَّفُوقِ .

وأردت أن يتأكد الجوار بالمصادقة . وتثبت المحبة بالموافقة . وإن كانت بيننا عداوة قديمة . فنترك من الجانبين تلك الخصلة الذميمة . ونستأنف العهود . على خلاف الخلق المعهود . وها أنا أذكر لك سببا يحملك على ترك خلقك القديم . ويرشدك في طريق الإخاء إلى الصراط المستقيم . وهو أن أكلي مثلا . ما يغذي منك بدنا . فضلا عن أن يظهر فيك صحة وسمنا . فإن أمنتني مكرك ورغبت في صحبتي . وعاهدتني على سلوك طريق مودتي . وأكدت ذلك لي بمغلظات الأيمان حتى أستوثق باستصحابك . وأبيت آمنا في مجيئك وذهابك . ولو كنت بين مخالبك وأنيابك . فإني ألتزم لك كل يوم . عندما تستيقظ من النوم . بما يسد خلتك . ويبقي مهجتك . صباحا ومساء وغداء وعشاء . فلما رأى الهر . هذا البر . أعجبته هذه النعم . وأطربه هذا النغم . وأقسم طائعا مختارا . لا إكراها ولا إجبارا . أنه لا يسلك مع الجرذان . إلا طريق الأمان والإحسان . فرجع الجرذ وهو بهذه الحركة جذلان . وصار يأتي القط كل يوم بما التزم به من الغداء والعشاء . إلى أن صح القط واستوى . وسلمت خلوات بدنه من الخواء . وقد كان لهذا القط ديك صاحب قديم . وصديق نديم . كل منهما يأنس بصاحبه . ويحفظ خاطره بمراعاة جانبه . فحصل للديك تعويق عن زيارة صديقه . فلم يتفق لهما لقاء . إلا بعد أن زال عن القط ذلك الشقاء . وحاز تمام الشفاء . فسأله

الديكُ : بماذا زال ذلكَ الهزالُ . فأخبره بخبرِ الجرذِ وأنّه صار عندهُ من أعزِّ الأصدقاءِ الخيِّرينَ الأمناء . فضحكَ الديكُ مستغرباً . وطفق يصفقُ بجناحيهِ متعجباً . فقال له : مِمَّ تضحكُ . قالَ : من سلامةِ باطنِكَ . وانقيادِكَ لمداهنِكَ . وحسنِ صنائعكَ . إلى غاشِكَ ومخادعِكَ . ومن يأمنُ لهذا البرمِ . الواجبِ قتلهُ في الحلِّ والحرمِ . المفسدِ الفاسقِ . المؤذي المنافقِ . الذي خدعكَ حتى أمنَ على نفسه . وأوقعكَ في حبائلِ كيدهِ ونحسهِ . مع أنكَ لستَ عندهُ بمشكورٍ . ولا بالخيرِ مذكورٍ . وإنما الذي شاعَ . وملأ الأسماعَ . أنكَ تحلُّ عقدهُ . وتنقضُ عهدهُ . وتنكثُ الأيمانَ . وتجازي بالسيئةِ الإحسانَ . فإنهُ لما لم يرَ منكَ ما يسرُّهُ . أصبحَ متوقعاً ما يضرُّهُ . وأعظمُ من هذا أنهُ حشرَ ونادى . وجاهركَ بالشرِّ وعادى وقالَ : إنهُ أحياكَ بعدَ الموتِ . وردَّكَ بعدَ الفوتِ . وإنهُ لولا فضلهُ عليكَ . وبرُّهُ الواصلُ إليكَ . لمتَّ هزالاً وجوعاً . ولما عشتَ أسبوعاً . وإنهُ شفاكَ وعافاكَ . وصفا لكَ وصافاكَ . وهل سمعتَ أن جرذاً صادقَ هرةً . أو اتفقَ بينهما مرافقةٌ . فما صحبةُ القطِّ والفارِ . كمصادقةِ الماءِ والنارِ . فلما سمعَ القطُّ هذا الكلامَ . تألمَ خاطرهُ بعضَ إيلامٍ وقالَ للديكِ : جزاكَ اللهُ عني خيراً . ولكن من أخبركَ بهذا الخبرِ . وصدقكَ ما أثرَ . فقالَ : لقد غركَ الجرذُ بلقيماتٍ من الحرامِ . والسحتِ المنغمسِ في الآثامِ . وجعلها لكَ بمنزلةِ حبةِ الفخِّ . فلا تشعرُ بها إلا وأنتَ في المسلخِ . حيثُ لا رفيقَ يتشفعُ فيكَ

وَلَا أَخ . وَهُنَاكَ يُعرَفُ تَحقِيقُ هذَا الكَلَامِ . وَمَا أَطلَعتُكَ عَلَى مَا قُلتُ إِلَّا مِن فَرطِ الشَّفَقَةِ وَالسَّلَامِ . فَتَرَجَّحَ جَانِبُ صِدقِ الدِّيكِ عِندَ القِطِّ فَقَالَ فِي خَاطِرِهِ . بَعدَمَا أَجَالَ قِدحَ ضَمَائِرِهِ : إِنَّ هذَا الدِّيكَ مِن حِينِ انفَلَقَت عَنهُ البَيضَةُ . وَسَرَحَت مَعَهُ مِنَ الصَّدَاقَةِ فِي رَوضَةٍ . مَا وَقَفتُ لَهُ عَلَى كَذِبٍ . وَلَا سَمِعتُ أَنَّهُ لِشَيءٍ مِنَ الزُّورِ مُرتَكِبٌ . فَهُوَ أَبعَدُ مِن أَن يَخدَعَ . وَأَجَلُّ مِن أَن يَغُشَّ وَيَتَصَنَّعَ . ثُمَّ قَالَ لَهُ : كَيفَ أَعرِفُ صِدقَ هذَا الخَبَرِ . وَهَل عَلَى سُوءِ طَوِيَّتِهِ دَلَالَةٌ تُنتَظَرُ . قَالَ : نَعَم . وَرَبِّ الحَرَمِ عَلَامَةُ ذٰلِكَ أَنَّهُ إِذَا دَخَلَ عَلَيكَ . وَنَظَرَ إِلَيكَ . يَكُونُ مُنخَفِضَ الرَّاسِ . مُجتَمِعَ الأَنفَاسِ . مُتَوَقِّعًا حُلُولَ نَائِبَةٍ . أَو نُزُولَ مُصِيبَةٍ صَائِبَةٍ . مُتَلَفِّتًا يَمِينًا وَشِمَالًا . مُتَخَوِّفًا نَكَالًا وَوَبَالًا . طَائِفًا يَتَنَقَّبُ . خَائِفًا يَتَرَقَّبُ . وَذٰلِكَ لِأَنَّهُ خَائِنٌ . وَالخَائِنُ خَائِفٌ وَهذَا أَمرٌ بَائِنٌ . وَبَينَمَا هُمَا فِي المُحَاوَرَةِ . وَالمُنَاظَرَةِ وَالمُشَاوَرَةِ . دَخَلَ أَبُو جَوَّالٍ . وَهُوَ غَافِلٌ عَن هٰذِهِ الأَحوَالِ . فَرَأَى أَبَا يَقظَانَ . يُخَاطِبُ أَبَا غَزوَانَ . فَخَنَسَ وَقَهقَرَ . وَتَوَقَّفَ وَتَفَكَّرَ . وَهُوَ غَافِلٌ عَمَّا قَضَى اللهُ وَقَدَّرَ . فَاشمَأَزَّ لِرُؤيَتِهِ الدِّيكُ وَاشمَعَلَّ . وَانتَفَضَ وَابرَأَلَّ . فَارتَعَدَ الجُرَذُ مِن شَيخِ الدِّيَكَةِ . لَمَّا رَأَى مِنهُ هٰذِهِ الحَرَكَةَ . وَانتَفَشَ وَانزَوَى . وَتَقَبَّضَ وَذَوَى . وَالتَفَتَ يَمِينًا وَشِمَالًا . كَالطَّالِبِ لِلفِرَارِ مَجَالًا . وَالقِطُّ يُرَاقِبُ أَحوَالَهُ . وَيَتَمَيَّزُ حَرَكَاتِهِ وَأَفعَالَهُ . فَتَحَقَّقَ مَا قِيلَ لَهُ فِيهِ وَنَظَرَ إِلَيهِ نَظَرَ المُنتَقِمِ . وَهَمَّ وَاكفَهَرَّ . وَرَقَصَت شَوَارِبُهُ وَازبَأَرَّ .

وَنَسِيَ ٱلْعُهُودَ وَٱلْأَيْمَانَ . وَنَبَضَ فِيهِ عِرْقُ ٱلْعَدَاوَةِ ٱلْقَدِيمَةِ وَٱلْعُدْوَانِ . فَوَثَبَ عَلَيْهِ وَأَدْخَلَهُ فِي خَبَرِ كَانَ . وَأَخْلَى مِنْهُ ٱلزَّمَانَ وَٱلْمَكَانَ

الهدهد الغير المتروي

٨٨ ذَكَرُوا أَنَّ ٱللهَ مُجْرِي ٱلْخَيْرِ . عَلَّمَ بَعْضَ عَبِيدِهِ ٱلصُّلَحَاءِ مَنْطِقَ ٱلطَّيْرِ . فَصَاحَبَ مِنْهَا هُدْهُدًا . وَٱزْدَادَ مَا بَيْنَهُمَا تَوَدُّدًا . فَفِي بَعْضِ ٱلْأَيَّامِ . مَرَّ بِٱلْهُدْهُدِ ذٰلِكَ ٱلْإِمَامُ . وَهُوَ فِي مَكَانٍ عَالٍ . مُلْتَفِتٌ إِلَى نَاحِيَةِ ٱلشِّمَالِ . وَهُوَ مَشْغُولٌ بِٱلتَّسْبِيحِ يُسَبِّحُ ٱللهَ بِلِسَانِهِ ٱلْفَصِيحِ فَنَادَاهُ : يَا صَاحِبَ ٱلتَّاجِ وَٱلْقَبَاءِ وَٱلدِّيبَاجِ لَا تَقْعُدْ فِي هٰذَا ٱلْمَكَانِ فَإِنَّهُ طَرِيقُ كُلِّ فَتَّانٍ . وَمَطْرُوقُ كُلِّ صَائِدٍ شَيْطَانٍ . وَمَقْعَدُ أَرْبَابِ ٱلْبَنَادِقِ وَمَرْصَدُ أَصْحَابِ ٱلْجَلَاهِقِ . فَقَالَ ٱلْهُدْهُدُ : إِنِّي عَرَفْتُ ذٰلِكَ وَأَنَّهُ مَسْلَكُ ٱلْمَهَالِكِ قَالَ : فَلِأَيِّ شَيْءٍ عَزَمْتَ عَلَى ٱلْقُعُودِ فِيهِ . مَعَ عِلْمِكَ بِمَا فِيهِ مِنْ دَوَاهِيهِ . قَالَ : أَرَى صَبِيًّا وَأَظُنُّهُ غَوِيًّا نَصَبَ لِي فَخًّا . يَرُومُ لِي فِيهِ رَخًّا . وَقَدْ وَقَفْتُ عَلَى مَكَايِدِهِ . وَمَنَاصِبِ مَصَايِدِهِ . وَعَرَفْتُ مَكِيدَتَهُ أَيْنَ هِيَ . وَإِلَى مَاذَا تَنْتَهِي . وَأَنَا أَتَفَرَّجُ عَلَيْهِ . وَأَتَقَدَّمُ لِلضَّحِكِ إِلَيْهِ . وَأَتَعَجَّبُ مِنْ تَضْيِيعِ أَوْقَاتِهِ . وَتَعْطِيلِ سَاعَاتِهِ . فِيمَا لَا يَعُودُ عَلَيْهِ مِنْهُ نَفْعٌ . وَلَا يُفِيدُهُ فِي قَفَاهُ سِوَى ٱلصَّفْعِ . وَأَسْخَرُ مِنْ حَرَكَاتِهِ . وَأَتِيهُ مِنْ يَمُرُّ عَلَى خُزَعْبِلَاتِهِ . فَتَرَكَهُ ٱلرَّجُلُ وَذَهَبَ . وَقَضَى حَاجَاتِهِ وَٱنْقَلَبَ . فَرَأَى ٱلْهُدْهُدَ فِي يَدِ ٱلصَّبِيِّ وَلِسَانُ حَالِهِ . يَلْهَجُ بِمَقَالِهِ :

كَعُصْفُورَةٍ فِي يَدِ طِفْلٍ يُهِينُهَا   تُقَاسِي عَذَابَ ٱلْمَوْتِ وَٱلطِّفْلُ يَلْعَبُ
فَلَا ٱلطِّفْلُ ذُو عَقْلٍ يَرِقُّ لِحَالِهَا   وَلَا ٱلطَّيْرُ مُنْفَكُّ ٱلْجَنَاحِ فَيَهْرُبُ

فَنَادَاهُ وَقَالَ : يَا أَبَا عَبَّادٍ كَيْفَ وَقَعْتَ فِي شَرَكِ ٱلصَّيَّادِ وَقُلْتَ لِي إِنَّكَ وَعَيْتَ. وَرَأَيْتَ مَا رَأَيْتَ. فَقَالَ : أَمَا سَمِعْتَ أَنَّ ٱلْهُدْهُدَ إِذَا نَقَرَ ٱلْأَرْضَ يَعْرِفُ مَسَافَةَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْمَاءِ. وَلَا يُبْصِرُ شَعْرَةَ ٱلْفَخِّ وَلَا مَا وَرَ . وَنَاهِيكَ قَضِيَّةَ آدَمَ أَبِي ٱلْبَشَرِ . كَيْفَ خُذِلَ لَمَّا غَوِيَ وَٱغْتَرَّ وَبَطِرَ. وَكَذٰلِكَ غَيْرُهُ مِمَّنِ ٱشْتَهَرَ أَمْرُهُمْ وَٱنْتَشَرَ. وَأَنَا لَمَّا ٱغْتَرَرْتُ بِحِدَّةِ بَصَرِي . ذَهَلْتُ مِمَّا يَجُولُ فِي فِكْرِي . فَنَفَعَتْ حِدَّةُ ٱسْتِبْصَارِي فَوَقَعْتُ فِي فَخِّ ٱغْتِرَارِي

مالك الحزين والسمكة

٨٩ كَانَ فِي مَكَانٍ مَكِينٍ. مَأْوًى لِمَالِكِ ٱلْحَزِينِ. وَفِي ذٰلِكَ ٱلْمَكَانِ غِيَاضٌ وَغُدْرَانٌ تُضَاهِي رِيَاضَ ٱلْجِنَانِ. وَفِي مِيَاهِهِ مِنَ ٱلسِّمَاكِ. مَا يَفُوقُ سَابِحَاتِ ٱلسِّمَاكِ. فَكَانَ ذٰلِكَ ٱلطَّيْرُ. فِي دَعَةٍ وَخَيْرٍ . يُزْجِي ٱلْأَوْقَاتَ. بِطَيِّبِ ٱلْأَقْوَاتِ. وَكُلَّمَا تَحَرَّكَ بِحَرَكَةٍ . كَانَ فِيهَا بَرَكَةٌ . حَتَّى لَوْ غَاصَ فِي تِلْكَ ٱلْبِحَارِ وَٱلْغُدْرَانِ لَمْ يَخْرُجْ إِلَّا وَفِي مِنْقَارِهِ سَمَكَةٌ . فَٱتَّفَقَ أَنَّهُ فِي بَعْضِ ٱلْآنَاءِ . تَعَسَّرَ عَلَيْهِ أَسْبَابُ ٱلْغِذَاءِ . وَٱرْتَجَّ لِفَوْتِ قُوتِهِ أَبْوَابُ ٱلْعَشَاءِ . فَكَانَ يَطِيرُ بَيْنَ عَالَمِ ٱلْمُلْكِ وَٱلْمَلَكُوتِ. يَطْلُبُ مَا يَسُدُّ ٱلرَّمَقَ مِنَ ٱلْقُوتِ. فَلَمْ يُفْتَحْ عَلَيْهِ بِشَيْءٍ مِنْ أَعْلَى ٱلسِّمَاكِ إِلَى أَسْفَلِ ٱلْحُوتِ. وَٱمْتَدَّ هٰذَا ٱلْحَالُ . عِدَّةَ أَيَّامٍ

وَلَيَالٍ. فخاضَ يوماً في الرَّقراقِ. يطلبُ شيئاً من الأرزاقِ. فصادفَ سمكةً صغيرةً قد عارضت مسيرهُ فاختطفها. ومن بين رجليه التقفها. ثم بعد اقتلاعها. قصدَ إلى ابتلاعها. فتداركت زاهقَ نفسها. قبلَ استقرارها في رمسها. فنادت بعد أن كادت أن تكون بادت: ما البرغوثُ ودمهُ. والعصفورُ ودسمهُ. اسمع يا جارَ الرضا. ومن عمرنا في صونهِ انقضى. لا تعجل في ابتلاعي. ولا تسرع في ضياعي. ففي بقائي فوائدُ وعوائدُ. عليكَ عوائدُ. وهو أن أبي قد ملكَ هذا السمكَ فالكلُّ عبيدهُ ورعيتهُ. وواجبٌ عليهم طاعتهُ ومشيئتهُ. ثم إني واحدُ أبوي. وأريدُ منكَ الإبقاءَ عليَّ. فإنَّ أبي نذرَ النذورَ. حتى حصلَ له بوجودي السرورُ. فما في ابتلاعي كبيرُ فائدةٍ. ولا أسدُّ لكَ رمقاً. ولا أشغلُ لكَ معدةً فتصيرُ مع أبي كما قيل: فأفقرني فيمن أحبُّ ولا أستغني فالأولى أن أقرعينكَ. وأعرف ما بين أبي وبينكَ. فأكون سبباً لعقودِ المصادقةِ. وفاتحاً لأغلاقِ المحبةِ والمرافقةِ. ويتحملُ لكَ الجميلةَ. والمنةَ التامةَ والفضيلةَ. وأما أنا فأعاهدكَ إن أعتقتني. ومننتَ عليَّ وأطلقتني. أن أتكفلَ لكَ كلَّ يومٍ بعشرِ سمكاتٍ بيضٍ سمانٍ ودكاتٍ. تأتيكَ مرفوعةً. غيرَ ممنوعةٍ ولا مقطوعةٍ يرسلها إليكَ أبي مكافأةً لما فعلتَ بي من غير نصبٍ منكَ ولا وصبٍ. ولا كدٍّ تتحملهُ ولا تعبٍ. فلما سمعَ البلشونُ. هذا المجونَ. أغراهُ الطمعُ. فما ابتلعَ. بل سها ولها. ثم قال لها: أعيدي هذه الرمزةَ

فبمجرد ما فتح فاه بالهمزة . أفلتت السمكة منه بجمزة . وغاصت في الماء . وتخلصت من بين فكي البلاء . ولم يحصل ذلك الطماع . إلا قطع الأطماع . وإنما أوردت يا ذا الدراية . هذه الحكاية . لتتأمل عقبى أمرك قبل الشروع فيه . وتتدبر منتهى أواخره في مباديه . فقد قيل : أول الفكر . آخر العمل

الديك والثعلب

٩٠ كان في بعض القرى للرئيس ديك . حسن الخلق وديك . مرت به التجارب . وقرأ تواريخ المشارق والمغارب . ومضى عليه من العمر سنون . واطلع من حوادث الزمان على فنون . وقاسى حلوه ومره . وعانى حره وقره . وقطع للثعالب شباك مصايد . وتخلص لابن آوى من ورطات مكايد . ورأى من الزمان وبنيه نوائب وشدائد . وحفظ وقائع لبنات آوى وثعالب . وطالع من كتب حيلها طلائع كتائب . وأحكم من طرائقها عجائب غرائب . فاتفق له في بعض الأحيان . أنه وقف على بعض الجدران . فنظر في عطفيه . وتأمل في نقش برديه . فرأى خال تاجه العقيق . ونظر إلى خده الشقيق . ونفض برائله المنقش . وسراويله المنقش . والثوب الذي رقمه نقاش القدرة من المقطع المبرقش . فأعجبته نفسه . وأذن فأطربه حسه .... فصار يتيه ويتبختر . ويتقصف ويتخطر . فاستهواه التمشي سويعة . حتى أبعد عن الضيعة . فصعد

إلى جدارٍ . وكان قد انتصف النهارُ . فرفع صوته بالأذانِ . فأنسى صوتهُ الكتانيّ والدهانَ . فسمعه ثعلبٌ . فقال : مطلبٌ . وسارع من وكرِه . وحمل شبكةَ مكرِه . وتوجه إليه . فرآه فسلّم عليه . فلما حس به أبو اليقظانِ . طفر إلى أعلى الجدرانِ . ثم حيّاه تحيّةَ الخلانِ . وترامى لديه ترامي الإخوانِ . وقال : أنعشَ اللهُ بدنكَ وروحكَ . وروّى من كاساتِ الحياةِ غبوقكَ وصبوحكَ . فإنكَ أحييتَ الأرواحَ والأبدانَ . بطيبِ النغمِ والصياحِ في الأذانِ . فإنّ لي زمانًا لم أسمع بمثلِ هذا الصوتِ . وقاهُ اللهُ نوائبَ الفوتِ . ومصائبَ الموتِ . وقد جئتُ لأسلّمَ عليكَ . وأذكّركَ ما أسدي من النعمِ إليكَ . وأبشّركَ ببشارةٍ . وهي أربحُ تجارةٍ . وأنجحُ من الولايةِ والإمارةِ . ولم يتّفق مثلها في سالفِ الدهرِ . ولا يقعُ نظيرُها إلى آخرِ العصرِ . وهي أنّ السلطانَ أيّدَ اللهُ بدولتهِ أركانَ الإيمانِ . أمرَ مناديًا فنادى بالأمانِ والاطمئنانِ . وإجراءِ مياهِ العدلِ والإحسانِ . من حدائقِ الصحبةِ والصداقةِ في كلِّ بستانٍ . وأن تشملَ الصداقةُ كلَّ حيوانٍ . من الطيرِ والوحشِ والحيتانِ . ولا يقتصرَ فيها على جنسِ الإنسانِ . فيتشاركَ فيها الوحوشُ والسباعُ . والبهائمُ والضباعُ . والأروى والنعامُ . والصقرُ والحمامُ . والضبُّ والنونُ . والذبابُ وأبو قلمونَ . ويتعاملونَ بالعدلِ والإنصافِ . والإسعافِ دونَ الإعسافِ . ولا يجري بينهم إلّا المصادقةُ . وحسنُ

ٱلْمُعَاشَرَةِ وَٱلْمُرَافَقَةِ . فَتُمْحَى مِنْ لَوْحِ صُدُورِهِمْ نُقُوشُ ٱلْعَدَاوَةِ وَٱلْمُنَافَقَةِ . فَيَطِيرُ ٱلْقَطَا مَعَ ٱلْعُقَابِ . وَيَبِيتُ ٱلْعُصْفُورُ مَعَ ٱلْغُرَابِ . وَيَرْعَى ٱلذِّئْبُ مَعَ ٱلْأَرْنَبِ . وَيَتَآخَى ٱلدِّيكُ وَٱلثَّعْلَبُ . وَفِي ٱلْجُمْلَةِ لَا يَتَعَدَّى أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ . فَتَأْمَنُ ٱلْفَأْرَةُ مِنَ ٱلْهِرَّةِ . وَٱلْخَرُوفُ مِنَ ٱلْأَسَدِ . وَإِذَا كَانَ ٱلْأَمْرُ كَذَا . فَقَدِ ٱرْتَفَعَ ٱلشَّرُّ وَٱلْأَذَى . فَلَا بُدَّ أَنْ يُمْتَثَلَ هٰذَا ٱلْمَرْسُومُ . وَيُتْرَكَ مَا بَيْنَنَا مِنَ ٱلْعَدَاوَةِ وَٱلْخُلُقِ ٱلْمَذْمُومِ . وَيَجْرِي بَيْنَنَا بَعْدَ ٱلْيَوْمِ ٱلْمُصَادَقَةُ . وَتَنْفَتِحُ أَبْوَابُ ٱلْمَحَبَّةِ وَٱلْمُرَافَقَةِ . وَلَا يَنْفِرُ أَحَدٌ مِنَّا مِنْ صَاحِبِهِ . بَلْ يُرَاعِي مَوَدَّتَهُ وَيُبَالِغُ فِي حِفْظِ جَانِبِهِ . وَجَعَلَ ٱلثَّعْلَبُ يُقَرِّرُ هٰذَا ٱلْمَقَالَ . وَٱلدِّيكُ يَتَلَفَّتُ إِلَى هٰذَا ٱلْهَذَيَانِ وَٱلْخَبَالِ . فَقَالَ ٱلثَّعْلَبُ : يَا أَخِي . مَا لَكَ عَنْ سَمَاعِ كَلَامِي مُرْتَخِي . أَنَا أُبَشِّرُكَ بِبِشَارَةٍ عَظِيمَةٍ . لَمْ تَتَّفِقْ فِي ٱلْأَعْصُرِ ٱلْقَدِيمَةِ . وَإِنَّمَا بَرَزَتْ بِهَا مَرَاسِيمُ مَوْلَانَا ٱلسُّلْطَانِ ٱلْجَسِيمَةُ . وَأَرَاكَ لَا تَلْتَفِتُ إِلَى هٰذَا ٱلْكَلَامِ . وَلَا تُسَرُّ بِهٰذَا ٱللُّطْفِ ٱلْعَامِّ . وَلَا تَلْتَفِتُ إِلَيَّ . وَلَا تُعَوِّلُ عَلَيَّ . وَتَسْتَشْرِفُ عَلَى بُعْدٍ شَيْءٍ . فَهَلَّا أَخْبَرْتَنِي بِمَا أَضْمَرْتَ وَنَوَيْتَ . وَتُطْلِعُنِي فِيمَا تَتَطَاوَلُ إِلَيْهِ عَلَى مَا رَأَيْتَ . حَتَّى أَعْرِفَ فِي أَيِّ شَيْءٍ أَنْتَ . وَهَلْ رَكَنْتَ إِلَى أَخْبَارِي وَسَكَنْتَ . فَقَالَ : أَرَى عَجَاجًا ثَائِرًا . وَنَقْعًا إِلَى ٱلْعَنَانِ فَائِرًا . وَحَيَوَانًا جَارِيًا . كَأَنَّهُ ٱلْبَرْقُ سَارِيًا . وَمَا عَرَفْتُ مَا هُوَ . وَلٰكِنَّهُ أَجْرَى مِنَ ٱلْهَوَاءِ . فَقَالَ : أَبُو ٱلْحُصَيْنِ . وَقَدْ نَسِيَ ٱلْمَكْرَ وَٱلْمَيْنَ . بِٱللهِ يَا أَبَا نَبْهَانَ . حَقِّقْ لِي

هٰذا ٱلحَيَوانَ. فقالَ: حيوانٌ رشيقٌ. لهُ آذانٌ طِوالٌ وخصرٌ دقيقٌ. لا ٱلخيلُ تلحقهُ. ولا ٱلرِّيحُ تسبقهُ. فرجفتْ قوائمُ ٱلثَّعلبِ. وطلبَ ٱلمهربَ. فقالَ أبو ٱلمنذرِ: تلبَّثْ يا أبا ٱلحصينِ واصبرْ حتَّى أحقِّقَ رؤيتَهُ. وأتبيَّنَ ماهيتَهُ. فإنَّهُ يا أبا ٱلحصينِ. يسبقُ طرفَ ٱلعينِ. ويكادُ يا أبا ٱلنَّجمِ. يخلفُ ٱلنَّجمَ في ٱلرَّجمِ. فقالَ: أخذني فؤادي. وما هٰذا وقتُ ٱلتَّمادي. ثمَّ ولَّى وهوَ يصدحُ بقولِهِ:

لابسَ ٱلتَّاجِ ٱلعقيقِ لا تقفْ لي في طريقي
إنْ يكنْ ذا ٱلوصفُ حقًّا فهوَ واللهِ ٱلسَّلوقي

فقالَ ٱلدِّيكُ: وإذا كانَ وقدْ قلتَ إنَّ ٱلسُّلطانَ. رسمَ بالصُّلحِ بينَ سائرِ ٱلحيوانِ. فلا بأسَ منهُ عليكَ. فتلبَّثْ حتَّى يجيءَ ويقبِّلَ يديكَ. ونعقدَ بيننا عقودَ ٱلمصادقةِ. ويصيرَ رفيقَنا ونصيرَ رفاقَهُ. فقالَ: ما لي برؤيتِهِ حاجةٌ. فدعْ عنكَ ٱلمحاجَّةَ وٱللَّجاجةَ. فقالَ: أوما زعمتَ يا أبا وثَّابٍ. أنَّ ٱلسُّلطانَ رسمَ للأعداءِ وٱلأصحابِ. أنْ يسلكوا طرائقَ ٱلأصدقاءِ وٱلأحبابِ. فلو خالفَ ٱلمرسومَ هٰذا ٱلكلبُ. لما قابلهُ ٱلملكُ إلَّا بٱلقتلِ وٱلصَّلبِ. قالَ: لعلَّ هٰذا ٱلمشؤومَ. لم يبلغْهُ ٱلمرسومُ. ثمَّ ولَّى هاربًا. وقصدَ للخلاصِ جانبًا

الجمل والملح

٩١ كانَ جمَّالٌ فقيرٌ ذو عيالٍ لهُ جملٌ يتعيشُ عليهِ. ويقوتُ هوَ وعيالُهُ بما يصلُ منهُ إليهِ. فرأى صلاحَهُ في نقلِ ملحٍ منَ ٱلملَّاحةِ.

فجدّ في تثقيل الأحمال، وملازمته بأثقال الأثقال، إلى أن آل حال الجمل إلى الهزال، وزال نشاطه وحال، والجمال لا يرق له بحال، ويجد في كده بالاشتغال، ففي بعض الأيام، أرسله مع السوام، فتوجه إلى المرعى، وهو ساقط القوة عن المسعى، وكان له أرنب صديق، فتوجه إليه في ذلك المضيق، ودعاه وسلم عليه، وبث عظيم اشتياقه، فلما رأى الحزن هزاله، تألم له وسأله أحواله، فأخبره بحاله، وما يقاسيه من غذائه ونكاله، وأن الملح قد قرحه، وجب سنامه وجرحه، وأنه قد أعيته الحيلة، وأضل إلى الخلاص سبيله، فتألم الأرنب وتأمل، وتفكر في كيفية عصر هذا الدمل، ثم قال: يا أبا أيوب، لقد فزت بالمطلوب، وقد ظهر وجه الخلاص، من شرك هذا الاقتناص، والنجاة من الارتهاص والارتصاص، تحت حمل كالرصاص، فهل يعترضك يا ذا الرياضة، في طريق الملاحة مخاضة، فقال: كثير وكم من نهر وغدير، فقال: إذا مررت في خوض ولو أنه روض أو حوض، فابرك فيه وتمرغ، وتنصل من حملك وتفرغ، واستمر فيه يا أبا أيوب، فإن الملح في الماء يذوب، وكرر هذه الحركة، فإنك ترى فيها البركة، فإما أنهم يغيرون حملك أو يخففوه، أو تستريح بذوبه من الذي أضعفوه، فتحمل الجمل للأرنب المنة، وشنف بدر هذه الفائدة أذنه، فلما حمله صاحبه الحمل المعهود، ودخل به في طريقه للمورود، ووصل المخاضة

بَرَكَ. فضربوه وما احترك. وتحمّل ضربه وعسفه. حتى أذاب من الحمل نصفه. ثم نهض انتهاضة. وخرج من المخاضة. ولازم هذه العادة. إلى أن أفقر صاحبه وأباده. فأدرك الجمّال هذه الحيلة. فافتكر له في داهية وبيلة. وعمد إلى عهنٍ منفوش. وغيّر في مقامرته شكل النقوش. وأوسق للجمل حملاً. وبالغ فيه تعبية وثقلاً. وسلّط عليه الظماء. ثم دخل به إلى الماء. فلما توسط الماء برك. وتغافل عنه صاحبه وترك. فتشرّب الصوف من الماء ما يملأ البرك. ثم أراد النهوض. فناء به الربوض. فقاسى من المشاق. ما لا يطاق. ورجع هذا الفكر الوبيل. على الجمل المسكين بأضعاف الثقيل. فساء مصيره. وكان في تدبيره تدميره. وما استفاد إلا زيادة النصب. وأمثال ما كان يجده من التعب والوصب. وإنما أوردت هذا المثل عن الجمل ليعلم الملك والحضار. أن العدو الغدّار. والحسود المكار. يفتكر في أنواع الدواهي. ويفرغ أنواع البلايا والرزايا كما هي. ويبذل في ذلك جدّه وجهده. ولا يقصّر فيما تصل إليه من ذلك يده. فتارة تدرك مكايده. وتعرف مصايده. وتارة يُغفل عن دواهيها. فلا يشعر الخصم إلا وقد تورط فيها. وعلى كل حال. لا بدّ للشخص له وعليه من الاحتيال

البستاني والاربعة العابثون بجنته

٩٢ كان من تكريت رجل مسكين. ينظر البساتين. فمي

بَعضِ ٱلسِّنِينَ . قَدِمَ قَرْيَةَ مَنِينَ . وَسَكَنَ فِي بُسْتَانٍ . كَأَنَّهُ قِطْعَةٌ مِنَ ٱلْجِنَانِ . فِيهِ فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ . فَفِي بَعضِ ٱلْأَعْوَامِ . أَقْبَلَتِ ٱلْفَوَاكِهُ بِٱلْإِنْعَامِ . وَنَثَرَتِ ٱلثِّمَارُ مَلَابِسُ ٱلْأَشْجَارِ مِنَ ٱلْأَذْيَالِ وَٱلْأَكْمَامِ . فَأَلْجَأَتِ ٱلضَّرُورَةُ ذٰلِكَ ٱلْإِنْسَانَ . أَنْ خَرَجَ مِنَ ٱلْبُسْتَانِ . ثُمَّ رَجَعَ فِي ٱلْحَالِ فَرَأَى فِيهِ أَرْبَعَةَ رِجَالٍ . أَحَدُهُمْ جُنْدِيٌّ وَٱلْآخَرُ شَرِيفٌ . وَٱلثَّالِثُ فَقِيهٌ وَٱلرَّابِعُ تَاجِرٌ ظَرِيفٌ . قَدْ أَكَلُوا وَسُقُوا . وَنَامُوا وَٱتَّفَقُوا . وَتَصَرَّفُوا فِي ذَاكَ تَصَرُّفَ ٱلْمُلَّاكِ . وَأَفْسَدُوا فَسَادًا فَاحِشًا خَادِشًا . وَمَارِشًا وَنَاوِشًا وَنَاكِشًا . فَأَضَرَّ ذٰلِكَ بِحَالِهِ . وَرَأَى ٱلْعَجْزَ فِي أَفْعَالِهِ . إِذْ هُوَ وَحِيدٌ . وَهُمْ أَرْبَعَةٌ وَكُلٌّ عَنِيدٌ . فَسَارَعَ إِلَى ٱلتَّأْخِيذِ . وَعَزَمَ عَلَى ٱلتَّفْخِيذِ . فَٱبْتَدَأَ بِٱلتَّرْحِيبِ وَٱلْبَشَاشَةِ . وَٱلْإِكْرَامِ وَٱلْهَشَاشَةِ . وَأَحْضَرَ لَهُمْ مِنْ أَطَايِبِ ٱلْفَاكِهَةِ . وَطَايَبَهُمْ بِٱلْمُفَاكَهَةِ . وَسَامَحَ بِٱلْمُمَازَحَةِ . وَمَازَحَ بِٱلْمُسَامَحَةِ . إِلَى أَنِ ٱطْمَأَنُّوا وَٱسْتَكَانُوا وَٱسْتَكَنُّوا . وَدَخَلُوا فِي ٱللَّعِبِ . وَلَاعَبُوهُ بِمَا يَجِبُ . فَقَالَ فِي أَثْنَاءِ ٱلْكَلَامِ : أَيُّهَا ٱلسَّادَةُ ٱلْكِرَامُ لَقَدْ حُزْتُمْ أَطْرَافَ ٱلْمَعَارِفِ وَٱلطُّرَفِ . فَأَيَّ شَيْءٍ تُعَانُونَ مِنَ ٱلْحِرَفِ . فَقَالَ أَحَدُهُمْ : أَنَا جُنْدِيٌّ . وَقَالَ ٱلْآخَرُ : أَنَا شَيْخُ ٱلْقُضَاةِ جَدِّي . وَقَالَ ٱلثَّالِثُ : أَنَا فَقِيهٌ . وَقَالَ ٱلرَّابِعُ : أَنَا تَاجِرٌ نَبِيهٌ . فَقَالَ : وَٱللّٰهِ لَسْتَ بِنَبِيهٍ . وَلٰكِنْ تَاجِرٌ سَفِيهٌ . وَقَبِيحُ ٱلشَّكْلِ كَرِيهٌ . أَمَّا ٱلْجُنْدِيُّ فَإِنَّهُ مَالِكُ رِقَابِنَا . وَحَارِسُ حِجَابِنَا . يَحْفَظُنَا بِصَوْلَتِهِ . وَيَصُونُ أَنْفُسَنَا وَأَمْوَالَنَا وَأَوْلَادَنَا بِسَيْفِ دَوْلَتِهِ . وَيَجْعَلُ نَفْسَهُ لَنَا

وقاية . وينكي في أعدائنا أشد نكاية . فلو مد يده إلى كل منا ورزقه . فهو بعض استحقاقه ودون حقه . وأما الشريف فقد تشرف به اليوم مكاني . وحلت به البركة علي وعلى بستاني . وأما سيدنا العالم فهو مرشد العالم . وهو سراج ديننا . الهادي إلى يقيننا . فإذا شرفونا بأقدامهم . ورضوا أن نكون من خدامهم . فلهم الفضل علينا . والمنة الواصلة إلينا . وأما أنت يارابعهم . وشرجان تابعهم . بأي طريق تدخل إلى بستاني . وتتناول سفرجلي ورماني . هل بايعتني بمسامحة . وتركت لي المرابحة . أو لك علي دين . أو عاملتني نسيئة دون عين . ألك علي جميلة . وهل بيني وبينك وسيلة . تقتضي تناول مالي . والهجوم على ملكي ومنالي . ثم مد يده إليه . فلم يعترض من رفقائه أحد عليه . لأنه أرضاهم بالكلام . واعتذر عما يتطرق إليه من ملام . فأوثقه وثاقاً محكماً . وتركه مغرماً . ثم مكث ساعة . وهو على الخلاعة مع الجماعة . وغامز الجندي والشريف على الفقيه الظريف . فقال : أيها العالم الفقيه . والفاضل النبيه . أنت مفتي المسلمين . وعالم بمنهاج الدين . على فتواك مدار الإسلام . وكلمتك الفارقة بين الحلال والحرام . بفتواك تستباح الدماء فمن أفتاك بالدخول في هذا . أفتني ياعالم الزمان . محمد بن إدريس أفتاك بهذا أم النعمان . أم أحمد بن حنبل أم مالك . فبح لنا بذلك . وإلا فما بالك تعوث وتعبث بما ليس لك . ولا عتب على الأجناد والأشراف . ولا على

الجهلاء والأجلاف . إذا ارتكب مثلك هذا المحظور . وتعاطى العلماء والمفتون أقبح الأمور . ثم مد يده إلى جلابيبه . وأوثقه بتلابيبه . فأحكمه وثاقا . وآلمه رباقا . فاستنجد بصاحبيه إلى جانبيه فما أنجداه ولا رفداه . ثم جلس يلاهي . الجندي الساهي . وغامزه على الشريف . ذي النسب الظريف . ثم قال : أيها السيد الأصيل النجيب الجيد الحسيب . لا تعتب على كلامي . ولا تستثقل ملامي . أما الأمير فإنه رجل كبير . ذو قدر خطير . له الجميلة التامة . والفضيلة اللامة . وأنت يا ذا النسب الطاهر . والأصل الباهر . والفضل الزاهر سلفك الطيب أذن لك في الدخول إلى ما لا يحل لك . وإذا كنت يا طاهر الأسلاف لا تتبع سنة آبائك الأشراف . من الزهد والعفاف . فلا عتب على الأوباش والأطراف . ثم وثب إليه وكتف يديه . ولم يعطف الجندي عليه . ولم يبق إلا الجندي وهو وحيد . فانتصف منه البستاني كما يريد . وأوثقه رباطا . وزاد لنفسه احتياطا . ثم أوجعهم ضربا وأشبعهم لعنا وسبا . وجمع عليهم الجيران . واستعان بالجلاوزة وأصحاب الديوان . وحملهم برباطهم وعملتهم تحت آباطهم إلى باب الوالي . وأخذ منهم ثمن ما أخذوه من رخيص وغالي . وإنما أوردت ما جرى لتعلموا أيها الوزراء أن التفخيذ . بين الأعداء بالتأخيذ . أمر من السهام في تنفيذ الأحكام وأحكام التنفيذ

(فاكهة الخلفاء لابن عربشاه)

الباب السابع
في الفضائل والرذائل

الصبر

٩٣ يُقَالُ أَوْكَدُ ٱلْأَسْبَابِ لِلظَّفَرِ ٱلصَّبْرُ. وَقَالَ بَعْضُ ٱلْعُلَمَاءِ: ٱلصَّبْرُ جُنَّةُ ٱلْمُؤْمِنِ وَعَزِيمَةُ ٱلْمُتَوَكِّلِ وَسَبَبُ دَرْكِ ٱلنُّجْحِ فِي ٱلْحَوَائِجِ. فَمَنْ وَطَّنَ نَفْسَهُ عَلَى ٱلصَّبْرِ لَمْ يَجِدْ لِلْأَذَى مَسًّا. وَمَنِ ٱسْتَعَفَّ بِٱللّٰهِ عَفَّهُ. وَمَنِ ٱسْتَعَانَ بِهِ يُعِنْهُ وَلَنْ تَجِدُوا حَظًّا خَيْرًا مِنَ ٱلصَّبْرِ. جَاءَ فِي ٱلْمَبْهَجِ: ٱلصَّبْرُ أَحْجَى بِذِي ٱلْحِجَى. وَقَالَ حَكِيمٌ: تَابِعُ ٱلصَّبْرِ مَتْبُوعُ ٱلنَّصْرِ (للمقدسي)

٩٤ قَالَ أَبُو تَمَّام:

إِذَا ٱشْتَمَلَتْ عَلَى ٱلْيَأْسِ ٱلْقُلُوبُ ... وَضَاقَ لِمَا بِهِ ٱلصَّدْرُ ٱلرَّحِيبُ
وَأَوْطَنَتِ ٱلْمَكَارِهُ وَٱطْمَأَنَّتْ ... وَأَرْسَتْ فِي مَكَامِنِهَا ٱلْخُطُوبُ
فَلَمْ تَرَ لِٱنْكِشَافِ ٱلضُّرِّ وَجْهًا ... وَلَا أَغْنَى بِحِيلَتِهِ ٱلْأَرِيبُ
أَتَاكَ عَلَى قُنُوطٍ مِنْهُ غَوْثٌ ... يَمُنُّ بِهِ ٱللَّطِيفُ ٱلْمُسْتَجِيبُ
فَكُلُّ ٱلْحَادِثَاتِ وَإِنْ تَنَاهَتْ ... فَمَوْصُولٌ بِهَا فَرَجٌ قَرِيبُ

٩٥ مِنَ ٱلدِّيوَانِ ٱلْمَنْسُوبِ إِلَى أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ:

هِيَ حَالَانِ شِدَّةٌ وَرَخَاءٌ ... وَسِجَالَانِ نِعْمَةٌ وَبَلَاءٌ
وَٱلْفَتَى ٱلْحَاذِقُ ٱلْأَدِيبُ إِذَا مَا ... خَانَهُ ٱلدَّهْرُ لَمْ يَخُنْهُ ٱلْعَزَاءُ

إنْ أَلَمَّتْ مُلِمَّةٌ بِي فَإِنِّي فِي ٱلْمُلِمَّاتِ صَخْرَةٌ صَمَّاءُ
حَازِمٌ فِي ٱلْبَلَاءِ عِلْمًا بِأَنْ لَيْسَ يَدُومُ ٱلنَّعِيمُ وَٱلْبَلْوَاءُ

وَأَنشَدَ أَعْرَابِيٌّ:

وَإِنِّي لَأُغْضِي مُقْلَتِيَّ عَلَى ٱلْقَذَى وَأَلْبَسُ ثَوْبَ ٱلصَّبْرِ أَبْيَضَ أَبْلَجَا
وَإِنِّي لَأَدْعُو ٱللّٰهَ وَٱلْأَمْرُ ضَيِّقٌ عَلَيَّ فَمَا يَنْفَكُّ أَنْ يَتَفَرَّجَا
وَكَمْ مِنْ فَتًى ضَاقَتْ عَلَيْهِ وُجُوهُهُ أَصَابَ لَهَا فِي دَعْوَةِ ٱللّٰهِ مَخْرَجَا

٩٦ قَالَ غَيْرُهُ:

تَصَبَّرْ وَلَا تُبْدِ ٱلتَّضَعْضُعَ لِلْعِدَى وَلَوْ قَطَعَتْ فِي ٱلْجِسْمِ مِنْكَ ٱلْبَوَاتِرُ
سُرُورُ ٱلْأَعَادِي أَنْ تَرَاكَ بِذِلَّةٍ وَلٰكِنَّهَا تَغْتَمُّ إِذْ أَنْتَ صَابِرُ
إِنِّي وَجَدْتُ وَخَيْرُ ٱلْقَوْلِ أَصْدَقُهُ لِلصَّبْرِ عَاقِبَةً مَحْمُودَةَ ٱلْأَثَرِ
وَقَلَّ مَنْ جَدَّ فِي أَمْرٍ يُحَاوِلُهُ فَٱسْتَصْحَبَ ٱلصَّبْرَ إِلَّا فَازَ بِٱلظَّفَرِ

قَالَ آخَرُ:

عَلَيْكَ بِٱلصَّبْرِ فِيمَا قَدْ مُنِيتَ بِهِ فَٱلصَّبْرُ يُذْهِبُ مَا فِي ٱلصَّدْرِ مِنْ حَرَجِ
كَمْ لَيْلَةٍ مِنْ هُمُومِ ٱلدَّهْرِ مُظْلِمَةٍ قَدْ ضَاءَ مِنْ بَعْدِهَا صُبْحٌ مِنَ ٱلْفَرَجِ

وَمَا أَحْسَنَ مَا قَالَ ٱلشَّيْخُ حَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ ٱلْبُورِينِيُّ:

صَبْرًا عَلَى نُوَبِ ٱلزَّمَانِ فَإِنَّهَا مَخْلُوقَةٌ لِنِكَايَةِ ٱلْأَحْرَارِ
لَا يُكْسَفُ ٱلنَّجْمُ ٱلضَّعِيفُ وَإِنَّمَا يَسْرِي ٱلْكُسُوفُ لِرِفْعَةِ ٱلْأَقْمَارِ

٩٧ قَالَ إِبْرٰهِيمُ ٱلْعِمَادِيُّ:

لَا تَخْشَ مِنْ شِدَّةٍ وَلَا نَصَبٍ وَثِقْ بِفَضْلِ ٱلْإِلٰهِ وَٱبْتَهِجِ

وَٱرْجُ إِذَا ٱشْتَدَّ هَمٌّ نَازِلَةٍ فَآخِرُ ٱلْهَمِّ أَوَّلُ ٱلْفَرَجِ

وَقَالَ غَيْرُهُ وَأَجَادَ :

تَصَبَّرْ فَفِي ٱللَّأْوَاءِ قَدْ يُحْمَدُ ٱلصَّبْرُ وَلَوْلَا صُرُوفُ ٱلدَّهْرِ لَمْ يُعْرَفِ ٱلْحُرُّ
وَإِنَّ ٱلَّذِي أَبْلَى هُوَ ٱلْعَوْنُ فَٱنْتَدِبْ جَمِيلَ ٱلرِّضَا يَبْقَى لَكَ ٱلذِّكْرُ وَٱلْأَجْرُ
وَثِقْ بِٱلَّذِي أَعْطَى وَلَا تَكُ جَازِعًا فَلَيْسَ بِحَزْمٍ أَنْ يُرَوِّعَكَ ٱلضُّرُّ
فَلَا نِعَمٌ تَبْقَى وَلَا نِقَمٌ وَلَا يَدُومُ كِلَا ٱلْحَالَيْنِ عُسْرٌ وَلَا يُسْرُ
تَقَلَّبُ هٰذَا ٱلْأَمْرِ لَيْسَ بِدَائِمٍ لَدَيْهِ مَعَ ٱلْأَيَّامِ حُلْوٌ وَلَا مُرُّ

قَالَ آخَرُ :

إِنَّ ٱلْأُمُورَ إِذَا ٱشْتَدَّتْ مَسَالِكُهَا فَٱلصَّبْرُ يَفْتَحُ مِنْهَا كُلَّ مَا رُتِجَا
لَا تَيْأَسَنَّ وَإِنْ طَالَتْ مَطَالِبُهُ إِذَا ٱسْتَعَنْتَ بِصَبْرٍ أَنْ تَرَى فَرَجَا

وَقَالَ آخَرُ :

عَلَى قَدْرِ فَضْلِ ٱلْمَرْءِ تَأْتِي خُطُوبُهُ وَيُعْرَفُ عِنْدَ ٱلصَّبْرِ فَضْلُ نُهَاهُ
وَمَنْ قَلَّ فِي مَا يَتَّقِيهِ ٱصْطِبَارُهُ فَقَدْ قَلَّ فِي مَا يَرْتَجِيهِ مُنَاهُ

قَالَ ٱلْمَرَارُ بْنُ سَعِيدٍ :

إِذَا شِئْتَ يَوْمًا أَنْ تَسُودَ عَشِيرَةً فَبِٱلْحِلْمِ سُدْ لَا بِٱلتَّسَرُّعِ وَٱلشَّتْمِ
وَلَلْحِلْمُ خَيْرٌ فَٱعْلَمَنَّ مَغَبَّةً مِنَ ٱلْجَهْلِ إِلَّا أَنْ تَشَمَّسَ مِنْ ظُلْمِ

القناعة

٩٨ إِعْلَمْ أَنَّ مِمَّا يَتَحَقَّقُهُ ٱلْعَاقِلُ وَلَا يَذْهَلُ عَنْهُ إِلَّا ٱلْأَبْلَهُ أَنَّ ٱلدُّنْيَا دَارُ ٱلْأَكْدَارِ وَمَحَلُّ ٱلْهُمُومِ وَٱلْغُمُومِ وَٱلْحَسَرَاتِ . وَأَنَّ أَخَفَّ ٱلْخَلْقِ

بلاءً وأما الفقراء. وأعظم الناس تعبا وهما وغما هم الملوك والأمراء والكبراء. ويقال: لكل شبر قامة من الهم. وقيل:

لقد قنعت همتي بالخمول وصدت عن الرتب العالية
وما جهلت طيب طعم العلى ولكنها تؤثر العافية

وطالما رضيت الملوك والسلاطين بحال الفقراء والضعفاء والمساكين.

في كل بيت كربة ومصيبة ولعل بيتك إن رأيت أقلها

فارض بحال فقرك. واشكر الله تعالى على خفة ظهرك. ولا تتعد طورك. وقف عند قدرك. تجد ذلك نعمة خفية ساقها الله تعالى إليك. ورأفة ورحمة أفاضها الله تعالى من خزائن لطفه عليك. فاعتبر بهذه الكلمات. وخذ لنفسك حظا وافرا من هذه العظات. ومن ذلك أن هارون الرشيد من أعقل الخلفاء العباسيين وأكملهم رأيا وتدبيرا وفطنة وقوة واتساع مملكة وكثرة خزائن بحيث كان يقول للسحابة: امطري حيث شئت فإن خراج الأرض التي تمطرين فيها يجيء إلي. ومع ذلك كان أتعبهم خاطرا وأشتهم فكرا وأشغلهم قلبا (الاعلام لقطب الدين النهروالي)

٩٩ ولله من قال:

أرى الدنيا لمن هي في يديه عذابا كلما كثرت لديه
إذا استغنيت عن شيء فدعه وخذ ما كنت محتاجا إليه

قال آخر:

أَفَادَتْنِي ٱلْقَنَاعَةُ كُلَّ عِزٍّ وَهَلْ عِزٌّ أَعَزُّ مِنَ ٱلْقَنَاعَةْ
فَٱجْعَلْهَا لِنَفْسِكَ رَأْسَ مَالٍ وَٱشْتَرِ بَعْدَهَا ٱلتَّقْوَى بِضَاعَةْ

قَالَ أَبُو ٱلْعَتَاهِيَةِ:

غِنَى ٱلنَّفْسِ مَا يَكْفِيكَ مِنْ سَدِّ فَاقَةٍ فَإِنْ زَادَ شَيْئًا عَادَ ذَاكَ ٱلْغِنَى فَقْرَا

قَالَ غَيْرُهُ:

يَا أَحْمَدُ ٱقْنَعْ بِٱلَّذِي أُوتِيتَهُ إِنْ كُنْتَ لَا تَرْضَى لِنَفْسِكَ ذُلَّهَا
وَٱعْلَمْ بِأَنَّ ٱللهَ جَلَّ جَلَالُهُ لَمْ يَخْلُقِ ٱلدُّنْيَا لِأَجْلِكَ كُلَّهَا

العدل

١٠٠ يُحْكَى عَنْ إِسْمَاعِيلَ ٱلسَّامَانِيِّ فِي كِتَابِ سِيَرِ ٱلْمُلُوكِ أَنَّهُ كَانَ إِذَا ٱحْتَلَّ مَدِينَةً يَجْلِسُ لِلنَّاسِ وَكَانَ يَرْفَعُ ٱلْحِجَابَ. وَيُبْعِدُ ٱلْحُجَّابَ. وَيُبِيحُ ٱلْبَوَّابَ. لِيَجِيءَ كُلُّ مَنْ لَهُ ظُلَامَةٌ وَيَقِفَ عَلَى جَانِبِ ٱلْبِسَاطِ وَيُخَاطِبَهُ وَيَعُودَ مَقْضِيَّ ٱلْحَاجَةِ. وَكَانَ يَقْضِي بَيْنَ ٱلْخُصُومِ مِثْلَ ٱلْحُكَّامِ إِلَى أَنْ يُفْنِيَ ٱلدَّعَاوِيَ. ثُمَّ يَقُومُ مِنْ مَوْضِعِهِ وَيَقْبِضُ عَلَى مَحَاسِنِهِ بِيَدِهِ. وَيُوَجِّهُ وَجْهَهُ نَحْوَ ٱلسَّمَاءِ وَيَقُولُ: إِلٰهِي هٰذَا جُهْدِي وَطَاقَتِي قَدْ بَذَلْتُهُ وَأَنْتَ عَالِمُ ٱلْأَسْرَارِ وَتَعْلَمُ عَلَانِيَتِي. وَلَا أَعْلَمُ عَلَى أَيِّ عَبْدٍ مِنْ عَبِيدِي أَجْنَفْتُ أَوْ لِأَيِّ عَبْدٍ ظَلَمْتُ وَمَا أَنْصَفْتُ. أَنَا وَاحِدٌ مِنْ أَصْحَابِي. فَٱغْفِرْ لِي مِنْ ذٰلِكَ مَا لَا أَعْلَمُ. فَلَمَّا كَانَ تَقِيَّ ٱلنِّيَّةِ جَمِيلَ ٱلطَّوِيَّةِ لَا جَرَمَ عَلَا أَمْرُهُ وَٱرْتَفَعَ قَدْرُهُ. وَكَانَ عَسْكَرُهُ

أَلْفَ فَارِسٍ مُعْتَدِينَ بِالسِّلَاحِ مُقَنَّعِينَ بِالْحَدِيدِ وَبِبَرَكَةِ ذٰلِكَ الْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ ظَفَّرَهُ اللّٰهُ بِأَعْدَائِهِ (للغزالي)

قَالَ شَاعِرٌ:

أَلْعَدْلُ رُوحٌ بِهِ تَحْيَا الْبِلَادُ كَمَا دَمَارُهَا أَبَدًا بِالْجَوْرِ يَنْحَتِمُ
أَلْجَوْرُ شَيْنٌ بِهِ التَّعْسِيرُ مُمْتَنِعٌ وَالْعَدْلُ زَيْنٌ بِهِ التَّمْهِيدُ يَنْتَظِمُ

١٠١ لَمَّا ظَلَمَ أَحْمَدُ بْنُ طُولُونَ قَبْلَ أَنْ يَعْدِلَ . اسْتَغَاثَتِ النَّاسُ مِنْ ظُلْمِهِ وَتَوَجَّهُوا إِلَى السَّيِّدَةِ نَفِيسَةَ وَاشْتَكَوْهُ إِلَيْهَا . فَقَالَتْ لَهُمْ: مَتَى يَرْكَبُ . فَقَالُوا: فِي غَدٍ فَكَتَبَتْ رُقْعَةً وَوَقَفَتْ فِي طَرِيقِهِ . وَقَالَتْ: يَا أَحْمَدَ بْنَ طُولُونَ . فَلَمَّا رَآهَا عَرَفَهَا وَتَرَجَّلَ عَنْ فَرَسِهِ وَأَخَذَهَا مِنْهَا وَقَرَأَهَا . فَإِذَا فِيهَا مَكْتُوبٌ مَلَكْتُمْ فَأَسَرْتُمْ . وَقَدَرْتُمْ فَقَهَرْتُمْ . وَخُوِّلْتُمْ فَفَسَقْتُمْ . وَدَرَّتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْزَاقُ فَقَطَعْتُمْ . هٰذَا وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ سِهَامَ الْأَسْحَارِ نَافِذَةٌ لَا سِيَّمَا مِنْ قُلُوبٍ أَجَعْتُمُوهَا . وَأَجْسَادٍ أَعْرَيْتُمُوهَا . اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَإِنَّا صَابِرُونَ . وَجُورُوا فَإِنَّا بِاللّٰهِ مُسْتَجِيرُونَ . وَاظْلِمُوا فَإِنَّا مِنْكُمْ مُتَظَلِّمُونَ . وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ . فَعَدَلَ مِنْ وَقْتِهِ وَسَاعَتِهِ (لبهاء الدين)

١٠٢ أَخْبَرَ الثَّعَالِبِيُّ قَالَ: اسْتَشْهَدَ مُحَمَّدُ بْنُ الْفُرَاتِ أَيَّامَ وِزَارَتِهِ عَلِيَّ بْنَ عِيسَى صَاحِبَهُ بِغَيْرِ حَقٍّ فَلَمْ يَشْهَدْ لَهُ . فَلَمَّا عَادَ إِلَى بَيْتِهِ كَتَبَ إِلَيْهِ: لَا تَلُمْنِي عَلَى نُكُوصِي عَنْ نُصْرَتِكَ بِشَهَادَةِ زُورٍ . فَإِنَّهُ لَا إِنْفَاقَ عَلَى نِفَاقٍ . وَلَا وَفَاءَ لِذِي مَيْنٍ وَاخْتِلَاقٍ . وَأَحْرِ بِمَنْ تَعَدَّى الْحَقَّ فِي

مسرتك إذا رضي أن يتعدى الباطل في مساءتك إذا غضب. وكأن المتنبي أشار إلى هذا المعنى بقوله:

لقد أباحك غشاً في معاملة ... من كنت منه بغير الصدق تنتفع

الكرم

١٠٣ كان خالد بن عبد الله القسري يقول تنافسوا في المغانم وسارعوا إلى المكارم. واكتسبوا بالجود حمداً ولا تكتسبوا بالمال ذماً. ولا تعدوا بمعروف ولم تعجلوه. واعلموا أن حوائج الناس نعمة من الله عليكم فلا تملوها فتعود نقماً. وقال الشاعر:

مات الكرام وولوا وانقضوا ومضوا ... ومات في إثرهم تلك الكرامات

وخلفوني في قوم ذوي سفه ... لو عاينوا طيف ضيف في الكرى ماتوا

١٠٤ قال آخر:

إني وإن لم ينل مالي مدى خلقي ... فياض ما ملكت كفاي من مال

لا أحبس المال إلا ريث أتلفه ... ولا تغيرني حال إلى حال

وقال سوادة اليربوعي:

ألا بكرت مي علي تلومني ... تقول ألا أهلكت من أنت عائله

ذريني فإن البخل لا يخلد الفتى ... ولا يهلك المعروف من هو فاعله

قال آخر:

يفني البخيل بجمع المال مدته ... وللحوادث والأيام ما يدع

كدودة القز ما تبنيه يهدمها ... وغيرها بالذي تبنيه ينتفع

قَالَ غَيْرُهُ فِي ٱلْمَعْنَى :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْمَرْءَ طُولَ حَيَاتِهِ   مُعَنًّى بِأَمْرٍ لَا يَزَالُ يُعَالِجُهْ
كَذٰلِكَ دُودُ ٱلْقَزِّ يَنْسِجُ دَائِمًا   وَيَهْلِكُ غَمًّا بِٱلَّذِي هُوَ نَاسِجُهْ

الوفاء

١٠٥ يُعْجِبُنِي قَوْلُ بَعْضِهِمْ : أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ شَجَرَ وَعْدِكَ قَدْ أَوْرَقَتْ فَلْيَكُنْ ثَمَرُهَا سَالِمًا مِنْ جَوَائِحِ ٱلْمَطْلِ وَٱلسَّلَامُ (للحموي)

قَالَ أَبُو تَمَّامٍ :

إِذَا قُلْتَ فِي شَيْءٍ نَعَمْ فَأَتِمَّهُ   فَإِنَّ نَعَمْ دَيْنٌ عَلَى ٱلْحُرِّ وَاجِبُ
وَإِلَّا فَقُلْ لَا تَسْتَرِحْ وَتُرِحْ بِهَا   لِئَلَّا يَقُولَ ٱلنَّاسُ إِنَّكَ كَاذِبُ

وَقَالَ آخَرُ :

وَلَقَدْ وَعَدْتَ وَأَنْتَ أَكْرَمُ وَاعِدٍ   لَا خَيْرَ فِي وَعْدٍ بِغَيْرِ تَمَامِ
أَنْعِمْ عَلَيَّ بِمَا وَعَدْتَ تَكَرُّمًا   فَٱلْمَطْلُ يُذْهِبُ بَهْجَةَ ٱلْإِنْعَامِ

وَقَالَ غَيْرُهُ :

لَئِنْ جُمِعَ ٱلْآفَاتُ فَٱلْبُخْلُ شَرُّهَا   وَشَرٌّ مِنَ ٱلْبُخْلِ ٱلْمَوَاعِيدُ وَٱلْمَطْلُ
وَلَا خَيْرَ فِي وَعْدٍ إِذَا كَانَ كَاذِبًا   وَلَا خَيْرَ فِي قَوْلٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِعْلُ

الرأي والمشورة

١٠٦ قِيلَ : مَنْ بَدَأَ بِٱلْاسْتِخَارَةِ وَثَنَّى بِٱلْاسْتِشَارَةِ فَحَقِيقٌ أَنْ لَا يَخِيبَ رَأْيُهُ . وَقِيلَ : ٱلرَّأْيُ ٱلسَّدِيدُ أَحْمَى مِنَ ٱلْبَطَلِ ٱلشَّدِيدِ . وَقِيلَ : مَنْ بَذَلَ

نُصحَهُ وَٱجتِهادَهُ لِمَن لا يَشكُرُهُ فهُوَ كَمَن بذَرَ في ٱلسِّباخِ . قالَ ٱلشَّاعِرُ يَمدَحُ مَن لهُ رأيٌ وبَصيرَةٌ :

بَصيرٌ بِأَعقابِ ٱلأُمورِ كأَنَّما ... يُخاطِبُهُ مِن كُلِّ أَمرٍ عواقِبُهْ

وقالَ بعضُهُم : خَميرُ ٱلرَّأيِ خَيرٌ مِن فَطيرِهِ . وتَقديمُهُ خيرٌ مِن تأخيرِهِ

(للابشيهي)

وما يُعرَفُ أحسَنُ مِن قَولِ ٱبنِ ٱلرُّوميِّ في ذٰلِكَ :

نارُ ٱلرَّوِيَّةِ نارٌ جِدُّ مُنضِجَةٍ ... وَلِلبَديهَةِ نارٌ ذاتُ تَلويحِ

وَقَد يُفضِّلُها قَومٌ لِعاجِلِها ... لٰكِنَّهُ عاجِلٌ يَمضي مَعَ ٱلرِّيحِ

قالَ أبو ٱلطَّيِّبِ ٱلمُتَنَبِّي :

أَلرَّأيُ قَبلَ شَجاعَةِ ٱلشُّجعانِ ... هُوَ أَوَّلٌ وَهِيَ ٱلمَحَلُّ ٱلثَّاني

فَإِذا هُما ٱجتَمَعا لِنَفسٍ حُرَّةٍ ... بَلَغَت مِنَ ٱلعَلياءِ كُلَّ مَكانِ

وَلَرُبَّما طَعَنَ ٱلفَتى أَقرانَهُ ... بِٱلرَّأيِ قَبلَ تَطاعُنِ ٱلأَقرانِ

لَولا ٱلعُقولُ لَكانَ أَدنى ضَيغَمٍ ... أَدنى إِلى شَرَفٍ مِنَ ٱلإِنسانِ

١٠٧ قالَ بعضُهُم : وَشاوِرِ ٱلنَّاسَ في ٱلأَمرِ إِذ إِنَّ ٱلإِنسانَ لا يَستَغني عَن مَشورَةِ نَصيحٍ لهُ . كما أَنَّ ٱلقَوادِمَ مِن ريشِ ٱلجَناحِ تَستَعينُ بِٱلخَوافي مِنهُ . قالَ بَشَّارٌ :

إِذا بلَغَ ٱلرَّأيُ ٱلمَشورَةَ فَٱستَعِن ... بِحَزمِ نَصيحٍ أَو نَصاحَةِ حازِمِ

وَلا تَجعَلِ ٱلشُّورى عَلَيكَ غَضاضَةً ... فَريشُ ٱلخَوافي تابِعٌ لِلقَوادِمِ

وَما خَيرُ كَفٍّ أَمسَكَ ٱلغُلُّ أُختَها ... وَما خَيرُ سَيفٍ لَم يُؤَيَّد بِقائِمِ

قَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ : قُلْتُ لِبَشَّارٍ : رَأَيْتُ رِجَالَ ٱلرَّأْيِ يَتَعَجَّبُونَ مِنْ أَبْيَاتِكَ فِي ٱلْمَشُورَةِ . فَقَالَ : أَوَمَا عَلِمْتَ أَنَّ ٱلْمُشَاوِرَ بَيْنَ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ . صَوَابٍ يَفُوزُ بِثَمَرَتِهِ . أَوْ خَطَاءٍ يُشَارِكُ فِي مَكْرُوهِهِ . فَقُلْتُ لَهُ : أَنْتَ فِي هٰذَا ٱلْكَلَامِ أَشْعَرُ مِنْكَ فِي شِعْرِكَ . وَقَالَ ٱلْجَاحِظُ : ٱلْمَشُورَةُ لِقَاحُ ٱلْعُقُولِ وَرَائِدُ ٱلصَّوَابِ وَٱلْمُسْتَشِيرُ عَلَى طَرَفِ ٱلنَّجَاحِ . وَٱسْتِشَارَةُ ٱلْمَرْءِ بِرَأْيِ أَخِيهِ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ وَحَزْمِ ٱلتَّدْبِيرِ . وَقَالَ عَبْدُ ٱلْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ : لَأَنْ أُخْطِئَ وَقَدِ ٱسْتَشَرْتُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُصِيبَ وَقَدِ ٱسْتَبْدَدْتُ بِرَأْيِي مِنْ غَيْرِ مَشُورَةٍ

(لابي نصر المقدسي)

وَلَقَدْ أَحْسَنَ مَنْ قَالَ :

لَا تَحْقِرَنَّ ٱلرَّأْيَ وَهُوَ مُوَافِقٌ حُكْمَ ٱلصَّوَابِ إِذَا أَتَى مِنْ نَاقِصِ
فَٱلدُّرُّ وَهُوَ أَجَلُّ شَيْءٍ يُقْتَنَى مَا حَطَّ قِيمَتَهُ هَوَانُ ٱلْغَائِصِ

قَالَ ٱلْأَرَّجَانِيُّ وَأَجَادَ :

شَاوِرْ سِوَاكَ إِذَا نَابَتْكَ نَائِبَةٌ يَوْمًا وَإِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ ٱلْمَشُورَاتِ
فَٱلْعَيْنُ تَنْظُرُ مِنْهَا مَا دَنَا وَنَأَى وَلَا تَرَى نَفْسَهَا إِلَّا بِمِرْآةِ

وَقَالَ أَيْضًا :

خَصَائِصُ مَنْ تُشَاوِرُهُ ثَلَاثٌ فَخُذْ مِنْهَا جَمِيعًا بِٱلْوَثِيقَهْ
وِدَادٌ خَالِصٌ وَوُفُورُ عَقْلٍ وَمَعْرِفَةٌ بِحَالِكَ وَٱلْحَقِيقَهْ
فَمَنْ حَصَلَتْ لَهُ هٰذِي ٱلْمَعَانِي فَتَابِعْ رَأْيَهُ وَٱلْزَمْ طَرِيقَهْ

ولأبي الأسود الدؤلي:

فما كلُّ ذي نصحٍ بمؤتيك نصحه ... ولا كلُّ مؤتٍ نصحه بلبيب
ولكن إذا ما استجمعا عند واحدٍ ... فحقٌّ له من طاعةٍ بنصيب

الحسد

١٠٨ قال بعض الحكماء: ما أمحق للإيمان ولا أهتك للستر من الحسد. وذلك أن الحاسد مفنِّدٌ لحكم الله. باغٍ على عباده. عاتٍ على ربه. يعتدُّ نعم الله نقماً ومزيده غيراً. وعدل قضائه حيفاً للناس حال وله حال. ليس يهدأ ليله. ولا ينام جشعه. ولا ينفعه عيشه. محتقرٌ لنعم الله عليه. متسخطٌ ما جرت به أقداره. ولا يبرد غليله. ولا تؤمن غوائله. إن سالمته وترك. وإن واصلته قطعك. وإن صرمته سبقك. ذُكر حاسدٌ عند بعض الحكماء فقال: يا عجبا لرجلٍ أسلكه الشيطان مهاوي الضلالة. وأورده قحم الهلكة. فصار لنعم الله تعالى المرصاد إن أنالها من أحبَّ من عباده. أشعر قلبه الأسف على ما لم يقدر له. وأغاره الكلف بما لم يكن لينالَه. قال سليمان التيمي: الحسد يضعف اليقين ويسهر العين ويكثر الهمّ. ولأبي العتاهية:

أيا ربِّ إنَّ الناس لا ينصفونني ... وكيف ولو أنصفتهم ظلموني
وإن كان لي شيءٌ تصدَّوا لأخذه ... وإن جئت أبغي منهم منعوني
وإن نالهم بذلي فلا شكر عندهم ... وإن أنا لم أبذل لهم شتموني

وَإِنْ طَرَقَتْنِي نِقْمَةٌ فَرِحُوا بِهَا ... وَإِنْ صَحِبَتْنِي نِعْمَةٌ حَسَدُونِي
سَأَمْنَعُ قَلْبِي أَنْ يَحِنَّ إِلَيْهِمِ ... وَأَحْجُبُ عَنْهُمْ نَاظِرِي وَجُفُونِي

كَتَبَ ابْنُ بِشْرٍ الْمَرْوَزِيُّ إِلَى ابْنِ الْمُبَارَكِ هٰذِهِ الْأَبْيَاتَ :

كُلُّ الْعَدَاوَةِ قَدْ تُرْجَى إِمَاتَتُهَا ... إِلَّا عَدَاوَةَ مَنْ عَادَاكَ مِنْ حَسَدِ
فَإِنَّ فِي الْقَلْبِ مِنْهَا عُقْدَةً عُقِدَتْ ... وَلَيْسَ يَفْتَحُهَا رَاقٍ إِلَى الْأَبَدِ

قَالَ بَعْضُهُمْ :

يَا طَالِبَ الْعَيْشِ فِي أَمْنٍ وَفِي دَعَةٍ ... رَغْدًا بِلَا قَتَرٍ صَفْوًا بِلَا رَنَقِ
خَلِّصْ فُؤَادَكَ مِنْ غِلٍّ وَمِنْ حَسَدِ ... فَالْغِلُّ فِي الْقَلْبِ مِثْلُ الْغُلِّ فِي الْعُنُقِ

(لابن عبد ربه)

وَقَالَ آخَرُ :

إِيَّاكَ وَالْحَسَدَ الَّذِي هُوَ آفَةٌ ... فَتَوَقَّهُ وَتَوَقَّ غِرَّةَ مَنْ حَسَدْ
إِنَّ الْحَسُودَ إِذَا أَرَاكَ مَوَدَّةً ... بِالْقَوْلِ فَهْوَ لَكَ الْعَدُوُّ الْمُجْتَهِدْ

وَلِبَعْضِ الْأُدَبَاءِ يَنْصَحُ الْحَسُودَ :

لَا يُحْزِنَنْكَ فَقْرٌ إِنْ عَرَاكَ وَلَا ... تَتْبَعْ أَخَا لَكَ فِي مَالٍ لَهُ حَسَدَا
فَإِنَّهُ فِي رَخَاءٍ فِي مَعِيشَتِهِ ... وَأَنْتَ تَلْقَى بِذَاكَ الْهَمَّ وَالنَّكَدَا

حفظ اللسان

١٠٩ إِعْلَمْ أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ الْمُكَلَّفِ أَنْ يَحْفَظَ لِسَانَهُ عَنْ جَمِيعِ الْكَلَامِ إِلَّا كَلَامًا تَظْهَرُ الْمَصْلَحَةُ فِيهِ . وَمَتَى اسْتَوَى الْكَلَامُ وَتَرْكُهُ فِي الْمَصْلَحَةِ فَالسُّنَّةُ الْإِمْسَاكُ عَنْهُ . لِأَنَّهُ قَدْ يَجُرُّ الْكَلَامُ الْمُبَاحُ إِلَى

حَرَامٍ أَوْ مَكْرُوهٍ . بَلْ هٰذَا كَثِيرٌ وَغَالِبٌ فِي ٱلْعَادَةِ . وَٱلسَّلَامَةُ لَا يُعَادِلُهَا شَيْءٌ . قَالَ وُهَيْبُ بْنُ ٱلْوَرْدِ : بَلَغَنَا أَنَّ ٱلْحِكْمَةَ عَشَرَةُ أَجْزَاءٍ تِسْعَةٌ مِنْهَا فِي ٱلصَّمْتِ وَٱلْعَاشِرَةُ فِي عُزْلَةِ ٱلنَّاسِ . وَمِنْ كَلَامِ ٱلْحُكَمَاءِ : مَنْ نَطَقَ مِنْ غَيْرِ خَيْرٍ فَقَدْ لَغَا . وَمَنْ نَظَرَ فِي غَيْرِ ٱعْتِبَارٍ فَقَدْ سَهَا . وَمَنْ سَكَتَ فِي غَيْرِ فِكْرٍ فَقَدْ لَهَا . وَقِيلَ : لَوْ قَرَأْتَ صَحِيفَتَكَ . لَأَغْمَدْتَ صَفِيحَتَكَ . وَلَوْ رَأَيْتَ مَا فِي مِيزَانِكَ . لَخَتَمْتَ عَنْ لِسَانِكَ . وَقِيلَ : ٱلْكَلِمَةُ أَسِيرَةٌ فِي وِثَاقِ ٱلرَّجُلِ . فَإِذَا تَكَلَّمَ بِهَا صَارَ فِي وِثَاقِهَا . يَقُولُ ٱللِّسَانُ كُلَّ صَبَاحٍ وَكُلَّ مَسَاءٍ لِلْجَوَارِحِ : كَيْفَ أَنْتُنَّ . فَيَقُلْنَ بِخَيْرٍ إِنْ تَرَكْتَنَا (للابشيهي)

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ :

إِنَّ ٱلْقَلِيلَ مِنَ ٱلْكَلَامِ بِأَهْلِهِ ... حَسَنٌ وَإِنَّ كَثِيرَهُ مَمْقُوتُ
مَا زَلَّ ذُو صَمْتٍ وَمَا مِنْ مُكْثِرٍ ... إِلَّا يَزِلُّ وَمَا يُعَابُ صَمُوتُ
إِنْ كَانَ يَنْطِقُ نَاطِقٌ مِنْ فِضَّةٍ ... فَٱلصَّمْتُ دُرٌّ زَانَهُ يَاقُوتُ

١١٠ قَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ : إِذَا قُلْتَ فَأَوْجِزْ . فَإِذَا بَلَغْتَ حَاجَتَكَ فَلَا تَتَكَلَّفْ . وَقَالَ أَيْضًا : أَنْتَ سَالِمٌ مَا سَكَتَّ . فَإِذَا تَكَلَّمْتَ فَلَكَ أَوْ عَلَيْكَ . وَقَالَ عَمْرُو بْنُ ٱلْعَاصِ : ٱلْكَلَامُ كَٱلدَّوَاءِ إِنْ أَقْلَلْتَ مِنْهُ نَفَعَ . وَإِنْ أَكْثَرْتَ مِنْهُ صَدَعَ . وَقَالَ لُقْمَانُ لِٱبْنِهِ : يَا بُنَيَّ إِنَّ مِنَ ٱلْكَلَامِ مَا هُوَ أَشَدُّ مِنَ ٱلْحَجَرِ . وَأَنْفَذُ مِنْ وَخْزِ ٱلْإِبَرِ . وَأَمَرُّ مِنَ ٱلصَّبِرِ . وَأَحَرُّ مِنَ ٱلْجَمْرِ . وَإِنَّ ٱلْقُلُوبَ مَزَارِعُ فَٱزْرَعْ فِيهَا طَيِّبَ

الْكَلامِ . فَإِنْ لَمْ يَنْبُتْ فِيهَا كُلُّهُ نَبَتَ بَعْضُهُ . وَقَالَ عَلِيٌّ : مَا حَبَسَ اللهُ جَارِحَةً فِي حِصْنٍ أَوْثَقَ مِنَ اللِّسَانِ . الأَسْنَانُ أَمَامَهُ وَالشَّفَتَانِ مِنْ وَرَاءِ ذٰلِكَ . وَاللَّهَاةُ مُطْبِقَةٌ عَلَيْهِ وَالْقَلْبُ مِنْ وَرَاءِ ذٰلِكَ . فَاتَّقِ اللهَ وَلَا تُطْلِقْ هٰذَا الْمَحْبُوسَ مِنْ حَبْسِهِ إِلَّا إِذَا أَمِنْتَ شَرَّهُ . وَقَالَ بَعْضُ الأُدَبَاءِ : أَحْبِسْ لِسَانَكَ قَبْلَ أَنْ يُطِيلَ حَبْسَكَ (للشبراوي)

قَالَ الشَّاعِرُ :

وَاحْفَظْ لِسَانَكَ وَاحْتَرِزْ مِنْ لَفْظِهِ ... فَالْمَرْءُ يَسْلَمُ بِاللِّسَانِ وَيَعْطَبُ
وَزِنِ الْكَلَامَ إِذَا نَطَقْتَ وَلَا تَكُنْ ... ثَرْثَارَةً فِي كُلِّ نَادٍ تَخْطُبُ

قَالَ أَبُو بَكْرِ بْنُ سَعْدُونَ :

سِجْنُ اللِّسَانِ هُوَ السَّلَامَةُ لِلْفَتَى ... مِنْ كُلِّ نَازِلَةٍ لَهَا اسْتِئْصَالُ
إِنَّ اللِّسَانَ إِذَا حَلَلْتَ عِقَالَهُ ... أَلْقَاكَ فِي شَنْعَاءَ لَيْسَ تُقَالُ

قَالَ أَبُو عُثْمَانَ بْنُ لُيُونَ التُّجِيبِيُّ :

نَزِّهْ لِسَانَكَ عَنْ قَوْلٍ تُعَابُ بِهِ ... وَارْغَبْ بِسَمْعِكَ عَنْ قِيلٍ وَعَنْ قَالِ
لَا تَبْغِ غَيْرَ الَّذِي يَعْنِيكَ وَاطَّرِحِ الْـ ... ـفُضُولَ تَحْيَ قَرِيرَ الْعَيْنِ وَالْبَالِ

كتمان السر

١١١ قَالَ حَكِيمٌ : كَمَا أَنَّهُ لَا خَيْرَ فِي آنِيَةٍ لَا تُمْسِكُ مَا فِيهَا . كَذٰلِكَ لَا خَيْرَ فِي صَدْرٍ لَا يَكْتُمُ سِرَّهُ . قَالَ آخَرُ : مَنْ كَتَمَ سِرَّهُ سَرَّهُ . وَأَمِنَ النَّاسُ شَرَّهُ . وَمَنْ حَكَّمَ لِسَانَهُ شَانَهُ . وَأَفْسَدَ شَانَهُ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يَجِدُ رَاحَةً فِي إِفْشَاءِ سِرِّهِ إِلَى غَيْرِهِ فَقَدِ اتَّهَمَ عَقْلَهُ .

لِأَنَّ مَشَقَّةَ ٱلِاسْتِبْدَادِ بِالسِّرِّ أَقَلُّ مِنْ مَشَقَّةِ إِفْشَائِهِ بِسَبَبِ ٱلْمُشَارَكَةِ (للشبراوي)

قَالَ ٱلْقَاضِي ٱلْأَسْعَدُ أَبُو ٱلْمَكَارِمِ ٱلْمِصْرِيُّ ٱلْكَاتِبُ:

وَأَكْتُمُ ٱلسِّرَّ حَتَّى عَنْ إِعَادَتِهِ إِلَى ٱلْمُسِرِّ بِهِ مِنْ غَيْرِ نِسْيَانِ
وَذَاكَ أَنَّ لِسَانِي لَيْسَ يَعْلَمُهُ سَمْعِي بِسِرِّ ٱلَّذِي قَدْ كَانَ نَاجَانِي

١١٢ (فِي ٱلتَّاجِ): إِنَّ بَعْضَ مُلُوكِ ٱلْعَجَمِ ٱسْتَشَارَ وَزِيرَيْهِ. فَقَالَ أَحَدُهُمَا: لَا يَنْبَغِي لِلْمَلِكِ أَنْ يَسْتَشِيرَ مِنَّا أَحَدًا إِلَّا خَالِيًا. فَإِنَّهُ أَمْوَتُ لِلسِّرِّ وَأَحْزَمُ لِلرَّأْيِ وَأَجْدَرُ بِالسَّلَامَةِ وَأَعْفَى لِبَعْضِنَا مِنْ غَائِلَةِ بَعْضٍ. فَإِنَّ إِفْشَاءَ ٱلسِّرِّ لِرَجُلٍ وَاحِدٍ أَوْثَقُ مِنْ إِفْشَائِهِ إِلَى ٱثْنَيْنِ. وَإِفْشَاؤُهُ إِلَى ثَلَاثَةٍ كَإِفْشَائِهِ إِلَى جَمَاعَةٍ. فَإِذَا كَانَ ٱلسِّرُّ عِنْدَ وَاحِدٍ كَانَ أَحْرَى أَنْ لَا يَظْهَرَ رَغْبَةً وَرَهْبَةً. وَإِنْ كَانَ عِنْدَ ٱثْنَيْنِ دَخَلَتْ عَلَى ٱلْمَلِكِ ٱلشُّبْهَةُ وَٱتَّسَعَتْ عَلَى ٱلرَّجُلَيْنِ ٱلْمَعَارِيضُ فَإِنْ عَاقَبَهُمَا عَاقَبَ ٱثْنَيْنِ بِذَنْبِ وَاحِدٍ. وَإِنِ ٱتَّهَمَهُمَا ٱتَّهَمَ بَرِيئًا بِخِيَانَةِ مُجْرِمٍ. وَإِنْ عَفَا عَنْهُمَا كَانَ ٱلْعَفْوُ عَنْ أَحَدِهِمَا وَلَا ذَنْبَ لَهُ وَعَنِ ٱلْآخَرِ وَلَا حُجَّةَ مَعَهُ

الغيبة

١١٣ عَابَ رَجُلٌ رَجُلًا عِنْدَ بَعْضِ ٱلْأَشْرَافِ فَقَالَ لَهُ: قَدِ ٱسْتَدْلَلْتُ عَلَى كَثْرَةِ عُيُوبِكَ بِمَا تُكْثِرُ مِنْ عُيُوبِ ٱلنَّاسِ. لِأَنَّ طَالِبَ ٱلْعُيُوبِ إِنَّمَا يَطْلُبُهَا بِقَدْرِ مَا فِيهِ مِنْهَا. أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ ٱلشَّاعِرِ

لَا تَهْتِكَنْ مِنْ مَسَاوِي ٱلنَّاسِ مَا سَتَرُوا فَيَهْتِكَ ٱللّٰهُ سِتْرًا مِنْ مَسَاوِيكَا

وَاذْكُرْ مَحَاسِنَ مَا فِيهِمْ إِذَا ذُكِرُوا   وَلَا تَعِبْ أَحَدًا مِنْهُمْ بِمَا فِيكَا

(لابن عبد ربه)

قَالَ ابْنُ الْحَاجِ الدَّلْفِيُّ:

إِنَّ الْكَرِيمَ الَّذِي تَبْقَى مَوَدَّتُهُ   وَيَحْفَظُ السِّرَّ إِنْ صَافَى وَإِنْ صَرَمَا

لَيْسَ الْكَرِيمُ الَّذِي إِنْ غَابَ صَاحِبُهُ   بَثَّ الَّذِي كَانَ مِنْ أَسْرَارِهِ عَلِمَا

وَقَالَ أَيْضًا:

إِذَا مَا كَتَمْتُ السِّرَّ عَمَّنْ أَوَدُّهُ   تَوَهَّمَ أَنَّ الْوِدَّ غَيْرُ حَقِيقِ

وَلَمْ أُخْفِ عَنْهُ السِّرَّ مِنْ ضِنَّةٍ بِهِ   وَلَكِنَّنِي أَخْشَى صَدِيقَ صَدِيقِي

قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: لَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ هَمَّازٍ عَيَّابٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ. وَحَسْبُكَ بِالنَّمَّامِ خِسَّةً وَرَذِيلَةً سُقُوطُهُ وَضَعَتُهُ (وَالْهَمَّازُ الْمُغْتَابُ الَّذِي يَأْكُلُ لُحُومَ النَّاسِ الطَّاعِنُ فِيهِمْ). قَالَ حَكِيمٌ: أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِشِرَارِكُمْ. قَالُوا: بَلَى. قَالَ: شِرَارُكُمُ الْمَشَّاؤُونَ بِالنَّمِيمَاتِ الْمُفْسِدُونَ بَيْنَ الْأَحِبَّةِ الْبَاغُونَ الْعُيُوبَ. وَقِيلَ مَلْعُونٌ ذُو الْوَجْهَيْنِ. مَلْعُونٌ ذُو اللِّسَانَيْنِ. مَلْعُونٌ كُلُّ شَغَّازٍ. مَلْعُونٌ كُلُّ قَتَّاتٍ. مَلْعُونٌ كُلُّ نَمَّامٍ. مَلْعُونٌ كُلُّ مَنَّانٍ (وَالشَّغَّازُ الْمُحَرِّشُ بَيْنَ النَّاسِ يُلْقِي بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ. وَالْقَتَّاتُ النَّمَّامُ. وَالْمَنَّانُ الَّذِي يَعْمَلُ الْخَيْرَ وَيَمُنُّ بِهِ). قَالَ آخَرُ: احْذَرُوا أَعْدَاءَ الْعُقُولِ وَلُصُوصَ الْمَوَدَّاتِ. وَهُمُ السُّعَاةُ وَالنَّمَّامُونَ. إِذَا سَرَقَ اللُّصُوصُ الْمَتَاعَ سَرَقُوا هُمُ الْمَوَدَّاتِ. وَفِي الْمَثَلِ السَّائِرِ: مَنْ أَطَاعَ الْوَاشِيَ ضَيَّعَ الصَّدِيقَ وَقَدْ تُقْطَعُ الشَّجَرَةُ فَتَنْبُتُ

وَيَقْطَعُ اللَّحْمَ السَّيْفُ فَيَنْدَمِلُ. وَاللِّسَانُ لَا يَنْدَمِلُ جُرْحُهُ. قَالَ صَالِحُ ابْنُ عَبْدِ الْقُدُّوسِ:

قُلْ لِلَّذِي لَسْتُ أَدْرِي مِنْ تَلَوُّنِهِ ... أَنَاصِحٌ أَمْ عَلَى غِشٍّ يُنَاجِينِي
إِنِّي لَأُكْثِرُ مِمَّا سُمْتَنِي عَجَبًا ... يَدٌ تَشُجُّ وَأُخْرَى مِنْكَ تَأْسُونِي
تَغْتَابُنِي عِنْدَ أَقْوَامٍ وَتَمْدَحُنِي ... فِي آخَرِينَ وَكُلٌّ عَنْكَ يَأْتِينِي
هٰذَانِ شَيْئَانِ قَدْ نَافَيْتَ بَيْنَهُمَا ... فَاكْفُفْ لِسَانَكَ عَنْ شَتْمِي وَتَزْيِينِي

١١٤ وَقَالَ الْمَأْمُونُ: النَّمِيمَةُ لَا تَقْرَبُ مَوَدَّةً إِلَّا أَفْسَدَتْهَا. وَلَا عَدَاوَةً إِلَّا جَدَّدَتْهَا وَلَا جَمَاعَةً إِلَّا بَدَّدَتْهَا. ثُمَّ لَا بُدَّ لِمَنْ عُرِفَ بِهَا وَنُسِبَ إِلَيْهَا أَنْ يُجْتَنَبَ وَيُخَافَ مِنْ مَعْرِفَتِهِ وَلَا يُوثَقَ بِمَكَانِهِ. وَأَنْشَدَ بَعْضُهُمْ:

مَنْ نَمَّ فِي النَّاسِ لَمْ تُؤْمَنْ عَقَارِبُهُ ... عَلَى الصَّدِيقِ وَلَمْ تُؤْمَنْ أَفَاعِيهِ
كَالسَّيْلِ بِاللَّيْلِ لَا يَدْرِي بِهِ أَحَدٌ ... مِنْ أَيْنَ جَاءَ وَلَا مِنْ أَيْنَ يَأْتِيهِ
أَلْوَيْلُ لِلْعَهْدِ مِنْهُ كَيْفَ يَنْقُضُهُ ... وَالْوَيْلُ لِلْوُدِّ مِنْهُ كَيْفَ يُفْنِيهِ

(للابشيهي)

الصدق والكذب

١١٥ قَالَ عَلِيُّ بْنُ عُبَيْدَةَ: الْكَذِبُ شِعَارُ الْخِيَانَةِ وَتَحْرِيفُ الْعِلْمِ وَخَوَاطِرُ الزُّورِ وَتَسْوِيلُ أَضْغَاثِ النَّفْسِ وَاعْوِجَاجُ التَّرْكِيبِ وَاخْتِلَافُ الْبِنْيَةِ. وَعَنْ خُمُولِ الذِّكْرِ مَا يَكُونُ صَاحِبُهُ قَالَ أَعْرَابِيٌّ لِابْنِهِ وَسَمِعَهُ يَكْذِبُ: يَا بُنَيَّ عَجِبْتُ مِنَ الْكَذَّابِ الْمُشِيدِ بِكَذِبِهِ وَإِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى عَيْبِهِ وَيَتَعَرَّضُ لِلْعِقَابِ مِنْ رَبِّهِ. فَالْآثَامُ لَهُ عَادَةٌ. وَالْأَخْبَارُ عَنْهُ

متضادة . إن قال حقاً لم يُصدَّق . وإن أراد خيراً لم يُوفَّق . فهو الجاني على نفسه بفعاله . والدالُّ على فضيحته بمقاله . فما صحّ من صدقه نُسب إلى غيره . وما صحّ من كذب غيره نُسب إليه (لابن عبد ربه)

قال بعضهم :

إيَّاكَ مِن كذِبِ الكذوبِ وإفكِهِ فلَرُبَّما مزجَ اليقينَ بِشكِّهِ
ولَرُبَّما ضحِكَ الكذوبُ تفكُّهاً وبكى مِنَ الشيءِ الذي لم يُبكِهِ
ولَرُبَّما صمتَ الكذوبُ تخلُّقاً وشكا مِنَ الشيءِ الذي لم يُشكِهِ
ولَرُبَّما كذبَ امرؤٌ بكلامِهِ وبصمتِهِ وبُكائِهِ وبِضحكِهِ

المزاح

١١٦ قال الحجاج بن يوسف لابن القِرِّيَّة : ما زالت الحكماء تكره المُزاح وتنهى عنه . فقال : المُزاح من أدنى منزلته إلى أقصاها عشرة أبواب . المُزاح أوَّله فرحٌ وآخره ترحٌ . المُزاح نقائض السفهاء كالشِّعر نقائض الشعراء . والمُزاح يُوغِر صدر الصديق . ويُنفِّر الرفيق . والمُزاح يُبدي السرائر . لأنه يُظهر المعاير . والمُزاح يُسقط المروءة . ويُبدي الخنى . لم يجرّ المُزاح خيراً . وكثيراً ما جرّ شرًّا . الغالب بالمُزاح واترٌ . والمغلوب به ثائرٌ . والمُزاح يجلب الشتم صغيره . والحرب كبيره . وليس بعد الحرب إلّا عفوٌ بعد قدرة . فقال الحجاج : حسبُك الموت خيرٌ من عفوٍ معه قدرة . وذُكر المُزاح بحضرة خالد بن صفوان فقال : يَنشَقُ أحدكم أخاه مثل الخردل . ويُفرغ عليه مثل

ٱلْمَرْجِلِ. وَيَرْمِيهِ مِثْلَ ٱلْجَنْدَلِ. ثُمَّ يَقُولُ: إِنَّمَا كُنْتُ أَمْزَحُ. أَخَذَ هٰذَا ٱلْمَعْنَى مَحْمُودُ بْنُ ٱلْحَسَنِ ٱلْوَرَّاقُ فَقَالَ:

تَلْقَى ٱلْفَتَى يَلْقَى أَخَاهُ وَخِدْنَهُ فِي لَحْنِ مَنْطِقِهِ بِمَا لَا يُغْفَرُ
وَيَقُولُ كُنْتُ مُمَازِحًا وَمُلَاعِبًا هَيْهَاتَ نَارُكَ فِي ٱلْحَشَى تَتَسَعَّرُ
أَوَمَا عَلِمْتَ وَكَانَ جَهْلُكَ غَالِبًا أَنَّ ٱلْمُزَاحَ هُوَ ٱلسِّبَابُ ٱلْأَصْغَرُ

(للقيرواني)

الصداقة وخلوص المودة

١١٧ (قِيلَ فِي ٱلْمُبْهِجِ): ٱلصَّدِيقُ ٱلصَّدُوقُ ثَانِي ٱلنَّفْسِ وَثَالِثُ ٱلْعَيْنَيْنِ. (وَمِنْهُ) ٱلصَّدِيقُ ٱلصَّدُوقُ. كَٱلشَّقِيقِ ٱلشَّفُوقِ. (وَمِنْهُ) ٱلصَّدِيقُ عُمْدَةُ ٱلصَّدِيقِ وَعُدَّتُهُ. وَنُصْرَتُهُ وَعُقْدَتُهُ. وَرَبِيعُهُ وَزَهْرَتُهُ. وَمُشْتَرِيهِ وَزُهَرَتُهُ. وَمِنْهُ لِقَاءُ ٱلْخَلِيلِ شِفَاءُ ٱلْغَلِيلِ. وَلَيْسَ لِلصَّدِيقِ إِذَا حَضَرَ عَدِيلٌ. وَلَا عَنْهُ إِذَا غَابَ بَدِيلٌ. وَمَثَلُ ٱلصَّدِيقَيْنِ كَٱلْيَدِ تَسْتَعِينُ بِٱلْيَدِ وَٱلْعَيْنِ بِٱلْعَيْنِ. (وَمِنْهُ) لِقَاءُ ٱلصَّدِيقِ رُوحُ ٱلْحَيَاةِ. وَفِرَاقُهُ سُمُّ ٱلْمَمَاتِ. (وَمِنْهُ) لَا تُسَاغُ مَرَارَةُ ٱلْأَوْقَاتِ. إِلَّا بِحَلَاوَةِ ٱلْإِخْوَانِ ٱلثِّقَاتِ. فَٱسْتَرْوِحْ مِنْ غُمَّةِ ٱلزَّمَانِ بِمُؤَانَسَةِ ٱلْخِلَّانِ. (وَمِنْهُ) ٱلْحَاجَةُ إِلَى ٱلْأَخِ ٱلْمُعِينِ. كَٱلْحَاجَةِ إِلَى ٱلْمَاءِ ٱلْمَعِينِ. وَلِبَعْضِهِمْ فِي مَعْنَى هٰذَا ٱلْبَابِ:

مَا ضَاعَ مَنْ كَانَ لَهُ صَاحِبٌ يَقْدِرُ أَنْ يُصْلِحَ مِنْ شَانِهِ
فَإِنَّمَا ٱلدُّنْيَا بِسُكَّانِهَا وَإِنَّمَا ٱلْمَرْءُ بِإِخْوَانِهِ

١١٨ قَالَ أَبُو تَمَّام :

ذُو ٱلْوُدِّ مِنِّي وَذُو ٱلْقُرْبَى بِمَنْزِلَةٍ وَإِخْوَتِي أُسْوَةٌ عِنْدِي وَإِخْوَانِي
عِصَابَةٌ جَاوَرَتْ آدَابُهُمْ أَدَبِي فَهُمْ وَإِنْ فُرِّقُوا فِي ٱلْأَرْضِ جِيرَانِي
أَرْوَاحُنَا فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ وَغَدَتْ أَبْدَانُنَا بِشَآمٍ أَوْ خُرَاسَانِ

قَالَ غَيْرُهُ :

إِنَّ ٱلصَّدَاقَةَ أَوْلَاهَا ٱلسَّلَامُ وَمِنْ بَعْدِ ٱلسَّلَامِ طَعَامٌ ثُمَّ تَرْحِيبُ
وَبَعْدَ ذَاكَ كَلَامٌ فِي مُلَاطَفَةٍ وَضِحْكُ ثَغْرٍ وَإِحْسَانٌ وَتَقْرِيبُ
وَأَصْلُ ذٰلِكَ إِنْ تَبْغِي تَمَامَهَا بَيْنَ ٱلْأَحِبَّةِ تَأْيِيدٌ وَتَأْدِيبُ
لَمْ تَنْسَ غَيْبًا وَلَمْ تَمْلَلْ إِذَا حَضَرُوا قَدْ زَانَ ذٰلِكَ تَهْذِيبٌ وَتَرْتِيبُ
إِنَّ ٱلْكِرَامَ إِذَا مَا صَادَقُوا صَدَقُوا لَمْ يَثْنِهِمْ عَنْهُ تَرْغِيبٌ وَتَرْهِيبُ

قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ ظَهِيرُ ٱلدِّينِ ٱلْمَوْصِلِيُّ :

لَا تَنْسُبُونِي يَا ثِقَاتِي إِلَى غَدْرٍ فَلَيْسَ ٱلْغَدْرُ مِنْ شِيمَتِي
أَقْسَمْتُ بِٱلذَّهَابِ مِنْ عَيْشِنَا وَبِٱلْمَسَرَّاتِ ٱلَّتِي وَلَّتِ
إِنِّي عَلَى عَهْدِهِمْ لَمْ أَحُلْ وَعُقْدَةُ ٱلْمِيثَاقِ مَا حُلَّتِ

١١٩ ذَكَرَ صَاحِبُ كِتَابِ ٱلْأَغَانِي فِي أَخْبَارِ عَلَوِيَّةَ ٱلْمَجْنُونِ أَنَّهُ دَخَلَ يَوْمًا عَلَى ٱلْمَأْمُونِ وَهُوَ يَرْقُصُ وَيُصَفِّقُ بِيَدَيْهِ وَيُغَنِّي بِهٰذَيْنِ ٱلْبَيْتَيْنِ :

عَذِيرِي مِنَ ٱلْإِنْسَانِ لَا إِنْ جَفَوْتُهُ صَفَا لِي وَلَا إِنْ صِرْتُ طَوْعَ يَدَيْهِ
وَإِنِّي لَمُشْتَاقٌ إِلَى ظِلِّ صَاحِبٍ يَرُوقُ وَيَصْفُو إِنْ كَدَرْتُ عَلَيْهِ

فَسَمِعَ ٱلْمَأْمُونُ وَجَمِيعُ مَنْ حَضَرَ ٱلْمَجْلِسَ مِنَ ٱلْمُغَنِّينَ وَغَيْرِهِمْ مَا لَمْ يَعْرِفُوا

وَٱسْتَظْرَفَهُ ٱلْمَأْمُونُ. وَقَالَ: أَدْنُ يَا عَلَوِيَةُ وَرَدِّدْهَا. فَرَدَّدَهَا عَلَيْهِ سَبْعَ مَرَّاتٍ. فَقَالَ ٱلْمَأْمُونُ: يَا عَلَوِيَةُ خُذِ ٱلْخِلَافَةَ وَأَعْطِنِي هٰذَا ٱلصَّاحِبَ

(لبهاء الدين)

١٢٠ قَالَ بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ:

خَيْرُ إِخْوَانِكَ ٱلْمُشَارِكُ فِي ٱلْمُرِّ وَأَيْنَ ٱلشَّرِيكُ فِي ٱلْمُرِّ أَيْنَا
أَلَّذِي إِنْ شَهِدْتَ سَرَّكَ فِي ٱلْحَيِّ وَإِنْ غِبْتَ كَانَ سَمْعًا وَعَيْنَا
أَنْتَ فِي مَعْشَرٍ إِذَا غِبْتَ عَنْهُمْ بَدَّلُوا كُلَّ مَا يَزِينُكَ شَيْنَا
وَإِذَا مَا رَأَوْكَ قَالُوا جَمِيعًا أَنْتَ مِنْ أَكْرَمِ ٱلْبَرَايَا عَلَيْنَا
مَا أَرَى لِلْأَنَامِ وِدًّا صَحِيحًا صَارَ كُلُّ ٱلْوِدَادِ زُورًا وَمَيْنَا

قَالَ بَشَّارُ أَيْضًا:

إِذَا كُنْتَ فِي كُلِّ ٱلْأُمُورِ مُعَاتِبًا صَدِيقَكَ لَمْ تَلْقَ ٱلَّذِي لَا تُعَاتِبُهْ
وَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَشْرَبْ مِرَارًا عَلَى ٱلْقَذَى ظَمِئْتَ وَأَيُّ ٱلنَّاسِ تَصْفُو مَشَارِبُهْ
فَعِشْ وَاحِدًا أَوْصِلْ أَخَاكَ فَإِنَّهُ مُقَارِفُ ذَنْبٍ مَرَّةً وَمُجَانِبُهْ

١٢١ كَانَ لِمُحَمَّدِ بْنِ حَازِمٍ ٱلْبَاهِلِيِّ صَدِيقٌ عَلَى طُولِ ٱلْأَيَّامِ. فَنَالَ مَرْتَبَةً مِنَ ٱلسُّلْطَانِ وَعَلَا قَدْرُهُ فَجَفَا مُحَمَّدًا وَتَغَيَّرَ لَهُ. فَقَالَ فِي ذٰلِكَ مُحَمَّدُ بْنُ حَازِمٍ:

وَصَلَ ٱلْمُلُوكُ إِلَى ٱلتَّعَالِي وَوَفَا ٱلْمُلُوكُ مِنَ ٱلْمُحَالِ
مَالِي رَأَيْتُكَ لَا تَدُو مُ عَلَى ٱلْمَوَدَّةِ لِلرِّجَالِ
إِنْ كَانَ ذَا أَدَبٍ وَظَرْ فٍ قُلْتَ ذَاكَ أَخُو ضَلَالِ

أَوْ كَانَ ذَا نُسُكٍ وَدِينٍ قُلْتَ ذَاكَ مِنَ ٱلثِّقَالِ
أَوْ كَانَ فِي وَسَطٍ مِنَ ٱلْأَمْرَيْنِ قُلْتَ يُرِيغُ مَالِي
فَبِمِثْلِ ذَا ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ تَبْتَغِي رُتَبَ ٱلْمَعَالِي

١٢٢ قَالَ ٱلْعَنَزِيُّ وَأَنْشَدَنِي بَعْضُ أَصْحَابِنَا لِحَمَّادٍ :

كَمْ مِنْ أَخٍ لَكَ لَسْتَ تُنْكِرُهُ مَا دُمْتَ مِنْ دُنْيَاكَ فِي يُسْرِ
مُتَصَنِّعٍ لَكَ فِي مَوَدَّتِهِ يَلْقَاكَ بِٱلتَّرْحِيبِ وَٱلْبِشْرِ
يُطْرِي ٱلْوَفَاءَ وَذَا ٱلْوَفَاءِ وَيَلْحَى ٱلْغَدْرَ مُجْتَهِدًا وَذَا ٱلْغَدْرِ
فَإِذَا عَدَا وَٱلدَّهْرُ ذُو غِيَرٍ دَهْرٌ عَلَيْكَ عَدَا مَعَ ٱلدَّهْرِ
فَٱرْفُضْ بِإِجْمَالٍ مَوَدَّةَ مَنْ يَقْلِي ٱلْمُقِلَّ وَيَعْشَقُ ٱلْمُثْرِي
وَعَلَيْكَ مَنْ حَالَاهُ وَاحِدَةٌ فِي ٱلْعُسْرِ إِمَّا كُنْتَ وَٱلْيُسْرِ
لَا تَخْلِطَنَّهُمُ بِغَيْرِهِمِ مَنْ يَخْلِطُ ٱلْعِقْيَانَ بِٱلصُّفْرِ

قَالَ ٱلْقَاضِي عَبْدُ ٱلْجَوَادِ ٱلْمَنُوفِيُّ :

أَتَزْعُمُ أَنَّكَ ٱلْخِدْنُ ٱلْمُفَدَّى وَأَنْتَ مُصَادِقٌ أَعْدَايَ حَقًّا
إِلَيَّ إِلَيَّ فَٱجْعَلْنِي صَدِيقًا وَصَادِقْ مَنْ أُصَادِقُهُ مُحِقًّا
وَجَانِبْ مَنْ أُعَادِيهِ إِذَا مَا أَرَدْتَ تَكُونَ لِي خِدْنًا وَتَبْقَى

قَالَ أَوْسُ بْنُ حَجَرٍ :

وَلَيْسَ أَخُوكَ ٱلدَّائِمُ ٱلْعَهْدِ بِٱلَّذِي يَذُمُّكَ إِنْ وَلَّى وَيُرْضِيكَ مُقْبِلَا
وَلَكِنْ أَخُوكَ ٱلنَّاءِي مَا دُمْتَ آمِنًا وَصَاحِبُكَ ٱلْأَدْنَى إِذَا ٱلْأَمْرُ أَعْضَلَا

١٢٣ قَالَ ٱلْعَتَّابِيُّ : ٱلْإِخْوَانُ ثَلَاثَةُ أَصْنَافٍ . فَرْعٌ بَائِنٌ مِنْ أَصْلِهِ

وَأَصْلٌ مُتَّصِلٌ بِفَرْعِهِ . وَفَرْعٌ لَيْسَ لَهُ أَصْلٌ . فَأَمَّا ٱلْفَرْعُ ٱلْبَائِنُ مِنْ أَصْلِهِ فَإِخَاءٌ بُنِيَ عَلَى مَوَدَّةٍ ثُمَّ ٱنْقَطَعَتْ فَحُفِظَ عَلَى زِمَامِ ٱلصُّحْبَةِ . وَأَمَّا ٱلْأَصْلُ ٱلْمُتَّصِلُ بِفَرْعِهِ فَإِخَاءٌ أَصْلُهُ ٱلْكَرَمُ وَأَغْصَانُهُ ٱلتَّقْوَى . وَأَمَّا ٱلْفَرْعُ ٱلَّذِي لَا أَصْلَ لَهُ فَٱلْمُمَوَّهُ ٱلظَّاهِرُ ٱلَّذِي لَيْسَ لَهُ بَاطِنٌ (لابن عبد ربهِ)

١٢٤ قَالَ ٱلْبَكْرِيُّ :

وَخَلِيلٍ لَمْ أَخُنْهُ سَاعَةً ... فِي دَمِي كَفَّيْهِ ظُلْمًا قَدْ غَمَسْ
كَانَ فِي سِرِّي وَجَهْرِي ثِقَتِي ... لَسْتُ عَنْهُ فِي مُهِمٍّ أَحْتَرِسْ
سَتَرَ ٱلْبُغْضَ بِأَلْفَاظِ ٱلْهَوَى ... وَٱدَّعَى ٱلْوُدَّ بِغِشٍّ وَدَلَسْ
إِنْ رَآنِي قَالَ لِي خَيْرًا وَإِنْ ... غِبْتُ عَنْهُ قَالَ شَرًّا وَدَحَسْ
ثُمَّ لَمَّا أَمْكَنَتْهُ فُرْصَةٌ ... حَمَلَ ٱلسَّيْفَ عَلَى مَجْرَى ٱلنَّفَسْ
وَأَرَادَ ٱلرُّوحَ لٰكِنْ خَانَهُ ... قَدَرٌ أَيْقَظَ مَنْ كَانَ نَعَسْ

وَقَالَ ٱبْنُ أَبِي حَازِمٍ :

وَصَاحِبٍ كَانَ لِي وَكُنْتُ لَهُ ... أَشْفَقَ مِنْ وَالِدٍ عَلَى وَلَدِ
كُنَّا كَسَاقٍ تَسْعَى بِهَا قَدَمٌ ... أَوْ كَذِرَاعٍ نِيطَتْ إِلَى عَضُدِ
حَتَّى إِذَا دَبَّتِ ٱلْحَوَادِثُ فِي ... عَظْمِي وَحَلَّ ٱلزَّمَانُ مِنْ عُقَدِي
إِحْوَلَّ عَنِّي وَكَانَ يَنْظُرُ مِنْ ... طَرْفِي وَيَرْمِي بِسَاعِدِي وَيَدِي

١٢٥ قَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ : ٱلْإِخَاءُ جَوْهَرَةٌ رَقِيقَةٌ . وَهِيَ مَا لَمْ تَرْقِهَا وَتَحْرُسْهَا مُعَرَّضَةٌ لِلْآفَاتِ فَرُضِ ٱلْأَخَ بِٱلْجُدَاءِ لَهُ حَتَّى تَصِلَ إِلَى قُرْبِهِ . وَبِٱلْكَظْمِ حَتَّى يَعْتَذِرَ إِلَيْكَ مِنْ ظُلْمِكَ . وَٱلرِّضَا حَتَّى لَا

تَستكثِرَ من نفسِكَ بِالْفَضلِ وَلَا مِنْ أَخِيكَ بِالتَّقصيرِ . (وَلِمَحمُودٍ الْوَرَّاقِ) :

لَا بِرَّ أَعظَمُ مِن مُسَاعَدَةٍ فَاشْكُرْ أَخَاكَ عَلَى مُسَاعَدَتِهِ
وَإِذَا هَفَا فَأَقِلْهُ هَفْوَتَهُ حَتَّى يَعُودَ إِلَيكَ كَعَادَتِهِ
فَالصَّفحُ عَن زَلَلِ الصَّدِيقِ وَإِنْ أَعيَاكَ خَيرٌ مِن مُعَانَدَتِهِ

١٢٦ قَالَ ابْنُ طَاهِرٍ فِي حُسْنِ الْعِشْرَةِ :

أُوَاصِلُ مَن هَوِيتُ عَلَى خِلَالٍ أَذُودُ بِهِنَّ لَيَّاتِ الْمَقَالِ
وَأَحفَظُ سِرَّهُ وَالْغَيبَ مِنْهُ وَأَرعَى عَهْدَهُ فِي كُلِّ حَالِ
وَفَاءٌ لَا يَحُولُ بِهِ انْتِكَاثٌ وَوُدٌّ لَا تَخُونُهُ اللَّيَالِي
وَأُوثِرُهُ عَلَى عُسْرٍ وَيُسْرٍ وَيَنفُذُ حُكْمُهُ فِي سِرِّ مَالِي
وَأَغفِرُ نَبوَةَ الْإِدْلَالِ مِنْهُ إِذَا مَا لَمْ يَكُنْ غَيرُ الدَّلَالِ
وَمَا أَنَا بِالْمَلُولِ وَلَا بِجَافٍ وَلَا الْغَدْرُ الْمُذَمَّمُ مِن فِعَالِي

قَالَ بَعضُهُم يَصِفُ خِدَاعَ النَّاسِ وَنِفَاقَهُم :

وَإِخوَانٍ تَخِذْتُهُمُ دُرُوعًا فَكَانُوهَا وَلَكِنْ لِلْأَعَادِي
وَخِلْتُهُمُ سِهَامًا صَائِبَاتٍ فَكَانُوهَا وَلَكِنْ فِي فُؤَادِي
وَقَالُوا قَد صَفَتْ مِنَّا قُلُوبٌ لَقَدْ صَدَقُوا وَلَكِنْ عَن وِدَادِي
وَقَالُوا قَد سَعَينَا كُلَّ سَعْيٍ لَقَدْ صَدَقُوا وَلَكِنْ فِي فَسَادِ

١٢٧ وَأَنشَدَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ :

فَلَا تَصْحَبْ أَخَا السُّوءِ وَإِيَّاكَ وَإِيَّاهُ

فكَمْ مِنْ جاهِلٍ أوْدَى حَلِيمًا حِينَ آخاهُ
يُقاسُ ٱلْمَرْءُ بِٱلْمَرْءِ إذا ما ٱلْمَرْءُ ماشاهُ
وَفِي ٱلنَّاسِ مِنَ ٱلنَّاسِ مَقَايِيسُ وَأشْباهُ
وَفِي ٱلعَيْنِ عَلَى ٱلعَيْنِ إذا تَنْطِقُ أفْواهُ
وَلِلْقَلْبِ عَلَى ٱلقَلْبِ دَلِيلٌ حِينَ يَلْقاهُ

كَتَبَ ٱلْمُعْتَصِمُ صاحِبُ ٱلْمَرِيَّةِ إلَى ٱبْنِ عَمَّارٍ:

وَزَهَّدَنِي فِي ٱلنَّاسِ مَعْرِفَتِي بِهِمْ وَطُولُ ٱخْتِبارِي صاحِبًا بَعْدَ صاحِبِ
فَلَمْ تُرِنِي ٱلأَيَّامُ خِلًّا تَسُرُّنِي مَبادِيهِ إلَّا ساءَنِي فِي ٱلعَواقِبِ
وَلَا كُنْتُ أرْجُوهُ لِدَفْعِ مُلِمَّةٍ مِنَ ٱلدَّهْرِ إلَّا كانَ إحْدَى ٱلمَصائِبِ

المطل في الوعد

١٢٨ قالَ عَبْدُ ٱلرَّحْمانِ ٱبْنُ أُمِّ ٱلْحَكَمِ لِعَبْدِ ٱلْمَلِكِ بْنِ مَرْوانَ فِي مَواعِدَ وَعَدَها إيَّاهُ فَمَطَلَهُ بِها: نَحْنُ إلَى ٱلْفِعْلِ أحْوَجُ مِنَّا إلَى ٱلْقَوْلِ. وَأنْتَ بِٱلْإنْجازِ أوْلَى مِنْكَ مِنَ ٱلْمَطْلِ. وَٱعْلَمْ أنَّكَ لا تَسْتَحِقُّ ٱلشُّكْرَ إلَّا بِإنْجازِكَ ٱلْوَعْدَ وَٱسْتِتْمامِكَ ٱلْمَعْرُوفَ. قالَ أبُو مُسْلِمٍ ٱلْخَوْلانِيُّ: إنَّ أوْقَعَ ٱلْمَعْرُوفِ فِي ٱلْقُلُوبِ وَأبْرَدَهُ عَلَى ٱلْأكْبادِ مَعْرُوفٌ مُنْتَظَرٌ بِوَعْدٍ لا يُكَدِّرُهُ ٱلْمَطْلُ. كَتَبَ ٱلْعَتابِيُّ إلَى بَعْضِ أهْلِ ٱلسُّلْطانِ: أمَّا بَعْدُ فَإنَّ سَحابَ وَعْدِكَ قَدْ أبْرَقَتْ فَلْيَكُنْ وَبْلُها سالِمًا مِنْ عِلَلِ ٱلْمَطْلِ. وَٱلسَّلامُ (لابن عبد ربّه)

في التواضع والكبر

١٢٩ إعْلَمْ أَنَّ ٱلْكِبْرَ وَٱلْإِعْجَابَ يَسْلُبَانِ ٱلْفَضَائِلَ. وَيُكْسِبَانِ ٱلرَّذَائِلَ. وَحَسْبُكَ مِنْ رَذِيلَةٍ تَمْنَعُ مِنْ سَمَاعِ ٱلنُّصْحِ وَقَبُولِ ٱلتَّأْدِيبِ. وَتَسْلُبُ ٱلرِّئَاسَةَ وَٱلسِّيَادَةَ. وَٱلْكِبْرُ يُكْسِبُ ٱلْمَقْتَ وَيَمْنَعُ مِنَ ٱلتَّأَلُّفِ. وَلَمْ تَزَلِ ٱلْحُكَمَاءُ تَتَحَامَى ٱلْكِبْرَ وَتَأْنَفُ مِنْهُ. وَنَظَرَ أَفْلَاطُونُ إِلَى رَجُلٍ جَاهِلٍ مُعْجَبٍ بِنَفْسِهِ فَقَالَ: وَدِدْتُ أَنِّي مِثْلُكَ فِي ظَنِّكَ وَأَنَّ أَعْدَائِي مِثْلُكَ فِي ٱلْحَقِيقَةِ. وَرَأَى رَجُلٌ رَجُلًا يَخْتَالُ فِي مَشْيِهِ فَقَالَ: جَعَلَنِي ٱللّٰهُ مِثْلَكَ فِي نَفْسِكَ وَلَا جَعَلَنِي مِثْلَكَ فِي نَفْسِي (للابشيهي)

قَالَ بَعْضُهُمْ:

قُلْ لِلَّذِي تَاهَ فِي دُنْيَاهُ مُفْتَخِرًا ... ضَاعَ ٱفْتِخَارُكَ بَيْنَ ٱلْمَاءِ وَٱلطِّينِ
إِذَا تَفَقَّدْتَ فِي ٱلْأَجْدَاثِ مُعْتَبِرًا ... هُنَاكَ تَنْظُرُ تِيجَانَ ٱلسَّلَاطِينِ

وَأَحْسَنُ مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ قَوْلُ ٱلْقَائِلِ:

يَا صَاحِ لَا تَكُ بِٱلْعَلْيَاءِ مُفْتَخِرًا ... إِنْ كُنْتَ لَمْ تُولِ نَفْعًا قَطُّ بَلْ ضَرَرَا
إِنِّي أَرَى شَجَرَ ٱلصَّفْصَافِ مُرْتَفِعًا ... إِلَى ٱلْعُلُوِّ وَلٰكِنْ لَا أَرَى ثَمَرَا

قَالَ آخَرُ:

إِتَّضِعْ لِلنَّاسِ إِنْ رُمْتَ ٱلْعُلَا ... وَٱكْظِمِ ٱلْغَيْظَ وَلَا تُبْدِ ٱلضَّجَرْ
وَٱجْعَلِ ٱلْمَعْرُوفَ ذُخْرًا إِنَّهُ ... لِلْفَتَى أَفْضَلُ شَيْءٍ يُدَّخَرْ
إِجْمِلِ ٱلنَّاسَ عَلَى أَخْلَاقِهِمْ ... فَبِهِ تَمْلِكُ أَعْنَاقَ ٱلْبَشَرْ

البابُ الثامن
في الذكاءِ والأدبِ

في العقل وماهيته

١٣٠ قالَ سهلُ التُّسْتَرِيُّ: ألعقلُ أن تستغنِيَ بهِ عن كلِّ شيءٍ دُونهُ جلَّ جلالُهُ. أمّا ذاتُهُ فقالَ بعضُهُمْ: ألعقلُ ذاتُهُ جوهرٌ مضيءٌ ونورٌ مجرّدٌ وليسَ بعرَضٍ. خلقهُ اللهُ وجعلَ نورهُ في القلبِ يُدرَكُ بهِ المعقولاتُ بالوسائطِ والمحسوساتُ بالمشاهدةِ. وهوَ منالٌ إلى الدُّنيا والآخرةِ وإلى العلومِ الشَّرعيّةِ والعقليّةِ. آلةُ المؤمنِ يعملُ بهِ. والعقلُ ذاتُهُ شيءٌ واحدٌ ولهُ وجهانِ. أحدُهما العقلُ المشتركُ بينَ المؤمنِ والكافرِ ويُعبَّرُ عنهُ بعقلِ المعاشِ. والوجهُ الثاني العقلُ الخاصُّ بالمؤمنِ وهوَ المعبَّرُ عنهُ بعقلِ الهدايةِ. فمن رزقهُ اللهُ الهدايةَ فهوَ المؤمنُ العاقلُ (الكنز المدفون)

١٣١ أحسنُ ما قالَ بعضُهُمْ:

إنّي لآمَنُ مِنْ عدوٍّ عاقلٍ وأخافُ خِلًّا يعتريهِ جنونُ

والعقلُ فنٌّ واحدٌ وطريقُهُ أدرى وأرصدُ والجنونُ فنونُ

في شرف العقل

١٣١ ألعقلُ أحسنُ حِليةٍ. والعِلمُ أفضلُ قُنيةٍ. لا سيفَ كالحقِّ. ولا عدلَ كالصِّدقِ. ألجهلُ مطيّةُ سوءٍ من ركبَها زلَّ. ومن صحِبَها

ضلَّ. مِنَ ٱلْجهلِ صُحبةُ ٱلْجهَّالِ. ومِنَ ٱلذُّلِّ عِشرةُ ذوي ٱلضَّلالِ. خيرُ ٱلْمواهِبِ ٱلعقلُ. وشرُّ ٱلْمصائبِ ٱلْجهلُ. من صاحبَ ٱلعلماء وقرَ. ومن عاشرَ ٱلسُّفهاء حقرَ. من لم يتعلَّمْ في صغرِهِ. لم يتقدَّمْ في كبرِهِ. وقيلَ: أصلُ ٱلعلمِ ٱلرَّغبةُ وثمرتُهُ ٱلْعبادةُ. وأصلُ ٱلزُّهدِ ٱلرَّهبةُ وثمرتُهُ ٱلسَّعادةُ. وأصلُ ٱلمروَّةِ ٱلْحياء وثمرتُها ٱلْعفَّةُ. ٱلْعقلُ أقوى أساسٍ. وٱلتَّقوى أفضلُ لباسٍ. ٱلْجاهِلُ يطلُبُ ٱلْمالَ. وٱلعاقِلُ يطلُبُ ٱلْكمالَ. لم يدرِكِ ٱلعلمَ من لا يُطيلُ درسَهُ. ولا يكُدُّ نفسَهُ. كم مِن ذليلٍ أعزَّهُ عقلُهُ. وعزيزٍ أذلَّهُ جهلُهُ (للشبراوي)

١٣٢ حكى ٱلْكِسائيُّ أنَّهُ دخلَ على ٱلرَّشيدِ يومًا فأمرَ بإِحضارِ ٱلأمينِ وٱلمأمونِ لديهِ. وقالَ: فلم يلبثْ قليلًا أن أقبلا ككوكبي أفقٍ يزينُهما هُداهما ووقارُهما. وقد غضَّا أبصارهما وقاربا خطوهما حتَّى وقفا في مجلسِهِ. فسلَّما عليهِ بٱلخلافةِ ودعوا لهُ بأحسنِ ٱلدُّعاء. فٱستدناهما وأسندَ محمَّدًا عن يمينِهِ وعبدَ ٱللهِ عن يسارِهِ. ثُمَّ أمرني أن أُلقيَ عليهِما أبوابًا من ٱلنَّحوِ. فما سألتُهما شيئًا إلَّا أحسنا ٱلْجوابَ عنهُ. فسرَّهُ ذلكَ سرورًا عظيمًا وقالَ: كيفَ تراهما. فقلتُ:

أرى قمرَيْ أُفقٍ وفرعَيْ بشامةٍ يزينُهما عِرقٌ كريمٌ ومَحتِدُ
سليلَيْ أميرِ ٱلْمؤمنينَ وحائزي مواريثِ ما أبقى ٱلنَّبيُّ ٱلْمؤيَّدُ
يسُدَّانِ أنفاقَ ٱلنِّفاقِ بشيمةٍ يزينُهما حزمٌ وعضبٌ مهنَّدُ

ثُمَّ قلتُ: ما رأيتُ أعزَّ ٱللهُ أميرَ ٱلْمؤمنينَ أحدًا مِن أبناء ٱلْخلافةِ

وأغصان هذه الشجرة الزلالية آدب منهما ألسنا. ولا أحسن ألفاظا. ولا أشد اقتدارا منهما على تأدية ما حفظا ورويا. أسأل الله تعالى أن يزيد بهما الحق تأييدا وعزا. ويدخل بهما إلى أهل الضلال ذلا وقمعا. فأمن الرشيد على دعاءي. ثم ضمهما إليه وجمع عليهما يديه. فلم يبسطهما حتى رأيت الدموع تتحدر على صدره. ثم أمرهما بالخروج (كتاب الدراري للحلبي)

قال علي بن أبي طالب:

أَلنَّاسُ مِن جِهَةِ ٱلتِّمثَالِ أَكْفَاءُ　　أَبُوهُمُ آدَمُ وَٱلأُمُّ حَوَّاءُ
فَإِنْ يَكُنْ لَهُمْ فِي أَصْلِهِمْ شَرَفٌ　　يُفَاخِرُونَ بِهِ فَٱلطِّينُ وَٱلمَاءُ
مَا ٱلفَخْرُ إِلَّا لِأَهْلِ ٱلعِلْمِ إِنَّهُمُ　　عَلَى ٱلهُدَى لِمَنِ ٱسْتَهْدَى أَدِلَّاءُ
وَقَدْرُ كُلِّ ٱمْرِئٍ مَا كَانَ يُحْسِنُهُ　　وَٱلجَاهِلُونَ لِأَهْلِ ٱلعِلْمِ أَعْدَاءُ
وَإِنْ أَتَيْتَ بِجُودٍ فِي ذَوِي نَسَبٍ　　فَإِنَّ نِسْبَتَنَا جُودٌ وَعَلْيَاءُ
فَفُزْ بِعِلْمٍ تَعِشْ حَيًّا بِهِ أَبَدًا　　أَلنَّاسُ مَوْتَى وَأَهْلُ ٱلعِلْمِ أَحْيَاءُ

١٣٣ إعلم أن العلم شرف للإنسان. وفخر له في جميع الأزمان. وهو العز الذي لا يبلى جديده. والكنز الذي لا يفنى مزيده. وقدره عظيم. وفضله جسيم. ولقد أحسن من قال:

مَا أَحْسَنَ ٱلعَقْلَ وَٱلمَحْمُودُ مَنْ عَقَلَا　　وَأَقْبَحَ ٱلجَهْلَ وَٱلمَذْمُومُ مَنْ جَهِلَا
فَلَيْسَ يَصْلُحُ نُطْقُ ٱلمَرْءِ فِي جَدَلٍ　　وَٱلجَهْلُ يُفْسِدُهُ يَوْمًا إِذَا سُئِلَا

١٣٤ ثم اعلم أن الدنيا ربما أقبلت على الجاهل بالاتفاق. وأدبرت

عَنِ ٱلْعَالِمِ بِالِاسْتِحْقَاقِ. فَإِنْ أَتَاكَ مِنْهَا مُلِمَّةٌ مَعَ جَهْلٍ. أَوْ فَاتَتْكَ مِنْهَا بُغْيَةٌ مَعَ عَقْلٍ. فَلَا يَحْمِلَنَّكَ ذٰلِكَ عَلَى ٱلرَّغْبَةِ فِي ٱلْجَهْلِ. فَدَوْلَةُ ٱلْجَاهِلِ مِنَ ٱلْمُمْكِنَاتِ. وَدَوْلَةُ ٱلْعَاقِلِ مِنَ ٱلْوَاجِبَاتِ. وَلَيْسَ مَنْ أَمْكَنَهُ شَيْءٌ فِي ذَاتِهِ. كَمَنِ ٱسْتَوْجَبَهُ بِآدَابِهِ وَآلَاتِهِ. وَأَيْضًا فَدَوْلَةُ ٱلْجَاهِلِ كَٱلْغَرِيبِ ٱلَّذِي يَحِنُّ إِلَى ٱلنُّقْلَةِ. وَدَوْلَةُ ٱلْعَاقِلِ كَٱلنَّسِيبِ ٱلْمُتَمَكِّنِ ٱلْوُصْلَةِ

لَا تَيْأَسَنَّ إِذَا مَا كُنْتَ ذَا أَدَبٍ   عَلَى خُمُولِكَ أَنْ تَرْقَى إِلَى ٱلْفَلَكِ
فَبَيْنَمَا ٱلذَّهَبُ ٱلْإِبْرِيزُ مُخْتَلِطٌ   بِٱلتُّرْبِ إِذْ صَارَ إِكْلِيلًا عَلَى ٱلْمَلِكِ

١٣٥ وَقَالَ حَكِيمٌ: يَنْبَغِي لِلْمَرْءِ أَنْ لَا يَفْرَحَ بِمَرْتَبَةٍ تَرَقَّاهَا بِغَيْرِ عَقْلٍ. وَلَا بِمَنْزِلَةٍ رَفِيعَةٍ حَلَّهَا بِغَيْرِ فَضْلٍ. فَلَا بُدَّ أَنْ يُزِيلَهُ ٱلْجَهْلُ عَنْهَا. وَيَسُلَّهُ مِنْهَا. فَيَنْحَطَّ إِلَى رُتْبَتِهِ. وَيَرْجِعَ إِلَى قِيمَتِهِ. بَعْدَ أَنْ تَظْهَرَ عُيُوبُهُ. وَتَكْثُرَ ذُنُوبُهُ. وَيَصِيرَ مَادِحُهُ هَاجِيًا. وَصَدِيقُهُ مُعَادِيًا

لَا تَقْعُدَنَّ عَنِ ٱكْتِسَابِ فَضِيلَةٍ   أَبَدًا وَإِنْ أَدَّتْ إِلَى ٱلْإِعْدَامِ
جَهْلُ ٱلْفَتَى عَارٌ عَلَيْهِ لِذَاتِهِ   وَخُمُولُهُ عَارٌ عَلَى ٱلْأَيَّامِ

(للشبراوي)

١٣٦ سُئِلَ ٱلْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ عَنِ ٱلْعَقْلِ فَقَالَ: رَأْسُ ٱلْأَشْيَاءِ فِيهِ قِوَامُهَا وَبِهِ تَمَامُهَا لِأَنَّهُ سِرَاجُ مَا بَطَنَ. وَمِلَاكُ مَا عَلَنَ. وَسَائِسُ ٱلْجَسَدِ. وَزِينَةُ كُلِّ أَحَدٍ. لَا تَسْتَقِيمُ ٱلْحَيَاةُ إِلَّا بِهِ. وَلَا تَدُورُ ٱلْأُمُورُ إِلَّا عَلَيْهِ

(للقيرواني)

قَالَ ٱلْخُضْرَاوِيُّ :

وَأَفْضَلُ قَسْمِ ٱللهِ لِلْمَرْءِ عَقْلُهُ فَلَيْسَ مِنَ ٱلْخَيْرَاتِ شَيْءٌ يُقَارِبُهْ
يَزِينُ ٱلْفَتَى فِي ٱلنَّاسِ صِحَّةُ عَقْلِهِ وَإِنْ كَانَ مَحْظُورًا عَلَيْهِ مَكَاسِبُهْ
وَشَيْنُ ٱلْفَتَى فِي ٱلنَّاسِ قِلَّةُ عَقْلِهِ وَإِنْ كَرُمَتْ أَعْرَاقُهُ وَمَنَاسِبُهْ
إِذَا أَكْمَلَ ٱلرَّحْمَانُ لِلْمَرْءِ عَقْلَهُ فَقَدْ كَمَلَتْ أَخْلَاقُهُ وَمَآرِبُهْ

وَقَالَ آخَرُ :

أَلْعَقْلُ حُلَّةُ فَخْرٍ مَنْ تَسَرْبَلَهَا كَانَتْ لَهُ نَسَبًا تُغْنِي عَنِ ٱلنَّسَبِ
وَٱلْعَقْلُ أَفْضَلُ مَا فِي ٱلنَّاسِ كُلِّهِمِ بِٱلْعَقْلِ يَنْجُو ٱلْفَتَى مِنْ حَوْمَةِ ٱلطَّلَبِ

١٣٧ قِيلَ: إِنَّ ٱلْعُمْيَانَ أَذْكَى مِنْ غَيْرِهِمْ . وَقِيلَ لِقَتَادَةَ : مَا بَالُ ٱلْعُمْيَانِ نَجِدُهُمْ أَذْكَى مِنَ ٱلْبُصَرَاءِ . فَقَالَ : لِأَنَّ ٱلْقُوَّةَ ٱلْبَاصِرَةَ مِنْهُمُ ٱنْتَقَلَتْ إِلَى بَاطِنِهِمْ

قَالَ ٱبْنُ عَبَّاسٍ لَمَّا كُفَّ بَصَرُهُ :

إِنْ يَأْخُذِ ٱللهُ مِنْ عَيْنَيَّ نُورَهُمَا فَفِي لِسَانِي وَقَلْبِي مِنْهُمَا نُورُ
قَلْبِي ذَكِيٌّ وَعَقْلِي غَيْرُ ذِي دَخَلٍ وَفِي فَمِي صَارِمٌ كَٱلسَّيْفِ مَشْهُورُ

(لابن عبد ربّه)

في العلم وشرفه

١٣٨ قَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ : أَلْعِلْمُ خَلِيلٌ وَٱلْحِلْمُ وَزِيرُهُ . وَٱلْعَقْلُ دَلِيلُهُ . وَٱلْعَمَلُ قَائِدُهُ وَٱلرِّفْقُ وَالِدُهُ . وَٱلْبِرُّ أَخُوهُ وَٱلصَّبْرُ أَمِيرُ جُنُودِهِ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ : لِمِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنَ ٱلْعِلْمِ أَفْضَلُ مِنْ جِهَادِ ٱلْجَاهِلِ

أَلْفَ عَامٍ . وقَالَ ٱلْإِمَامُ ٱلشَّافِعِيُّ : لَيْسَ بَعْدَ ٱلْفَرَائِضِ أَفْضَلُ مِنْ طَلَبِ ٱلْعِلْمِ فَهُوَ نُورٌ يَهْتَدِي بِهِ ٱلْحَائِرُ
(لابي نصر المقدسي)

قَالَ بَعْضُ ٱلْأُدَبَاءِ :

وَٱلْعِلْمُ أَشْرَفُ شَيْءٍ قَالَهُ رَجُلٌ ... مَنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ عِلْمٌ لَمْ يَكُنْ رَجُلَا
تَعَلَّمِ ٱلْعِلْمَ وَٱعْمَلْ يَا أُخَيَّ بِهِ ... فَٱلْعِلْمُ زَيْنٌ لِمَنْ بِٱلْعِلْمِ قَدْ عَمِلَا

وَفِي مَعْنَاهُ أَنْشَدُوا :

بِٱلْعِلْمِ تَحْيَا نُفُوسٌ قَطُّ مَا عَرَفَتْ ... مِنْ قَبْلِ مَا ٱلْفَرْقُ بَيْنَ ٱلصِّدْقِ وَٱلْمَيْنِ
أَلْعِلْمُ لِلنَّفْسِ نُورٌ يُسْتَدَلُّ بِهِ ... عَلَى ٱلْحَقَائِقِ مِثْلُ ٱلنُّورِ لِلْعَيْنِ

١٣٩ وَقَالَ ٱلزُّبَيْرُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ : كَتَبَ إِلَيَّ أَبِي مِنَ ٱلْعِرَاقِ : يَا بُنَيَّ عَلَيْكَ بِٱلْعِلْمِ فَإِنَّكَ إِنِ ٱفْتَقَرْتَ إِلَيْهِ كَانَ مَالًا . وَإِنِ ٱسْتَغْنَيْتَ بِهِ كَانَ جَمَالًا . وَأُنْشِدَ فِي مَعْنَاهُ :

أَلْعِلْمُ مُبْلِغُ قَوْمٍ ذِرْوَةَ ٱلشَّرَفِ ... وَصَاحِبُ ٱلْعِلْمِ مَحْفُوظٌ مِنَ ٱلتَّلَفِ
يَا صَاحِبَ ٱلْعِلْمِ مَهْلًا لَا تُدَنِّسُهُ ... بِٱلْمُوبِقَاتِ فَمَا لِلْعِلْمِ مِنْ خَلَفِ
أَلْعِلْمُ يَرْفَعُ بَيْتًا لَا عِمَادَ لَهُ ... وَٱلْجَهْلُ يَهْدِمُ بَيْتَ ٱلْعِزِّ وَٱلشَّرَفِ

١٤٠ وَقَالَ بَعْضُ ٱلْفُضَلَاءِ : يَنْبَغِي لِكُلِّ عَاقِلٍ أَنْ يُبَالِغَ فِي تَعْظِيمِ ٱلْعُلَمَاءِ مَا أَمْكَنَ وَلَا يَعُدَّ غَيْرَهُمْ مِنَ ٱلْأَحْيَاءِ . وَقَدْ أَجَادَ ٱلْحَرِيرِيُّ بِقَوْلِهِ

وَمِنَ ٱلْجَهَالَةِ أَنْ تُعَظِّمَ جَاهِلًا ... لِصِقَالِ مَلْبَسِهِ وَرَوْنَقِ نَقْشِهِ
وَٱعْلَمْ بِأَنَّ ٱلتِّبْرَ فِي بَطْنِ ٱلثَّرَى ... خَافٍ إِلَى أَنْ يَسْتَبِينَ بِنَبْشِهِ
وَفَضِيلَةُ ٱلدِّينَارِ يَظْهَرُ سِرُّهَا ... مِنْ حَكِّهِ لَا مِنْ مَلَاحَةِ نَقْشِهِ

وقيل في معنى ذلك :

عابَ التعلّمَ قومٌ لا عقولَ لهم　　وما عليه إذا عابوه من ضررِ
ما ضرّ شمسَ الضحى والشمسُ طالعةٌ　　أن لا يرى ضوءها من ليس ذا بصرِ

١٤١ وقال علي : العلمُ خيرٌ من المالِ . العلمُ يحرسُك وأنت تحرسُ المالَ . والعلمُ حاكمٌ والمالُ محكومٌ عليه . والعلمُ يزيدُ بالإنفاقِ والمالُ ينقصُ بالنفقةِ . وعن ابنِ عباسٍ أنه قال : خُيّرَ سليمانُ بنُ داودَ بين العلمِ والملكِ والمالِ . فاختارَ العلمَ فأُعطيَ الملكَ والمالَ معه . وقال الإمامُ مالكُ بنُ أنسٍ : ليس العلمُ بكثرةِ الروايةِ إنما العلمُ نورٌ يجعلُه في قلبِ من يشاءُ . وما أحسنَ ما قيل :

(مع) ففيه جلاءٌ للقلوبِ من العمى　　وعونٌ على الدينِ الذي أمرُه غنمُ
فخالطْ رواةَ العلمِ واصحبْ خيارَهم　　فصحبتُهم زينٌ وخلطتُهم غنمُ
ولا تعدُونْ عيناكَ عنهم فإنهم　　نجومُ هدىً إن غابَ نجمٌ بدا نجمُ
فواللهِ لولا العلمُ ما اتّضحَ الهدى　　ولا لاحَ من غيبِ الأمورِ لنا رسمُ

١٤٢ وعن ابنِ المباركِ أنه قال : لا يزالُ المرءُ عالماً ما طلبَ العلمَ فإذا ظنّ أنه قد علمَ فقد جهلَ . وعن عثمانَ بنِ أبي شيبةَ قال : سمعتُ وكيعاً يقولُ : لا يكونُ الرجلُ عالماً حتى يسمعَ ممّن هو أسنُّ منه . وممّن هو مثلُه . وممّن هو دونَه . وعن أبي مسعودٍ أنه قال : منهومانِ لا يشبعانِ طالبُ العلمِ وطالبُ الدنيا وهما لا يستويانِ . أما طالبُ العلمِ فيزدادُ رضا الرحمنِ . وأما طالبُ الدنيا فيزدادُ في الطغيانِ .

وَقَالَ بَعْضُهُمْ :

لَوْ كَانَ نُورُ ٱلْعِلْمِ يُدْرَكُ بِٱلْمُنَى ... مَا كَانَ يَبْقَى فِي ٱلْبَرِيَّةِ جَاهِلُ
إِجْهَدْ وَلَا تَكْسَلْ وَلَا تَكُ غَافِلًا ... فَنَدَامَةُ ٱلْعُقْبَى لِمَنْ يَتَكَاسَلُ

قَالَ غَيْرُهُ :

مِفْتَاحُ رِزْقِكَ تَقْوَى ٱللّٰهِ فَٱتَّقِهِ ... وَلَيْسَ مِفْتَاحُهُ حِرْصًا وَلَا طَمَعَا
وَٱلْعِلْمُ أَجْمَلُ ثَوْبٍ أَنْتَ لَابِسُهُ ... فَٱخْتَرْ لَهُ عَمَلَيْنِ ٱلدِّينَ وَٱلْوَرَعَا

قَالَ غَيْرُهُ :

وَفِي ٱلْجَهْلِ قَبْلَ ٱلْمَوْتِ مَوْتٌ لِأَهْلِهِ ... وَأَجْسَادُهُمْ دُونَ ٱلْقُبُورِ قُبُورُ
وَإِنَّ ٱمْرَءًا لَمْ يَحْيَ بِٱلْعِلْمِ قَلْبُهُ ... فَلَيْسَ لَهُ حَتَّى ٱلنُّشُورِ نُشُورُ

قِيلَ أَيْضًا :

لِكُلِّ مَجْدٍ فِي ٱلْوَرَى نَفْعُ فَاضِلٍ ... وَلَيْسَ يُفِيدُ ٱلْعِلْمُ مِنْ دُونِ عَامِلِ
يُسَابِقُ بَعْضُ ٱلنَّاسِ بَعْضًا بِجُهْدِهِمْ ... وَمَا كُلُّ كَرٍّ بِٱلْهَوَى كَرَّ بَاسِلِ
إِذَا لَمْ يَكُنْ نَفْعٌ لِذِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْحِجَى ... فَمَا هُوَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ إِلَّا كَجَاهِلِ
كَذَاكَ إِذَا لَمْ يَنْفَعِ ٱلْمَرْءُ غَيْرَهُ ... يُعَدُّ كَشَوْكٍ بَيْنَ زَهْرِ ٱلْخَمَائِلِ

وَقِيلَ أَيْضًا :

أَلْمَالُ يَفْنَى مَعَ ٱلْأَيَّامِ إِنْ قَلَبَتْ ... لٰكِنَّ ذَا يَصْحَبُ ٱلْإِنْسَانَ لِلتُّرْبِ
إِغْنَمْ جَنَى ثَمَرَةٍ تَحْظَ بِنَيْلِ مُنًى ... وَتَعْلُ بِٱلْقَدْرِ فَوْقَ ٱلسَّبْعَةِ ٱلشُّهُبِ

١٤٣ قَالَ ٱلْمَاهِيَابَاذِي مُغْرِيًا عَلَى تَأْثِيرِ ٱلْعِلْمِ :

يَا سَاعِيًا وَطِلَابُ ٱلْمَالِ هِمَّتُهُ ... إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفَ ٱلْعَقْلِ وَٱلدِّينِ

عَلَيْكَ بِالْعِلْمِ لَا تَطْلُبْ لَهُ بَدَلًا … وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ فِيهِ غَيْرُ مَغْبُونِ
أَلْعِلْمُ يُجْدِي وَيَبْقَى لِلْفَتَى أَبَدًا … وَالْمَالُ يَفْنَى وَإِنْ أَجْدَى إِلَى حِينِ
هٰذَاكَ عِزٌّ وَذَا ذُلٌّ لِصَاحِبِهِ … مَا زَالَ بِالْبُعْدِ بَيْنَ الْعِزِّ وَالْهُونِ

قَالَ أَبُو بَكْرِ بْنُ دُرَيْدٍ:

لَا تَحْقِرَنْ عَالِمًا وَإِنْ خَلُقَتْ … أَثْوَابُهُ فِي عُيُونِ رَامِقِهِ
وَانْظُرْ إِلَيْهِ بِعَيْنِ ذِي خَطَرٍ … مُهَذَّبِ الرَّأْيِ فِي طَرَائِقِهِ
فَالْمِسْكُ مَهْمَا تَرَاهُ مُمْتَهَنًا … بِفِهْرِ عَطَّارِهِ وَسَاحِقِهِ
حَتَّى تَرَاهُ بِعَارِضَيْ مَلِكٍ … وَمَوْضِعَ التَّاجِ مِنْ مَفَارِقِهِ

قَالَ أَبُو الْأَسْوَدِ الدُّؤَلِيُّ:

أَلْعِلْمُ زَيْنٌ وَتَشْرِيفٌ لِصَاحِبِهِ … فَاطْلُبْ هُدِيتَ فُنُونَ الْعِلْمِ وَالْأَدَبَا
كَمْ سَيِّدٍ بَطَلٍ آبَاؤُهُ نُجُبٌ … كَانُوا الرُّؤُوسَ فَأَمْسَى بَعْدَهُمْ ذَنَبَا
وَمُقْرِفٍ خَامِلِ الْآبَاءِ ذِي أَدَبٍ … نَالَ الْمَعَالِيَ بِالْآدَابِ وَالرُّتَبَا
أَلْعِلْمُ كَنْزٌ وَذُخْرٌ لَا فَنَاءَ لَهُ … نِعْمَ الْقَرِينُ إِذَا مَا صَاحِبٌ صَحِبَا
قَدْ يَجْمَعُ الْمَالَ شَخْصٌ ثُمَّ يُحْرَمُهُ … عَمَّا قَلِيلٍ فَيَلْقَى الذُّلَّ وَالْحَرَبَا
وَجَامِعُ الْعِلْمِ مَغْبُوطٌ بِهِ أَبَدًا … وَلَا يُحَاذِرُ مِنْهُ الْفَوْتَ وَالسَّلَبَا
يَا جَامِعَ الْعِلْمِ نِعْمَ الذُّخْرُ تَجْمَعُهُ … لَا تَعْدِلَنَّ بِهِ دُرًّا وَلَا ذَهَبَا

١٤٤ قَالَ غَيْرُهُ:

بِالْعِلْمِ وَالْعَقْلِ لَا بِالْمَالِ وَالذَّهَبِ … يَزْدَادُ رَفْعُ الْفَتَى قَدْرًا بِلَا طَلَبِ
فَالْعِلْمُ طَوْقُ النُّهَى يَزْهُو بِهِ شَرَفًا … وَالْجَهْلُ قَيْدٌ لَهُ يُبْلِيهِ بِاللَّعِبِ

كَمْ يَرْفَعُ ٱلْعِلْمُ أَشْخَاصاً إِلَى رُتَبٍ وَيَخْفِضُ ٱلْجَهْلُ أَشْرَافاً بِلَا أَدَبِ
أَلْعِلْمُ كَنْزٌ فَلَا تَفْنَى ذَخَائِرُهُ وَٱلْمَرْءُ مَا زَادَ عِلْماً زَادَ بِٱلرُّتَبِ
فَٱلْعِلْمَ فَٱطْلُبْ لِكَيْ يُجْدِيكَ جَوْهَرُهُ كَٱلْقُوتِ لِلْجِسْمِ لَا تَطْلُبْ غِنَى ٱلذَّهَبِ

قَالَ آخَرُ:

مَا حَوَى ٱلْعِلْمَ جَمِيعاً أَحَدٌ لَا وَلَوْ مَارَسَهُ أَلْفَ سَنَهْ
إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ بَعِيدٌ غَوْرُهُ فَخُذُوا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ أَحْسَنَهْ

قَالَ بَعْضُهُمْ:

تَعَلَّمْ مَا ٱسْتَطَعْتَ بِحَيْثُ تَسْعَى فَإِنَّ ٱلْعِلْمَ زَيْنٌ لِلرِّجَالِ
لِأَنَّ ٱلْعِلْمَ فِي ٱلدُّنْيَا جَمَالٌ وَفِي ٱلْعُقْبَى تَنَالُ بِهِ ٱلْمَعَالِي

قَالَ آخَرُ:

أَلْعِلْمُ زَيْنٌ فَكُنْ لِلْعِلْمِ مُكْتَسِباً وَكُنْ لَهُ طَالِباً مَا عِشْتَ مُقْتَبِسَا
ٱرْكَنْ إِلَيْهِ وَثِقْ بِٱللّٰهِ وَٱغْنَ بِهِ وَكُنْ حَلِيماً رَزِينَ ٱلْعَقْلِ مُحْتَرِسَا
وَكُنْ فَتًى مَاسِكاً مَحْضَ ٱلتُّقَى وَرِعاً لِلدِّينِ مُغْتَنِماً فِي ٱلْعِلْمِ مُنْغَمِسَا
فَمَنْ تَخَلَّقَ بِٱلْآدَابِ ظَلَّ بِهَا رَئِيسَ قَوْمٍ إِذَا مَا فَارَقَ ٱلرُّؤَسَا

وصف الكتاب

١٤٥ أَلْكِتَابُ نِعْمَ ٱلْأَنِيسُ فِي سَاعَةِ ٱلْوَحْدَةِ. وَنِعْمَ ٱلْمَعْرِفَةُ فِي دَارِ ٱلْغُرْبَةِ. وَنِعْمَ ٱلْقَرِينُ وَٱلدَّخِيلُ. وَنِعْمَ ٱلزَّائِرُ وَٱلنَّزِيلُ. وِعَاءٌ مُلِئَ عِلْماً وَظَرْفاً. وَإِنَاءٌ مُلِئَ مَزْحاً وَجِدّاً. وَحَبَّذَا بُسْتَانٌ يُحْمَلُ فِي خُرْجٍ. وَرَوْضٌ يُقَلَّبُ فِي حِجْرٍ. هَلْ سَمِعْتَ بِشَجَرَةٍ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ

بِأَلوانٍ مُختَلِفَةٍ وَطُعومٍ مُتَبايِنَةٍ. هَل سَمِعتَ بِشَجَرَةٍ لا تَذوى. وَزَهرٍ لا يَذوي. وَثَمرٍ لا يَفنى. وَمَن لَكَ بِجَليسٍ يُفيدُ الشيءَ وَخِلافَهُ وَالجِنسَ وَضِدَّهُ. يَنطِقُ عَنِ المَوتى وَيُترجِمُ عَنِ الأَحياءِ. إِن غَضِبتَ لَم يَغضَب. وَإِن عَربَدتَ لَم يَصخَب. أَكتَمُ مِنَ الأَرضِ. وَأَنَمُّ مِنَ الريحِ. وَأَهوى مِنَ الهَوى. وَأَخدَعُ مِنَ المُنى وَأَمتَعُ مِنَ الضُحى. وَأَنطَقُ مِن سَحبانِ وائِلٍ وَأَعيا مِن باقِلٍ. هَل سَمِعتَ بِمُعَلِّمٍ تَحَلّى بِخِلالٍ كَثيرَةٍ وَجَمَعَ أَوصافاً عَديدَةً. عَرَبِيٌّ فارِسِيٌّ يونانِيٌّ هِندِيٌّ سِندِيٌّ رومِيٌّ. إِن وَعَظَ أَسمَعَ. وَإِن أَلهى أَمتَعَ. وَإِن أَبكى أَدمَعَ. وَإِن ضَرَبَ أَوجَعَ. يُفيدُكَ وَلا يَستَفيدُ مِنكَ. وَيَزيدُكَ وَلا يَستَزيدُ مِنكَ. إِن وَجَدَ فَعِبرَةٌ. وَإِن مَزَحَ فَنُزهَةٌ. قَبرُ الأَسرارِ وَمَخزَنُ الوَدائِعِ قَيدُ العُلومِ. وَيَنبوعُ الحِكَمِ وَمَعدِنُ المَكارِمِ. وَمُؤنِسٌ لا يَنامُ. يُفيدُكَ عِلمَ الأَوَّلينَ. وَيُخبِرُكَ عَن كَثيرٍ مِن أَخبارِ المُتَأَخِّرينَ. هَل سَمِعتَ فِي الأَوَّلينَ أَو بَلَغَكَ أَنَّ أَحَداً مِنَ السالِفينَ جَمَعَ هٰذِهِ الأَوصافَ مَعَ قِلَّةِ مَؤونَتِهِ وَخِفَّةِ مَحمَلِهِ. لا يَرزَؤُكَ شَيئاً مِن دُنياكَ. نِعمَ المُدَّخَرُ وَالعُدَّةُ. وَالمُشتَغَلُ وَالحِرفَةُ. جَليسٌ لا يُطريكَ وَرَفيقٌ لا يَمَلُّكَ. يُطيعُكَ فِي اللَيلِ طاعَتَهُ فِي النَهارِ. وَيُطيعُكَ فِي السَفَرِ طاعَتَهُ فِي الحَضَرِ. إِن أَطَلتَ النَظَرَ إِلَيهِ أَطالَ إِمتاعَكَ. وَشَحَذَ طِباعَكَ. وَبَسَطَ لِسانَكَ. وَجَوَّدَ بَيانَكَ. وَفَخَّمَ أَلفاظَكَ. إِن أَلِفتَهُ خَلَّدَ عَلى الأَيّامِ ذِكرَكَ. وَإِن دَرَستَهُ رَفَعَ فِي الخَلقِ قَدرَكَ. وَإِن نَعَتَهُ نَوَّهَ عِندَهُم بِاسمِكَ. يُقعِدُ العَبيدَ في مَقاعِدِ السّاداتِ. وَيُجلِسُ السوقَةَ في مَجالِسِ

ٱلْمُلُوكِ فَأَكْرِمْ بِهِ مِنْ صَاحِبٍ. وَأَعْزِزْ بِهِ مِنْ مُوَافِقٍ (الكنز المدفون)

١٤٦ أَرْسَلَ بَعْضُ ٱلْخُلَفَاءِ فِي طَلَبِ بَعْضِ ٱلْعُلَمَاءِ لِيُسَامِرَهُ. فَلَمَّا جَاءَ ٱلْخَادِمُ إِلَيْهِ وَجَدَهُ جَالِسًا وَحَوَالَيْهِ كُتُبٌ وَهُوَ يُطَالِعُ فِيهَا. فَقَالَ لَهُ: إِنَّ أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ يَسْتَدْعِيكَ. فَقَالَ: قُلْ عِنْدِي قَوْمٌ مِنَ ٱلْحُكَمَاءِ أُحَادِثُهُمْ فَإِذَا فَرَغْتُ مِنْهُمْ حَضَرْتُ. فَلَمَّا عَادَ ٱلْخَادِمُ إِلَى ٱلْخَلِيفَةِ وَأَخْبَرَهُ بِذٰلِكَ قَالَ لَهُ: وَيْحَكَ مَنْ هٰؤُلَاءِ ٱلْحُكَمَاءُ ٱلَّذِينَ كَانُوا عِنْدَهُ. قَالَ: وَٱللّٰهِ يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَا كَانَ عِنْدَهُ أَحَدٌ. قَالَ: فَأَحْضِرْهُ ٱلسَّاعَةَ كَيْفَ كَانَ. فَلَمَّا حَضَرَ ذٰلِكَ ٱلْعَالِمُ. قَالَ لَهُ ٱلْخَلِيفَةُ: مَنْ هٰؤُلَاءِ ٱلْحُكَمَاءُ ٱلَّذِينَ كَانُوا عِنْدَكَ. قَالَ: يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ

لَنَا جُلَسَاءُ مَا نَمَلُّ حَدِيثَهُمْ أَلِبَّاءُ مَأْمُونُونَ غَيْبًا وَمَشْهَدَا
يُفِيدُونَنَا مِنْ عِلْمِهِمْ عِلْمَ مَا مَضَى وَرَأْيًا وَتَأْدِيبًا وَمَجْدًا وَسُؤْدُدَا
فَإِنْ قُلْتَ أَمْوَاتٌ فَلَمْ تَعْدُ أَمْرَهُمْ وَإِنْ قُلْتَ أَحْيَاءٌ فَلَسْتَ مُفَنَّدَا

فَعَلِمَ ٱلْخَلِيفَةُ أَنَّهُ يُشِيرُ بِذٰلِكَ إِلَى ٱلْكُتُبِ وَلَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِ تَأَخُّرَهُ

١٤٧ طَلَبَ ٱلْمُكْتَفِي مِنْ وَزِيرِهِ كُتُبًا يَلْهُو بِهَا وَيَقْطَعُ بِمُطَالَعَتِهَا زَمَانَهُ. فَتَقَدَّمَ ٱلْوَزِيرُ إِلَى ٱلنُّوَّابِ بِتَحْصِيلِ ذٰلِكَ وَعَرْضِهِ عَلَيْهِ قَبْلَ حَمْلِهِ إِلَى ٱلْخَلِيفَةِ. فَحَصَّلُوا شَيْئًا مِنْ كُتُبِ ٱلتَّارِيخِ فِيهَا شَيْءٌ مِمَّا جَرَى فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلسَّالِفَةِ مِنْ وَقَائِعِ ٱلْمُلُوكِ وَأَخْبَارِ ٱلْوُزَرَاءِ وَمَعْرِفَةِ ٱلتَّحَيُّلِ فِي ٱسْتِخْرَاجِ ٱلْأَمْوَالِ. فَلَمَّا رَآهُ ٱلْوَزِيرُ قَالَ لِنُوَّابِهِ: إِنَّكُمْ أَشَدُّ ٱلنَّاسِ عَدَاوَةً لِي. أَنَا قُلْتُ لَكُمْ حَصِّلُوا لَهُ كُتُبًا يَلْهُو بِهَا وَيَشْتَغِلُ بِهَا

عَنِّي وَعَنْ غَيْرِي. فَقَدْ حَصَّلْتُمْ لَهُ مَا يَعْرِفُهُ مَصَارِعَ ٱلْوُزَرَاء وَيُوجِدُهُ ٱلطَّرِيقَ إِلَى ٱسْتِخْرَاجِ ٱلْمَالِ وَيُعَرِّفُهُ خَرَابَ ٱلْبِلَادِ مِنْ عِمَارَتِهَا. رُدُّوهَا وَحَصِّلُوا لَهُ كُتُبًا فِيهَا حِكَايَاتٌ تُلْهِيهِ وَأَشْعَارٌ تُطْرِبُهُ (للفخري)

قَالَ ٱبْنُ دُوسْتَ فِي ٱلْحِفْظِ وَٱلِاسْتِظْهَارِ:

عَلَيْكَ بِٱلْحِفْظِ دُونَ ٱلْجَمْعِ فِي ٱلْكُتُبِ   فَإِنَّ لِلْكُتُبِ آفَاتٍ تُفَرِّقُهَا
أَلْمَاءُ يُغْرِقُهَا وَٱلنَّارُ تُحْرِقُهَا   وَٱلْفَأْرُ يَخْرِقُهَا وَٱللِّصُّ يَسْرِقُهَا

في البيان والبلاغة والفصاحة

١٤٨ قَالَ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ: أَلْبَيَانُ تَرْجُمَانُ ٱلْقُلُوبِ وَصَيْقَلُ ٱلْعُقُولِ. وَأَمَّا حَدُّهُ فَقَدْ قَالَ ٱلْجَاحِظُ: ٱلْبَيَانُ ٱسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا كَشَفَ لَكَ عَنِ ٱلْمَعْنَى. وَقَالَ ٱلْيُونَانِيُّ: ٱلْبَلَاغَةُ وُضُوحُ ٱلدَّلَالَةِ وَٱنْتِهَازُ ٱلْفُرْصَةِ وَحُسْنُ ٱلْإِشَارَةِ. وَقَالَ ٱلْهِنْدِيُّ: ٱلْبَلَاغَةُ تَصْحِيحُ ٱلْأَقْسَامِ. وَٱخْتِيَارُ ٱلْكَلَامِ. وَقَالَ ٱلْكِنْدِيُّ: يَجِبُ لِلْبَلِيغِ أَنْ يَكُونَ قَلِيلَ ٱللَّفْظِ كَثِيرَ ٱلْمَعَانِي وَقِيلَ: إِنَّ مُعَاوِيَةَ سَأَلَ عَمْرَو بْنَ ٱلْعَاصِ: مَنْ أَبْلَغُ ٱلنَّاسِ. فَقَالَ: أَقَلُّهُمْ لَفْظًا وَأَسْهَلُهُمْ مَعْنًى وَأَحْسَنُهُمْ بَدِيهَةً. وَقَالَ أَبُو عَبْدِ ٱللهِ وَزِيرُ ٱلْمَهْدِيِّ: ٱلْبَلَاغَةُ مَا فَهِمَتْهُ ٱلْعَامَّةُ وَرَضِيَتْ بِهِ ٱلْخَاصَّةُ. وَقَالَ ٱلْبُحْتُرِيُّ: خَيْرُ ٱلْكَلَامِ مَا قَلَّ. وَجَلَّ. وَدَلَّ. وَلَمْ يُمَلَّ. وَقَالُوا: ٱلْبَلَاغَةُ مَيْدَانٌ لَا يُقْطَعُ إِلَّا بِسَوَابِقِ ٱلْأَذْهَانِ. وَلَا يُسْلَكُ إِلَّا بِبَصَائِرِ ٱلْبَيَانِ. قَالَ ٱلشَّاعِرُ:

لَكَ ٱلْبَلَاغَةُ مَيْدَانٌ نَشَأْتَ بِهِ   وَكُلُّنَا بِقُصُورٍ عَنْكَ نَعْتَرِفُ

مَهِّدْ لِيَ ٱلْعُذْرَ فِي نَظْمٍ بَعَثْتُ بِهِ   مَنْ عِنْدَهُ ٱلدُّرُّ لَا يُهْدَى لَهُ ٱلصَّدَفُ

١٤٩ وَقَالَ ٱلثَّعَالِبِيُّ: ٱلْبَلِيغُ مَا كَانَ لَفْظُهُ فَحْلًا وَمَعْنَاهُ بِكْرًا. وَقَالَ ٱلْإِمَامُ فَخْرُ ٱلدِّينِ ٱلرَّازِيُّ فِي حَدِّ ٱلْبَلَاغَةِ: إِنَّهَا بُلُوغُ ٱلرَّجُلِ بِعِبَارَتِهِ كُنْهَ مَا فِي قَلْبِهِ مَعَ ٱلِٱحْتِرَازِ عَنِ ٱلْإِيجَازِ ٱلْمُخِلِّ. وَٱلتَّطْوِيلِ ٱلْمُمِلِّ. وَأَمَّا ٱلْفَصَاحَةُ فَقَدْ قَالَ ٱلْإِمَامُ فَخْرُ ٱلدِّينِ ٱلرَّازِيُّ عَنْهَا: ٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْفَصَاحَةَ خُلُوصُ ٱلْكَلَامِ مِنَ ٱلتَّعْقِيدِ. وَأَصْلُهَا مِنْ قَوْلِهِمْ أَفْصَحَ ٱللَّبَنُ إِذَا أُخِذَتْ عَنْهُ ٱلرَّغْوَةُ. وَأَكْثَرُ ٱلْبُلَغَاءِ لَا يَكَادُونَ يُفَرِّقُونَ بَيْنَ ٱلْبَلَاغَةِ وَٱلْفَصَاحَةِ. بَلْ يَسْتَعْمِلُونَهُمَا ٱسْتِعْمَالَ ٱلشَّيْئَيْنِ ٱلْمُتَرَادِفَيْنِ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ فِي تَسْوِيَةِ ٱلْحُكْمِ بَيْنَهُمَا. وَيَزْعُمُ بَعْضُهُمْ أَنَّ ٱلْبَلَاغَةَ فِي ٱلْمَعَانِي وَٱلْفَصَاحَةَ فِي ٱلْأَلْفَاظِ. وَيَسْتَدِلُّ بِقَوْلِهِمْ مَعْنًى بَلِيغٌ وَلَفْظٌ فَصِيحٌ وَقَالَ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ: مَا رَأَيْتُ رَجُلًا قَطُّ إِلَّا هِبْتُهُ حَتَّى يَتَكَلَّمَ. فَإِنْ كَانَ فَصِيحًا عَظُمَ فِي صَدْرِي. وَإِنْ قَصَّرَ سَقَطَ مِنْ عَيْنِي (للابشيهي)

في الشعر

١٥٠ كَانَ يُقَالُ: ٱلشِّعْرُ دِيوَانُ ٱلْعَرَبِ وَمَعْدِنُ حِكْمَتِهَا وَكَنْزُ أَدَبِهَا. وَيُقَالُ: ٱلشِّعْرُ لِسَانُ ٱلزَّمَانِ. وَٱلشُّعَرَاءُ لِلْكَلَامِ أُمَرَاءُ. وَقَالَ بَعْضُ ٱلسَّلَفِ: ٱلشِّعْرُ جَزْلٌ مِنْ كَلَامِ ٱلْعَرَبِ تُقَامُ بِهِ ٱلْمَجَالِسُ وَتُسْتَنْجَحُ بِهِ ٱلْحَوَائِجُ وَتُشْفَى بِهِ ٱلسَّخَائِمُ. وَيُقَالُ: ٱلْمَدْحُ مَهْرَةُ ٱلْكِرَامِ. وَإِعْطَاءُ ٱلشُّعَرَاءِ مِنْ بِرِّ ٱلْوَالِدَيْنِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَنْصِفِ ٱلشُّعَرَاءَ فَإِنَّ ظُلَامَتَهُمْ تَبْقَى وَعِقَابَهُمْ لَا يَفْنَى. وَهُمُ ٱلْحَاكِمُونَ عَلَى ٱلْحُكَّامِ. وَقَالَ

آخر: الشعر الجيد هو السحر الحلال. والعذب الزلال. إن من الشعر لحكمة وإن من البيان لسحرا. وكان يقال: النثر يتطاير تطاير الشرر. والشعر يبقى بقاء النقش في الحجر. وقيل لحمزة بن بيض: من أشعر الناس. قال. من إذا قال أسرع. وإذا وصف أبدع. وإذا مدح رفع. وإذا هجا وضع. وقال دعبل في كتابه الموضوع في مدح الشعراء: إنه لا يكذب أحد إلا اجترأه الناس فقالوا: كذاب. إلا الشاعر فإن يكذب يستحسن كذبه. ويحتمل ذلك له ولا يكون ذلك عيبا عليه. ثم لا يلبث أن يقال: أحسنت. (وفيه) أن الرجل الملك أو السوقة إذا صير ابنه في الكتاب أمر معلمه أن يعلمه الشعر. لأنه توصل به المجالس. وتضرب فيه الأمثال وتعرف به محاسن الأخلاق ومشاينها فتذم وتحمد وتهجى وتمدح. وأي شرف أبقى من شرف يبقى بالشعر. (وفيه) أن امرء القيس كان من أبناء الملوك. وكان من أهل بيته وبني أبيه أكثر من ثلاثين ملكا فبادوا وباد ذكرهم. وبقي ذكره إلى القيامة. وإنما أمسك ذكره شعره. وقال: أحسن ما مدح به الشعر قول أبي تمام حيث يقول:

ولولا خلال سنها الشعر ما درى بغاة المعالي كيف تبنى المكارم

وأحسن منه:

أرى الشعر يحيي الجود والبأس بالذي تبقيه أرواح له عطرات

وما المجد لولا الشعر إلا معاهد وما الناس إلا أعظم نخرات

١٥١ (فَصلٌ لِأَبِي بَكرٍ الخَوارِزمِيِّ جامِعٌ لِمَدحِ الشُّعَراءِ) ما ظَنُّكَ بِقَومٍ الاقتِصارُ مَحمودٌ إِلّا مِنهُم. وَالكَذِبُ مَذمومٌ وَمَردودٌ إِلّا فِيهِم. إِذا ذَمُّوا ثَلَموا. وَإِذا مَدَحوا سَلَبوا. وَإِذا رَضوا رَفَعوا الوَضيعَ. وَإِذا غَضِبوا. وَضَعوا الرَّفيعَ. وَإِذا أَقَرّوا عَلى أَنفُسِهِم بِالكَبائِرِ. لَم يَلزَمهُم حَدٌّ. وَلَم تَمتَدَّ إِلَيهِم بِالعُقوبَةِ يَدٌ. غَنِيُّهُم لا يُصادَرُ. وَفَقيرُهُم لا يُستَحقَرُ. وَشَيخُهُم يُوَقَّرُ. وَشابُّهُم لا يُستَصغَرُ. سِهامُهُم تَنفُذُ في الأَعراضِ. وَشَهاداتُهُم مَقبولَةٌ وَإِن لَم يَنطِق بِها سِجِلٌّ وَلَم يَشهَد بِها عَدلٌ. بَل ما ظَنُّكَ بِقَومٍ هُم صَيارِفَةُ أَخلاقِ الرِّجالِ. وَسَماسِرَةُ النَّقصِ وَالكَمالِ. بَل ما ظَنُّكَ بِقَومٍ أَنبَهُهُم ناطِقٌ بِالفَضلِ. وَأَنسَبُ صِناعَتِهِم مُشتَقٌّ مِنَ العَقلِ. بَل ما ظَنُّكَ بِقَومٍ هُم أُمَراءُ الكَلامِ. يُقَصِّرونَ طَويلَهُ. وَيُطَوِّلونَ قَصيرَهُ. يَقصُرونَ مَمدودَهُ. وَيُخَفِّفونَ ثَقيلَهُ. وَلِمَ لا أَقولُ: ما ظَنُّكَ بِقَومٍ يَتَّبِعُهُمُ الغاوونَ. وَفي كُلِّ وادٍ يَهيمونَ

(لأبي نصر المقدسي)

في الأدب

١٥٢ قالَ العَلاءُ بنُ أَيّوبَ كانَ يُقالُ: مَثَلُ الأَديبِ ذي القَريحَةِ مَثَلُ دائِرَةٍ تُدارُ مِن خارِجِها. فَهِيَ في كُلِّ دارَةٍ تُدارُ تَتَّسِعُ وَتَزدادُ عِظَمًا. وَمَثَلُ الأَديبِ غَيرِ ذي القَريحَةِ مَثَلُ دائِرَةٍ تُدارُ مِن داخِلِها فَهِيَ عَن قَليلٍ تَبلُغُ إِلى باطِنِها. أَوصى بَعضُ الحُكَماءِ بَنيهِ فَقالَ لَهُم: الأَدَبُ أَكرَمُ الجَواهِرِ طَبيعَةً وَأَنفَسُها قيمَةً. يَرفَعُ الأَحسابَ الوَضيعَةَ.

وَيُفِيدُ ٱلرَّغَائِبَ ٱلْجَلِيلَةَ. وَيُغْنِي مِنْ غَيْرِ عَشِيرَةٍ. وَيُكْثِرُ ٱلْأَنْصَارَ مِنْ غَيْرِ رَزِيَّةٍ. فَٱلْبَسُوهُ حُلَّةً. وَتَزَيَّنُوا بِهِ حِلْيَةً. يُؤَانِسُكُمْ فِي ٱلْوَحْشَةِ. وَيَجْمَعُ ٱلْقُلُوبَ ٱلْمُخْتَلِفَةَ. وَأَنْشَدَ ٱلْأَصْمَعِيُّ:

إِنْ كَانَ لِلْعَقْلِ مَوْلُودٌ فَلَسْتُ أَرَى ذَا ٱلْعَقْلِ مُسْتَوْحِشًا مِنْ حَادِثِ ٱلْأَدَبِ
إِنِّي رَأَيْتُهُمَا كَٱلْمَاءِ مُخْتَلِطًا بِٱلتُّرْبِ تَظْهَرُ عَنْهُ زَهْرَةُ ٱلْعُشُبِ

١٥٣ وَقَالَ بُزُرْجُمْهُرُ: مَا وَرَّثَتِ ٱلْآبَاءُ ٱلْأَبْنَاءَ خَيْرًا مِنَ ٱلْأَدَبِ. لِأَنَّهُمْ بِهِ يَكْسِبُونَ ٱلْمَالَ وَبِٱلْجَهْلِ يُتْلِفُونَهُ: وَقَالَ: حُسْنُ ٱلْخُلُقِ خَيْرُ قَرِينٍ وَٱلْأَدَبُ خَيْرُ مِيرَاثٍ وَٱلتَّقْوَى خَيْرُ زَادٍ. وَقَالَ أَيْضًا: لَيْتَ شِعْرِي أَيَّ شَيْءٍ أَدْرَكَ مَنْ فَاتَهُ ٱلْأَدَبُ. وَأَيَّ شَيْءٍ فَاتَ مَنْ أَدْرَكَ ٱلْأَدَبَ. وَقَالَ ٱبْنُ عَائِشَةَ ٱلْقُرَشِيُّ: أَهْلُ ٱلْأَدَبِ هُمُ ٱلْأَكْثَرُونَ وَإِنْ قَلُّوا. وَمَحَلُّ ٱلْأُنْسِ أَيْنَ حَلُّوا. وَقَالَ خَالِدُ بْنُ صَفْوَانَ لِٱبْنِهِ: يَا بُنَيَّ ٱلْأَدَبُ بَهَاءُ ٱلْمُلُوكِ وَرِيَاشُ ٱلسُّوقَةِ وَٱلنَّاسُ بَيْنَ هَاتَيْنِ فَتَعَلَّمْهُ تَجِدْهُ حَيْثُ تُحِبُّ. وَقَالَ بَعْضُ ٱلظَّاهِرِيَّةِ: لَوْ عَلِمَ ٱلْجَاهِلُونَ مَا ٱلْأَدَبُ. لَأَيْقَنُوا أَنَّهُ ٱلطَّرَبُ. وَقَالَ حَكِيمٌ لِٱبْنِهِ: يَا بُنَيَّ عِزُّ ٱلسُّلْطَانِ يَوْمٌ لَكَ وَيَوْمٌ عَلَيْكَ. وَعِزُّ ٱلْمَالِ وَشِيكٌ ذَهَابُهُ. جَدِيرٌ ٱنْقِطَاعُهُ وَٱنْقِلَابُهُ. وَعِزُّ ٱلْحَسَبِ إِلَى خُمُولٍ وَدُثُورٍ وَذُبُولٍ. وَعِزُّ ٱلْأَدَبِ رَاتِبٌ وَاصِبٌ. لَا يَزُولُ بِزَوَالِ ٱلْمَالِ وَلَا يَتَحَوَّلُ بِتَحَوُّلِ ٱلسُّلْطَانِ. وَيُقَالُ: مَنْ قَعَدَ بِهِ حَسَبُهُ. نَهَضَ بِهِ أَدَبُهُ. وَقَالَ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ: حِلْيَةُ ٱلْأَدَبِ لَا تَخْفَى. وَحُرْمَتُهُ لَا تَجْفَى. وَٱلْأَدَبُ صُورَةُ ٱلْعَقْلِ فَحَسِّنْ عَقْلَكَ كَيْفَ

شِئْتَ . قَالَ بُزُرْجُمْهُرُ : مَنْ كَثُرَ أَدَبُهُ . كَثُرَ شَرَفُهُ وَإِنْ كَانَ قَبْلُ وَضِيعًا وَبَعُدَ صِيتُهُ وَإِنْ كَانَ خَامِلًا . وَسَادَ وَإِنْ كَانَ غَرِيبًا . وَكَثُرَتِ ٱلْحَاجَةُ إِلَيْهِ وَإِنْ كَانَ فَقِيرًا . وَقَالُوا : ٱلْأَدَبُ أَدَبَانِ أَدَبُ ٱلْغَرِيزَةِ وَهُوَ ٱلْأَصْلُ وَأَدَبُ ٱلرِّوَايَةِ وَهُوَ ٱلْفَرْعُ . وَلَا يَتَفَرَّعُ ٱلشَّيْءُ إِلَّا عَنْ أَصْلِهِ . وَلَا يَنْمُو ٱلْأَصْلُ إِلَّا بِٱتِّصَالِ ٱلْمَادَّةِ (للشريشي)

١٥٤ وَقَالَ حَبِيبٌ فَأَحْسَنَ :

وَمَا ٱلسَّيْفُ إِلَّا زُبْرَةٌ لَوْ تَرَكْتَهُ عَلَى ٱلْخِلْقَةِ ٱلْأُولَى لَمَا كَانَ يَقْطَعُ

وَقَالَ آخَرُ :

مَا وَهَبَ ٱللّٰهُ لِٱمْرِئٍ هِبَةً أَفْضَلَ مِنْ عَقْلِهِ وَمِنْ أَدَبِهْ
هُمَا كَمَالُ ٱلْفَتَى فَإِنْ فُقِدَا فَفَقْدُهُ لِلْحَيَاةِ أَحْسَنُ بِهْ

وَقِيلَ : إِذَا كَانَ ٱلرَّجُلُ طَاهِرَ ٱلْأَدَبِ طَاهِرَ ٱلنَّبْتِ تَأَدَّبَ بِأَدَبِهِ وَصَلُحَ بِصَلَاحِهِ أَهْلُهُ وَوَلَدُهُ . وَقَالَ ٱلشَّاعِرُ :

رَأَيْتُ صَلَاحَ ٱلْمَرْءِ يُصْلِحُ أَهْلَهُ وَيُعْدِيهِمِ عِنْدَ ٱلْفَسَادِ إِذَا فَسَدْ
يُعَظَّمُ فِي ٱلدُّنْيَا لِأَجْلِ صَلَاحِهِ وَيُحْفَظُ بَعْدَ ٱلْمَوْتِ فِي ٱلْأَهْلِ وَٱلْوَلَدْ

قَالَ غَيْرُهُ :

لَعَمْرُكَ مَا ٱلْإِنْسَانُ إِلَّا ٱبْنُ يَوْمِهِ عَلَى مَا تَجَلَّى يَوْمُهُ لَا ٱبْنُ أَمْسِهِ
وَمَا ٱلْفَخْرُ بِٱلْعَظْمِ ٱلرَّمِيمِ وَإِنَّمَا فَخَارُ ٱلَّذِي يَبْغِي ٱلْفَخَارَ بِنَفْسِهِ

١٥٥ ٱلْأَدَبُ مَالٌ . وَٱسْتِعْمَالُهُ كَمَالٌ . بِٱلْعَقْلِ يَصْلُحُ كُلُّ أَمْرٍ . وَبِٱلْحِلْمِ يُقْطَعُ كُلُّ شَرٍّ . (للشبراوي)

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ :

حَرِّضْ بَنِيكَ عَلَى ٱلْآدَابِ فِي ٱلصِّغَرِ كَيْمَا تَقَرَّ بِهِمْ عَيْنَاكَ فِي ٱلْكِبَرِ
وَإِنَّمَا مَثَلُ ٱلْآدَابِ تَجْمَعُهَا فِي عُنْفُوَانِ ٱلصِّبَا كَٱلنَّقْشِ فِي ٱلْحَجَرِ
هِيَ ٱلْكُنُوزُ ٱلَّتِي تَنْمُو ذَخَائِرُهَا وَلَا يُخَافُ عَلَيْهَا حَادِثُ ٱلْغِيَرِ
إِنَّ ٱلْأَدِيبَ إِذَا زَلَّتْ بِهِ قَدَمٌ يَهْوِي عَلَى فُرُشِ ٱلدِّيبَاجِ وَٱلسُّرُرِ

قَالَ غَيْرُهُ :

مَنْ لَمْ يَرَ ٱلتَّأْدِيبَ فِي صِغَرِ ٱلصِّبَا شَمَخَ ٱلْفَلَاحُ عَلَيْهِ فِي وَقْتِ ٱلْكِبَرْ

الآداب الظاهرة

١٥٦ (أَلْآدَابُ فِي ٱلْأَكْلِ) . قَالَ بَعْضُهُمْ : إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَذْكُرِ ٱسْمَ ٱللهِ فِي أَوَّلِ أَكْلِهِ وَآخِرِهِ . وَعَلَى مَنْ يَأْكُلُ أَنْ يَلْحَقَ بِٱلْآدَابِ وَٱلرُّسُومِ ٱلْمُسْتَحْسَنَةِ . مِنْهَا أَنْ يَأْكُلَ بِيَمِينِهِ وَيَشْرَبَ بِيَمِينِهِ. وَأَلَّا يَأْكُلَ وَيَشْرَبَ قَائِمًا . وَأَوْصَى رَجُلٌ مِنْ خَدَمِ ٱلْمُلُوكِ ٱبْنَهُ فَقَالَ: إِذَا أَكَلْتَ فَضُمَّ شَفَتَيْكَ وَلَا تَلْتَفِتَنَّ يَمِينًا وَلَا شِمَالًا وَتَلَقَّمَنْ بِسِكِّينٍ . وَلَا تَجْلِسْ فَوْقَ مَنْ هُوَ أَشْرَفُ مِنْكَ وَأَرْفَعُ مَنْزِلًا . وَلَا تَبْصُقْ فِي ٱلْأَمَاكِنِ ٱلنَّظِيفَةِ . وَمِنْ حُسْنِ ٱلْآدَابِ أَنْ يُعْرِضَ عَنِ ٱلْبِطْنَةِ . قَالَ بَعْضُهُمْ . مَنْ قَلَّ طَعَامُهُ صَحَّ جِسْمُهُ وَصَفَا قَلْبُهُ . مَنْ كَثُرَ طَعَامُهُ سَقِمَ جِسْمُهُ وَقَسَا قَلْبُهُ . قَالَ آخَرُ : لَا تُمِيتُوا ٱلْقُلُوبَ بِكَثْرَةِ ٱلطَّعَامِ وَٱلشَّرَابِ . فَإِنَّ ٱلْقَلْبَ كَٱلزَّرْعِ . إِذَا كَثُرَ عَلَيْهِ ٱلْمَاءُ مَاتَ . قَالَ ٱبْنُ ٱلْمُقَفَّعِ : كَانَتْ مُلُوكُ ٱلْأَعَاجِمِ إِذَا رَأَتِ ٱلرَّجُلَ نَهِمًا شَرِهًا

أَخرجوهُ مِن طَبَقَةِ الْجِدِّ إِلَى بَابِ الْهَزلِ وَمِنْ بَابِ التَّعظِيمِ إِلَى بَابِ الإِحْتِقَارِ
(للابشيهي)

١٥٧ (وَأَمَّا أَدَبُ الْمُضَيِّفِ) فَهُوَ أَنْ يَخْدِمَ أَضيافَهُ وَيُظهِرَ لَهُمُ الْغِنَى وَبَسطَ الْوَجهِ فَقَدْ قِيلَ: الْبَشَاشَةُ فِي الْوَجْهِ خَيْرٌ مِنَ الْقِرَى. قَالُوا: فَكَيفَ بِمَنْ يَأْتِي بِهَا وَهُوَ ضَاحِكٌ. وَقَدْ ضَمَّنَ الشَّيْخُ شَمسُ الدِّينِ الْبُدَيْوِيُّ هٰذَا الْكَلامَ بِأَبْيَاتٍ فَقَالَ:

إِذَا الْمَرْءُ وَافَى مَنْزِلًا مِنْكَ قَاصِدًا ... قِرَاكَ وَأَرْمَتْهُ لَدَيْكَ الْمَسَالِكُ
فَكُنْ بَاسِمًا فِي وَجْهِهِ مُتَهَلِّلًا ... وَقُلْ مَرْحَبًا أَهْلًا وَيَوْمٌ مُبَارَكُ
وَقَدِّمْ لَهُ مَا تَسْتَطِيعُ مِنَ الْقِرَى ... عَجُولًا وَلَا تَبْخَلْ بِمَا هُوَ هَالِكُ
فَقَدْ قِيلَ بَيْتٌ سَالِفٌ مُتَقَدِّمٌ ... تَدَاوَلَهُ زَيْدٌ وَعَمْرٌو وَمَالِكُ
بَشَاشَةُ وَجْهِ الْمَرْءِ خَيْرٌ مِنَ الْقِرَى ... فَكَيْفَ بِمَنْ يَأْتِي بِهِ وَهْوَ ضَاحِكُ

قَالَ الْعَرَبُ: تَمَامُ الضِّيَافَةِ الطَّلَاقَةُ عِنْدَ أَوَّلِ وَهْلَةٍ وَإِطَالَةُ الْحَدِيثِ عِنْدَ الْمُؤَاكَلَةِ. وَلِلّٰهِ دَرُّ مَنْ قَالَ

اللّٰهُ يَعْلَمُ أَنَّهُ مَا سَرَّنِي ... شَيْءٌ كَطَارِقَةِ الضُّيُوفِ النُّزَّلِ
مَا زِلْتُ بِالتَّرْحِيبِ حَتَّى خِلْتُنِي ... ضَيْفًا لَهُ وَالضَّيْفُ رَبُّ الْمَنْزِلِ

وَمَا أَحْسَنَ مَا قَالَ سَيْفُ الدَّوْلَةِ بْنُ حَمْدَانَ:

مَنْزِلُنَا رَحْبٌ لِمَنْ زَارَهُ ... نَحْنُ سَوَاءٌ فِيهِ وَالطَّارِقُ
وَكُلُّ مَا فِيهِ حَلَالٌ لَهُ ... إِلَّا الَّذِي حَرَّمَهُ الْخَالِقُ

قَالَ عَاصِمُ بْنُ وَائِلٍ:

وَإِنَّا لَنَقْرِي الضَّيْفَ قَبْلَ نُزُولِهِ وَنُشْبِعُهُ بِالْبِشْرِ مِنْ وَجْهٍ ضَاحِكِ

١٥٨ وَمِنْ آدَابِ الْمُضِيفِ أَنْ يُحَدِّثَ أَضْيَافَهُ بِمَا تَمِيلُ إِلَيْهِ نُفُوسُهُمْ. وَلَا يَنَامَ قَبْلَهُمْ. وَلَا يَشْكُوَ الزَّمَانَ بِحُضُورِهِمْ. وَيَبَشَّ عِنْدَ قُدُومِهِمْ وَيَتَأَلَّمَ عِنْدَ وَدَاعِهِمْ. وَأَنْ لَا يُحَدِّثَ بِمَا يَرُوعُهُمْ بِهِ. وَيَجِبُ عَلَى الْمُضِيفِ أَنْ يُرَاعِيَ خَوَاطِرَ أَضْيَافِهِ كَيْفَمَا أَمْكَنَ. وَلَا يَغْضَبَ عَلَى أَحَدٍ بِحُضُورِهِمْ. وَلَا يُنَغِّصَ عَيْشَهُمْ بِمَا يَكْرَهُونَهُ. وَلَا يَعْبَسَ بِوَجْهِهِ. وَلَا يُظْهِرَ نَكَدًا. وَلَا يَنْهَرَ أَحَدًا وَلَا يَشْتُمَهُ بِحَضْرَتِهِمْ بَلْ يُدْخِلَ عَلَى قُلُوبِهِمِ السُّرُورَ بِكُلِّ مَا أَمْكَنَ. وَعَلَيْهِ أَنْ يَسْهَرَ مَعَ أَضْيَافِهِ وَيُؤَانِسَهُمْ بِلَذِيذِ الْمُحَادَثَةِ وَغَرِيبِ الْحِكَايَاتِ. وَأَنْ يَسْتَمِيلَ قُلُوبَهُمْ بِالْبَذْلِ لَهُمْ مِنْ غَرَائِبِ الطُّرَفِ إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ ذٰلِكَ. وَعَلَى الْمُضِيفِ إِذَا قَدَّمَ الطَّعَامَ إِلَى أَضْيَافِهِ أَنْ لَا يَنْتَظِرَ مَنْ يَحْضُرُ مِنْ عَشِيرَتِهِ. فَقَدْ قِيلَ: ثَلَاثَةٌ تُضْنِي: سِرَاجٌ لَا يُضِي. وَرَسُولٌ بَطِي. وَمَائِدَةٌ يُنْتَظَرُ لَهَا مَنْ يَجِي. وَمِنَ السُّنَّةِ أَنْ يُشَيِّعَ الْمُضِيفُ الضَّيْفَ إِلَى بَابِ الدَّارِ (للابشيهي)

١٥٩ قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: مَا ٱسْتَكْمَلَ عَقْلَ ٱمْرِئٍ حَتَّى يَكُونَ فِيهِ عَشْرُ خِصَالٍ. الرُّشْدُ مِنْهُ مَأْمُولًا. وَالْكِبْرُ مِنْهُ مَأْمُونًا. نَصِيبُهُ مِنَ الدُّنْيَا الْقُوتُ. وَالذُّلُّ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ الْعِزِّ. وَالْفَقْرُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ الْغِنَى يَسْتَقِلُّ كَثِيرَ الْمَعْرُوفِ مِنْ نَفْسِهِ. وَيَسْتَكْثِرُ قَلِيلَ الْمَعْرُوفِ مِنْ غَيْرِهِ. وَلَا يَسْأَمُ مِنْ طَلَبِ الْعِلْمِ طُولَ عُمْرِهِ. وَلَا يَتَبَرَّمُ مِنْ طَلَبِ الْحَوَائِجِ قِبَلَهُ. وَالْعَاشِرَةُ أَنْ يَرَى النَّاسَ كُلَّهُمْ خَيْرًا مِنْهُ (لابن المعتز)

الباب التاسع
في اللطائف

الحداد والامير

١٦٠ حكى القاضي أبو عبد الله الآمدي النائب قال : دخلت على الأمير سعيد بن المظفر أيام ولايته لثغر فوجدته يقطر دهنا على خنصره . فسألته عن سببه فذكر ضيق خاتمه وأنه ورم بسببه . فقلت له : الرأي قطع حلقته قبل أن يتفاقم الأمر . فقال : من يصلح لذلك . فاستدعيت ظافرا الحداد الشاعر فقطع الحلقة وأنشد بديها :

قصر عن أوصافك العالم ... وكثر الناثر والناظم
من يكن البحر له راحة ... يضيق عن خنصره الخاتم

فاستحسنه الأمير ووهب له الحلقة . وكانت من ذهب

وكان بين يدي الأمير غزال مستأنس وقد ربض وجعل رأسه في حجره . فقال ظافر بديها :

عجبت لجرأة هذا الغزال ... وأمر تخطى له واعتمد
وأعجب به إذ بدا جاثما ... وكيف اطمأن وأنت أسد

فزاد الأمير والحاضرون في الاستحسان (بدائع البدائه للازدي)

١٦١ قال بعض الشعراء يصف الفقير والغني :

من كان يملك درهمين تعلمت ... شفتاه أنواع الكلام فقالا

وتقدم الإخوان فاستمعوا له ورأيته بين الورى مختالا
لولا دراهمه التي يزهو بها لوجدته في الناس أسوأ حالا
إن الغني إذا تكلم بالخطا قالوا صدقت وما نطقت محالا
أما الفقير إذا تكلم صادقا قالوا كذبت وأبطلوا ما قالا
إن الدراهم في المواطن كلها تكسو الرجال مهابة وجمالا
فهي اللسان لمن أراد فصاحة وهي السلاح لمن أراد قتالا

الحجاج والفتية

١٦٢ أمر الحجاج صاحب حرسه أن يطوف بالليل فمن رآه بعد العشاء سكران ضرب عنقه. فطاف ليلة من الليالي فوجد ثلاثة فتيان يتمايلون وعليهم أمارات السكر. فأحاطت بهم الغلمان. وقال لهم صاحب الحرس: من أنتم حتى خالفتم أمر أمير المؤمنين وخرجتم في مثل هذا الوقت. فقال أحدهم:

أنا ابن من دانت الرقاب له ما بين مخزومها وهاشمها
تأتيه بالرغم وهي صاغرة يأخذ من مالها ومن دمها

فأمسك عنه وقال: لعله من أقارب أمير المؤمنين. ثم قال للآخر: وأنت من تكون. فقال:

أنا ابن من لا تنزل الدهر قدره وإن نزلت يوما فسوف تعود
ترى الناس أفواجا إلى ضوء ناره فمنهم قيام حولها وقعود

فأمسك عنه وقال: لعله ابن أشرف العرب. ثم قال للآخر:

وَأَنتَ مَنْ تَكُونُ . فَأَنشَدَ عَلَى ٱلْبَدِيهَةِ :

أَنَا ٱبْنُ مَنْ خَاضَ ٱلصُّفُوفَ بِعَزْمِهِ وَقَوَّمَهَا بِٱلسَّيْفِ حَتَّى ٱسْتَقَامَتِ
وَرِكَابُهُ لَا يَنْفَكُّ رِجْلَاهُ مِنْهُمَا إِذَا ٱلْخَيْلُ فِي يَوْمِ ٱلْكَرِيهَةِ وَلَّتِ

فَأَمْسَكَ عَنِ ٱلْآخَرِ وَقَالَ: لَعَلَّهُ ٱبْنُ أَشْجَعِ ٱلْعَرَبِ وَٱحْتَفَظَ عَلَيْهِمْ . فَلَمَّا كَانَ ٱلصَّبَاحُ رَفَعَ أَمْرَهُمْ إِلَى أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَأَحْضَرَهُمْ وَكَشَفَ عَنْ حَالِهِمْ . فَإِذَا ٱلْأَوَّلُ ٱبْنُ حَجَّامٍ . وَٱلثَّانِي ٱبْنُ فَوَّالٍ . وَٱلثَّالِثُ ٱبْنُ حَائِكٍ . فَتَعَجَّبَ مِنْ فَصَاحَتِهِمْ وَقَالَ لِجُلَسَائِهِ : عَلِّمُوا أَوْلَادَكُمُ ٱلْأَدَبَ فَوَٱللّٰهِ لَوْلَا فَصَاحَتُهُمْ لَضَرَبْتُ أَعْنَاقَهُمْ (للنواجي)

ابو العلاء وكتاب الفصوص

١٦٣ أَلَّفَ أَبُو ٱلْعَلَاءِ صَاعِدٌ كُتُبًا مِنْهَا كِتَابُ ٱلْفُصُوصِ . وَٱتَّفَقَ لِهٰذَا ٱلْكِتَابِ مِنْ عَجَائِبِ ٱلِٱتِّفَاقِ أَنَّ أَبَا ٱلْعَلَاءِ دَفَعَهُ حِينَ كَمَّلَ لِغُلَامٍ لَهُ يَحْمِلُهُ بَيْنَ يَدَيْهِ . وَعَبَرَ ٱلنَّهْرَ نَهْرَ قُرْطُبَةَ . فَخَانَتِ ٱلْغُلَامَ رِجْلُهُ فَسَقَطَ فِي ٱلنَّهْرِ هُوَ وَٱلْكِتَابُ . فَقَالَ فِي ذٰلِكَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ وَهُوَ ٱلْعَرِيفُ بَيْتًا مَطْبُوعًا بِحَضْرَةِ ٱلْمَنْصُورِ وَهُوَ :

قَدْ غَاصَ فِي ٱلْبَحْرِ كِتَابُ ٱلْفُصُوصْ وَهٰكَذَا كُلُّ ثَقِيلٍ يَغُوصْ

فَضَحِكَ ٱلْمَنْصُورُ وَٱلْحَاضِرُونَ . فَلَمْ يَرُعْ ذٰلِكَ صَاعِدًا وَلَا هَالَهُ . وَقَالَ مُرْتَجِلًا مُجِيبًا لِٱبْنِ ٱلْعَرِيفِ :

عَادَ إِلَى مَعْدِنِهِ إِنَّمَا تُوجَدُ فِي قَعْرِ ٱلْبِحَارِ ٱلْفُصُوصْ

(كتاب المعجب لعبد الواحد المراكشي)

١٦٤ قَالَ ٱبْنُ شَرَفٍ يَصِفُ دَارًا وَيَتَشَكَّى بَعُوضَهَا:

لَكَ مَنْزِلٌ كَمُلَتْ سِتَارَتُهُ لَنَا ... لِلَّهْوِ لٰكِنْ تَحْتَ ذَاكَ حَدِيثُ
غَنَّى ٱلذُّبَابُ وَظَلَّ يَزْمُرُ حَوْلَهُ ... فِيهِ ٱلْبَعُوضُ وَيَرْقُصُ ٱلْبُرْغُوثُ

قَالَ آخَرُ فِي هٰذَا ٱلْمَعْنَى:

لَيْلُ ٱلْبَرَاغِيثِ وَٱلْبَعُوضِ ... لَيْلٌ طَوِيلٌ بِلَا غُمُوضِ
فَذَاكَ يَنْزُو بِغَيْرِ رَقْصٍ ... وَذَا يُغَنِّي بِلَا عَرُوضِ

فتىً فصيح

١٦٥ دَخَلَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ بْنِ صَالِحٍ عَلَى ٱلْمَأْمُونِ حِينَ قُبِضَتْ ضِيَاعُهُمْ وَهُوَ غُلَامٌ صَغِيرٌ. فَقَالَ: ٱلسَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ. مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ سَلِيلُ نِعْمَتِكَ وَٱبْنُ دَوْلَتِكَ وَغُصْنٌ مِنْ أَغْصَانِ دَوْحَتِكَ. أَفَتَأْذَنُ لِي فِي ٱلْكَلَامِ. قَالَ: نَعَمْ. فَحَمِدَ ٱللهَ تَعَالَى وَشَكَرَهُ ثُمَّ قَالَ. أَمْتَعَنَا ٱللهُ بِحِيَاطَةِ دِينِنَا وَدُنْيَانَا. وَرِعَايَةِ أَقْصَانَا وَأَدْنَانَا. بِبَقَائِكَ يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ. وَنَسْأَلُهُ أَنْ يَزِيدَ فِي عُمْرِكَ مِنْ أَعْمَارِنَا. وَفِي أَثَرِكَ مِنْ آثَارِنَا. وَيَقِيكَ ٱلْأَذَى بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا. هٰذَا مَقَامُ ٱلْعَائِذِ بِظِلِّكَ. ٱلْهَارِبِ إِلَى كَنَفِكَ وَفَضْلِكَ. ٱلْفَقِيرِ إِلَى رَحْمَتِكَ وَعَدْلِكَ. ثُمَّ سَأَلَ حَوَائِجَهُ فَقَضَاهَا (للشريشي)

عليّ بن الجهم

١٦٦ سَخِطَ ٱلْمُتَوَكِّلُ عَلَى عَلِيِّ بْنِ ٱلْجَهْمِ فَنَفَاهُ إِلَى خُرَاسَانَ. وَكَتَبَ أَنْ يُصْلَبَ إِذَا وَرَدَهَا يَوْمًا إِلَى ٱللَّيْلِ. فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى ٱلشَّاذِيَاخِ حَبَسَهُ

طَاهِرِ بْنِ عَبْدِ ٱللهِ ثُمَّ أَخْرَجَهُ . فَصَلَبَهُ إِلَى ٱللَّيْلِ مُجَرَّدًا . فَقَالَ :

لَمْ يَصْلِبُوا بِٱلشَّاذِيَاخِ عَشِيَّةً ٱلْ إِثْنَيْنِ مَسْبُوقًا وَلَا مَجْهُولَا
نَصَبُوا بِحَمْدِ ٱللهِ مِلْءَ عُيُونِهِمْ شَرَفًا وَمِلْءَ صُدُورِهِمْ تَبْجِيلَا
مَا ٱزْدَادَ إِلَّا رِفْعَةً وَسَعَادَةً وَٱزْدَادَتِ ٱلْأَعْدَاءُ عَنْهُ نُكُولَا
هَلْ كَانَ إِلَّا ٱللَّيْثَ فَارَقَ غِيلَهُ فَرَأَيْتَهُ فِي مَحْمِلٍ مَحْمُولَا
مَا عَابَهُ أَنْ قَدْ نُزِعَتْ لِبَاسُهُ كَٱلسَّيْفِ أَفْضَلُ مَا يُرَى مَسْلُولَا

وَقَالَ فِي ٱلْحَبْسِ :

قَالُوا حُبِسْتَ فَقُلْتُ لَيْسَ بِضَائِرٍ حَبْسِي وَأَيُّ مُهَنَّدٍ لَا يُغْمَدُ
أَوَ مَا رَأَيْتَ ٱللَّيْثَ يَأْلَفُ غِيلَهُ كِبْرًا وَأَوْبَاشُ ٱلسِّبَاعِ تَصَيَّدُ
فَٱلشَّمْسُ لَوْلَا أَنَّهَا مَحْجُوبَةٌ عَنْ نَاظِرَيْكَ لَمَا أَضَاءَ ٱلْفَرْقَدُ
وَٱلنَّارُ فِي أَحْجَارِهَا مَخْبُوءَةٌ لَا تَصْطَلِي إِنْ لَمْ تُثِرْهَا ٱلْأَزْنُدُ
وَٱلْحَبْسُ إِنْ لَمْ تَغْشَهُ لِدَنِيَّةٍ شَنْعَاءَ نِعْمَ ٱلْمَنْزِلُ ٱلْمُتَوَرَّدُ

درواس بن حبيب وهشام

١٦٧ قَحَطَتِ ٱلْبَادِيَةُ أَيَّامَ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ . فَوَفَدَ عَلَيْهِ رُؤُوسُ ٱلْقَبَائِلِ . فَجَلَسَ لَهُمْ وَفِيهِمْ صَبِيٌّ ٱبْنُ أَرْبَعَ عَشْرَةَ سَنَةً يُسَمَّى دِرْوَاسَ ٱبْنَ حَبِيبٍ . فِي رَأْسِهِ ذُؤَابَةٌ وَعَلَيْهِ بُرْدَةٌ يَمَانِيَةٌ فَٱسْتَصْغَرَهُ هِشَامٌ وَقَالَ لِحَاجِبِهِ : مَا يَشَاءُ أَحَدٌ أَنْ يَصِلَ إِلَيْنَا إِلَّا وَصَلَ حَتَّى ٱلصِّبْيَانُ . فَقَالَ دِرْوَاسُ : يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِنَّ دُخُولِي لَمْ يُخِلَّ بِكَ وَلَا ٱنْتَقَصَكَ وَلٰكِنَّهُ شَرَّفَنِي . وَإِنَّ هٰؤُلَاءِ قَدِمُوا لِأَمْرٍ فَهَابُوكَ دُونَهُ . وَإِنَّ ٱلْكَلَامَ

نَشْرٌ وَالسُّكُوتَ طَيٌّ لَا يُعْرَفُ إِلَّا بِنَشْرِهِ . فَأَعْجَبَهُ كَلَامُهُ وَقَالَ: انْشُرْ لَا أُمَّ لَكَ . فَقَالَ: إِنَّا أَصَابَتْنَا سِنُونَ ثَلَاثٌ . فَسَنَةٌ أَكَلَتِ اللَّحْمَ . وَسَنَةٌ أَذَابَتِ الشَّحْمَ . وَسَنَةٌ أَنْقَتِ الْعَظْمَ . وَفِي يَدَيْكُمْ فُضُولُ أَمْوَالٍ فَإِنْ كَانَتْ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَفَرِّقُوهَا عَلَى عِبَادِهِ . وَإِنْ كَانَتْ لَهُمْ فَلَا تَحْبِسُوهَا عَنْهُمْ . وَإِنْ كَانَتْ لَكُمْ فَتَصَدَّقُوا بِهَا عَلَيْهِمْ فَإِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ . وَإِنَّ الْوَالِيَ مِنَ الرَّعِيَّةِ كَالرُّوحِ مِنَ الْجَسَدِ لَا حَيَاةَ لَهُ إِلَّا بِهِ . فَقَالَ هِشَامٌ مَا تَرَكَ الْغُلَامُ فِي وَاحِدَةٍ مِنَ الثَّلَاثِ عُذْرًا . وَأَمَرَ بِمِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ فَفُرِّقَتْ فِي أَهْلِ الْبَادِيَةِ . وَأَمَرَ لَهُ بِمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ فَقَالَ: ارْدُدْهَا فِي جَائِزَةِ الْعَرَبِ فَمَا لِي حَاجَةٌ فِي خَاصَّةِ نَفْسِي دُونَ عَامَّةِ النَّاسِ (للشريشي)

الشاعر المتروّي

١٦٨ يُحْكَى أَنَّ بَعْضَ الْأَعْرَابِ امْتَدَحَ بَعْضَ الرُّؤَسَاءِ بِقَصِيدَةٍ بَدِيعَةٍ . فَلَمَّا قَرَأَهَا عَلَيْهِ اسْتَكْثَرَهَا عَلَيْهِ بَعْضُ الْحَاضِرِينَ وَنَسَبَهُ إِلَى سَرِقَتِهَا . فَأَرَادَ الْمَمْدُوحُ أَنْ يَعْرِفَ حَقِيقَةَ الْحَالِ . فَرَسَمَ لَهُ بِمُدٍّ مِنَ الشَّعِيرِ وَقَالَ فِي نَفْسِهِ: إِنْ كَانَ لَهُ بَدِيهَةٌ فِي النَّظْمِ فَلَا بُدَّ أَنْ يَقُولَ شَيْئًا فِي شَرْحِ حَالِهِ . فَأَخَذَ الْمُدَّ الشَّعِيرَ فِي رِدَائِهِ وَخَرَجَ فَقَالَ الْمَمْدُوحُ لِلْبَوَّابِينَ سِرًّا: لَا تُمَكِّنُوهُ مِنَ الْخُرُوجِ . فَوَقَفَ الْأَعْرَابِيُّ فِي الدِّهْلِيزِ حَائِرًا . فَبَعَثَ إِلَيْهِ الْمَمْدُوحُ مَنْ سَأَلَهُ وَقَالَ لَهُ: مَا شَأْنُكَ يَا أَعْرَابِيُّ . فَقَالَ: إِنِّي امْتَدَحْتُ الْأَمِيرَ بِقَصِيدَةٍ . قَالَ: فَمَا أَجَازَكَ

عليها. قال: هذا المدّ الشعير. فقال له: هل قلت في ذلك شيئاً. قال نعم. قال: ما هو. فأنشد بديها:

يقولون لي أرخصت شعرك في الورى فقلت لهم من عدم أهل المكارم
أجزت على شعري الشعير وإنه كثير إذا خلّصته من بهائم

فلما بلغ الممدوح هذان البيتان أعجب بهما. وعلم أن القصيدة من نظمه. فرسم له بجائزة سنيّة

المنصور وابن هبيرة

١٦٩ لما حاصر المنصور ابن هبيرة بعث إليه ابن هبيرة وقال: بارزني. فقال: لا أفعل. فقال ابن هبيرة لأشهرنّ امتناعك ولأعيّرنّك به. فقال المنصور: مثلنا ما قيل: إنّ خنزيراً بعث إلى الأسد وقال: قاتلني. فقال الأسد: لست بكفوي. فإني إن قتلتك لم يكن لي فخر. وإن قتلتني لحقني وصم عظيم. فقال لأخبرنّ السباع بنكولك. فقال الأسد: احتمال العار في ذلك أيسر من التلطّخ بدمك. فخجل ابن هبيرة وكفّ عنه (للنواجي)

١٧٠ ما أرقّ وأجود ما قال بعضهم في الفراق:

ما الدار قد غبتم يا سادتي دار كلّا ولا الجار مذ غبتم لنا جار
غبتم فأوحشتم الدنيا ببعدكم وأظلمت بعدكم رحب وأقطار
ليت الغراب الذي نادى بفرقتنا يعرى من الريش لا تحويه أوكار
ترى تعود ليالينا التي سلفت كما عهدنا وتجمع بيننا الدار

١٧١ أَرْسَلَ شَاعِرٌ هَدِيَّةً إِلَى مَلِكٍ وَشَفَعَهَا بِهٰذِهِ ٱلْأَبْيَاتِ :

أَتَتْ سُلَيْمَانَ يَوْمَ ٱلْعَرْضِ قُنْبُرَةٌ تُبْدِي إِلَيْهِ جَرَادًا كَانَ فِي فِيهَا
وَأَنْشَدَتْ فِي لِسَانِ ٱلْحَالِ قَائِلَةً إِنَّ ٱلْهَدِيَّةَ مِنْ مِقْدَارِ مُهْدِيهَا
لَوْ أَنَّ يُهْدَى إِلَى ٱلْإِنْسَانِ قِيمَتُهُ لَكَانَ تُهْدِي إِلَيْكَ ٱلدُّنْيَا مَا فِيهَا

فَٱسْتَحْسَنَهَا ٱلْمَلِكُ وَأَجَازَهُ (طراف اللطائف)

١٧٢ قَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ فِي تَغْرِيدِ ٱلْبُلْبُلِ :

أَيُّهَا ٱلْبُلْبُلُ ٱلْمُغَرِّدُ فِي ٱلنَّخْلِ غَرِيبًا مِنْ أَهْلِهِ حَيْرَانَا
أَفِرَاقًا تَشْكُوهُ أَمْ دُمْتَ تَدْعُو فَوْقَ أَفْنَانِ نَخْلَةٍ وَرَشَانَا
هَاجَ لِي صَوْتُكَ ٱلْمُغَرِّدُ شَجْوًا رُبَّ صَوْتٍ يُهَيِّجُ ٱلْأَحْزَانَا

١٧٣ وَقَالَ نَصْرُ بْنُ سَيَّارٍ فِي مَنْ لَا يَتَصَدَّى إِلَى صَغَائِرِ ٱلشُّرُورِ :

أَرَى بَيْنَ ٱلرَّمَادِ وَمِيضَ نَارٍ وَيُوشِكُ أَنْ يَكُونَ لَهَا ضِرَامُ
فَإِنْ لَمْ تُطْفِهَا عُقَلَاءُ قَوْمٍ يَكُونُ وَقُودَهَا جُثَثٌ وَهَامُ
فَإِنَّ ٱلنَّارَ بِٱلْعُودَيْنِ تُذْكَى وَإِنَّ ٱلْحَرْبَ أَوَّلُهَا كَلَامُ

١٧٤ إِجْتَمَعَ يَوْمًا آلُ ٱلصَّحَابَةِ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ :

أَلْمَوْتُ بَابٌ وَكُلُّ ٱلنَّاسِ تَدْخُلُهُ يَا لَيْتَ شِعْرِي بَعْدَ ٱلْبَابِ مَا ٱلدَّارُ

فَقَالَ عُمَرُ :

أَلدَّارُ دَارُ نَعِيمٍ إِنْ عَمِلْتَ بِمَا يُرْضِي ٱلْإِلٰهَ وَإِنْ خَالَفْتَ فَٱلنَّارُ

فَأَجَازَهُ عُثْمَانُ :

هُمَا مَحَلَّانِ مَا لِلنَّاسِ غَيْرُهُمَا فَٱنْظُرْ لِنَفْسِكَ أَيَّ ٱلدَّارِ تَخْتَارُ

فَأَجازَهُ عَلِيٌّ بِقَوْلِهِ :

مَا لِلْعِبَادِ سِوَى الْفِرْدَوْسِ إِنْ عَمِلُوا   وَإِنْ هَفَوْا هَفْوَةً فَالرَّبُّ غَفَّارُ

١٧٥ قَالَ أَعْرَابِيٌّ يَتَشَوَّقُ إِلَى بَلَدِهِ :

ذَكَرْتُ بِلَادِي فَاسْتَهَلَّتْ مَدَامِعِي   بِشَوْقٍ إِلَى عَهْدِ الصِّبَا الْمُتَقَادِمِ
حَنَنْتُ إِلَى رَبْعٍ بِهِ اخْضَرَّ شَارِبِي   وَقُطِّعَ عَنِّي فِيهِ عِقْدُ التَّمَائِمِ

١٧٦ قَالَ ابْنُ عَلَاءٍ مُوَدِّعًا :

لَأُوَدِّعَنَّكَ ثُمَّ تَدْمَعُ مُقْلَتِي   إِنَّ الدُّمُوعَ هِيَ الْوَدَاعُ الثَّانِي
فِي فُرْقَةِ الْأَحْبَابِ شُغْلٌ شَاغِلٌ   وَالْمَوْتُ صِدْقًا فُرْقَةُ الْإِخْوَانِ

١٧٧ قَالَ شَمْسُ الْمَعَالِي قَابُوسُ وَكَانَتْ أَصْحَابُهُ قَدْ خَرَجَتْ عَنْ طَاعَتِهِ :

قُلْ لِلَّذِي بِصُرُوفِ الدَّهْرِ عَيَّرَنَا   هَلْ عَانَدَ الدَّهْرُ إِلَّا مَنْ لَهُ خَطَرُ
فَفِي السَّمَاءِ نُجُومٌ مَا لَهَا عَدَدٌ   وَلَيْسَ يُكْسَفُ إِلَّا الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ

١٧٨ حَدَّثَ إِسْحَاقُ الْمَوْصِلِيُّ قَالَ : كُنْتُ عِنْدَ الْفَضْلِ بْنِ الرَّبِيعِ يَوْمًا فَدَخَلَ إِلَيْهِ ابْنُ ابْنِهِ عَبْدُ اللهِ بْنُ الْعَبَّاسِ بْنِ الْفَضْلِ وَهُوَ طِفْلٌ . وَكَانَ يَرِقُّ عَلَيْهِ لِأَنَّ أَبَاهُ مَاتَ فِي حَيَاتِهِ . فَأَجْلَسَهُ فِي حِجْرِهِ وَضَمَّهُ إِلَيْهِ وَدَمَعَتْ عَيْنَاهُ . فَأَنْشَأْتُ أَقُولُ :

مَدَّ لَكَ اللهُ الْحَيَاةَ مَدًّا   حَتَّى يَكُونَ ابْنُكَ هٰذَا جَدًّا
مُؤَزَّرًا بِمَجْدِهِ مُرَدَّى   ثُمَّ يُفَدَّى مِثْلَ مَا تُفَدَّى
أَشْبَهَ مِنْكَ سُنَّةً وَجَدًّا   وَشِيَمًا مَرْضِيَّةً وَمَجْدَا
كَأَنَّهُ أَنْتَ إِذَا تَبَدَّى   شَمَائِلًا مَحْمُودَةً وَقَدَّا

قَالَ : فتبسم الفضل وقال : أمتعني الله بك يا أبا محمد . فقد عوضت من الحزن سرورًا وتسليت بقولك . وكذلك يكون إن شاء الله

١٧٩ أخبر الصولي قال : عتب المأمون على إسحاق في شيء فكتب إليه رقعة وأوصلها إليه من يده . ففتحها المأمون فإذا فيها قوله :

لا شيء أعظم من جرمي سوى أملي ... لحسن عفوك عن ذنبي وعن زللي
فإن يكن ذا وذا في القدر قد عظما ... فأنت أعظم من جرمي ومن أملي

فضحك ثم قال : يا إسحاق عذرك أعلى قدرًا من جرمك . وما جال بفكري ولا أحضرته بعد انقضائه على ذكري (الاغاني)

١٨٠ تعذر بعضهم للحرب فقال :

قامت تشجعني هند فقلت لها ... إن الشجاعة مقرون بها العطب
لا والذي منع الأبصار رؤيته ... ما يشتهي الموت عندي من له أدب
للحرب قوم أضل الله سعيهم ... إذا دعتهم إلى نيرانها وثبوا
ولست منهم ولا أهوى فعالهم ... لا القتل يعجبني منهم ولا السلب

١٨١ قال محمود الوراق في هذا المعنى :

أيها الفارس المشيح المغير ... إن قلبي من السلاح يطير
ليس لي قوة على رهج الخيـل ... إذا ثور الغبار مثير
واستدارت رحى الحروب بقوم ... فقتيل وهارب وأسير
حيث لا ينطق الجبان من الذعر ... ويعلو الصياح والتكبير
أنا في مثل هذا وهذا بليد ... ولبيب في غيره نحرير

١٨٢ مَثَلَ دِعْبِلُ بَيْنَ يَدَيْ بَعْضِ أُمَرَاءِ ٱلرَّقَّةِ فَقَالَ أَصْلَحَ ٱللهُ ٱلْأَمِيرَ:

مَاذَا أَقُولُ إِذَا أَتَيْتُ مَعَاشِرِي صُفْرًا يَدِي مِنْ عِنْدِ أَرْوَعَ مُجْزِلِ
إِنْ قُلْتُ أَعْطَانِي كَذَبْتُ وَإِنْ أَقُلْ ضَنَّ ٱلْأَمِيرُ بِمَالِهِ لَمْ يَجْمُلِ
وَلَأَنْتَ أَعْلَمُ بِٱلْمَكَارِمِ وَٱلْعُلَى مِنْ أَنْ أَقُولَ فَعَلْتَ مَا لَمْ تَفْعَلِ
فَٱخْتَرْ لِنَفْسِكَ مَا أَقُولُ فَإِنَّنِي لَا بُدَّ مُخْبِرُهُمْ وَإِنْ لَمْ أُسْأَلِ

قَالَ لَهُ. قَاتَلَكَ ٱللهُ: وَأَمَرَ لَهُ بِعَشَرَةِ آلَافِ دِرْهَمٍ (لابن عبد ربّه)

١٨٣ وَصَفَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ رَجُلًا يَحْمِي خَبِيثًا:

رَأَيْتُ مُنَافِقًا يَحْمِي خَبِيثًا وَكُلٌّ مِنْهُمَا بِٱلظُّلْمِ يَسْعَى
قَدِ ٱتَّفَقَا وَلٰكِنْ فِي فَسَادٍ كَعَقْرَبَ رَاكِبٍ لِلشَّرِّ أَفْعَى

ابو عبادة البحتري عند المتوكّل

١٨٤ حَدَّثَ أَبُو عِبَادَةَ ٱلْبُحْتُرِيُّ ٱلشَّاعِرُ وَكَانَ ٱلْمُتَوَكِّلُ أَدْخَلَهُ فِي نُدَمَائِهِ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى ٱلْمُتَوَكِّلِ يَوْمًا فَرَأَيْتُ فِي يَدَيْهِ دُرَّتَيْنِ مَا رَأَيْتُ أَشْرَفَ مِنْ نُورِهِمَا. وَلَا أَنْقَى بَيَاضًا وَلَا أَكْبَرَ. فَأَدَمْتُ ٱلنَّظَرَ إِلَيْهِمَا وَلَمْ أَصْرِفْ طَرْفِي عَنْهُمَا. وَرَآنِي ٱلْمُتَوَكِّلُ فَرَمَى إِلَيَّ ٱلَّتِي كَانَتْ فِي يَدِهِ ٱلْيُمْنَى. فَقَبَّلْتُ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلْتُ أُفَكِّرُ فِيمَا يُضْحِكُهُ طَمَعًا فِي ٱلْأُخْرَى. فَعَنَّ لِي أَنْ قُلْتُ:

بِسُرَّ مَرَّا لَنَا إِمَامٌ تَغْرِفُ مِنْ كَفِّهِ ٱلْبِحَارُ
خَلِيفَةٌ يُرْتَجَى وَيُخْشَى كَأَنَّهُ جَنَّةٌ وَنَارُ
أَلْمُلْكُ فِيهِ وَفِي بَنِيهِ مَا ٱخْتَلَفَ ٱللَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ

يَداهُ فِي ٱلْجُودِ ضَرَّتانِ ... هٰذِي عَلَى هٰذِهِ تَغارُ
وَلَيسَ تأتي ٱلْيَمِينُ شَيْئاً ... إلَّا أتتْ مِثْلَهُ ٱلْيَسارُ

فَرَمَى بِالدُّرَّةِ ٱلَّتِي كَانَتْ فِي يَسارِهِ وَقالَ: خُذْها يا عيّارُ (للازدي)

١٨٥ مَرِضَ ٱبْنُ عُنَيْنٍ فَكَتَبَ إِلى ٱلسُّلْطانِ هٰذَيْنِ ٱلْبَيْتَيْنِ:

أُنْظُرْ إِلَيَّ بِعَيْنِ مَوْلًى لَمْ يَزَلْ ... يُولِي ٱلنَّدَى وَتَلافَ قَبْلَ تَلافِي
أَنا كَٱلَّذِي أَحْتاجُ ما يَحْتاجُهُ ... فَٱغْنَمْ دُعائي وَٱلثَّناءَ ٱلْوافِي

فَحَضَرَ ٱلسُّلْطانُ إِلَى عِيادَتِهِ. وَأَتَى إِلَيْهِ بِأَلْفِ دِينارٍ وَقالَ لَهُ: أَنْتَ ٱلَّذِي. وَهٰذِهِ ٱلصِّلَةُ. وَأَنا ٱلْعائِدُ (لبهاء الدين)

١٨٦ كانَ ٱلإِمامُ فَخْرُ ٱلدِّينِ ٱلرَّازِيُّ فِي مَجْلِسِ دَرْسِهِ إِذْ أَقْبَلَتْ حَمامَةٌ خَلْفَها صَقْرٌ يُرِيدُ صَيْدَها. فَأَلْقَتْ نَفْسَها فِي حُجْرِهِ كَٱلْمُسْتَجِيرَةِ بِهِ فَأَنْشَدَ شَرَفُ ٱلدِّينِ بْنُ عُنَيْنٍ أَبْياتاً فِي هٰذا ٱلْمَعْنَى. مِنْها:

جاءَتْ سُلَيْمانَ ٱلزَّمانِ حَمامَةٌ ... وَٱلْمَوْتُ يَلْمَعُ مِنْ جَناحَيْ خاطِفِ
مَنْ أَنْبَأَ ٱلْوَرْقاءَ أَنَّ مَحَلَّكُمْ ... حَرَمٌ وَأَنَّكَ مَلْجَأٌ لِلْخائِفِ

(تاريخ الذهبي)

١٨٧ رَكِبَ طاهِرُ بْنُ ٱلْحُسَيْنِ يَوْماً بِبَغْدادَ فِي حَرّاقَتِهِ فَٱعْتَرَضَهُ مُقَدِّسُ ٱبْنُ صَيْفِيٍّ ٱلْخَلُوقِيُّ ٱلشَّاعِرُ. وَقَدْ أَدْنَيْتَ مِنَ ٱلشَّطِّ لِيَخْرُجَ. فَقالَ: أَيُّها ٱلأَمِيرُ إِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَسْمَعَ مِنِّي أَبْياتاً. فَقالَ: قُلْ. فَأَنْشَأَ يَقُولُ.

عَجِبْتُ لِحَرّاقَةِ ٱبْنِ ٱلْحُسَيْنِ ... لا غَرِقَتْ كَيْفَ لا تَغْرَقُ
وَبَحْرانِ مِنْ فَوْقِها واحِدٌ ... وَآخَرُ مِنْ تَحْتِها مُطْبِقُ

وَأَعْجَبُ مِنْ ذَاكَ أَعْوَادُهَا   وَقَدْ مَسَّهَا كَيْفَ لَا تُورِقُ

فَقَالَ طَاهِرٌ: أَعْطُوهُ ثَلَاثَةَ آلَافِ دِينَارٍ   (لابن خلكان)

جرير والفرزدق والاخطل في مجلس عبد الملك

١٨٨ إِجْتَمَعَ جَرِيرٌ وَٱلْفَرَزْدَقُ وَٱلْأَخْطَلُ فِي مَجْلِسِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ. فَأَحْضَرَ بَيْنَ يَدَيْهِ كِيسًا فِيهِ خَمْسُ مِائَةِ دِينَارٍ. وَقَالَ لَهُمْ: لِيَقُلْ كُلٌّ مِنْكُمْ بَيْتًا فِي مَدْحِ نَفْسِهِ فَأَيُّكُمْ غَلَبَ فَلَهُ ٱلْكِيسُ. فَبَدَرَ ٱلْفَرَزْدَقُ فَقَالَ:

أَنَا ٱلْقَطِرَانُ وَٱلشُّعَرَاءُ جَرْبَى   وَفِي ٱلْقَطِرَانِ لِلْجَرْبَى شِفَاءُ

فَقَالَ ٱلْأَخْطَلُ:

فَإِنْ تَكُ زِقَّ زَامِلَةٍ فَإِنِّي   أَنَا ٱلطَّاعُونُ لَيْسَ لَهُ دَوَاءُ

فَقَالَ جَرِيرٌ:

أَنَا ٱلْمَوْتُ ٱلَّذِي آتِي عَلَيْكُمْ   فَلَيْسَ لِهَارِبٍ مِنِّي نَجَاءُ

فَقَالَ: خُذِ ٱلْكِيسَ فَلَعَمْرِي إِنَّ ٱلْمَوْتَ يَأْتِي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

(طبقات الشعراء لابن سلّام)

الرَّكاض والرشيد

١٨٩ أُدْخِلَ ٱلرَّكَّاضُ وَهُوَ ٱبْنُ أَرْبَعِ سِنِينَ إِلَى ٱلرَّشِيدِ لِيَتَعَجَّبَ مِنْ فِطْنَتِهِ. فَقَالَ لَهُ: مَا تُحِبُّ أَنْ أَهَبَ لَكَ. قَالَ: جَمِيلَ رَأْيِكَ. فَإِنِّي أَفُوزُ بِهِ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ. فَأَمَرَ بِدَنَانِيرَ وَدَرَاهِمَ فَصُبَّتْ بَيْنَ يَدَيْهِ. فَقَالَ لَهُ: ٱخْتَرِ ٱلْأَحَبَّ إِلَيْكَ فَقَالَ: ٱلْأَحَبُّ إِلَيَّ أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ. وَهٰذَا مِنْ هٰذَيْنِ وَضَرَبَ بِيَدِهِ إِلَى ٱلدَّنَانِيرِ. فَضَحِكَ ٱلرَّشِيدُ وَأَمَرَ

بِضَمِّهِ إِلَى وُلْدِهِ وَالْإِجْرَاءِ عَلَيْهِ (لكمال الدين الحلبي)

١٩٠ كَتَبَ ٱلْبُسْتِيُّ إِلَى بَعْضِ أَصْحَابِهِ وَكَانَ مُعْتَقَلًا :

فَدَيْتُكَ يَا رُوحَ ٱلْمَكَارِمِ وَٱلْعُلَا بِأَنْفَسِ مَا عِنْدِي مِنَ ٱلرُّوحِ وَٱلنَّفْسِ
حُبِسْتَ فَمِنْ بَعْدِ ٱلْكُسُوفِ تَبَلَّجُ تُضِيءُ بِهِ ٱلْآفَاقُ كَٱلْبَدْرِ وَٱلشَّمْسِ
فَلَا تَعْتَقِدْ لِلْحَبْسِ هَمًّا وَوَحْشَةً فَقَبْلَكَ قِدْمًا كَانَ يُوسُفُ فِي ٱلْحَبْسِ

١٩١ قَالَ ٱبْنُ عَرَبْشَاهَ يُغْرِي عَلَى طَلَبِ ٱلْمَجْدِ :

لَا يُؤْيِسَنَّكَ مِنْ مَجْدٍ تَبَاعُدُهُ فَإِنَّ لِلْمَجْدِ تَدْرِيجًا وَتَرْتِيبَا
إِنَّ ٱلْقَنَاةَ ٱلَّتِي شَاهَدْتَ رِفْعَتَهَا تَنْمُو فَتَنْبُتُ أُنْبُوبًا فَأُنْبُوبَا

١٩٢ كَانَ ٱبْنُ أَبِي صَقْرٍ طَعَنَ فِي ٱلسِّنِّ وَضَعُفَ عَنِ ٱلْمَشْيِ . فَصَارَ يَتَوَكَّأُ عَلَى عَصًا فَقَالَ فِي ذٰلِكَ :

كُلُّ مَرْءٍ إِذَا تَفَكَّرْتَ فِيهِ وَتَأَمَّلْتَهُ رَأَيْتَ ظَرِيفَا
كُنْتُ أَمْشِي عَلَى ٱثْنَتَيْنِ قَوِيًّا صِرْتُ أَمْشِي عَلَى ثَلَاثٍ ضَعِيفَا

١٩٣ زَلَّتْ بِٱلْأَتَابِكِ صَاحِبِ ٱلْمَوْصِلِ بَغْلَتُهُ فَأَنْشَدَ ٱبْنُ ٱلْأَثِيرِ :

إِنْ زَلَّتِ ٱلْبَغْلَةُ مِنْ تَحْتِهِ فَإِنَّ فِي زَلَّتِهَا عُذْرَا
حَمَّلَهَا مِنْ عِلْمِهِ شَاهِقًا وَمِنْ نَدَى رَاحَتِهِ بَحْرَا

١٩٤ قَالَ ٱبْنُ ٱلسَّرَّاجِ ٱلْوَرَّاقُ يَعْتَبُ عَلَى نَفْسِهِ :

يَا خَجْلَتِي وَصَحَائِفِي قَدْ سُوِّدَتْ وَصَحَائِفُ ٱلْأَبْرَارِ فِي إِشْرَاقِ
وَمُوَبِّخٍ لِي فِي ٱلْقِيَامَةِ قَائِلٍ أَكَذَا تَكُونُ صَحَائِفُ ٱلْوَرَّاقِ

١٩٥ حضَرَ ٱبْنُ ٱلْحَجَّاجِ فِي دَعْوَةِ رَجُلٍ فَأَخَّرَ ٱلطَّعَامَ إِلَى ٱلْمَسَاءِ فَقَالَ :

يَا صَاحِبَ ٱلْبَيْتِ ٱلَّذِي ضِيفَانُهُ مَاتُوا جَمِيعَا
أَدَعَوْتَنَا حَتَّى نَمُو تَ بِدَارِنَا عَطَشًا وَجُوعَا
مَا لِي أَرَى فَلَكَ ٱلرَّغِيفِ لَدَيْكَ مُشْتَرِقًا رَفِيعَا
كَٱلْبَدْرِ لَا نَرْجُو إِلَى وَقْتِ ٱلْمَسَاءِ لَهُ طُلُوعَا

١٩٦ قَالَ ٱبْنُ حَمْدِيس يَتَشَوَّقُ إِلَى صِقِلِّيَةَ وَهِيَ مَكَانُ مَنْشَاهُ:

ذَكَرْتُ صِقِلِّيَةَ وَٱلْأَسَى يُجَدِّدُ لِلنَّفْسِ تَذْكَارَهَا
فَإِنْ كُنْتُ أُخْرِجْتُ مِنْ جَنَّةٍ فَإِنِّي أُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا
وَلَوْلَا مُلُوحَةُ مَاءِ ٱلْبُكَا حَسِبْتُ دُمُوعِي أَنْهَارَهَا

١٩٧ حُكِيَ أَنَّ جُمْهُورَ شُعَرَاءِ مِصْرَ كَانَ مِنْ عَادَتِهِمْ أَنْ يَأْتُوا ٱلْوَالِيَ كُلَّ سَنَةٍ فِي ٱلْعِيدِ فَيُهَنُّونَهُ بِٱلْنَّشَائِدِ وَيَنَالُونَ مِنْهُ ٱلْجَوَائِزَ. فَبَيْنَمَا كَانُوا لَدَيْهِ ذَاتَ سَنَةٍ يُعَيِّدُونَهُ بِٱلْأَشْعَارِ حَدَثَتْ زَلْزَلَةٌ شَدِيدَةٌ ٱرْتَجَّتْ مِنْهَا دِيَارُ مِصْرَ. فَٱلْتَفَتَ ٱلْوَالِي إِلَى ٱلشُّعَرَاءِ وَقَالَ لَهُمْ: هَلْ مِنْكُمْ مَنْ يُطْرِفُنَا بَدِيهًا بِبَيْتٍ مَضْمُونُهُ هٰذِهِ ٱلزَّلْزَلَةُ. فَقَالَ بَعْضُهُمْ:

يَا حَاكِمَ ٱلْفَضْلِ إِنَّ ٱلْحَقَّ مُتَّضِحٌ لَدَى ٱلْكِرَامِ أَيَا ٱبْنَ ٱلسَّادَةِ ٱلنُّجَبَا
مَا زُلْزِلَتْ مِصْرُ مِنْ كَيْدٍ أَلَمَّ بِهَا لٰكِنَّهَا رَقَصَتْ مِنْ عَدْلِكُمْ طَرَبَا

الأعمى والأعور

١٩٨ سَمِعْتُ أَعْمَى مَرَّةً قَائِلًا يَا قَوْمُ مَا أَصْعَبَ فَقْدَ ٱلْبَصَرْ
أَجَابَهُ أَعْوَرُ مِنْ خَلْفِهِ عِنْدِيَ مِنْ ذٰلِكَ نِصْفُ ٱلْخَبَرْ

١٩٩ قَالَ ٱبْنُ ٱلدَّهَّانِ فِي غُلَامٍ لَسَبَتْهُ نَحْلَةٌ فِي شَفَتِهِ:

بِأَبِي مَنْ لَسَبَتْهُ نَحْلَةٌ آلَمَتْ أَكْرَمَ شَيْءٍ وَأَجَلّ
حَسِبَتْ أَنَّ بِفِيهِ بَيْتَهَا إِذْ رَأَتْ رِيقَتَهُ مِثْلَ ٱلْعَسَلْ

٢٠٠ أَنْشَدَ صَدْرُ الشَّاعِرُ ٱبْنُ جَهِيرٍ لَمَّا عَادَ إِلَى ٱلْوِزَارَةِ بَعْدَ ٱلْعَزْلِ :

قَدْ رَجَعَ ٱلْحَقُّ إِلَى نِصَابِهِ وَأَنْتَ مِنْ كُلِّ ٱلْوَرَى أَوْلَى بِهِ
مَا كُنْتَ إِلَّا ٱلسَّيْفَ سَلَّتْهُ يَدٌ ثُمَّ أَعَادَتْهُ إِلَى قِرَابِهِ
هَزَّتْهُ حَتَّى أَبْصَرَتْهُ صَارِمًا رَوْنَقُهُ يُغْنِيهِ عَنْ ضِرَابِهِ

٢٠١ قَالَ أَحْمَدُ بْنُ فَارِسٍ ٱلرَّازِيُّ ٱللُّغَوِيُّ يَصِفُ مَا كَانَ عَلَيْهِ :

وَقَالُوا كَيْفَ حَالُكَ قُلْتُ خَيْرٌ تُقَضَّى حَاجَةٌ وَتَفُوتُ حَاجُ
إِذَا ٱزْدَحَمَتْ هُمُومُ ٱلصَّدْرِ قُلْنَا عَسَى يَوْمًا يَكُونُ لَهَا ٱنْفِرَاجُ
نَدِيمِي هِرَّتِي وَأَنِيسُ نَفْسِي دَفَاتِرُ لِي وَمَعْشُوقِي ٱلسِّرَاجُ

٢٠٢ أَرْسَلَ ٱلْبَدِيعُ ٱلْأَسْطُرْلَابِيُّ هَدِيَّةً لِبَعْضِ ٱلْأُمَرَاءِ فَأَنْشَدَ :

أُهْدِي لِمَجْلِسِهِ ٱلْكَرِيمِ وَإِنَّمَا أُهْدِي لَهُ مَا حُزْتُ مِنْ نَعْمَائِهِ
كَٱلْبَحْرِ يُمْطِرُهُ ٱلسَّحَابُ وَمَا لَهُ فَضْلٌ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ مِنْ مَائِهِ

٢٠٣ كَانَ ٱلْخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ يُقَطِّعُ ٱلْعَرُوضَ . فَدَخَلَ عَلَيْهِ وَلَدُهُ فِي تِلْكَ ٱلْحَالَةِ فَخَرَجَ إِلَى ٱلنَّاسِ وَقَالَ : إِنَّ أَبِي قَدْ جُنَّ . فَدَخَلَ ٱلنَّاسُ عَلَيْهِ وَهُوَ يُقَطِّعُ ٱلْعَرُوضَ . فَأَخْبَرُوهُ بِمَا قَالَ ٱبْنُهُ . فَقَالَ لَهُ :

لَوْ كُنْتَ تَعْلَمُ مَا أَقُولُ عَذَرْتَنِي أَوْ كُنْتَ تَعْلَمُ مَا تَقُولُ عَذَلْتُكَا
لَكِنْ جَهِلْتَ مَقَالَتِي فَعَذَلْتَنِي وَعَلِمْتُ أَنَّكَ جَاهِلٌ فَعَذَرْتُكَا

(نزهة الالباء في طبقات الادباء لابي بركات الانباري)

اولاد نزار عند الافعى

٢٠٤ شَخَصَ مُضَرُ وَرَبِيعَةُ وَإِيَادُ وَأَنْمَارُ أَوْلَادُ نِزَارٍ إِلَى أَرْضِ نَجْرَانَ. فَبَيْنَمَا هُمْ يَسِيرُونَ إِذْ رَأَى مُضَرُ كَلَأً قَدْ رُعِيَ فَقَالَ: ٱلْبَعِيرُ ٱلَّذِي رَعَى هٰذَا أَعْوَرُ. فَقَالَ رَبِيعَةُ: وَهُوَ أَزْوَرُ. قَالَ إِيَادُ: وَهُوَ أَبْتَرُ. وَقَالَ أَنْمَارُ: وَهُوَ شَرُودٌ. فَلَمْ يَسِيرُوا إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى لَقِيَهُمْ رَجُلٌ عَلَى رَاحِلَةٍ فَسَأَلَهُمْ عَنِ ٱلْبَعِيرِ. فَقَالَ مُضَرُ: أَهُوَ أَعْوَرُ. قَالَ: نَعَمْ. قَالَ رَبِيعَةُ: أَهُوَ أَزْوَرُ. قَالَ: نَعَمْ. قَالَ إِيَادُ: أَهُوَ أَبْتَرُ. قَالَ: نَعَمْ. قَالَ أَنْمَارُ: أَهُوَ شَرُودٌ. قَالَ: نَعَمْ. فَقَالَ: هٰذِهِ وَٱللّٰهِ صِفَاتُ بَعِيرِي دُلُّونِي عَلَيْهِ. فَحَلَفُوا أَنَّهُمْ مَا رَأَوْهُ. فَلَزِمَهُمْ وَقَالَ: كَيْفَ أُصَدِّقُكُمْ وَأَنْتُمْ تَصِفُونَ بَعِيرِي بِصِفَتِهِ. فَسَارُوا حَتَّى قَرُبُوا نَجْرَانَ فَنَزَلُوا بِٱلْأَفْعَى ٱلْجُرْهُمِيِّ. فَنَادَى صَاحِبُ ٱلْبَعِيرِ: هٰؤُلَاءِ ٱلْقَوْمُ وَصَفُوا لِي بَعِيرًا بِصِفَتِهِ ثُمَّ أَنْكَرُوهُ. فَقَالَ ٱلْجُرْهُمِيُّ: كَيْفَ وَصَفْتُمُوهُ وَلَمْ تَرَوْهُ. فَقَالَ مُضَرُ: رَأَيْتُهُ يَرْعَى جَانِبًا وَيَدَعُ جَانِبًا فَعَلِمْتُ أَنَّهُ أَعْوَرُ. وَقَالَ رَبِيعَةُ: رَأَيْتُ إِحْدَى يَدَيْهِ ثَابِتَةَ ٱلْأَثَرِ وَٱلْأُخْرَى فَاسِدَةَ ٱلْأَثَرِ فَعَلِمْتُ أَنَّهُ أَفْسَدَهَا بِشِدَّةِ وَطْئِهِ لِٱزْوِرَارِهِ. وَقَالَ إِيَادُ: عَرَفْتُ بَتْرَهُ بِٱجْتِمَاعِ بَعَرِهِ وَلَوْ كَانَ ذَيَّالًا لَتَفَرَّقَ. وَقَالَ أَنْمَارُ: إِنَّمَا عَرَفْتُ أَنَّهُ شَرُودٌ لِكَوْنِ أَنَّهُ كَانَ يَرْعَى فِي ٱلْمَكَانِ ٱلْمُلْتَفِّ نَبْتُهُ ثُمَّ يَجُوزُ إِلَى مَكَانٍ أَرَقَّ مِنْهُ وَأَخْبَثَ. فَقَالَ ٱلْأَفْعَى: لَيْسُوا بِأَصْحَابِ بَعِيرِكَ. ثُمَّ سَأَلَهُمْ مَنْ هُمْ فَأَخْبَرُوهُ. فَرَحَّبَ وَأَضَافَهُمْ وَبَالَغَ فِي إِكْرَامِهِمْ (ثمرات الاوراق للحموي)

الباب العاشر
في المديح

٢٠٥ أقبل أعرابي إلى داود بن المهلب فقال له: إني مدحتك فاستمع. قال: على رسلك. ثم دخل بيته وتقلد سيفه وخرج فقال: قل فإن أحسنت حكمناك وإن أسأت قتلناك. فأنشأ يقول:

أمنت بداود وجود يمينه ... من الحدث المخشي والبأس والفقر
فأصبحت لا أخشى بداود نبوة ... من الحدثان إذ شددت به أزري
له حكم لقمان وصورة يوسف ... وحكم سليمان وعدل أبي بكر
فتى تفرق الأموال من جود كفه ... كما يفرق الشيطان من ليلة القدر

فقال له: قد حكمناك فإن شئت على قدرك وإن شئت على قدري. فقال: على قدري. فأعطاه خمسين ألفا. فقال له جلساؤه: هلا احتكمت على قدر الأمير. قال: لم يك في ماله ما يفي بقدره. قال له داود: أنت في هذه أشعر منك في شعرك وأمر له بمثل ما أعطاه.

٢٠٦ قال ابن عبد ربه دخلت على أبي العباس القائد فأنشدته:

الله جرد للندى والباس ... سيفا فقلده أبا العباس
ملك إذا استقبلت غرة وجهه ... قبض الرجاء إليك روح الياس
وبه عليك من الحياة سكينة ... ومحبة تجري من الأنفاس
وإذا أحب الله يوما عبده ... ألقى عليه محبة للناس

ثُمَّ سَأَلْتُهُ حَاجَةً فِيهَا بَعْضُ الْغِلَظِ. فَتَلَكَّأَ عَلَيَّ. فَوَقَّفْتُ فِي سَحَاءَةٍ:

مَا ضَرَّ عِنْدَكَ حَاجَتِي مَا هَزَّهَا عُذْرًا إِذَا أَعْطَيْتَ نَفْسَكَ قَدْرَهَا
أُنْظُرْ إِلَى عَرْضِ الْبِلَادِ وَطُولِهَا أَوَلَسْتَ أَكْرَمَ أَهْلِهَا وَأَبَرَّهَا
حَاشَى لِجُودِكَ أَنْ يُوَعِّرَ حَاجَتِي ثِقَتِي بِجُودِكَ سَهَّلَتْ لِي وَعْرَهَا
لَا يَجْتَنِي حُلْوَ الْمَحَامِدِ مَاجِدٌ حَتَّى يَذُوقَ مِنَ الْمَطَالِبِ مُرَّهَا

فَقَضَى الْحَاجَةَ وَسَارَعَ إِلَيْهَا (لابن عبد ربه)

٢٠٧ وَصَفَ مَرْوَانُ بْنُ أَبِي حَفْصَةَ بَنِي مَطَرٍ فَقَالَ:

بَنُو مَطَرٍ يَوْمَ اللِّقَاءِ كَأَنَّهُمْ أُسُودٌ لَهَا فِي غِيلِ خَفَّانَ أَشْبُلُ
هُمُ يَمْنَعُونَ الْجَارَ حَتَّى كَأَنَّمَا لِجَارِهِمِ بَيْنَ السِّمَاكَيْنِ مَنْزِلُ
هُمُ الْقَوْمُ إِنْ قَالُوا أَصَابُوا وَإِنْ دُعُوا أَجَابُوا وَإِنْ أَعْطَوْا أَطَابُوا وَأَجْزَلُوا
وَمَا يَسْتَطِيعُ الْفَاعِلُونَ فِعَالَهُمْ وَإِنْ أَحْسَنُوا فِي النَّائِبَاتِ وَأَجْمَلُوا

٢٠٨ حَدَّثَ مُحَمَّدٌ الرَّاوِيَةُ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى الرَّشِيدِ وَعِنْدَهُ الْفَضْلُ ابْنُ الرَّبِيعِ وَيَزِيدُ بْنُ مَزْيَدٍ. وَبَيْنَ يَدَيْهِ خِوَانٌ لَطِيفٌ عَلَيْهِ جِرْمَانُ وَرُغَيْفَانِ سَمِيذًا وَدُجَاجَتَانِ. فَقَالَ لِي: أَنْشِدْنِي. فَأَنْشَدْتُهُ قَصِيدَةَ النَّمَرِيِّ الْعَيْنِيَّةَ فَلَمَّا بَلَغْتُ إِلَى قَوْلِهِ:

إِنَّ الْمَكَارِمَ وَالْمَعْرُوفَ أَوْدِيَةٌ أَحَلَّكَ اللهُ مِنْهَا حَيْثُ يَتَّسِعُ
إِذَا رَفَعْتَ امْرَأً فَاللهُ يَرْفَعُهُ وَمَنْ وَضَعْتَ مِنَ الْأَقْوَامِ مُتَّضِعُ
نَفْسِي فِدَاؤُكَ وَالْأَبْطَالُ مُعْلَمَةٌ يَوْمَ الْوَغَى وَالْمَنَايَا صَابُهَا فَزِعُ

قَالَ فَرَمَى بِالْخِوَانِ بَيْنَ يَدَيْهِ وَصَاحَ وَقَالَ: هٰذَا وَاللهِ أَطْيَبُ

مِنْ كُلِّ طَعَامٍ وَكُلِّ شَيْءٍ . وَبَعَثَ إِلَيْهِ بِسَبْعَةِ آلَافِ دِينَارٍ

٢٠٩ حَكَى ٱلْمَنْصُورُ ٱلنَّمَرِيُّ قَالَ : دَخَلْتُ عَلَى ٱلرَّشِيدِ يَوْمًا وَلَمْ أَكُنْ أَعْدَدْتُ لَهُ مَدْحًا . فَوَجَدْتُهُ نَشِيطًا طَيِّبَ ٱلنَّفْسِ فَرُمْتُ شَيْئًا فَمَا جَاءَنِي . وَنَظَرَ إِلَيَّ مُسْتَنْطِقًا فَقُلْتُ :

إِذَا ٱعْتَاصَ ٱلْمَدِيحُ عَلَيْكَ فَٱمْدَحْ ... أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ تَجِدْ مَقَالَا
وَعُذْ بِفِنَائِهِ وَٱجْنَحْ إِلَيْهِ ... تَنَلْ عُرْفًا وَلَمْ تَذْلُلْ سُؤَالَا
فِنَاءٌ لَا تَزَالُ بِهِ رِكَابٌ ... وَضَعْنَ مَدَائِحًا وَحَمَلْنَ مَالَا

فَقَالَ : لِلّٰهِ دَرُّكَ لَئِنْ قَصَّرْتَ ٱلْقَوْلَ لَقَدْ أَطَلْتَ ٱلْمَعْنَى . وَأَمَرَ لِي بِصِلَةٍ سَنِيَّةٍ

٢١٠ لَمَّا تَوَلَّى ٱبْنُ زِيَادٍ أَعْمَالَ ٱلْأَهْوَازِ فَقَصَدَهُ مُجْرِدٌ إِلَيْهَا وَقَالَ فِيهِ :

يَحْيَى ٱمْرُؤٌ زَيَّنَهُ رَبُّهُ ... بِفِعْلِهِ ٱلْأَقْدَمِ وَٱلْأَحْدَثِ
إِنْ قَالَ لَمْ يَكْذِبْ وَإِنْ وَدَّ لَمْ ... يَقْطَعْ وَإِنْ عَاهَدَ لَمْ يَنْكُثِ
أَصْبَحَ فِي أَخْلَاقِهِ كُلِّهَا ... مُوَكَّلًا بِٱلْأَسْهَلِ ٱلْأَدْمَثِ
طَبِيعَةٌ مِنْهُ عَلَيْهَا جَرَى ... فِي خُلُقٍ لَيْسَ بِمُسْتَحْدَثِ
وَرَّثَهُ ذَاكَ أَبُوهُ فَيَا ... طِيبَ ثَنَاءِ ٱلْوَارِثِ ٱلْمُورِثِ

فَوَصَلَهُ يَحْيَى بِصِلَةٍ سَنِيَّةٍ وَحَمَلَهُ وَكَسَاهُ . وَأَقَامَ عِنْدَهُ مُدَّةً ثُمَّ ٱنْصَرَفَ

٢١١ ٱمْتَدَحَ رَبِيعَةُ ٱلرَّقِّيُّ ٱلْعَبَّاسَ بْنَ مُحَمَّدٍ بِقَصِيدَةٍ لَمْ يُسْبَقْ إِلَيْهَا حُسْنًا وَهِيَ طَوِيلَةٌ يَقُولُ فِيهَا :

لَوْ قِيلَ لِلْعَبَّاسِ يَا ٱبْنَ مُحَمَّدٍ ... قُلْ لَا وَأَنْتَ مُخَلَّدٌ مَا قَالَهَا
مَا إِنْ أَعُدُّ مِنَ ٱلْمَكَارِمِ خَصْلَةً ... إِلَّا وَجَدْتُكَ عَمَّهَا أَوْ خَالَهَا

وَإِذَا ٱلْمُلُوكُ تَسَايَرُوا فِي بَلْدَةٍ كَانُوا كَوَاكِبَهَا وَكُنْتَ هِلَالَهَا
إِنَّ ٱلْمَكَارِمَ لَمْ تَزَلْ مَعْقُولَةً حَتَّى حَلَلْتَ بِرَاحَتَيْكَ عِقَالَهَا

٢١٢ أَنْشَدَ أَبُو إِسْحَاقَ ٱبْنُ إِبْرٰهِيمَ ٱلْفَضْلَ بْنَ يَحْيَى ٱلْبَرْمَكِيَّ:

عِنْدَ ٱلْمُلُوكِ مَضَرَّةٌ وَمَنَافِعُ وَأَرَى ٱلْبَرَامِكَ لَا تَضُرُّ وَتَنْفَعُ
إِنَّ ٱلْعُرُوقَ إِذَا ٱسْتَسَرَّ بِهَا ٱلثَّرَى أَشِرَ ٱلنَّبَاتُ بِهَا وَطَابَ ٱلْمَزْرَعُ
فَإِذَا نَكِرْتَ مِنِ ٱمْرِىءٍ أَعْرَاقَهُ وَقَدِيمَهُ فَٱنْظُرْ إِلَى مَا يَصْنَعُ

قَالَ فَأَعْجَبَهُ ٱلشِّعْرُ فَقَالَ: يَا أَبَا مُحَمَّدٍ كَأَنِّي لَمْ أَسْمَعْ هٰذَا ٱلْقَوْلَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ. وَمَا لَهُ عِنْدِي إِلَّا أَنِّي لَمْ أُكَافِئْهُ عَلَيْهِ. فَقُلْتُ: وَكَيْفَ ذٰلِكَ أَضْحَكَ ٱللّٰهُ وَقَدْ وَهَبْتَ لَهُ ثَلَاثِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ. فَقَالَ: لَا مَا ثَلَاثُونَ أَلْفَ دِينَارٍ بِمُكَافِئَةٍ لَهُ فَكَيْفَ ثَلَاثُونَ أَلْفَ دِرْهَمٍ (الاغاني)

قَالَ أَبُو ٱلشِّيصِ ٱلْخُزَاعِيُّ يَمْدَحُ بَعْضَ ٱلْأُمَرَاءِ:

تَكَلَّمَتْ فِيكَ أَوْصَافٌ خُصِصْتَ بِهَا فَكُلُّنَا بِكَ مَسْرُورٌ وَمُغْتَبِطُ
أَلسِّنُّ ضَاحِكَةٌ وَٱلْكَفُّ مَانِحَةٌ وَٱلنَّفْسُ وَاسِعَةٌ وَٱلْوَجْهُ مُنْبَسِطُ

٢١٣ قَالَ ٱلْقٰسِمُ بْنُ عُبَيْدٍ: لِفَضْلِ بْنِ سَهْلٍ يَدٌ تَقَاصَرَ عَنْهَا ٱلْمَثَلُ. فَظَاهِرُهَا لِلْقُبَلِ. وَبَسْطَتُهَا لِلْغِنَى. وَسَطْوَتُهَا لِلْأَجَلِ. أَخَذَهُ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ فَقَالَ لِإِبْرٰهِيمَ بْنِ ٱلْمُدَبِّرِ:

أَصْبَحْتُ بَيْنَ ضَرَاعَةٍ وَتَجَمُّلٍ وَٱلْمَرْءُ بَيْنَهُمَا يَمُوتُ هَزِيلَا
فَٱمْدُدْ إِلَيَّ يَدًا تَعَوَّدَ بَطْنُهَا بَذْلَ ٱلنَّوَالِ وَظَهْرُهَا ٱلتَّقْبِيلَا

٢١٤ قَالَ ٱبْنُ ٱلْمَوْلَى لِيَزِيدَ بْنِ قَبِيصَةَ بْنِ ٱلْمُهَلَّبِ:

وَإِذَا تُبَاعُ كَرِيمَةٌ أَوْ تُشْتَرَى فَسِوَاكَ بَائِعُهَا وَأَنْتَ ٱلْمُشْتَرِي
وَإِذَا تَوَعَّرَتِ ٱلْمَسَالِكُ لَمْ يَكُنْ مِنْهَا ٱلسَّبِيلُ إِلَى نَدَاكَ بِأَوْعَرِ
وَإِذَا صَنَعْتَ صَنِيعَةً أَتْمَمْتَهَا بِيَدَيْنِ لَيْسَ نَدَاهُمَا بِمُكَدَّرِ
يَا وَاحِدَ ٱلْعَرَبِ ٱلَّذِي مَا إِنْ لَهُمْ مِنْ مَذْهَبٍ عَنْهُ وَلَا مِنْ مَقْصِرِ

٢١٥ قَالَ أُمَيَّةُ بْنُ أَبِي ٱلصَّلْتِ ٱلشَّاعِرُ ٱلنَّصْرَانِيُّ:

أَأَذْكُرُ حَاجَتِي أَمْ قَدْ كَفَانِي حَيَاؤُكَ إِنَّ شِيمَتَكَ ٱلْحَيَاءُ
وَعِلْمُكَ بِٱلْحُقُوقِ وَأَنْتَ فَرْعٌ لَكَ ٱلْحَسَبُ ٱلْمُهَذَّبُ وَٱلسَّنَاءُ
خَلِيلٌ لَا يُغَيِّرُهُ صَبَاحٌ عَنِ ٱلْخُلُقِ ٱلْجَمِيلِ وَلَا مَسَاءُ
وَأَرْضُكَ كُلُّ مَكْرُمَةٍ بَنَتْهَا بَنُو تَيْمٍ وَأَنْتَ لَهَا سَمَاءُ
إِذَا أَثْنَى عَلَيْكَ ٱلْمَرْءُ يَوْمًا كَفَاهُ مِنْ تَعَرُّضِهِ ٱلثَّنَاءُ
تُبَارِي ٱلرِّيحَ مَكْرُمَةً وَمَجْدًا إِذَا مَا ٱلْكَلْبُ أَحْجَرَهُ ٱلشِّتَاءُ

٢١٦ قَالَ آخَرُ يَمْدَحُ آلَ ٱلْمُهَلَّبِ:

آلُ ٱلْمُهَلَّبِ قَوْمٌ خُوِّلُوا شَرَفًا مَا نَالَهُ عَرَبِيٌّ لَا وَلَا كَادَا
لَوْ قِيلَ لِلْمَجْدِ حِدْ عَنْهُمْ وَخَلِّهِمِ بِمَا ٱحْتَكَمْتَ مِنَ ٱلدُّنْيَا لَمَا حَادَا
إِنَّ ٱلْمَكَارِمَ أَرْوَاحٌ يَكُونُ لَهَا آلُ ٱلْمُهَلَّبِ دُونَ ٱلنَّاسِ أَجْسَادَا

٢١٧ قَالَتِ ٱمْرَأَةٌ مِنْ إِيَادٍ:

أَلْخَيْلُ تَعْلَمُ يَوْمَ ٱلرَّوْعِ إِنْ هُزِمَتْ أَنَّ ٱبْنَ عَمْرٍو لَدَى ٱلْهَيْجَاءِ يَحْمِيهَا
لَمْ يُبْدِ فُحْشًا وَلَمْ يَهْدُدْ لِمَعْظَمَةٍ وَكُلَّ مَكْرُمَةٍ يَلْقَى يُسَامِيهَا
أَلْمُسْتَشَارُ لِأَمْرِ ٱلْقَوْمِ يَحْزُبُهُمْ إِذَا ٱلْهَنَاتُ أَهَمَّ ٱلْقَوْمَ مَا فِيهَا

لا يَرْهَبُ الْجَارُ مِنْهُ غَدْرَةً أَبَدًا ... وَإِنْ أَلَمَّتْ أُمُورٌ فَهْوَ كَافِيهَا

٢١٨ . قَالَ ابْنُ الرُّومِيِّ يَمْدَحُ بَعْضَهُمْ :

كُلُّ الْخِلَالِ الَّتِي فِيكُمْ مَحَاسِنُكُمْ ... تَشَابَهَتْ مِنْكُمُ الْأَخْلَاقُ وَالْخُلُقُ

كَأَنَّكُمْ شَجَرُ الْأُتْرُجِّ طَابَ مَعًا ... حَمْلًا وَنَشْرًا وَطَابَ الْعُودُ وَالْوَرَقُ

٢١٩ قَالَ شَاعِرٌ يَمْدَحُ قَوْمًا بِالْكَرَمِ :

نَصَبُوا بِقَارِعَةِ الطَّرِيقِ خِيَامَهُمْ ... يَتَسَابَقُونَ عَلَى قِرَى الضِّيفَانِ

وَيَكَادُ مُوقِدُهُمْ يَجُودُ بِنَفْسِهِ ... حُبَّ الْقِرَى حَطَبًا عَلَى النِّيرَانِ

٢٢٠ غَنَّى يَوْمًا أَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى الْمَكِّيُّ الْأَمِينَ :

تَعِشْ عُمْرَ نُوحٍ فِي سُرُورٍ وَغِبْطَةٍ ... وَفِي خَفْضِ عَيْشٍ لَيْسَ فِي طُولِهِ إِثْمُ

تُسَاعِدُكَ الْأَقْدَارُ فِيهِ وَتَنْثَنِي ... إِلَيْكَ وَتَرْعَى فَضْلَكَ الْعُرْبُ وَالْعُجْمُ

٢٢١ وَمِنْ جَمِيلِ مَا جَاءَ فِي بَابِ الْمَدِيحِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ :

يَا دَهْرُ بِعْ رُتَبَ الْمَعَالِي بَعْدَهُ ... بَيْعَ السَّمَاحِ رَبِحْتَ أَمْ لَمْ تَرْبَحِ

قَدِّمْ وَأَخِّرْ مَنْ تُرِيدُ فَإِنَّهُ ... مَاتَ الَّذِي قَدْ كُنْتَ مِنْهُ تَسْتَحِي

٢٢٢ وَقَالَ آخَرُ :

كَرِيمٌ يَغُضُّ الطَّرْفَ فَضْلَ حَيَائِهِ ... وَيَدْنُو وَأَطْرَافُ الرِّمَاحِ دَوَانِ

وَكَالسَّيْفِ إِنْ لَايَنْتَهُ لَانَ مَسُّهُ ... وَحَدَّاهُ إِنْ خَاشَنْتَهُ خَشِنَانِ

٢٢٣ مَدَحَ بَعْضُهُمْ أَمِيرًا فَقَالَ :

عَلِمَ اللَّهُ كَيْفَ أَنْتَ فَأَعْطَا ... كَ الْمَحَلَّ الْجَلِيلَ مِنْ سُلْطَانِهْ

٢٢٤ قَالَ آخَرُ :

مَنْ قاسَ جَدْوَاكَ بِالْغَمامِ فَمَا أنصفَ فِي الْحُكْمِ بَيْنَ شَكْلَيْنِ
أَنْتَ إِذَا جُدْتَ ضَاحِكٌ أَبَدًا وَهْوَ إِذَا جَادَ دَامِعُ الْعَيْنِ

٢٢٥ قَالَ غَيْرُهُ :

مَا نَوَالُ الْغَمَامِ وَقْتَ رَبِيعٍ كَنَوَالِ الْأَمِيرِ يَوْمَ سَخَاءِ
فَنَوَالُ الْأَمِيرِ بَدْرَةُ مَالٍ وَنَوَالُ الْغَمَامِ قَطْرَةُ مَاءِ

٢٢٦ قَالَ يَزِيدُ الْمُهَلَّبِيُّ فِي الْمُنْتَصِرِ بَعْدَ أَنْ وَلِيَ الْخِلَافَةَ :

لِيَهْنِكَ مُلْكٌ بِالسَّعَادَةِ طَائِرُهْ مَوَارِدُهُ مَحْمُودَةٌ وَمَصَادِرُهْ
فَأَنْتَ الَّذِي كُنَّا نُرَجِّي فَلَمْ نَخِبْ كَمَا يُرْتَجِي مِنْ وَاقِعِ الْغَيْثِ بَاكِرُهْ
بِمُنْتَصِرٍ بِاللهِ تَمَّتْ أُمُورُنَا وَمَنْ يَنْتَصِرْ بِاللهِ فَاللهُ نَاصِرُهْ

٢٢٧ دَخَلَ النَّابِغَةُ عَلَى النُّعْمَانِ بْنِ الْمُنْذِرِ فَحَيَّاهُ تَحِيَّةَ الْمُلُوكِ ثُمَّ قَالَ : أَيُفَاخِرُكَ ذُو فَائِشٍ وَأَنْتَ سَائِسُ الْعَرَبِ . وَغُرَّةُ الْحَسَبِ . وَاللَّاتِ لَأَمْسُكَ أَيْمَنُ مِنْ يَوْمِهِ . وَلَعَبْدُكَ أَكْرَمُ مِنْ قَوْمِهِ . وَلَقَفَاكَ أَحْسَنُ مِنْ وَجْهِهِ . وَلَيَسَارُكَ أَجْوَدُ مِنْ يَمِينِهِ . وَلَظَنُّكَ أَصْدَقُ مِنْ يَقِينِهِ . وَلَوَعْدُكَ أَبْلَجُ مِنْ رِفْدِهِ . وَلَخَالُكَ أَشْرَفُ مِنْ جَدِّهِ . وَلَنَفْسُكَ أَمْنَعُ مِنْ جُنْدِهِ . وَلَيَوْمُكَ أَزْهَرُ مِنْ دَهْرِهِ . وَلَفِتْرُكَ أَبْسَطُ مِنْ شِبْرِهِ . وَأَنْشَدَ :

أَخْلَاقُ مَجْدِكَ جَلَّتْ مَا لَهَا خَطَرٌ فِي الْبَأْسِ وَالْجُودِ بَيْنَ الْحِلْمِ وَالْخَفَرِ
مُتَوَّجٌ بِالْمَعَالِي فَوْقَ مَفْرِقِهِ وَفِي الْوَغَى ضَيْغَمٌ فِي صُورَةِ الْقَمَرِ
إِذَا دَجَا الْخَطْبُ جَلَّاهُ بِصَارِمِهِ كَمَا يُجَلِّي زَمَانُ الْمَحْلِ بِالْمَطَرِ

فَتَهَلَّلَ وَجْهُ النُّعْمَانِ سُرُورًا . ثُمَّ أَمَرَ أَنْ يُمْلَأَ فُوهُ دُرًّا وَيُكْسَى

أَثْوابَ الرِّضا (وَهِيَ جِبابٌ أَطْواقُها الذَّهَبُ فِي قُضُبِ الزُّمُرُّدِ). ثُمَّ قالَ: هكَذا فَلْتُمْدَحِ المُلُوكُ (أَلِف باء لأبي الحجّاج البلوي)

٢٢٨ دَخَلَ ابْنُ الخَيّاطِ المَكِّيُّ عَلَى المَهْدِيِّ وَامْتَدَحَهُ فَأَمَرَ لَهُ بِخَمْسِينَ أَلْفَ دِرْهَم. فَسَأَلَهُ أَنْ يَأْذَنَ لَهُ فِي تَقْبِيلِ يَدِهِ فَأَذِنَ فَقَبَّلَها وَخَرَجَ. فَمَا انْتَهى إِلَى البابِ حَتَّى فَرَّقَ المالَ بِأَسْرِهِ. فَعُوتِبَ عَلَى ذلكَ فَاعْتَذَرَ وَأَنْشَدَ يَقُولُ:

لَمَسْتُ بِكَفِّي كَفَّهُ أَبْتَغِي الغِنَى وَلَمْ أَدْرِ أَنَّ الجُودَ مِنْ كَفِّهِ يُعْدِي
فَلا أَنا مِنْهُ ما أَفادَ ذَوُو الغِنَى أَفَدْتُ وَأَعْدانِي فَأَتْلَفْتُ ما عِنْدِي

فَعَجِبَ بِهِما المَهْدِيُّ وَغَنَّى بِهِما وَأَمَرَ لَهُ بِخَمْسِينَ أَلْفَ دِينارٍ

٢٢٩ دَخَلَ أَعْرابِيٌّ عَلَى خالِدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ القَسْرِيِّ فَقالَ:

أَخالِدُ إِنِّي لَمْ أَزُرْكَ لِحاجَةٍ سِوَى أَنَّنِي عافٍ وَأَنْتَ جَوادُ
أَخالِدُ بَيْنَ الحَمْدِ وَالأَجْرِ حاجَتِي فَأَيُّهُما تَأْتِي فَأَنْتَ عِمادُ

فَقالَ لَهُ خالِدٌ: سَلْ حاجَتَكَ. قالَ مِائَةُ أَلْفِ دِرْهَمٍ. قالَ خالِدٌ أَسْرَفْتَ فَاحْطُطْ مِنْها. قالَ: حَطَطْتُكَ أَلْفًا. فَقالَ خالِدٌ: ما أَعْجَبَ ما سَأَلْتَ وَما حَطَطْتَ. فَقالَ: لا يَعْجَبِ الأَمِيرُ. سَأَلْتُهُ عَلَى قَدْرِهِ وَحَطَطْتُهُ عَلَى قَدْرِي. فَضَحِكَ مِنْهُ وَأَمَرَ لَهُ بِصِلَةٍ

٢٣٠ حَبَسَ الحَجّاجُ يَزِيدَ بْنَ المُهَلَّبِ لِباقٍ عَلَيْهِ كانَ بِخُراسانَ. وَأَقْسَمَ لَيَسْتَأْدِيَنَّهُ كُلَّ يَوْمٍ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ. فَبَيْنَما هُوَ قَدْ جَباها لَهُ ذاتَ يَوْمٍ إِذْ دَخَلَ عَلَيْهِ الأَخْطَلُ فَأَنْشَدَهُ:

أَبَا خَالِدٍ ضَاقَتْ خُرَاسَانُ بَعْدَكُمْ ... وَقَالَ ذَوُو ٱلْحَاجَاتِ أَيْنَ يَزِيدُ
وَمَا قَطَرَتْ بِٱلشَّرْقِ بَعْدَكَ قَطْرَةٌ ... وَلَا ٱخْضَرَّ بِٱلْمَرْيَنِ بَعْدَكَ عُودُ
وَمَا لِسَرِيرٍ بَعْدَ بُعْدِكَ بَهْجَةٌ ... وَمَا لِجَوَادٍ بَعْدَ جُودِكَ جُودُ

فَقَالَ: يَا غُلَامُ أَعْطِهِ ٱلْمِائَةَ أَلْفَ دِرْهَمٍ فَإِنَّا نَصْبِرُ عَلَى عَذَابِ ٱلْحَجَّاجِ وَلَا نُخَيِّبُ ٱلْأَخْطَلَ. فَبَلَغَتِ ٱلْحَجَّاجَ فَقَالَ: لِلّٰهِ دَرُّ يَزِيدَ لَوْ كَانَ تَارِكًا لِلسَّخَاءِ يَوْمًا لَتَرَكَهُ ٱلْيَوْمَ وَهُوَ يَتَوَقَّعُ ٱلْمَوْتَ (لليمني)

٢٣١ وَمِنْ رَقِيقِ شِعْرِ ٱبْنِ ٱلْعَبَّاسِ ٱلصَّوْلِيِّ قَوْلُهُ فِي ٱلْمَدِيحِ وَٱلشُّكْرِ:

فَلَوْ كَانَ لِلشُّكْرِ شَخْصٌ يَبِينُ ... إِذَا مَا تَأَمَّلَهُ ٱلنَّاظِرُ
لَمَثَّلْتُهُ لَكَ حَتَّى تَرَاهُ ... فَتَعْلَمَ أَنِّي ٱمْرُؤٌ شَاكِرُ

٢٣٢ كَتَبَ بَدِيعُ ٱلزَّمَانِ لِأَحَدِ ٱلْخُلَفَاءِ:

يَا سَيِّدَ ٱلْأُمَرَا فَخْرًا فَمَا مَلِكٌ ... إِلَّا تَمَنَّاكَ مَوْلًى وَٱشْتَهَاكَ أَبَا
وَكَادَ يَحْكِيكَ صَوْبُ ٱلْغَيْثِ مُنْسَكِبًا ... لَوْ كَانَ طَلْقَ ٱلْمُحَيَّا يُمْطِرُ ٱلذَّهَبَا
وَٱلدَّهْرُ لَوْ لَمْ يَخُنْ وَٱلشَّمْسُ لَوْ نَطَقَتْ ... وَٱللَّيْثُ لَوْ لَمْ يَصُلْ وَٱلْبَحْرُ لَوْ عَذُبَا

٢٣٣ وَلِلْبُحْتُرِيِّ فِي ٱلْمَدِيحِ:

لَا تَنْظُرَنَّ إِلَى ٱلْعَبَّاسِ عَنْ صِغَرٍ ... فِي ٱلسِّنِّ وَٱنْظُرْ إِلَى ٱلْمَجْدِ ٱلَّذِي شَادَا
إِنَّ ٱلنُّجُومَ نُجُومَ ٱلْجَوِّ أَحْقَرُهَا ... فِي ٱلْعَيْنِ أَكْثَرُهَا فِي ٱلْجَوِّ إِصْعَادَا

٢٣٤ قَالَ أَبُو نُوَاسٍ يَمْدَحُ بَنِي حَمْدَانَ:

لَئِنْ خُلِقَ ٱلْأَنَامُ لِحَبِّ كَاسٍ ... وَمِزْمَارٍ وَطُنْبُورٍ وَعُودِ
فَلَمْ يُخْلَقْ بَنُو حَمْدَانَ إِلَّا ... لِبَأْسٍ أَوْ لِمَجْدٍ أَوْ لِجُودِ

الباب الحادي عشر
في الفخر والحماسة والهجو

٢٣٥ كَانَ أَبُو سُفْيَانَ مِنْ أَشْعَرِ قُرَيْشٍ وَهُوَ الْقَائِلُ عَنْ قَبِيلَتِهِ مُفْتَخِرًا:

لَقَدْ عَلِمَتْ قُرَيْشٌ غَيْرَ فَخْرٍ ... بِأَنَّا نَحْنُ أَجْوَدُهُمْ حِصَانَا
وَأَكْثَرُهُمْ دُرُوعًا سَابِغَاتٍ ... وَأَمْضَاهُمْ إِذَا طَعَنُوا سِنَانَا
وَأَدْفَعُهُمْ عَنِ الضَّرَّاءِ عَنْهُمْ ... وَأَبْيَنُهُمْ إِذَا نَطَقُوا لِسَانَا

٢٣٦ • قَالَ السَّيِّدُ عَلِيُّ بْنُ إِسْمَاعِيلَ بْنِ الْقَاسِمِ:

أَنَا مِنْ قَوْمٍ إِذَا مَا غَضِبُوا ... أَطْعَمُوا الْأَرْمَاحَ حَبَّاتِ الْقُلُوبْ
وَهُمُ فِي السِّلْمِ كَالْمَاءِ صَفَا ... لِصَدِيقٍ وَحَمِيمٍ وَقَرِيبْ
فِيهِمِ فَخْرِي وَفِيهِمْ قُدْوَتِي ... وَبِهِمْ نِلْتُ مِنَ الْعُلْيَا نَصِيبْ
وَبِفَضْلِ اللهِ رَبِّي لَمْ أَزَلْ ... فِي مَرَاقِي الْعِزِّ وَالْعَيْشِ الرَّطِيبْ
لَيْسَ لِي إِلَّا الْمَعَالِي أَرَبٌ ... فَعَلَى كَاهِلِهَا صَارَ الرُّكُوبْ
إِنْ دَعَا دَاعٍ إِلَى غَيْرِ الْعُلَا ... لَا تَرَانِي لِدُعَاهُ مِنْ مُجِيبْ

٢٣٧ مَرَّ ابْنُ بَشِيرٍ بِأَبِي عُثْمَانَ الْمَازِنِيِّ فَجَلَسَ إِلَيْهِ سَاعَةً • فَرَأَى مَنْ فِي مَجْلِسِهِ يَتَعَجَّبُونَ مِنْ نَعْلٍ كَانَتْ فِي رِجْلِهِ خَلَقَةٍ فَأَخَذَ وَرَقَةً وَكَتَبَ:

كَمْ أَرَى ذَا تَعَجُّبٍ مِنْ نِعَالِي ... وَرِضَانِي مِنْهَا بِلُبْسِ الْبَوَالِي
مَنْ يُغَالِي مِنَ الرِّجَالِ بِنَعْلٍ ... فَسِوَايَ إِذًا بِهِنَّ يُغَالِي
لَوْ حَذَاهُنَّ لِلْجَمَالِ فَإِنِّي ... فِي سِوَاهُنَّ زِينَتِي وَجَمَالِي

فِي إِخَاءٍ وَفِي وَفَاءٍ وَرَأْيِي ... وَلِسَانِي وَمَنْطِقِي وَفِعَالِي
مَا وَقَانِي ٱلْخَفَا وَبَلَّغَنِي ٱلْحَا ... جَةَ مِنْهَا فَإِنَّنِي لَا أُبَالِي

٢٣٨ قَالَ ٱلْحُرَيْشُ بْنُ هِلَالٍ ٱلْقُرَيْعِيُّ:

نُعَرِّضُ لِلسُّيُوفِ إِذَا ٱلْتَقَيْنَا ... وُجُوهًا لَا تُعَرَّضُ لِلَّطَامِ
وَلَسْتُ بِخَالِعٍ عَنِّي ثِيَابِي ... إِذَا هَرَّ ٱلْكُمَاةُ وَلَا أُرَامِي
وَلٰكِنِّي يَجُولُ ٱلْمُهْرُ تَحْتِي ... إِلَى ٱلْغَارَاتِ بِٱلْعَضْبِ ٱلْحُسَامِ

٢٣٩ قَالَ أَبُو ٱلْحَسَنِ ٱلْمَعْرُوفُ بِجَحْظَةَ ٱلْبَرْمَكِيِّ:

أَنَا ٱبْنُ أُنَاسٍ مَوَّلَ ٱلنَّاسَ جُودُهُمْ ... فَأَضْحَوْا حَدِيثًا لِلنَّوَالِ ٱلْمُشَهَّرِ
فَلَمْ يَخْلُ مِنْ إِحْسَانِهِمْ لَفْظُ مُخْبِرٍ ... فَلَمْ يَخْلُ مِنْ تَقْرِيظِهِمْ بَطْنُ دَفْتَرِ

٢٤٠ قَالَ رَجُلٌ مِنَ ٱلْفَزَارِيِّينَ:

وَإِلَّا يَكُنْ عَظْمِي طَوِيلًا فَإِنَّنِي ... لَهُ بِٱلْخِصَالِ ٱلصَّالِحَاتِ وَصُولُ
وَلَا خَيْرَ فِي حُسْنِ ٱلْجُسُومِ وَنُبْلِهَا ... إِذَا لَمْ تَزِنْ حُسْنَ ٱلْجُسُومِ عُقُولُ
إِذَا كُنْتُ فِي ٱلْقَوْمِ ٱلطِّوَالِ عَلَوْتُهُمْ ... بِعَارِفَةٍ حَتَّى يُقَالَ طَوِيلُ
وَكَمْ قَدْ رَأَيْنَا مِنْ فُرُوعٍ كَثِيرَةٍ ... تَمُوتُ إِذَا لَمْ تُحْيِهِنَّ أُصُولُ
وَلَمْ أَرَ كَٱلْمَعْرُوفِ أَمَّا مَذَاقُهُ ... فَحُلْوٌ وَأَمَّا وَجْهُهُ فَجَمِيلُ

٢٤١ قَالَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ:

فَلَوْ أَنَّ مَا أَسْعَى لِأَدْنَى مَعِيشَةٍ ... كَفَانِي وَلَمْ أَطْلُبْ قَلِيلًا مِنَ ٱلْمَالِ
وَلٰكِنَّمَا أَسْعَى لِمَجْدٍ مُؤَثَّلٍ ... وَقَدْ يُدْرِكُ ٱلْمَجْدَ ٱلْمُؤَثَّلَ أَمْثَالِي

٢٤٢ قَالَ حَاتِمُ ٱلطَّائِيُّ:

أيا ٱبْنَةَ عَبْدِ ٱللهِ وَٱبْنَةَ مَالِكٍ وَيَا ٱبْنَةَ ذِي ٱلْبُرْدَيْنِ وَٱلْفَرَسِ ٱلْوَرْدِ
إذَا مَا صَنَعْتِ ٱلزَّادَ فَٱلْتَمِسِي لَهُ أَكِيلًا فَإِنِّي لَسْتُ آكِلَهُ وَحْدِي
أَخًا طَارِقًا أَوْ جَارَ بَيْتٍ فَإِنَّنِي أَخَافُ مَذَمَّاتِ ٱلْأَحَادِيثِ مِنْ بَعْدِي
وَإِنِّي لَعَبْدُ ٱلضَّيْفِ مَا دَامَ ثَاوِيًا وَمَا فِيَّ إِلَّا تِلْكَ مِنْ شِيمَةِ ٱلْعَبْدِ

٢٤٣ قَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ:

أَصُونُ عِرْضِي بِمَالِي لَا أُدَنِّسُهُ لَا بَارَكَ ٱللهُ بَعْدَ ٱلْعِرْضِ فِي ٱلْمَالِ
أَحْتَالُ لِلْمَالِ إِنْ أَوْدَى فَأَجْمَعُهُ وَلَسْتُ لِلْعِرْضِ إِنْ أَوْدَى بِمُحْتَالِ

٢٤٤ قَالَ أَبُو دُلَفَ ٱلْعِجْلِيُّ:

أَجُودُ بِنَفْسِي دُونَ قَوْمِي دَافِعًا لِمَا نَابَهُمْ قِدْمًا وَأَغْشَى ٱلدَّوَاهِيَا
وَأَقْتَحِمُ ٱلْأَمْرَ ٱلْمَخُوفَ ٱقْتِحَامُهُ لِأُدْرِكَ مَجْدًا أَوْ أُعَاوِدَ ثَاوِيَا

(الاغاني والحماسة)

الهجو

٢٤٥ قَالَ أَبُو نُوَاسٍ فِي بَخِيلٍ:

سِيَّانِ كَسْرُ رَغِيفِهِ أَوْ كَسْرُ عَظْمٍ مِنْ عِظَامِهْ
فَٱرْفُقْ بِكَسْرِ رَغِيفِهِ إِنْ كُنْتَ تَرْغَبُ فِي كَلَامِهْ
وَتَرَاهُ مِنْ خَوْفِ ٱلنُّزُو لِ بِهِ يُرَوَّعُ فِي مَنَامِهْ

وَقَالَ أَيْضًا:

خَانَ عَهْدِي عَمْرٌو وَمَا خُنْتُ عَهْدَهْ وَجَفَانِي وَمَا تَغَيَّرْتُ بَعْدَهْ
لَيْسَ لِي مُذْ حَيِيتُ ذَنْبٌ إِلَيْهِ غَيْرَ أَنِّي يَوْمًا تَغَدَّيْتُ عِنْدَهْ

وَلَهُ أَيْضاً:

أَبُو جَعْفَرٍ رَجُلٌ عَالِمٌ ... بِمَا يُصْلِحُ ٱلْمَعِدَةَ ٱلْفَاسِدَهْ
تَخَوَّفَ تُخْمَةَ أَضْيَافِهِ ... فَعَوَّدَهَا أَكْلَةً وَاحِدَهْ

٢٤٦ قَالَ ٱلْخُوَارَزْمِيُّ فِي طَبِيبٍ:

أَبُو سَعِيدٍ رَاحِلٌ لِلْكِرَامْ ... وَمِنْسَفٌ يَنْسِفُ عُمْرَ ٱلْأَنَامْ
لَمْ أَرَهُ إِلَّا خَشِيتُ ٱلرَّدَى ... وَقُلْتُ يَا رُوحِي عَلَيْكِ ٱلسَّلَامْ
يَبْقَى وَيَفْنَى ٱلنَّاسُ مِنْ شُؤْمِهِ ... قُومُوا ٱنْظُرُوا كَيْفَ نَجَاةُ ٱلْتَّامْ
ثُمَّ تَرَاهُ آمِناً سَالِماً ... يَا مَلَكَ ٱلْمَوْتِ إِلَى كَمْ تَنَامْ

٢٤٧ يُحْكَى أَنَّ ٱلْوَزِيرَ أَبَا عَلِيٍّ ٱلْخَاقَانِيَّ كَانَ ضَجُوراً كَثِيرَ ٱلتَّقَلُّبِ. فَكَانَ يُوَلِّي ٱلْعَمَلَ ٱلْوَاحِدَ عِدَّةً مِنَ ٱلْعُمَّالِ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْقَلِيلَةِ. حَتَّى إِنَّهُ وَلَّى ٱلْكُوفَةَ فِي عِشْرِينَ يَوْماً سَبْعَةً مِنَ ٱلْعُمَّالِ. فَقِيلَ فِيهِ:

وَزِيرٌ قَدْ تَكَامَلَ فِي ٱلرَّقَاعَهْ ... يُوَلِّي ثُمَّ يَعْزِلُ بَعْدَ سَاعَهْ
إِذَا أَهْلُ ٱلرُّشَى ٱجْتَمَعُوا عَلَيْهِ ... فَخَيْرُ ٱلْقَوْمِ أَوْفَرُهُمْ بِضَاعَهْ

٢٤٨ قَالَ بَعْضُهُمْ يَهْجُو بَخِيلًا:

رَأَى ٱلصَّيْفَ مَكْتُوباً عَلَى بَابِ دَارِهِ ... فَصَحَّفَهُ ضَيْفاً فَقَامَ إِلَى ٱلسَّيْفِ
وَقُلْنَا لَهُ خَيْراً فَظَنَّ بِأَنَّنَا ... نَقُولُ لَهُ خُبْزاً فَمَاتَ مِنَ ٱلْخَوْفِ

٢٤٩ هَجَا آخَرُ طَبِيباً فَقَالَ:

قَالَ حِمَارُ ٱلطَّبِيبِ مُوسَى ... لَوْ أَنْصَفُونِي لَكُنْتُ أَرْكَبْ
لِأَنَّنِي جَاهِلٌ بَسِيطٌ ... وَرَاكِبِي جَاهِلٌ مُرَكَّبْ

٢٥٠ قَالَ ٱبْنُ عَبْدِ رَبِّهِ يَهْجُو رَجُلًا جَبَانًا :

إِذَا صَوَّتَ ٱلْعُصْفُورُ طَارَ فُؤَادُهُ وَلَيْثٌ حَدِيدُ ٱلنَّابِ عِنْدَ ٱلثَّرَائِدِ

قَالَ آخَرُ :

لَوْ أَنَّ خِفَّةَ عَقْلِهِ فِي رِجْلِهِ سَبَقَ ٱلْغَزَالَ وَلَمْ يَفُتْهُ ٱلْأَرْنَبُ

٢٥١ قَالَ بَعْضُهُمْ يَهْجُو ٱلْمُبَرِّدَ مُحَمَّدَ بْنَ يَزِيدَ ٱلنَّحْوِيَّ :

سَأَلْنَا عَنْ ثُمَالَةَ كُلَّ حَيٍّ فَقَالَ ٱلْقَائِلُونَ وَمَنْ ثُمَالَهْ

فَقُلْتُ مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدَ مِنْهُمْ فَقَالُوا ٱلْآنَ زِدْتَ بِهِمْ جَهَالَهْ

٢٥٢ قَالَ غَيْرُهُ :

يَا قَبَّحَ ٱللّٰهُ أَقْوَامًا إِذَا ذُكِرُوا بَنِي عُمَيْرَةَ رَهْطَ ٱللُّؤْمِ وَٱلْعَارِ

قَوْمٌ إِذَا خَرَجُوا مِنْ سَوْءَةٍ وَلَجُوا فِي سَوْءَةٍ لَمْ يُجِنُّوهَا بِأَسْتَارِ

٢٥٣ قَالَتْ كَنْزَةُ أُمُّ شَمْلَةَ ٱلْمِنْقَرِيِّ فِي مَيَّةَ صَاحِبَةِ ذِي ٱلرُّمَّةِ :

أَلَا حَبَّذَا أَهْلُ ٱلْمَلَا غَيْرَ أَنَّهُ إِذَا ذُكِرَتْ مَيٌّ فَلَا حَبَّذَا هِيَا

عَلَى وَجْهِ مَيٍّ مَسْحَةٌ مِنْ مَلَاحَةٍ وَفِي ٱلْقَلْبِ مِنْهَا ٱلْخِزْيُ لَوْ كَانَ بَادِيَا

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْمَاءَ يَخْلُفُ طَعْمُهُ وَإِنْ كَانَ لَوْنُ ٱلْمَاءِ أَبْيَضَ صَافِيَا

إِذَا مَا أَتَاهُ وَارِدٌ مِنْ ضَرُورَةٍ تَوَلَّى بِأَضْعَافِ ٱلَّذِي جَاءَ ظَامِيَا

٢٥٤ قِيلَ : إِنَّهُ ٱفْتَخَرَ رَجُلٌ عَلَى ٱبْنِ ٱلدَّهَّانِ ٱلشَّاعِرِ فَأَجَابَهُ :

لَا تَحْسَبَنْ أَنَّ بِٱلشِّعْرِ مِثْلَنَا سَتَصِيرُ

فَلِلدَّجَاجَةِ رِيشٌ لٰكِنَّهَا لَا تَطِيرُ

ابن كلدة عند كسرى

٢٥٥ وفدَ ابنُ كَلَدَةَ الثقفيُّ على كِسْرَى فانتصب بين يديه. فقال له كِسْرَى: مَنْ أنتَ. قال: أنا الحارِثُ بنُ كَلَدَةَ. قال: أعرابيٌّ أنتَ. قال: نعم ومن صَميمِها. قال: فما صِناعَتُكَ. قال: طَبِيبٌ. قال: وما تصنعُ العَرَبُ بالطَّبيبِ مع جهلِها وضَعْفِ عُقولِها وقِلَّةِ قَبولِها وسُوءِ غِذائِها. فقال: ذلك أجدَرُ أيُّها المَلِكُ إذا كانت بهذه الصِفَةِ أن تحتاجَ إلى ما يُصلِحُ جهلَها ويُقيمُ عِوَجَها. ويَسوسُ أبدانَها. ويَعدِلُ أسنادَها. قال المَلِكُ: كيف لها بأنْ تعرِفَ ما تعهدُهُ عليها. لو عرفتِ الحقَّ لم تُنسَبْ إلى الجهلِ. قال الحارثُ: أيُّها المَلِكُ إنَّ اللهَ جلَّ اسمُهُ قسمَ العقولَ بين العبادِ كما قسمَ الأرزاقَ وأخذَ القومُ نَصيبَهُمْ. ففيهم ما في الناسِ من جاهلٍ وعالمٍ وعاجزٍ وحازمٍ. قال المَلِكُ: فما الذي تجدُ في أخلاقِهِمْ. وتحفظُ من مذاهبِهِمْ. قال الحارثُ: لهم أنفُسٌ سخيَّةٌ. وقلوبٌ جريَّةٌ. وعقولٌ صحيحةٌ مرضيَّةٌ. وأحسابٌ نقيَّةٌ. فيمرُقُ الكلامُ من أفواهِهِمْ مُروقَ السهمِ من الوترِ. ألينَ من الماءِ. وأعذبَ من الهواءِ. يُطعِمونَ الطَّعامَ. ويضربونَ الهامَ. وعِزُّهُمْ لا يُرامُ. وجارُهُمْ لا يُضامُ. ولا يُروَّعُ إذا نامَ. لا يُقِرُّونَ بفضلِ أحدٍ من الأقوامِ. ما خلا المَلِكَ الهُمامَ الذي لا يُقاسُ بهِ أحدٌ من الأنامِ. قال كِسْرَى: للهِ دَرُّكَ من عربيٍّ لقد أصبتَ عِلمًا وخُصِصتَ بهِ من بينِ الحمقِ فِطنَةً وفهمًا. ثمَّ أمرَ بإعطائِهِ وصِلَتِهِ وقضى حوائجَهُ (لابن عبد ربه)

الباب الثاني عشر
في الألغاز

٢٥٦ قد ألغز بعضهم في القلم:

وأرقش مرهوف الشباة مهفهف يشتت شمل الخطب وهو جميع
تدين له الآفاق شرقاً ومغرباً وتعنو له ملاكها وتطيع
حمى الملك مفطوماً كما كان تحتمي به الأسد في الآجام وهو رضيع

٢٥٧ وقال آخر فيه:

وذي خضوع راكع ساجد ودمعه من جفنه جاري
مواظب الخمس لأوقاتها منقطع في خدمة الباري

٢٥٨ وقال غيره فيه:

فلا هو يمشي لا ولا هو مقعد وما إن له رأس ولا كف لامس
ولا هو حي لا ولا هو ميت ولكنه شخص يرى في المجالس
يزيد على سم الأفاعي لعابه يدب دبيباً في الدجى والحنادس
يفرق أوصالا بصمت يجنه وتفرى به الأوداج تحت القلانس
إذا ما رأته العين تحقر شأنه وهيهات يبدو النفس عند الكرادس

٢٥٩ وقيل أيضاً فيه:

وأهيف مذبوح على صدر غيره يترجم عن ذي منطق وهو أبكم
تراه قصيراً كلما طال عمره ويضحي بليغاً وهو لا يتكلم

وجاء أيضاً فيه:

بَصِيرٌ بِمَا يُوحَى إِلَيْـهِ وَمَا لَهُ لِسَـانٌ وَلَا قَلْبٌ وَلَا هُوَ سَامِعُ
كَأَنَّ ضَمِيرَ ٱلْقَلْبِ بَاحَ بِسِرِّهِ إِلَيْهِ إِذَا مَا حَرَّكَتْهُ ٱلْأَصَابِعُ

٢٦٠ وجاء أيضاً في معناه:

وَأَخْرَسَ يَنْطِقُ بِٱلْمُحْكَمَاتِ وَجُثْمَانُـهُ صَامِتٌ أَجْوَفُ
بِمَكَّةَ يَنْطِقُ فِي خُفْيَـةٍ وَبِٱلشَّامِ مَنْطِقُـهُ يُعْرَفُ

٢٦١ قال آخر مُلغِزاً في دواة:

وَمُرْضِعَـةٍ أَوْلَادَهَا بَعْدَ ذَبْحِهِمْ لَهَا لَبَنٌ مَا لَذَّ يَوْمًا لِشَارِبِ
وَفِي بَطْنِهَا ٱلسِّكِّينُ وَٱلثَّدْيُ رَأْسُهَا وَأَوْلَادُهَا مَذْخُورَةٌ لِلنَّوَائِبِ

٢٦٢ وألغز أبو الحسن بن التلميذ الطيِّب النصراني في الميزان:

مَا وَاحِدٌ مُخْتَلِفُ ٱلْأَسْمَاءِ يَعْدِلُ فِي ٱلْأَرْضِ وَفِي ٱلسَّمَاءِ
يَحْكُمُ بِٱلْقِسْطِ بِلَا رِيَاءِ أَعْمَى يُرِي ٱلْإِرْشَادَ كُلَّ رَاءِ
أَخْرَسُ لَا مِنْ عِلَّةٍ وَدَاءِ يُغْنِي عَنِ ٱلتَّصْرِيحِ بِٱلْإِيمَاءِ
يُجِيبُ إِنْ نَادَاهُ ذُو ٱمْتِرَاءِ بِٱلرَّفْعِ وَٱلْخَفْضِ عَنِ ٱلنِّدَاءِ
يُفْصِحُ إِنْ عُلِّقَ فِي ٱلْهَوَاءِ

٢٦٣ قال آخر في البيضة:

أَلَا قُلْ لِأَهْلِ ٱلرَّأْيِ وَٱلْعِلْمِ وَٱلْأَدَبْ وَكُلِّ بَصِيرٍ بِٱلْأُمُورِ لَدَى أَرَبْ
أَلَا خَبِّرُونِي أَيَّ شَيْءٍ رَأَيْتُمُ مِنَ ٱلطَّيْرِ فِي أَرْضِ ٱلْأَعَاجِمِ وَٱلْعَرَبْ
قَدِيمٌ حَدِيثٌ قَدْ بَدَا وَهُوَ حَاضِرٌ يُصَادُ بِلَا صَيْدٍ وَإِنْ جَدَّ فِي ٱلطَّلَبْ

وَيُؤْكَلُ أَحيَانًا طَبِيخًا وَتَارَةً قَلِيًّا وَمَشْوِيًّا إِذَا دُسَّ فِي ٱللَّهَبْ
وَلَيْسَ لَهُ لَحْمٌ وَلَيْسَ لَهُ دَمٌ وَلَيْسَ لَهُ عَظْمٌ وَلَيْسَ لَهُ عَصَبْ
وَلَيْسَ لَهُ رِجْلٌ وَلَيْسَ لَهُ يَدٌ وَلَيْسَ لَهُ رَأْسٌ وَلَيْسَ لَهُ ذَنَبْ
وَلَا هُوَ حَيٌّ لَا وَلَا هُوَ مَيِّتٌ أَلَا خَبِّرُونِي إِنَّ هٰذَا هُوَ ٱلْعَجَبْ

٢٦٤ أَلْغَزَ أَبُو مُحَمَّدِ بْنُ ٱلْخَشَّابِ ٱلْبَغْدَادِيُّ فِي كِتَابٍ:

وَذِي أَوْجُهٍ لٰكِنَّهُ غَيْرُ بَائِحٍ بِسِرٍّ وَذُو ٱلْوَجْهَيْنِ لِلسِّرِّ مُظْهِرُ
تُنَاجِيكَ بِٱلْأَسْرَارِ أَسْرَارُ وَجْهِهِ فَتَسْمَعُهَا بِٱلْعَيْنِ مَا دُمْتَ تَنْظُرُ

٢٦٥ قُلِعَ لِأُسَامَةَ بْنِ ٱلْمُنْقِذِ ضِرْسٌ فَقَالَ فِيهِ مُلْغِزًا:

وَصَاحِبٍ لَا أَمَلُّ ٱلدَّهْرَ صُحْبَتَهُ يَشْقَى لِنَفْعِي وَيَسْعَى سَعْيَ مُجْتَهِدِ
لَمْ أَلْقَهُ مُذْ تَصَاحَبْنَا فَحِينَ بَدَا لِنَاظِرَيَّ ٱفْتَرَقْنَا فُرْقَةَ ٱلْأَبَدِ

٢٦٦ أَلْغَزَ ٱبْنُ زَكَرِيَّاءَ بْنِ سَلَامَةَ ٱلْحَصْكَفِيُّ فِي نَعْشِ ٱلْمَوْتَى:

أَتَعْرِفُ شَيْئًا فِي ٱلسَّمَاءِ نَظِيرُهُ إِذَا سَارَ صَاحَ ٱلنَّاسُ حَيْثُ يَسِيرُ
فَتَلْقَاهُ مَرْكُوبًا وَتَلْقَاهُ رَاكِبًا وَكُلُّ أَمِيرٍ يَعْتَلِيهِ أَسِيرُ
يَحُضُّ عَلَى ٱلتَّقْوَى وَيُكْرَهُ قُرْبُهُ وَتَنْفُرُ مِنْهُ ٱلنَّفْسُ وَهْوَ نَذِيرُ
وَلَمْ يُسْتَزَرْ عَنْ رَغْبَةٍ فِي زِيَارَةٍ وَلٰكِنْ عَلَى رَغْمِ ٱلْمَزُورِ يَزُورُ

٢٦٧ وَقَدْ أَحْسَنَ ٱلصَّاحِبُ بَهَاءُ ٱلدِّينِ زُهَيْرٌ وَزِيرُ ٱلْمَلِكِ ٱلصَّالِحِ مُلْغِزًا فِي قُفْلٍ:

وَأَسْوَدَ عَارٍ أَنْحَلَ ٱلْبَرْدُ جِسْمَهُ وَمَا زَالَ مِنْ أَوْصَافِهِ ٱلْحِرْصُ وَٱلْمَنْعُ
وَأَعْجَبُ شَيْءٍ كَوْنُهُ ٱلدَّهْرَ حَارِسًا وَلَيْسَ لَهُ عَيْنٌ وَلَيْسَ لَهُ سَمْعُ

٢٦٨ لُغزٌ في طاحونة:

وَمُسْرِعَةٍ فِي سَيْرِهَا طُولَ دَهْرِهَا تَرَاهَا مَدَى ٱلْأَيَّامِ تَمْشِي وَلَا تَتْعَبْ
وَفِي سَيْرِهَا مَا تَقْطَعُ ٱلْأَكْلَ سَاعَةً وَتَأْكُلُ مَعْ طُولِ ٱلْمَدَى وَهْيَ لَا تَشْرَبْ
وَمَا قَطَعَتْ فِي ٱلسَّيْرِ خَمْسَةَ أَذْرُعٍ وَلَا ثُلْثَ ثُمْنٍ مِنْ ذِرَاعٍ وَلَا أَقْرَبْ

٢٦٩ قَالَ بَعْضُهُمْ فِي حِذَاءٍ:

مَطِيَّةٌ فَارِسُهَا رَاجِلٌ تَحْمِلُهُ وَهْوَ لَهَا حَامِلُ
وَاقِفَةٌ فِي ٱلْبَابِ مَرْذُولَةٌ لَا تَشْرَبُ ٱلدَّهْرَ وَلَا تَأْكُلُ

٢٧٠ قَالَ غَيْرُهُ فِي ٱلْمَوْزِ:

مَا ٱسْمُ شَيْءٍ حَسَنٍ شَكْلُهُ تَلْقَاهُ عِنْدَ ٱلنَّاسِ مَوْزُونَا
تَرَاهُ مَعْدُودًا فَإِنْ زِدْتَهُ وَاوًا وَنُونًا صَارَ مَوْزُونَا

٢٧١ قَالَ آخَرُ فِي ٱلنَّارِ:

أَيُّ صَغِيرٍ يَنْمُو عَلَى عَجَلٍ يَعِيشُ بِٱلرِّيحِ وَهْيَ تُهْلِكُهُ
يَغْلِبُ أَقْوَى جِسْمٍ وَيَغْلِبُهُ أَضْعَفُ جِسْمٍ بِحَيْثُ يُدْرِكُهُ

٢٧٢ أَلْغَزَ آخَرُ فِي يَدِ ٱلْهَاوَنِ:

خَبِّرْنِي أَيُّ شَيْءٍ أَوْسَعُ مَا فِيهِ فَمُهْ
وَٱبْنُهُ فِي بَطْنِهِ يَرْفُسُهُ وَيَلْكُمُهْ
وَقَدْ عَلَا صِيَاحُهُ وَلَمْ يَجِدْ مَنْ يَرْحَمُهْ

٢٧٣ وَقَالَ آخَرُ فِي ٱلْإِبْرَةِ:

وَذَاتِ ذَوَائِبٍ تَنْجَرُّ طُولًا وَرَاهَا فِي ٱلْمَجِيءِ وَفِي ٱلذَّهَابِ

بِعَينٍ لَمْ تَذُقْ لِلنَّومِ طَعْماً وَلَا ذَرَفَتْ لِدَمْعٍ ذِي ٱنْسِكَابِ
وَمَا لَبِسَتْ مَدَى ٱلْأَيَّامِ ثَوْباً وَتَكْسُو ٱلنَّاسَ أَنْوَاعَ ٱلثِّيَابِ

٢٧٤ أَلْغَزَ ٱلصَّلَاحُ ٱلصَّفَدِيُّ فِي عِيدٍ:

يَا كَاتِباً بِفَضْلِهِ كُلُّ أَدِيبٍ يَشْهَدُ
مَا ٱسْمُ عَلِيلٍ قَلْبُهُ وَفَضْلُهُ لَا يُجْحَدُ
لَيْسَ بِذِي جِسْمٍ يُرَى وَفِيهِ عَيْنٌ وَيَدُ

٢٧٥ قَالَ آخَرُ فِي غَزَالٍ:

إِسْمُ مَنْ هَاجَ خَاطِرِي أَرْبَعٌ فِي صُنُوفِهِ
فَإِذَا زَالَ رُبْعُهُ زَالَ بَاقِي حُرُوفِهِ

٢٧٦ قَالَ آخَرُ فِي ٱلْمَاءِ:

يُمِيتُ وَيُحْيِي وَهْوَ مَيْتٌ بِنَفْسِهِ وَيَمْشِي بِلَا رِجْلٍ إِلَى كُلِّ جَانِبِ
يُرَى فِي حَضِيضِ ٱلْأَرْضِ طَوْراً وَتَارَةً تَرَاهُ تَسَامَى فَوْقَ طَوْرِ ٱلسَّحَائِبِ

٢٧٧ قَالَ آخَرُ فِي مِصْرَاعِ ٱلْبَابِ:

عَجِبْتُ لِمَحْرُومَيْنِ مِنْ كُلِّ لَذَّةٍ يَبِيتَانِ طُولَ ٱللَّيْلِ يَعْتَنِقَانِ
إِذَا أَمْسَيَا كَانَا عَلَى ٱلنَّاسِ مَرْصَداً وَعِنْدَ طُلُوعِ ٱلْفَجْرِ يَفْتَرِقَانِ

٢٧٨ قَالَ غَيْرُهُ فِي نَارٍ:

وَمَا ٱسْمٌ ثُلَاثِيٌّ لَهُ ٱلنَّفْعُ وَٱلضَّرَرْ لَهُ طَلْعَةٌ تُغْنِي عَنِ ٱلشَّمْسِ وَٱلْقَمَرْ
وَلَيْسَ لَهُ وَجْهٌ وَلَيْسَ لَهُ قَفاً وَلَيْسَ لَهُ سَمْعٌ وَلَيْسَ لَهُ بَصَرْ

الباب الثالث عشر
في الوصف

٢٧٩ وَصَفَ ٱلْيُوسُفِيُّ غُلَامًا فَقَالَ: يَعْرِفُ ٱلْمُرَادَ بِٱللَّحْظِ. كَمَا يَفْهَمُهُ بِٱللَّفْظِ. وَيُعَايِنُ فِي ٱلنَّاظِرِ. مَا يَجْرِي فِي ٱلْخَاطِرِ. يَرَى ٱلنُّصْحَ فَرْضًا يَجِبُ أَدَاؤُهُ. وَٱلْإِحْسَانَ حَتْمًا يَلْزَمُ قَضَاؤُهُ. إِنِ ٱسْتَفْرَغَ فِي ٱلْخِدْمَةِ جُهْدَهُ. خُيِّلَ إِلَيْـهِ أَنَّهُ بَذَلَ عَفْوَهُ. أَثْبَتُ مِنَ ٱلْجِدَارِ إِذَا ٱسْتُمْهِلَ. وَأَسْرَعُ مِنَ ٱلْبَرْقِ إِذَا ٱسْتُعْجِلَ (للثعالبي)

٢٨٠ تَظَلَّمَ رَجُلٌ لِلْمَأْمُونِ مِنْ عَامِلٍ لَهُ فَقَالَ لَهُ: يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَا تَرَكَ لَنَا فِضَّةً إِلَّا فَضَّهَا. وَلَا ذَهَبًا إِلَّا ذَهَبَ بِهِ. وَلَا مَاشِيَةً إِلَّا مَشَى بِهَا. وَلَا غَلَّةً إِلَّا غَلَّهَا. وَلَا ضَيْعَةً إِلَّا أَضَاعَهَا. وَلَا عَقْلًا إِلَّا عَقَلَهُ. وَلَا عَرَضًا إِلَّا عَرَضَ لَهُ. وَلَا جَلِيلًا إِلَّا أَجَلَّهُ. وَلَا دَقِيقًا إِلَّا أَدَقَّهُ. فَعَجِبَ ٱلْمَأْمُونُ مِنْ فَصَاحَتِهِ وَقَضَى حَاجَتَهُ (للشريشي)

٢٨١ حَدَّثَ ٱبْنُ ٱلْأَعْرَابِيِّ قَالَ: أَجْرَى هَارُونُ ٱلرَّشِيدُ ٱلْخَيْلَ فَجَاءَ فَرَسٌ يُقَالُ لَهُ ٱلْمُشَمِّرُ سَابِقًا. وَكَانَ ٱلرَّشِيدُ مُعْجَبًا بِذٰلِكَ ٱلْفَرَسِ. فَأَمَرَ ٱلشُّعَرَاءَ أَنْ يَقُولُوا فِيهِ. فَبَدَرَهُمْ أَبُو ٱلْعَتَاهِيَةِ فَقَالَ:

جَاءَ ٱلْمُشَمِّرُ وَٱلْأَفْرَاسُ يَقْدُمُهَا ... هَوْنًا عَلَى رِسْلِهِ مِنْهَا وَمَا ٱنْبَهَرَا
وَخَلَّفَ ٱلرِّيحَ حَسْرَى وَهْيَ جَاهِدَةٌ ... وَمَرَّ يَخْتَطِفُ ٱلْأَبْصَارَ وَٱلنَّظَرَا

فَأَجْزَلَ صِلَتَهُ وَمَا جَسَرَ أَحَدٌ أَنْ يُجِيزَ أَبَا ٱلْعَتَاهِيَةِ (الاغاني)

٢٨٢ لَقِيَ ٱلْحَجَّاجُ أَعْرَابِيًّا فَقَالَ لَهُ: مَا بِيَدِكَ. فَقَالَ: عَصَايَ أَرْكُزُهَا لِصَلَاتِي. وَأُعِدُّهَا لِعُدَاتِي. وَأَسُوقُ بِهَا دَابَّتِي. وَأَقْوَى بِهَا عَلَى سَفَرِي. وَأَعْتَمِدُ عَلَيْهَا فِي مِشْيَتِي لِيَتَّسِعَ خَطْوِي. وَأَثِبُ بِهَا عَلَى ٱلنَّهْرِ. وَتُؤْمِنُنِي ٱلْعَثْرَ. وَأُلْقِي عَلَيْهَا كِسَائِي. فَيَقِينِي ٱلْحَرَّ. وَيُجَنِّبُنِي ٱلْقَرَّ. وَتُدْنِي إِلَيَّ مَا بَعُدَ عَنِّي. وَهِيَ تَحْمِلُ سُفْرَتِي. وَعِلَاقَةُ أَدَوَاتِي. أَقْرَعُ بِهَا ٱلْأَبْوَابَ. وَأَتَّقِي بِهَا عَقُورَ ٱلْكِلَابِ. وَتَنُوبُ عَنِ ٱلرُّمْحِ ٱلطَّعَّانِ. وَعَنِ ٱلسَّيْفِ عِنْدَ مُنَازَلَةِ ٱلْأَقْرَانِ. وَرِثْتُهَا عَنْ أَبِي وَسَأُورِثُهَا ٱبْنِي مِنْ بَعْدِي. وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي. وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى. فَبُهِتَ ٱلْحَجَّاجُ وَٱنْصَرَفَ (لبهاء الدين)

٢٨٣ ذَمَّ أَعْرَابِيٌّ رَجُلًا فَقَالَ: إِنْ سَأَلَ أَلْحَفَ. وَإِنْ سُئِلَ سَوَّفَ. وَإِنْ حَدَّثَ حَلَفَ. وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ. وَإِذَا صَنَعَ أَتْلَفَ. وَإِذَا طَبَخَ أَقْرَفَ. وَإِذَا سَامَرَ نَتَّفَ. وَإِذَا نَامَ خَوَّفَ. وَإِذَا هَمَّ بِٱلْفِعْلِ ٱلْجَمِيلِ تَوَقَّفَ. يَنْظُرُ نَظَرَ ٱلْحَسُودِ. وَيُعْرِضُ إِعْرَاضَ ٱلْحَقُودِ. بَيْنَمَا هُوَ خِلٌّ وَدُودٌ. إِذَا هُوَ خَلٌّ وَدُودٌ. فَنَاؤُهُ شَاسِعٌ. وَضَيْفُهُ جَائِعٌ. وَشَرُّهُ شَائِعٌ. وَسِرُّهُ ذَائِعٌ. وَلَوْنُهُ فَاقِعٌ. وَجَفْنُهُ دَامِعٌ. وَدِيَارُهُ بَلَاقِعُ. رَدِيءُ ٱلْمَنْظَرِ. سَيِّءُ ٱلْمَخْبَرِ. يَبْخَلُ إِذَا أَيْسَرَ. وَيَهْلَعُ إِذَا أَعْسَرَ. وَيَكْذِبُ إِذَا أَخْبَرَ. وَيَكْفُرُ إِذَا كَبَّرَ. إِنْ عَاهَدَ غَدَرَ. وَإِنْ خَاصَمَ فَجَرَ. وَإِنْ حَمَلَ أَوْقَرَ. وَإِنْ خُوطِبَ نَفَرَ

٢٨٤ سُئِلَ سُنَاقِدِسُ عَنِ ٱلْمَرْكَبِ فَكَتَبَ: بَيْتٌ بِلَا أَسَاسٍ. قَبْرٌ مُؤَلَّفٌ.

وَسُئِلَ عن ٱللهِ سُبْحَانَهُ فكتب: معقول مجهول. واحِدٌ لا نَظِيرَ له مطلوبٌ غير مُدْرَكٍ سُبْحَانَهُ لا إله إلَّا هو. وَسُئِلَ عن ٱلْمَوْتِ فَكَتَبَ: نَوْمٌ لا ٱنْتِبَاهَ معه. رَاحَةُ ٱلْمَرْضَى. نَقِيضُ ٱلْبِنْيَةِ. ٱنْفِصَالُ ٱلِٱتِّصَالِ. ٱلرُّجُوعُ إِلَى ٱلْعُنْصُرِ. شَهْوَةُ ٱلْفُقَرَاءِ. فَزَعُ ٱلْأَغْنِيَاءِ. سَفَرُ ٱلْبَدَنِ. فِقْدَانُ ٱلْإِخْوَانِ. وَسُئِلَ عن ٱلْهَرَمِ فَكَتَبَ: شَرٌّ يُتَمَنَّى. مَرَضُ ٱلْأَصِحَّاءِ. مَوْتُ ٱلْحَيَاةِ. صَاحِبُهُ مَيْتٌ يَتَحَرَّكُ. وَسُئِلَ عن ٱلْمَالِ فَكَتَبَ: خَادِمُ ٱلشَّهَوَاتِ. هَمٌّ فِي كُلِّ يَوْمٍ. شَرٌّ مَحْبُوبٌ. وَسُئِلَ عن ٱلْحُسْنِ فَكَتَبَ: تَصْوِيرٌ طَبِيعِيٌّ. زَهْرَةٌ تَذْبُلُ. وَسُئِلَ عن ٱلشَّمْسِ فَكَتَبَ: عَيْنُ ٱلْفَلَكِ ٱلنَّهَارِيِّ. عِلَّةُ ٱلْعَوْرَاتِ. وَسَبَبُ ٱلثَّمَرَاتِ. وَعَنِ ٱلْقَمَرِ فَكَتَبَ: عَقِيبُ ٱلشَّمْسِ. سِرَاجٌ لَيْلِيٌّ. وَسُئِلَ عن ٱلْإِنْسَانِ فَكَتَبَ: مَلْعَبَةُ ٱلْبَخْتِ. مَطْلُوبُ ٱلسِّنِينَ. أُمْنِيَّةُ ٱلْأَرْضِ. وَسُئِلَ عن ٱلْأَرْضِ فَكَتَبَ: قَاعِدَةُ ٱلْفَلَكِ. (على زعم الاقدمين) أَصْلٌ ثَابِتٌ فِي ٱلْهَوَاءِ. أُمُّ ٱلثَّمَرَاتِ. وَسُئِلَ عن ٱلْفَلَّاحِ فَكَتَبَ: خَادِمُ ٱلْغِذَاءِ. وَسُئِلَ عن ٱلْأَعْدَاءِ فَكَتَبَ:

إِنِّي بُلِيتُ بِأَرْبَعٍ لَمْ يُخْلَقُوا إِلَّا لِشِدَّةِ شِقْوَتِي وَعَنَانِي
إِبْلِيسُ وَٱلدُّنْيَا وَنَفْسِي وَٱلْهَوَى كَيْفَ ٱلْخَلَاصُ وَكُلُّهُمْ أَعْدَانِي

٢٨٥ وَصَفَ ٱلْكَاتِبُ مَحْمُودٌ كَاتِبًا فَقَالَ: وَهٰذَا فُلَانٌ آتَاهُ ٱللهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ. وَمَكَّنَهُ مِنْ أَزِمَّةِ جِيَادِ ٱلْمَعَانِي. فَهِيَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ. وَمَنَحَهُ فَضِيلَتَيِ ٱلْعِلْمِ وَٱلْعَمَلِ. فَإِذَا كَتَبَ

أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ (الكنز المدفون)

٢٨٦ وَقَدْ أَحْسَنَ ٱلشَّاعِرُ فِي وَصْفِ ٱلطَّاوُوسِ حَيْثُ قَالَ:

سُبْحَانَ مَنْ مِنْ خَلْقِهِ ٱلطَّاوُوسُ طَيْرٌ عَلَى أَشْكَالِهِ رَئِيسُ
تَشْرُقُ فِي دَارَاتِهِ شُمُوسُ فِي ٱلرَّأْسِ مِنْهُ شَجَرٌ مَغْرُوسُ
كَأَنَّهُ بَنَفْسَجٌ يَمِيسُ أَوْ هُوَ زَهْرٌ حَرَمٍ يَبِيسُ

٢٨٧ قَالَ بَعْضُهُمْ فِي وَصْفِ ٱلْفُسْتُقِ:

كَأَنَّمَا ٱلْفُسْتُقُ ٱلْمَمْلُوحُ حِينَ بَدَا مُشَقَّقًا فِي لَطِيفَاتِ ٱلطَّوَافِيرِ
وَٱللُّبُّ مَا بَيْنَ قِشْرَيْهِ يَلُوحُ لَنَا كَأَلْسُنِ ٱلطَّيْرِ مَا بَيْنَ ٱلْمَنَاقِيرِ

٢٨٨ وَقِيلَ فِي ٱلْفُسْتُقِ أَيْضًا:

تَفَكَّرْتُ فِي مَعْنَى ٱلثِّمَارِ فَلَمْ أَجِدْ لَهَا ثَمَرًا يَبْدُو بِحُسْنٍ مُجَرَّدِ
سِوَى ٱلْفُسْتُقِ ٱلرَّطْبِ ٱلْجَنِيِّ فَإِنَّهُ زَهَا بِمَعَانٍ زُيِّنَتْ بِتَجَرُّدِ
غَلَالَةُ مَرْجَانٍ عَلَى جِسْمِ فِضَّةٍ وَأَحْشَاءُ يَاقُوتٍ وَقَلْبُ زَبَرْجَدِ

٢٨٩ قَالَ ٱبْنُ ٱلْأَزْمَوِيِّ يَصِفُ ٱلْجُلَّنَارَ:

بَدَا لَنَا ٱلْجُلَّنَارُ فِي ٱلْقُضُبِ وَٱلطَّلُّ يَبْدُو عَلَيْهِ كَٱلْحَبَبِ
كَأَنَّمَا أَكْؤُسُ ٱلْعَقِيقِ بِهِ قَدْ مُلِئَتْ مِنْ بُرَادَةِ ٱلذَّهَبِ

٢٩٠ وَمِمَّا جَاءَ فِي وَصْفِ ٱلْأَزْهَارِ وَٱلرَّبِيعِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ:

غَدَوْنَا عَلَى ٱلرَّوْضِ ٱلَّذِي طَلَّهُ ٱلنَّدَى سُحَيْرًا وَأَوْدَاجُ ٱلْأَبَارِيقِ تُسْفَكُ
فَلَمْ نَرَ شَيْئًا كَانَ أَحْسَنَ مَنْظَرًا مِنَ ٱلنَّوْرِ يَجْرِي دَمْعُهُ وَهُوَ يَضْحَكُ

٢٩١ قَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ يَصِفُ ٱلرَّبِيعَ:

مَرْحَباً بِالرَّبيعِ فِي آذارِ وَبِإِشْرَاقِ بَهْجَةِ الأَنْوارِ
مِنْ شَقِيقٍ وَأُقْحُوانٍ وَوَرْدٍ وَخُزامٍ وَنَرْجِسٍ وَبَهارِ

٢٩٢ قالَ غَيْرُهُ:

أَمَا تَرَى الأَرْضَ قَدْ أَعْطَتْكَ زَهْرَتَها بِخُضْرَةٍ وَاكْتَسَى بِالنُّورِ عارِيها
فَلِلسَّماءِ بُكاءٌ فِي جَوانِبِها وَلِلرَّبيعِ ابْتِسامٌ فِي نَواحِيها

٢٩٣ قالَ آخَرُ فِي الغَمامِ:

إِنَّ السَّماءَ إِذا لَمْ تَبْكِ مُقْلَتُها لَمْ تَضْحَكِ الأَرْضُ عَنْ شَيْءٍ مِنَ الزَّهَرِ
وَالأَرْضُ لا تَنْجَلِي أَنْوارُها أَبَداً إِلَّا إِذا رَمِدَتْ مِنْ شِدَّةِ المَطَرِ

٢٩٤ قالَ أَبُو الحَزْمِ بْنُ جَهْوَرٍ فِي الوَرْدِ:

الوَرْدُ أَحْسَنُ ما رَأَتْ عَيْنِي وَأَذْ كَى ما سَقَى ماءُ السَّحابِ الجامِدُ
خَضَعَتْ نَواوِيرُ الرِّياضِ لِحُسْنِهِ فَتَذَلَّلَتْ تَنْقادُ وَهْيَ شَوارِدُ
وَإِذا تَبَدَّى الغَضُّ فِي أَغْصانِهِ يَزْهُو فَذا مَيْتٌ وَهٰذا حاسِدُ
وَإِذا أَتَى وَفْدُ الرَّبيعِ مُبَشِّراً بِطُلُوعِ وَفْدَتِهِ فَنِعْمَ الوافِدُ
لَيْسَ المُبَشِّرُ كَالمُبَشَّرِ بِاسْمِهِ خَبَرٌ عَلَيْهِ مِنَ النُّبُوَّةِ شاهِدُ
وَإِذا تَعَرَّى الوَرْدُ مِنْ أَوْراقِهِ بَقِيَتْ عَوارِفُهُ فَهُنَّ خَوالِدُ

٢٩٥ قالَ آخَرُ فِي الياسَمِينِ:

وَالأَرْضُ تَبْسِمُ عَنْ ثُغُورِ رِياضِها وَالأُفْقُ يُسْفِرُ تارَةً وَيُقَطِّبُ
وَكَأَنَّ مُخْضَرَّ الرِّياضِ مُلاءَةٌ وَالياسَمِينُ لَها طِرازٌ مُذْهَبُ

٢٩٦ قالَ الأَخْطَلُ الأَهْوازِيُّ فِي السَّوْسَنِ:

سَقْياً لِأَرْضٍ إِذا ما نِمْتُ نَبَّهَنِي … بَعْدَ الْهُدُوِّ بِهَا قَرْعُ النَّوَاقِيسِ
كَأَنَّ سَوْسَنَهَا فِي كُلِّ شَارِقَةٍ … عَلَى الْمَيَادِينِ أَذْنَابُ الطَّوَاوِيسِ

٢٩٧ وَقِيلَ فِي السَّفَرْجَلِ :

حَازَ السَّفَرْجَلُ لَذَّاتِ الْوَرَى فَغَدَا … عَلَى الْفَوَاكِهِ بِالتَّفْضِيلِ مَشْهُورَا
كَالرَّاحِ طَعْماً وَشَمِّ الْمِسْكِ رَائِحَةً … وَالتِّبْرِ لَوْناً وَشَكْلِ الْبَدْرِ تَدْوِيرَا

٢٩٨ وَقِيلَ فِي الْخَوْخِ :

وَرِمَاحٍ بِغَيْرِ طَعْنٍ وَضَرْبٍ … بَلْ لِأَكْلٍ وَمَصِّ لُبٍّ وَرَشْفِ
كَمُلَتْ فِي اسْتِوَائِهَا وَاسْتَقَامَتْ … بِاعْتِدَالٍ وَحُسْنِ قَدٍّ وَلُطْفِ

٢٩٩ قَالَ آخَرُ يَصِفُ نَاعُورَةً :

وَنَاعُورَةٍ قَالَتْ وَقَدْ حَالَ لَوْنُهَا … وَأَضْلُعُهَا كَادَتْ تُعَدُّ مِنَ السُّقْمِ
أَدُورُ عَلَى قَلْبِي لِأَنِّي فَقَدْتُهُ … وَأَمَّا دُمُوعِي فَهْيَ تَجْرِي عَلَى جِسْمِي

٣٠٠ قَالَ الْبُحْتُرِيُّ يَصِفُ الشَّامَ :

عُنِيتُ بِشَرْقِ الْأَرْضِ قِدْماً وَغَرْبِهَا … أُجَوِّبُ فِي آفَاقِهَا وَأَسِيرُهَا
فَلَمْ أَرَ مِثْلَ الشَّامِ دَارَ إِقَامَةٍ … لِرَاحٍ أُغَادِيهَا وَكَأْسٍ أُدِيرُهَا
مُصِحَّةُ أَبْدَانٍ وَنُزْهَةُ أَعْيُنٍ … وَلَهْوُ نُفُوسٍ دَائِمٌ لِي سُرُورُهَا
مُقَدَّسَةٌ جَادَ الرَّبِيعُ بِلَادَهَا … فَفِي كُلِّ أَرْضٍ رَوْضَةٌ وَغَدِيرُهَا

٣٠١ أَحْسَنُ مَا قِيلَ فِي وَصْفِ الشِّطْرَنْجِ قَوْلُ ابْنِ الْمُعْتَزِّ :

يَا عَائِبَ الشِّطْرَنْجِ مِنْ جَهْلِهِ … وَلَيْسَ فِي الشِّطْرَنْجِ مِنْ بَاسِ
فِي فَهْمِهَا عِلْمٌ وَفِي لِعْبِهَا … شُغْلٌ عَنِ الْغِيبَةِ لِلنَّاسِ

وَتَشْغَلُ ٱلْهَائِمَ عَنْ حُزْنِهِ وَصَاحِبَ ٱلْكَاسِ عَنِ ٱلْكَاسِ
وَصَاحِبُ ٱلْحَرْبِ بِتَدْبِيرِهَا يَزْدَادُ فِي ٱلشِّدَّةِ وَٱلْبَاسِ
وَأَهْلُهَا فِي حُسْنِ آدَابِهِمْ مِنْ خَيْرِ أَصْحَابٍ وَجُلَّاسِ

٣٠٢ وَقَدْ أَحْسَنَ ٱبْنُ دَقِيقِ ٱلْعِيدِ فِي وَصْفِ وَزِيرٍ كَثِيرِ ٱلتَّلَوُّنِ:

مُقْبِلٌ مُدْبِرٌ بَعِيدٌ قَرِيبٌ مُحْسِنٌ مُذْنِبٌ عَدُوٌّ حَبِيبُ
عَجَبٌ مِنْ عَجَائِبِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَنَوْعٌ فَرْدٌ وَشَكْلٌ غَرِيبُ

٣٠٣ قَالَ إِسْحَاقُ بْنُ خَلَفٍ ٱلْبَهْرَانِيُّ فِي وَصْفِ ٱلنَّحْوِ:

أَلنَّحْوُ يُصْلِحُ مِنْ لِسَانِ ٱلْأَلْكَنِ وَٱلْمَرْءُ تُعْظِمُهُ إِذَا لَمْ يَلْحَنِ
فَإِذَا طَلَبْتَ مِنَ ٱلْعُلُومِ أَجَلَّهَا فَأَجَلُّهَا مِنْهَا مُقِيمُ ٱلْأَلْسُنِ

٣٠٤ وَصَفَ ٱبْنُ شِيرَوَيْهِ ٱلْحُمَّى قَالَ:

وَزَائِرَةٍ تَزُورُ بِلَا رَقِيبٍ وَتَنْزِلُ بِٱلْفَتَى مِنْ غَيْرِ حُبِّهْ
وَمَا أَحَدٌ يُحِبُّ ٱلْقُرْبَ مِنْهَا وَلَا تَحْلُو زِيَارَتُهَا بِقَلْبِهْ
تَبِيتُ بِبَاطِنِ ٱلْأَحْشَاءِ مِنْهُ فَيَطْلُبُ بُعْدَهَا مِنْ عِظَمِ كَرْبِهْ
وَتَمْنَعُهُ لَذِيذَ ٱلْعَيْشِ حَتَّى تُنَغِّصَهُ بِأَكْلِهِ وَشُرْبِهْ
أَتَتْ لِزِيَارَتِي مِنْ غَيْرِ وَعْدٍ وَكَمْ مِنْ زَائِرٍ لَا مَرْحَبًا بِهْ

قَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ يَصِفُ فِرَاقَ ٱلْخُلَّانِ:

أَلْقَلْبُ مِنْ فُرْقَةِ ٱلْخُلَّانِ يَحْتَرِقُ وَٱلدَّمْعُ كَٱلدُّرِّ فِي ٱلْخَدَّيْنِ يَسْتَبِقُ
إِنْ فَاضَ مَاءُ دُمُوعِي لَمْ يَكُنْ عَجَبًا أَلْعُودُ يَقْطُرُ مَاءً وَهْوَ مُحْتَرِقُ

الباب الرابع عشر
في الحكايات

ابن الزبيري ومعاوية

٣٠٥ كَانَ لِعَبْدِ ٱللهِ بْنِ ٱلزُّبَيْرِيِّ أَرْضٌ وَكَانَ لَهُ فِيهَا عَبِيدٌ يَعْمَلُونَ فِيهَا، وَإِلَى جَانِبِهَا أَرْضٌ لِمُعَاوِيَةَ وَفِيهَا أَيْضًا عَبِيدٌ يَعْمَلُونَ فِيهَا. فَدَخَلَ عَبِيدُ مُعَاوِيَةَ فِي أَرْضِ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ ٱلزُّبَيْرِ فَكَتَبَ عَبْدُ ٱللهِ كِتَابًا إِلَى مُعَاوِيَةَ يَقُولُ لَهُ فِيهِ: أَمَّا بَعْدُ يَا مُعَاوِيَةُ فَإِنَّ عَبِيدَكَ قَدْ دَخَلُوا فِي أَرْضِي. فَٱنْهَهُمْ عَنْ ذٰلِكَ وَإِلَّا كَانَ لِي وَلَكَ شَأْنٌ وَٱلسَّلَامُ. فَلَمَّا وَقَفَ مُعَاوِيَةُ عَلَى كِتَابِهِ وَقَرَأَهُ دَفَعَهُ إِلَى وَلَدِهِ يَزِيدَ. فَلَمَّا قَرَأَهُ قَالَ لَهُ مُعَاوِيَةُ: يَا بُنَيَّ مَا تَرَى. قَالَ: أَرَى أَنْ تَبْعَثَ إِلَيْهِ جَيْشًا يَكُونُ أَوَّلُهُ عِنْدَهُ وَآخِرُهُ عِنْدَكَ يَأْتُونَكَ بِرَأْسِهِ. فَقَالَ: بَلْ غَيْرُ ذٰلِكَ خَيْرٌ مِنْهُ يَا بُنَيَّ. ثُمَّ أَخَذَ وَرَقَةً وَكَتَبَ فِيهَا جَوَابَ كِتَابِ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ ٱلزُّبَيْرِ يَقُولُ فِيهِ: أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ وَقَفْتُ عَلَى كِتَابِ وَلَدِ حَوَارِيِّ وَسَاءَنِي مَا سَاءَهُ. وَٱلدُّنْيَا بِأَسْرِهَا هَيِّنَةٌ عِنْدِي فِي جَنْبِ رِضَاهُ. نَزَلْتُ عَنْ أَرْضِي لَكَ فَأَضِفْهَا إِلَى أَرْضِكَ بِمَا فِيهَا مِنَ ٱلْعَبِيدِ وَٱلْأَمْوَالِ وَٱلسَّلَامُ. فَلَمَّا وَقَفَ عَبْدُ ٱللهِ بْنُ ٱلزُّبَيْرِ عَلَى كِتَابِ مُعَاوِيَةَ كَتَبَ إِلَيْهِ: قَدْ وَقَفْتُ عَلَى كِتَابِ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَطَالَ ٱللهُ بَقَاءَهُ وَلَا أَعْدَمَهُ ٱلرَّأْيَ ٱلَّذِي أَحَلَّهُ مِنْ قُرَيْشٍ هٰذَا ٱلْمَحَلَّ وَٱلسَّلَامُ. فَلَمَّا وَقَفَ مُعَاوِيَةُ عَلَى كِتَابِ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ

ٱلزُّبَيْرِ وَقَرَأَهُ رَمَى بِهِ إِلَى ٱبْنِهِ يَزِيدَ . فَلَمَّا قَرَأَهُ تَهَلَّلَ وَجْهُهُ وَأَسْفَرَ . فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ : يَا بُنَيَّ مَنْ عَفَا سَادَ . وَمَنْ حَلُمَ عَظُمَ . وَمَنْ تَجَاوَزَ ٱسْتَمَالَ إِلَيْهِ ٱلْقُلُوبَ . فَإِذَا ٱبْتُلِيتَ بِشَيْءٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَدْوَاءِ . فَدَاوِهِ بِمِثْلِ هٰذَا ٱلدَّوَاءِ

المنصور ومحمد بن جعفر

٣٠٦ قِيلَ : كَانَ ٱلْمَنْصُورُ مُعْجَبًا بِمُحَادَثَةِ مُحَمَّدِ بْنِ جَعْفَرٍ وَلِعِظَمِ قَدْرِهِ يَفْزَعُونَ إِلَيْهِ فِي ٱلشَّفَاعَاتِ . فَثَقُلَ ذٰلِكَ عَلَى ٱلْمَنْصُورِ فَحَجَبَهُ مُدَّةً . ثُمَّ لَمْ يَصْبِرْ عَنْهُ . فَأَمَرَ ٱلرَّبِيعَ أَنْ يُكَلِّمَهُ فِي ذٰلِكَ فَكَلَّمَهُ وَقَالَ : ٱعْفِ أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَا تُثْقِلْ عَلَيْهِ فِي ٱلشَّفَاعَاتِ . فَقَبِلَ ذٰلِكَ مِنْهُ . فَلَمَّا تَوَجَّهَ إِلَى ٱلْبَابِ ٱعْتَرَضَهُ قَوْمٌ مِنْ قُرَيْشٍ مَعَهُمْ رِقَاعٌ فَسَأَلُوهُ إِيصَالَهَا إِلَى ٱلْمَنْصُورِ . فَقَصَّ عَلَيْهِمِ ٱلْقِصَّةَ فَأَبَوْا إِلَّا أَنْ يَأْخُذَهَا . فَقَالَ : ٱقْذِفُوهَا فِي كُمِّي . ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي ٱلْخَضْرَاءِ مُشْرِفٌ عَلَى مَدِينَةِ ٱلسَّلَامِ وَمَا حَوْلَهَا مِنَ ٱلْبَسَاتِينِ . فَقَالَ لَهُ : أَمَا تَرَى إِلَى حُسْنِهَا يَا أَبَا عَبْدِ ٱللّٰهِ . فَقَالَ لَهُ : يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ بَارَكَ ٱللّٰهُ لَكَ فِيمَا آتَاكَ وَهَنَّاكَ بِإِتْمَامِ نِعْمَتِهِ عَلَيْكَ فِيمَا أَعْطَاكَ . فَمَا بَنَتِ ٱلْعَرَبُ فِي دَوْلَةِ ٱلْإِسْلَامِ وَلَا ٱلْعَجَمُ فِي سَالِفِ ٱلْأَيَّامِ أَحْصَنَ وَلَا أَحْسَنَ مِنْ مَدِينَتِكَ وَلٰكِنْ سَمَّجَتْهَا فِي عَيْنِي خَصْلَةٌ . قَالَ : وَمَا هِيَ . قَالَ : لَيْسَ لِي فِيهَا ضَيْعَةٌ . فَتَبَسَّمَ وَقَالَ : قَدْ حَسَّنْتُهَا فِي عَيْنِكَ بِثَلَاثِ ضِيَاعٍ قَدْ أَقْطَعْتُكَهَا . فَقَالَ : لِلّٰهِ دَرُّكَ يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِنَّكَ شَرِيفُ ٱلْمَوَارِدِ كَرِيمُ ٱلْمَصَادِرِ . فَجَعَلَ ٱللّٰهُ تَعَالَى

بَاقِي عُمْرِكَ أَكْثَرُ مِنْ مَاضِيهِ. ثُمَّ قَامَ مَعَـهُ يَوْمَهُ ذٰلِكَ. فَلَمَّا نَهَضَ لِيَقُومَ بَدَتِ الرِّقَاعُ مِنْ كُمِّهِ فَجَعَلَ يَرُدُّهُنَّ وَيَقُولُ: ارْجِعْنَ خَائِبَاتٍ خَاسِرَاتٍ. فَضَحِكَ الْمَنْصُورُ وَقَالَ: بِحَقِّي عَلَيْكَ إِلَّا أَخْبَرْتَنِي وَأَعْلَمْتَنِي بِخَبَرِ هٰذِهِ الرِّقَاعِ. فَأَعْلَمَهُ وَقَالَ: مَا أَتَيْتَ يَا ابْنَ مُعَلِّمِ الْخَيْرِ إِلَّا كَرِيمًا وَتَمَثَّلَ بِقَوْلِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُعَاوِيَةَ:

لَسْنَا وَإِنْ أَحْسَابُنَا كَرُمَتْ ... يَوْمًا عَلَى الْأَحْسَابِ نَتَّكِلُ
نَبْنِي كَمَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا ... تَبْنِي وَنَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلُوا

ثُمَّ تَصَفَّحَ الرِّقَاعَ وَقَضَى حَوَائِجَهُمْ عَنْ آخِرِهَا (للابشيهي)

عدل عُمر بن الخطّاب بما اداه لعجوز من فقراء رعيته

٣٠٧ ذُكِرَ فِي كِتَابِ الْمَغَازِي عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الْعَبَّاسِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: خَرَجْتُ لَيْلَةً حَالِكَةً قَاصِدًا دَارَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْـهُ. فَمَا وَصَلْتُ إِلَى نِصْفِ الطَّرِيقِ إِلَّا وَرَأَيْتُ شَخْصًا أَعْرَابِيًّا جَذَبَنِي بِثَوْبِي وَقَالَ: الْزَمْنِي يَا عَبَّاسُ. فَتَأَمَّلْتُ الْأَعْرَابِيَّ فَإِذَا هُوَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ وَهُوَ مُتَنَكِّرٌ. فَتَقَدَّمْتُ إِلَيْهِ وَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ وَقُلْتُ لَهُ: إِلَى أَيْنَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. قَالَ: أُرِيدُ جَوْلَةً بَيْنَ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ فِي هٰذَا اللَّيْـلِ الدَّامِسِ. وَكَانَتْ لَيْلَةً قَرٍّ. فَتَبِعْتُهُ فَسَارَ وَأَنَا وَرَاءَهُ وَجَعَلَ يَجُولُ بَيْنَ خِيَامِ الْأَعْرَابِ وَبُيُوتِهِمْ وَيَتَأَمَّلُهَا إِلَى أَنْ أَتَيْنَا عَلَى جَمِيعِهَا وَأَوْشَكْنَا أَنْ نَخْـرُجَ مِنْهَا. فَنَظَرْنَا وَإِذَا هُنَاكَ خَيْمَةٌ وَفِيهَا امْرَأَةٌ عَجُوزٌ وَحَوْلَهَا صِبْيَةٌ يَعُولُونَ عَلَيْهَا وَيَبْكُونَ. وَأَمَامَهَا أَثَافِي عَلَيْهَا قِدْرٌ وَتَحْتَهَا النَّارُ تَشْتَعِلُ.

وَهِيَ تَقُولُ لِلصِّبْيَةِ: رُوَيْدًا رُوَيْدًا بَنِيَّ قَلِيلًا وَيَنْضَجُ الطَّعَامُ فَتَأْكُلُونَ. فَوَقَفْنَا بَعِيدًا مِنْ هُنَاكَ وَجَعَلَ عُمَرُ يَتَأَمَّلُ الْعَجُوزَ تَارَةً وَيَنْظُرُ إِلَى الْأَوْلَادِ أُخْرَى. فَطَالَ الْوُقُوفُ. فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا الَّذِي يُوقِفُكَ بِنَا. فَقَالَ: وَاللهِ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَرَاهَا قَدْ صَبَّتْ لِلصِّبْيَةِ فَأَكَلُوا وَاكْتَفَوْا. فَوَقَفْنَا وَقَدْ طَالَ وُقُوفُنَا جِدًّا وَمَلِلْنَا الْمَكَانَ خَوْفًا أَنْ تَسْتَرِيبَ بِنَا الْعُيُونُ. وَالصِّبْيَةُ لَا يَزَالُونَ يَصْرُخُونَ وَيَبْكُونَ وَالْعَجُوزُ تَقُولُ لَهُمْ مَقَالَتَهَا: رُوَيْدًا رُوَيْدًا بَنِيَّ قَلِيلًا وَيَنْضَجُ الطَّعَامُ فَتَأْكُلُونَ: فَقَالَ لِي عُمَرُ: اُدْخُلْ بِنَا عِنْدَهَا لِنَسْأَلَهَا. فَدَخَلَ وَدَخَلْتُ وَرَاءَهُ. فَقَالَ لَهَا عُمَرُ: السَّلَامُ عَلَيْكِ يَا خَالَةُ. فَرَدَّتْ عَلَيْهِ السَّلَامَ أَحْسَنَ رَدٍّ. فَقَالَ لَهَا: مَا بَالُ هٰؤُلَاءِ الصِّبْيَةِ يَتَصَارَخُونَ وَيَبْكُونَ. فَقَالَتْ لَهُ: لِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْجُوعِ. فَقَالَ لَهَا: وَلِمَ لَمْ تُطْعِمِيهِمْ مِمَّا فِي الْقِدْرِ. فَقَالَتْ لَهُ: وَمَاذَا فِي الْقِدْرِ لِأُطْعِمَهُمْ لَيْسَ هُوَ إِلَّا عُلَالَةً فَقَطْ إِلَى أَنْ يَضْجَرُوا مِنَ الْعَوِيلِ فَيَغْلِبَهُمُ النَّوْمُ. وَلَيْسَ لِي شَيْءٌ لِأُطْعِمَهُمْ. فَتَقَدَّمَ عُمَرُ إِلَى الْقِدْرِ وَنَظَرَهَا فَإِذَا فِيهَا حَصْبَاءُ وَعَلَيْهَا الْمَاءُ يَغْلِي. فَتَعَجَّبَ مِنْ ذٰلِكَ وَقَالَ لَهَا: مَا الْمُرَادُ بِذٰلِكَ. فَقَالَتْ: أُوهِمُهُمْ أَنَّ فِيهَا شَيْئًا يُطْبَخُ فَيُؤْكَلُ فَأُعَلِّلُهُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا ضَجِرُوا وَغَلَبَ النَّوْمُ عُيُونَهُمْ نَامُوا. فَقَالَ لَهَا عُمَرُ: وَلِمَاذَا أَنْتِ هٰكَذَا. فَقَالَتْ لَهُ: أَنَا مَقْطُوعَةٌ لَا أَخَ لِي وَلَا أَبَ وَلَا زَوْجَ وَلَا قَرَابَةَ. فَقَالَ لَهَا: لِمَ لَمْ تَعْرِضِي أَمْرَكِ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَيَجْعَلَ لَكِ شَيْئًا مِنْ بَيْتِ الْمَالِ. فَقَالَتْ لَهُ: لَا

حيّا الله عمر ونكّس الله أعلامه والله إنه ظلمني. فلما سمع عمر مقالتها ارتاع من ذلك وقال لها: ياخالة بماذا ظلمك عمر بن الخطاب. قالت له: نعم والله ظلمنا إنّ الراعي عليه أن يفتش على حال كل من رعيته. لعله يوجد فيها من هو مثلي ضيق اليد كثير الصبية ولا معين ولا مساعد له فيتولى لوازمه ويسمح له من بيت المال بما يقوته وعياله أو صبيته. فقال لها عمر: ومن أين يعلم عمر بحالك وما أنت به من الفاقة مع كثرة الصبية. كان يجب عليك أن تتقدمي وتعلميه بأمرك. فقالت: لا والله إن الراعي الحر يجب عليه أن يفتش على احتياجات رعيته خصوصاً وعموماً. فلعل ذلك الشخص الفقير الحال الضيق اليد غلبه حياؤه ومنعه من التقدم إلى راعيه ليعلمه بحاله. فعلى عمر السؤال عن حال الفقراء في رعيته أكثر من تقدم الفقير إلى مولاه لإعلامه بحاله. والراعي الحر إذا أهمل ذلك فيكون هذا ظلماً منه. وهذه سنة الله ومن تعداها فقد ظلم. فعند ذلك قال لها عمر: صدقت يا خالة ولكن عللي الصبية والساعة آتيك: ثم خرج وخرجت معه وكان قد بقي من الليل ثلثه الأخير. فمشينا والكلاب تنبحنا وأنا أطردها وأذبها عني وعنه إلى أن انتهينا إلى بيت الذخيرة. ففتحه وحده ودخل وأمرني فدخلت معه. فنظر يميناً وشمالاً فعمد إلى كيس من الدقيق يحتوي على مائة رطل وينيف. فقال لي: يا عباس حول على كتفي فحملته إياه ثم قال لي: احمل أنت هاتيك جرة السمن. وأشار لي إلى جرة هناك

فحملتها وخرجنا وأقفل الباب وسرنا وقد انهار من الدقيق على لحيته وعينيه وجبينه . فمشينا إلى أن أنصفنا وقد أتعبه الحمل لأن المكان كان بعيد المسافة . فعرضت نفسي عليه وقلت له : بأبي وأمي يا أمير المؤمنين حول الكيس عنك ودعني أحمله . فقال : لا والله أنت لا تحمل عني جرائمي وظلمي يوم الدين . واعلم يا عباس أن حمل جبال الحديد وثقلها خير من حمل ظلامة كبرت أو صغرت . ولاسيما هذه العجوز تعلل أولادها بالحصى . يا له من ذنب عظيم عند الله . سر بنا وأسرع يا عباس قبل أن تضجر الصبية من العويل فيناموا كما قالت . فسار وأسرع وأنا معه وهو يلهث لهث الثور من التعب إلى أن وصلنا خيمة العجوز . فعند ذلك حول كيس الدقيق عن كتفه ووضعت جرة السمن أمامه . فتقدم هو بذاته وأخذ القدر وكب ما فيها ووضع فيها السمن وجعل بجانبه الدقيق . ثم نظر فإذا النار قد كادت تطفأ فقال للعجوز : أعندك حطب . قالت : نعم يا ابني . وأشارت له إليه . فقام وجاء بقليل منه وكان الحطب أخضر فوضع منه في النار ووضع القدر على الأثافي . وجعل ينكس رأسه إلى الأرض وينفخ بفمه تحت القدر . فوالله إني رأيت دخان الحطب يخرج من خلال لحيته وقد كنس بها الأرض إذ كان يطاطئ رأسه ليتمكن من النفخ . ولم يزل هكذا حتى اشتعلت النار وذاب السمن وابتدأ غليانه . فجعل يحرك السمن بعود في يده الواحدة ويخلط من الدقيق مع السمن في يده الأخرى

إِلَى أَنْ أُنْضِجَ وَالصِّبْيَةُ حَوْلَهُ يَتَصَارَخُونَ. فَلَمَّا طَابَ ٱلطَّعَامُ طَلَبَ مِنَ ٱلْعَجُوزِ إِنَاءً فَأَتَتْهُ بِهِ. فَجَعَلَ يَصُبُّ ٱلطَّبِيخَ فِي ٱلْإِنَاءِ وَيَنْفُخُهُ بِفَمِهِ لِيُبَرِّدَهُ وَيُلَقِّمُ ٱلصِّغَارَ. وَلَمْ يَزَلْ يَفْعَلُ هٰكَذَا مَعَهُمْ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ حَتَّى أَتَى جَمِيعَهُمْ وَشَبِعُوا وَٱكْتَفَوْا. وَقَامُوا يَلْعَبُونَ وَيَضْحَكُونَ مَعَ بَعْضِهِمْ إِلَى أَنْ غَلَبَ عَلَيْهِمِ ٱلنَّوْمُ فَنَامُوا. فَٱلْتَفَتَ عُمَرُ عِنْدَ ذٰلِكَ إِلَى ٱلْعَجُوزِ وَقَالَ لَهَا: يَا خَالَةُ أَنَا مِنْ قَرَابَةِ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ وَسَأَذْكُرُ لَهُ حَالَكِ. فَأْتِينِي غَدًا صَبَاحًا فِي دَارِ ٱلْإِمَارَةِ فَتَجِدِينِي هُنَاكَ فَٱرْجِي خَيْرًا. ثُمَّ وَدَّعَهَا عُمَرُ وَخَرَجَ وَخَرَجْتُ مَعَهُ فَقَالَ لِي: يَا عَبَّاسُ وَٱللّٰهِ إِنِّي حِينَ رَأَيْتُ ٱلْعَجُوزَ تُعَلِّلُ صِبْيَتَهَا بِحَصًى حَسِبْتُ أَنَّ ٱلْجِبَالَ قَدْ زُلْزِلَتْ وَٱسْتَقَرَّتْ عَلَى ظَهْرِي. حَتَّى إِذَا جِئْتُ بِمَا جِئْتُ وَأَطْعَمْتُهُمْ مَا طَبَخْتُهُ لَهُمْ وَٱكْتَفَوْا وَجَلَسُوا يَلْعَبُونَ وَيَضْحَكُونَ فَحِينَئِذٍ شَعَرْتُ أَنَّ تِلْكَ ٱلْجِبَالَ قَدْ سَقَطَتْ عَنْ ظَهْرِي. ثُمَّ أَتَى عُمَرُ دَارَهُ وَأَمَرَنِي فَدَخَلْتُ مَعَهُ وَبِتْنَا لَيْلَتَنَا. وَلَمَّا كَانَ ٱلصَّبَاحُ أَتَتِ ٱلْعَجُوزُ فَٱسْتَغْفَرَهَا وَجَعَلَ لَهَا وَلِصِبْيَتِهَا رَاتِبًا مِنْ بَيْتِ ٱلْمَالِ تَسْتَوْفِيهِ شَهْرًا فَشَهْرًا (للاتليدي)

معاوية والزرقاء

٣٠٨ حُكِيَ عَنْ مُعَاوِيَةَ أَنَّهُ لَمَّا وَلِيَ ٱلْخِلَافَةَ وَٱنْتَظَمَتْ إِلَيْهِ ٱلْأُمُورُ. وَٱمْتَلَأَتْ مِنْهُ ٱلصُّدُورُ. وَأَذْعَنَ لِأَمْرِهِ ٱلْجُمْهُورُ. وَسَاعَدَهُ ٱللّٰهُ فِي مُرَادِهِ. ٱسْتَحْضَرَ لَيْلَةً خَوَاصَّ أَصْحَابِهِ وَذَاكَرَهُمْ وَقَائِعَ أَيَّامِ صِفِّينَ. وَمَنْ كَانَ يَتَوَلَّى كِبْرَ ٱلْكَرِيهَةِ مِنَ ٱلْمَعْرُوفِينَ. فَٱنْهَمَكُوا فِي ٱلْقَوْلِ ٱلصَّحِيحِ

وَالْمَرِيضِ. وَآلَ حَدِيثُهُمْ إِلَى مَنْ كَانَ يَجْتَهِدُ فِي إِيقَادِ نَارِ الْحَرْبِ عَلَيْهِمْ بِزِيَادَةِ التَّحْرِيضِ. فَقَالُوا: امْرَأَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ تُسَمَّى الزَّرْقَاءَ بِنْتَ عَدِيٍّ كَانَتْ تَعْتَمِدُ الْوُقُوفَ بَيْنَ الصُّفُوفِ. وَتَرْفَعُ صَوْتَهَا صَارِخَةً: يَا أَصْحَابَ عَلِيٍّ. تُسْمِعُهُمْ كَلَامًا كَالصَّوَارِمِ. مُسْتَحِثَّةً لَهُمْ بِقَوْلٍ لَوْ سَمِعَهُ الْجَبَانُ لَقَاتَلَ وَالْمُدْبِرُ لَأَقْبَلَ. وَالْمُسَالِمُ لَحَارَبَ. وَالْفَارُّ لَكَرَّ. وَالْمُتَزَلْزِلُ لَاسْتَقَرَّ. فَقَالَ لَهُمْ مُعَاوِيَةُ: أَيُّكُمْ يَحْفَظُ كَلَامَهَا. قَالُوا: كُلُّنَا نَحْفَظُهُ. قَالَ: فَمَا تُشِيرُونَ عَلَيَّ فِيهَا. قَالُوا: نُشِيرُ بِقَتْلِهَا فَإِنَّهَا أَهْلٌ لِذَلِكَ. فَقَالَ لَهُمْ مُعَاوِيَةُ: بِئْسَ مَا أَشَرْتُمْ بِهِ وَقُبْحًا لِمَا قُلْتُمْ. أَيَحْسُنُ أَنْ يَشْتَهِرَ عَنِّي أَنَّنِي بَعْدَمَا ظَفِرْتُ وَقَدَرْتُ قَتَلْتُ امْرَأَةً قَدْ وَفَتْ لِصَاحِبِهَا. إِنِّي إِذًا لَلَئِيمٌ. لَا وَاللَّهِ لَا فَعَلْتُ ذَلِكَ أَبَدًا. ثُمَّ دَعَا بِكَاتِبِهِ فَكَتَبَ كِتَابًا إِلَى وَالِيهِ بِالْكُوفَةِ أَنْ: أَنْفِذْ إِلَيَّ الزَّرْقَاءَ بِنْتَ عَدِيٍّ مَعَ نَفَرٍ مِنْ عَشِيرَتِهَا وَفُرْسَانٍ مِنْ قَوْمِهَا. وَمَهِّدْ لَهَا وِطَاءً لَيِّنًا وَمَرْكَبًا ذَلُولًا. فَلَمَّا وَرَدَ عَلَيْهِ الْكِتَابُ رَكِبَ إِلَيْهَا وَقَرَأَهُ عَلَيْهَا. فَقَالَتْ بَعْدَ قِرَاءَةِ الْكِتَابِ: مَا أَنَا بِزَائِغَةٍ عَنِ الطَّاعَةِ. فَحَمَلَهَا فِي هَوْدَجٍ وَجَعَلَ غِشَاءَهُ خَزًّا مُبَطَّنًا. ثُمَّ أَحْسَنَ صُحْبَتَهَا. فَلَمَّا قَدِمَتْ عَلَى مُعَاوِيَةَ قَالَ لَهَا: مَرْحَبًا وَأَهْلًا خَيْرَ مَقْدَمٍ قَدِمَهُ وَافِدٌ. كَيْفَ حَالُكِ يَا خَالَةُ وَكَيْفَ رَأَيْتِ سَيْرَكِ. قَالَتْ: خَيْرَ مَسِيرٍ. فَقَالَ. هَلْ تَعْلَمِينَ لِمَ بَعَثْتُ إِلَيْكِ. قَالَتْ: لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. قَالَ: أَلَسْتِ رَاكِبَةَ الْجَمَلِ الْأَحْمَرِ يَوْمَ صِفِّينَ. وَأَنْتِ بَيْنَ الصُّفُوفِ تُوقِدِينَ نَارَ الْحَرْبِ

وَتُحرِّضِينَ عَلَى الْقِتَالِ. قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَ: فَمَا حَمَلَكِ عَلَى ذَلِكَ. قَالَتْ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّهُ قَدْ مَاتَ الرَّأْسُ وَبُتِرَ الذَّنَبُ. وَالدَّهْرُ ذُو غِيَرٍ وَمَنْ تَفَكَّرَ أَبْصَرَ. وَالْأَمْرُ يَحْدُثُ بَعْدَهُ الْأَمْرُ. فَقَالَ: صَدَقْتِ فَهَلْ تَعْرِفِينَ كَلَامَكِ وَتَحْفَظِينَ مَا قُلْتِ. قَالَتْ: لَا وَاللهِ. قَالَ: لِلَّهِ أَبُوكِ فَلَقَدْ سَمِعْتُكِ تَقُولِينَ: أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ الْمِصْبَاحَ لَا يُضِيءُ فِي الشَّمْسِ. وَإِنَّ الْكَوَاكِبَ لَا تُضِيءُ مَعَ الْقَمَرِ. وَإِنَّ الْبَغْلَ لَا يَسْبِقُ الْفَرَسَ. وَلَا يُقْطَعُ الْحَدِيدُ إِلَّا بِالْحَدِيدِ. أَلَا مَنِ اسْتَرْشَدَنَا أَرْشَدْنَاهُ. وَمَنْ سَأَلَنَا أَخْبَرْنَاهُ. إِنَّ الْحَقَّ كَانَ يَطْلُبُ ضَالَّةً فَأَصَابَهَا. فَصَبْرًا يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ. فَكَأَنَّكُمْ وَقَدِ الْتَأَمَ شَمْلُ الشَّتَاتِ وَظَهَرَتْ كَلِمَةُ الْعَدْلِ وَغَلَبَ الْحَقُّ بَاطِلَهُ. فَإِنَّهُ لَا يَسْتَوِي الْمُحِقُّ وَالْمُبْطِلُ. أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا. لَا يَسْتَوُونَ. فَالنِّزَالَ النِّزَالَ وَالصَّبْرَ الصَّبْرَ. أَلَا وَإِنَّ خِضَابَ النِّسَاءِ الْحِنَّاءُ وَخِضَابَ الرِّجَالِ الدِّمَاءُ. وَالصَّبْرُ خَيْرُ الْأُمُورِ عَاقِبَةً. إِيتُوا الْحَرْبَ غَيْرَ نَاكِصِينَ فَهَذَا يَوْمٌ لَهُ مَا بَعْدَهُ. يَا زَرْقَاءُ أَلَيْسَ هَذَا قَوْلَكِ وَتَحْرِيضَكِ. قَالَتْ: لَقَدْ كَانَ ذَلِكَ. قَالَ: لَقَدْ شَارَكْتِ عَلِيًّا فِي كُلِّ دَمٍ سَفَكَهُ. فَقَالَتْ: أَحْسَنَ اللهُ بِشَارَتَكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَدَامَ سَلَامَتَكَ. مِثْلُكَ مَنْ يُبَشِّرُ بِخَيْرٍ وَيَسُرُّ جَلِيسَهُ. فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: أَوَقَدْ سَرَّكِ ذَلِكَ. قَالَتْ: نَعَمْ وَاللهِ لَقَدْ سَرَّنِي قَوْلُكَ وَأَنَّى لِي بِتَصْدِيقِهِ. فَقَالَ لَهَا مُعَاوِيَةُ: وَاللهِ لَوَفَاؤُكُمْ لَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ أَعْجَبُ إِلَيَّ مِنْ حُبِّكُمْ لَهُ فِي حَيَاتِهِ فَاذْكُرِي حَوَائِجَكِ تُقْضَ. فَقَالَتْ:

يا أميرَ المؤمنين إني آليتُ على نفسي أن لا أسألَ أحداً بعدَ علي حاجةً . فقالَ : قد أشارَ علي بعضُ من عرفكِ بقتلكِ . فقالتْ : لومُ من المشيرِ . ولو أطعتَه لشاركتَه . قالَ : كلّا بل نعفو عنكِ ونحسنُ إليكِ ونرعاكِ . فقالتْ : يا أميرَ المؤمنين كرمٌ منك . ومثلُك من قدر فعفا وتجاوزَ عمّن أساء وأعطى من غيرِ مسألةٍ . فأعطاها كسوةً ودراهمَ وأقطعها ضيعةً تغلُّ لها في كلِّ سنةٍ عشرةَ آلافِ درهمٍ . وأعادها إلى وطنها سالمةً وكتبَ إلى والي الكوفةِ بالوصيةِ بها وبعشيرتها (للابشيهي)

رجلان كريمان حصلا على الامارة بكرمهما

٣٠٩ كانَ في أيامِ خلافةِ سليمانَ بن عبدِ الملكِ رجلٌ يقالُ له خزيمةُ بنُ بشرٍ من بني أسدٍ مشهورٌ بالمروءةِ والكرمِ والمواساةِ . وكانتْ نعمتُه وافرةً . فلم يزلْ على تلكَ الحالةِ من الكرمِ حتّى احتاجَ إلى إخوانهِ الذين كانَ يواسيهم ويتفضّلُ عليهم . فآسوهُ حيناً ثمَّ إنهم ملّوهُ . فلمّا لاحَ منهم ذلكَ أتى امرأتَه وكانتِ ابنةَ عمّهِ . فقالَ لها : يا ابنةَ العمِّ رأيتُ من إخواني تغيّراً عمّا عهدتُ منهم . وقد عزمتُ على لزومِ بيتي إلى أن يأتيني الموتُ . ثمَّ إنّه أغلقَ بابَه وأقامَ يتقوّتُ بما عندَه حتّى نفدَ جميعُه وبقيَ حائراً في أمرِه . وكانَ يومئذٍ عكرمةُ الفيّاضُ والياً على الجزيرةِ . فبينما هو جالسٌ في ديوانِه وعندَه جماعةٌ من أهلِ البلدِ من معارفِه إذ جرى ذكرُ خزيمةَ بنِ بشرٍ . فسألهم عكرمةُ عن حالِه

فَقَالُوا لَهُ: إِنَّهُ فِي أَشَقِّ حَالٍ مِنَ ٱلْفَقْرِ وَقَدْ أَغْلَقَ بَابَهُ وَلَزِمَ بَيْتَهُ. فَقَالَ عِكْرِمَةُ ٱلْفَيَّاضُ: أَفَمَا وَجَدَ خُزَيْمَةُ بْنُ بِشْرٍ مُوَاسِيًا أَوْ مُكَافِيًا. فَقَالُوا لَهُ: لَا. فَأَمْسَكَ عِكْرِمَةُ عَنْ ذٰلِكَ. وَكَانَ عِكْرِمَةُ فِي ٱلْكَرَمِ بِٱلْمَنْزِلَةِ ٱلْعَظِيمَةِ وَقَدْ سُمِّيَ ٱلْفَيَّاضَ لِزِيَادَةِ كَرَمِهِ وَجُودِهِ. ثُمَّ إِنَّ عِكْرِمَةَ ٱنْتَظَرَ إِلَى أَنْ دَخَلَ ٱللَّيْلُ فَعَمَدَ إِلَى أَرْبَعَةِ آلَافِ دِينَارٍ فَجَعَلَهَا فِي كِيسٍ وَأَمَرَ بِإِسْرَاجِ دَابَّتِهِ. فَرَكِبَهَا وَخَرَجَ سِرًّا مِنْ عِنْدِ أَهْلِهِ وَسَارَ وَمَعَهُ غُلَامٌ وَاحِدٌ يَحْمِلُ ٱلْمَالَ. وَكَانَ ٱللَّيْلُ قَدِ ٱنْتَصَفَ. فَلَمْ يَزَلْ سَائِرًا حَتَّى وَقَفَ عَلَى بَابِ خُزَيْمَةَ فَنَزَلَ عَنْ دَابَّتِهِ بَعِيدًا عَنِ ٱلْبَابِ وَأَمْسَكَهَا لِغُلَامِهِ وَأَخَذَ مِنْهُ ٱلْكِيسَ وَأَتَى بِهِ وَحْدَهُ إِلَى ٱلْبَابِ وَقَرَعَهُ. فَخَرَجَ خُزَيْمَةُ فَقَالَ لَهُ عِكْرِمَةُ وَقَدْ نَكَّرَ صَوْتَهُ: خُذْ هٰذَا أَصْلِحْ بِهِ شَأْنَكَ. فَتَنَاوَلَهُ خُزَيْمَةُ فَرَآهُ ثَقِيلًا فَوَضَعَهُ وَقَبَضَ عَلَى ذَيْلِ عِكْرِمَةَ وَقَالَ لَهُ: أَخْبِرْنِي مَنْ أَنْتَ جُعِلْتُ فِدَاكَ. فَقَالَ لَهُ عِكْرِمَةُ: مَا جِئْتُكَ فِي مِثْلِ هٰذَا ٱلْوَقْتِ وَأُرِيدُ أَنْ تَعْرِفَنِي. فَقَالَ لَهُ خُزَيْمَةُ: وَٱللّٰهِ لَا أَقْبَلُهُ إِلَّمْ تُخْبِرْنِي مَنْ أَنْتَ. فَقَالَ لَهُ عِكْرِمَةُ: أَنَا جَابِرُ عَثَرَاتِ ٱلْكِرَامِ. فَقَالَ خُزَيْمَةُ: زِدْنِي إِيضَاحًا. فَقَالَ لَهُ عِكْرِمَةُ: لَا وَٱللّٰهِ. وَٱنْصَرَفَ. فَدَخَلَ خُزَيْمَةُ بِٱلْكِيسِ إِلَى ٱمْرَأَتِهِ وَقَالَ لَهَا: أَبْشِرِي فَقَدْ أَتَى ٱللّٰهُ بِٱلْفَرَجِ فَقُومِي أَسْرِجِي. فَقَالَتْ: لَا سَبِيلَ إِلَى ٱلسِّرَاجِ لِأَنَّهُ لَيْسَ لَنَا زَيْتٌ. فَبَاتَ خُزَيْمَةُ يَلْمِسُ ٱلْكِيسَ فَيَجِدُ خُشُونَةَ ٱلدَّنَانِيرِ. وَلَمَّا رَجَعَ عِكْرِمَةُ إِلَى مَنْزِلِهِ سَأَلَتْهُ ٱمْرَأَتُهُ فِيمَ خَرَجَ بَعْدَ هَدْأَةٍ مِنَ ٱللَّيْلِ مُنْفَرِدًا. فَأَجَابَهَا: مَا كُنْتُ لِأَخْرُجَ فِي وَقْتٍ كَذَا

وأريد أن يعلم أحد بما خرجت إليه إلا الله فقط. فقالت له: لا بد لي ان أعلم ذلك وصاحت وناحت وألحت عليه بالطلب. فلما رأى أنه ليس له بد قال لها: أخبرك بالأمر فاكتميه إذا. قالت له: قل ولا تبال بذلك. فأخبرها بالقصة على وجهها. أما ما كان من خزيمة فإنه لما أصبح صالح غرماءه وأصلح شأنه وتجهز للسفر يريد الخليفة سليمان ابن عبد الملك. فدخل الحاجب وأخبر سليمان بوصول خزيمة بن بشر. وكان سليمان يعرفه جيدا بالمروءة والكرم فأذن له. فلما دخل خزيمة وسلم عليه بالخلافة قال له سليمان: يا خزيمة ما أبطأك عنا. قال: سوء الحال يا أمير المؤمنين. قال فما منعك النهضة إلينا. قال خزيمة: ضعفي يا أمير المؤمنين وقلة ما بيدي. قال: فمن أنهضك الآن. قال خزيمة: لم أشعر يا أمير المؤمنين بعد هدأة من الليل إلا والباب يطرق فخرجت فرأيت شخصا وكان منه كيت وكيت. وأخبره بقصته من أولها إلى آخرها. فقال له: أما عرفته. فقال خزيمة: ما سمعت منه يا أمير المؤمنين إلا حين سألته عن اسمه قال: أنا جابر عثرات الكرام. قال: فتلهف سليمان بن عبد الملك على معرفته وقال: لو عرفناه لكافيناه على مروءته. ثم قال: علي بالكاتب فحضر إليه. فكتب لخزيمة الولاية على الجزيرة وجميع عمل عكرمة وأجزل له العطاء وأحسن ضيافته. وأمره بالتوجه من وقته إلى الولاية فقبل الأرض خزيمة وتوجه من ساعته إلى الجزيرة. فلما قرب منها خرج عكرمة وكان قد بلغه عزله وأقبل لملاقاة خزيمة

مع جميع أعيانِ البلدِ. وسلّموا عليه وساروا جميعاً إلى أن دخلوا به البلد. فنزل خزيمة في دارِ الإمارةِ وأمر أن يؤخذ عكرمة ويحاسب. فحوسب ففضل عليه مالٌ كثير فطلبه خزيمة منه. فقال له عكرمة: والله ما إلى درهم منه سبيلٌ ولا عندي منه دينارٌ. فأمر خزيمة بحبسه وأرسل يطالبه بالمالِ. فأرسل عكرمة يقول له: إني لست ممّن يصون ماله بعرضه فاصنع ما شئت. فأمر خزيمة بقيدِه وضربه. فكُبّل بالحديد وضُرب وضُيّق عليه. فأقام كذلك شهراً فأضناه ذلك وأضرّ به فبلغ امرأته ضرّه فجزعت عليه واغتمّت لذلك غمّاً شديداً. فدعت جارية لها ذات عقلٍ وقالت لها: امضي الساعةَ إلى بابِ خزيمة وقولي للحاجبِ: إنّ عندي نصيحة للأميرِ. فإذا طلبها منكِ فقولي: لا أقولها إلّا للأميرِ خزيمة. فإذا دخلتِ عليه فسليه الخلوة فإذا فعل فقولي له: ما كان هذا جزاءُ جابرِ عثراتِ الكرامِ منك بمكافأتك له بالضيقِ والحبسِ والحديدِ ثمّ بالضربِ. قال: ففعلت جاريتها ذلك. فلمّا سمع خزيمة قولها قال: واسوءتاه جابرُ عثراتِ الكرامِ غريمي. قالت: نعم. فأمر لوقته بدابّته فأسرجت وركب إلى وجوهِ أهلِ البلدِ فجمعهم وسار بهم إلى بابِ الحبسِ. ففتحه ودخل فرأى عكرمة الفيّاض في قاعِ الحبسِ متغيّراً قد أضناه الضرُّ. فلمّا نظر عكرمة إلى خزيمة ووجوه أهلِ البلدِ معه أحشمه ذلك فنكّس رأسه. فأقبل خزيمة وأكبّ على رأسِه فقبّله. فرفع عكرمة رأسه وقال: ما أعقب هذا منك. قال خزيمة: كريم فِعالك

وَسُوءُ مُكَافَأَتِي . فَقَالَ لَهُ عِكْرِمَةُ : يَغْفِرُ اللهُ لَنَا وَلَكَ . ثُمَّ إِنَّ خُزَيْمَةَ أَمَرَ بِقُيُودِهِ أَنْ تُفَكَّ وَأَنْ تُوضَعَ فِي رِجْلَيْهِ نَفْسِهِ . فَقَالَ لَهُ عِكْرِمَةُ : مَا مُرَادُكَ بِذٰلِكَ . قَالَ : مُرَادِي أَنْ يَنَالَنِي مِنَ الضُّرِّ مَا نَالَكَ . فَقَالَ لَهُ عِكْرِمَةُ : أُقْسِمُ عَلَيْكَ بِاللهِ أَنْ لَا تَفْعَلَ . وَبَعْدَ ذٰلِكَ خَرَجَا جَمِيعًا وَجَاءَا إِلَى دَارِ خُزَيْمَةَ فَوَدَّعَهُ عِكْرِمَةُ وَأَرَادَ الْإِنْصِرَافَ فَلَمْ يُمَكِّنْهُ مِنْ ذٰلِكَ . ثُمَّ أَمَرَ خُزَيْمَةُ بِالْحَمَّامِ فَأُخْلِيَ وَدَخَلَا جَمِيعًا . وَقَامَ خُزَيْمَةُ نَفْسُهُ فَتَوَلَّى خِدْمَةَ عِكْرِمَةَ . ثُمَّ خَرَجَ فَخَلَعَ عَلَيْهِ وَحَمَلَ إِلَيْهِ مَالًا كَثِيرًا وَسَأَلَهُ أَنْ يَسِيرَ مَعَهُ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ وَكَانَ يَوْمَئِذٍ مُقِيمًا فِي الرَّمْلَةِ . فَسَارَ مَعَهُ حَتَّى قَدِمَا عَلَى سُلَيْمَانَ . فَدَخَلَ الْحَاجِبُ وَأَخْبَرَهُ بِقُدُومِ خُزَيْمَةَ بْنِ بِشْرٍ . فَرَاعَهُ ذٰلِكَ وَقَالَ فِي نَفْسِهِ : وَالِي الْجَزِيرَةِ يَقْدَمُ عَلَيْنَا بِغَيْرِ أَمْرِنَا مَعَ قُرْبِ الْعَهْدِ بِهِ . مَا هٰذَا إِلَّا لِحَادِثٍ عَظِيمٍ . فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ : مَا وَرَاءَكَ يَا خُزَيْمَةُ . قَالَ : خَيْرٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَالَ : فَمَا أَقْدَمَكَ . قَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنِّي ظَفِرْتُ بِجَابِرِ عَثَرَاتِ الْكِرَامِ فَأَحْبَبْتُ أَنْ أَسُرَّكَ لِمَا رَأَيْتُ مِنْ شَوْقِكَ إِلَى رُؤْيَتِهِ . قَالَ : وَمَنْ هُوَ . قَالَ : عِكْرِمَةُ الْفَيَّاضُ . فَأَذِنَ لَهُ فِي الدُّخُولِ فَدَخَلَ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ بِالْخِلَافَةِ فَرَحَّبَ بِهِ وَأَدْنَاهُ مِنْ مَجْلِسِهِ وَقَالَ لَهُ : يَا عِكْرِمَةُ قَدْ كَانَ خَيْرُكَ لَهُ وَبَالًا عَلَيْكَ . ثُمَّ إِنَّ الْخَلِيفَةَ قَالَ لَهُ : اكْتُبْ حَوَائِجَكَ وَمَا تَخْتَارُهُ فِي رُقْعَةٍ . فَكَتَبَهَا فَقُضِيَتْ عَلَى أَتَمِّ وَجْهٍ . ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَشَرَةِ آلَافِ دِينَارٍ وَأَضَافَ لَهُ شَيْئًا كَثِيرًا مِنَ التُّحَفِ وَالظُّرَفِ وَوَلَّاهُ عَلَى الْجَزِيرَةِ وَأَرْمِينِيَةَ

وَأَذْرَبِيجَانَ وَقَالَ لَهُ: أَمْرُ خُزَيْمَةَ بِيَدِكَ إِنْ شِئْتَ أَبْقَيْتَهُ وَإِنْ شِئْتَ عَزَلْتَهُ. قَالَ: بَلْ رُدَّهُ إِلَى عَمَلِهِ مُكْرَمًا يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ. ثُمَّ إِنَّهُمَا ٱنْصَرَفَا جَمِيعًا وَلَمْ يَزَالَا عَامِلَيْنِ لِسُلَيْمَانَ مُدَّةَ خِلَافَتِهِ (ثمرات الاوراق للحموي)

يزيد بن المهلب عند سليمان بن عبد الملك

٣١٠ قِيلَ إِنَّ ٱلْحَجَّاجَ بْنَ يُوسُفَ أَخَذَ يَزِيدَ بْنَ ٱلْمُهَلَّبِ بْنِ أَبِي صُفْرَةَ وَعَذَّبَهُ وَٱسْتَأْصَلَهُ وَٱسْتَأْصَلَ مَوْجُودَهُ وَسَجَنَهُ. فَٱحْتَالَ يَزِيدُ بِحُسْنِ تَلَطُّفِهِ وَأَرْغَبَ ٱلسَّجَّانَ وَٱسْتَمَالَهُ. وَهَرَبَ هُوَ وَٱلسَّجَّانُ وَقَصَدَ ٱلشَّامَ إِلَى سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ. وَكَانَ ٱلْخَلِيفَةَ فِي ذٰلِكَ ٱلْوَقْتِ ٱلْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ. فَلَمَّا وَصَلَ يَزِيدُ بْنُ ٱلْمُهَلَّبِ إِلَى سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ أَكْرَمَهُ وَأَحْسَنَ إِلَيْهِ وَأَقَامَ عِنْدَهُ. فَكَتَبَ ٱلْحَجَّاجُ إِلَى ٱلْوَلِيدِ يُعْلِمُهُ أَنَّ يَزِيدَ هَرَبَ مِنَ ٱلسِّجْنِ وَأَنَّهُ عِنْدَ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ أَخِي أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَوَلِيِّ عَهْدِ ٱلْمُسْلِمِينَ. وَأَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعْلَى رَأْيًا. فَكَتَبَ ٱلْوَلِيدُ إِلَى أَخِيهِ سُلَيْمَانَ بِذٰلِكَ. فَكَتَبَ سُلَيْمَانُ: يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِنِّي أَجَرْتُ يَزِيدَ بْنَ ٱلْمُهَلَّبِ لِأَنَّهُ هُوَ وَأَبَاهُ وَإِخْوَتَهُ أَحِبَّاءُ لَنَا مِنْ عَهْدِ أَبِينَا. وَلَمْ أُجِرْ عَدُوًّا لِأَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ. وَقَدْ كَانَ ٱلْحَجَّاجُ عَذَّبَهُ وَغَرَّمَهُ دَرَاهِمَ كَثِيرَةً ظُلْمًا. ثُمَّ طَلَبَ مِنْهُ بَعْدَهَا مِثْلَ مَا طَلَبَ أَوَّلًا. فَإِنْ رَأَى أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنْ لَا يُخْزِيَنِي فِي ضَيْفِي فَلْيَفْعَلْ فَإِنَّهُ أَهْلُ ٱلْفَضْلِ وَٱلْكَرَمِ. فَكَتَبَ إِلَيْهِ ٱلْوَلِيدُ إِنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ تُرْسِلَ إِلَيَّ يَزِيدَ مُقَيَّدًا مَغْلُولًا. فَلَمَّا وَرَدَ ذٰلِكَ عَلَى سُلَيْمَانَ أَحْضَرَ وَلَدَهُ أَيُّوبَ فَقَيَّدَهُ. ثُمَّ دَعَا بِيَزِيدَ بْنِ ٱلْمُهَلَّبِ وَقَيَّدَهُ.

ثُمَّ شَدَّ قَيْدَ هٰذَا إِلَى قَيْدِ هٰذَا بِسِلْسِلَةٍ وَغَلَّهُمَا جَمِيعًا بِغُلَّيْنِ وَحَمَلَهُمَا إِلَى أَخِيهِ ٱلْوَلِيدِ وَكَتَبَ إِلَيْهِ: أَمَّا بَعْدُ يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَقَدْ وَجَّهْتُ إِلَيْكَ يَزِيدَ وَٱبْنَ أَخِيكَ أَيُّوبَ بْنَ سُلَيْمَانَ. وَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَكُونَ ثَالِثَهُمَا. فَإِنْ هَمَمْتَ يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِقَتْلِ يَزِيدَ فَبِٱللّٰهِ عَلَيْكَ فَٱبْدَأْ بِقَتْلِ أَيُّوبَ. ثُمَّ ٱجْعَلْ يَزِيدَ ثَانِيًا. وَٱجْعَلْنِي إِنْ شِئْتَ ثَالِثًا وَٱلسَّلَامُ. فَلَمَّا دَخَلَ يَزِيدُ ٱبْنُ ٱلْمُهَلَّبِ وَأَيُّوبُ بْنُ سُلَيْمَانَ عَلَى ٱلْوَلِيدِ وَهُمَا فِي سِلْسِلَةٍ أَطْرَقَ ٱلْوَلِيدُ ٱسْتِحْيَاءً وَقَالَ: لَقَدْ أَسَأْنَا إِلَى أَبِي أَيُّوبَ إِذْ بَلَغْنَا بِهِ هٰذَا ٱلْمَبْلَغَ. فَأَخَذَ يَزِيدُ يَتَكَلَّمُ وَيَحْتَجُّ لِنَفْسِهِ. فَقَالَ لَهُ ٱلْوَلِيدُ: مَا نَحْتَاجُ مَا نَحْتَاجُ إِلَى ٱلْكَلَامِ قَدْ قَبِلْنَا عُذْرَكَ وَعَلِمْنَا ظُلْمَ ٱلْحَجَّاجِ. ثُمَّ ٱسْتَحْضَرَ حَدَّادًا فَأَزَالَ عَنْهُمَا ٱلْحَدِيدَ وَأَحْسَنَ إِلَيْهِمَا وَوَصَلَ أَيُّوبَ ٱبْنَ أَخِيهِ بِثَلَاثِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ وَوَصَلَ يَزِيدَ بْنَ ٱلْمُهَلَّبِ بِعِشْرِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ وَرَدَّهُمَا إِلَى سُلَيْمَانَ. وَكَتَبَ كِتَابًا لِلْحَجَّاجِ مَضْمُونُهُ: لَا سَبِيلَ لَكَ عَلَى يَزِيدَ بْنِ ٱلْمُهَلَّبِ فَإِيَّاكَ أَنْ تُعَاوِدَنِي فِيهِ بَعْدَ ٱلْيَوْمِ. فَسَارَ يَزِيدُ بْنُ ٱلْمُهَلَّبِ إِلَى سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ. وَأَقَامَ عِنْدَهُ فِي أَعْلَى ٱلْمَرَاتِبِ وَأَفْضَلِ ٱلْمَنَازِلِ (للابشيهي)

عفو كريم واحسانه الى من قتل اباهُ

٣١١ حُكِيَ أَنَّهُ لَمَّا أَفْضَتِ ٱلْخِلَافَةُ إِلَى بَنِي ٱلْعَبَّاسِ ٱخْتَفَتْ مِنْهُمْ جَمِيعُ رِجَالِ بَنِي أُمَيَّةَ وَكَانَ مِنْهُمْ إِبْرٰهِيمُ بْنُ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ. وَكَانَ إِبْرٰهِيمُ هٰذَا رَجُلًا عَالِمًا كَامِلًا أَدِيبًا وَهُوَ مَعَ ذٰلِكَ فِي سِنِّ ٱلشَّبِيبَةِ فَأَخَذُوا لَهُ أَمَانًا مِنَ ٱلسَّفَّاحِ فَأَعْطَاهُ أَبُو ٱلْعَبَّاسِ ٱلسَّفَّاحُ أَمَانًا

وأكرمه وقال له: الزم مجلسي فذات يوم قال له أبو العباس السفاح: يا إبرهيم حدثني بتمام أمرك في استخفائك من العدو. فقال سمعاً وطاعة يا أمير المؤمنين. كنت مختفياً في الحيرة بمنزل في شارع على الصحراء فبينما كنت يوماً على ظهر ذلك البيت إذ بصرت بأعلام سود قد خرجت من الكوفة تريد الحيرة. فتخيلت أنها تريدني فخرجت مسرعاً من الدار متنكراً حتى أتيت الكوفة وأنا لا أعرف أحداً أختفي عنده فبقيت في حيرة. فنظرت وإذا أنا بباب كبير واسع الرحبة فدخلت فيه. فرأيت رجلاً وسيماً حسن الهيئة مقبلاً على الرحبة ومعه أتباعه فنزل عن فرسه والتفت فرآني فقال لي: من أنت وما حاجتك. فقلت رجل خائف على دمه وجاء يستجير في منزلك. فأدخلني منزله وصيرني في حجرة تلي حرمه وكنت عنده في كل ما أحبه من طعام وشراب ولباس وهو لا يسألني عن شيء من حالي. إلا أنه كان يركب في كل يوم من الفجر ويمضي ولا يرجع إلا قريب الظهر. فقلت له يوماً: أراك تدمن الركوب كل يوم ففيم ذلك. فقال لي: إن إبرهيم بن سليمان بن عبد الملك كان قد قتل أبي ظلماً وقد بلغني أنه مختف في الحيرة فأنا أطلبه يومياً لعلي أجده وأدرك منه ثاري قال: فلما سمعت ذلك يا أمير المؤمنين كثر تعجبي وقلت في نفسي: إن القدر ساقني إلى حتفي في منزل من يطلب دمي. فوالله يا أمير المؤمنين إني كرهت الحياة: ثم إني سألت الرجل

عَنِ ٱسْمِهِ وَٱسْمِ أَبِيهِ فَأَخْبَرَنِي فَعَلِمْتُ أَنَّ كَلَامَهُ حَقٌّ وَأَنِّي أَنَا ٱلَّذِي قَتَلَ أَبَاهُ. فَقُلْتُ لَهُ: يَا هٰذَا إِنَّهُ قَدْ وَجَبَ عَلَيَّ حَقُّكَ وَلِمَعْرُوفِكَ لِي يَلْزَمُنِي أَنْ أَدُلَّكَ عَلَى خَصْمِكَ ٱلَّذِي قَتَلَ أَبَاكَ وَأُقَرِّبَ عَلَيْكَ ٱلْخُطْوَةَ. فَقَالَ: وَمَا ذَاكَ. فَقُلْتُ لَهُ: أَنَا إِبْرٰهِيمُ بْنُ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ وَأَنَا قَاتِلُ أَبِيكَ فَخُذْ بِثَارِكَ. فَتَبَسَّمَ مِنِّي وَقَالَ: هَلْ أَضْجَرَكَ ٱلِٱخْتِفَاءُ وَٱلْبُعْدُ عَنْ مَنْزِلِكَ وَأَهْلِكَ فَأَحْبَبْتَ ٱلْمَوْتَ. فَقُلْتُ: لَا وَٱللّٰهِ وَلٰكِنِّي أَقُولُ لَكَ ٱلْحَقَّ وَإِنِّي قَتَلْتُهُ فِي يَوْمِ كَذَا مِنْ أَجْلِ كَذَا. فَلَمَّا سَمِعَ ٱلرَّجُلُ كَلَامِي هٰذَا وَعَلِمَ صِدْقِي تَغَيَّرَ لَوْنُهُ وَٱحْمَرَّتْ عَيْنَاهُ ثُمَّ فَكَّرَ طَوِيلًا وَٱلْتَفَتَ إِلَيَّ وَقَالَ: أَمَّا أَنْتَ فَسَوْفَ تَلْقَى أَبِي عِنْدَ حَاكِمٍ عَادِلٍ فَيَأْخُذُ بِثَارِهِ مِنْكَ وَأَمَّا أَنَا فَلَا أَخْفِرُ ذِمَّتِي وَلٰكِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَخْرُجَ عَنِّي فَإِنِّي لَسْتُ آمَنُ عَلَيْكَ مِنْ نَفْسِي. ثُمَّ إِنَّهُ أَعْطَانِي أَلْفَ دِينَارٍ فَأَبَيْتُ أَخْذَهَا وَٱنْصَرَفْتُ عَنْهُ. فَهٰذَا يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَكْرَمُ رَجُلٍ رَأَيْتُهُ وَسَمِعْتُ عَنْهُ فِي عُمْرِي بَعْدَ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ (للاتليدي)

جود معن بن زائدة

٣١٢ حُكِيَ عَنْ مَعْنِ بْنِ زَائِدَةَ أَنَّ شَاعِرًا مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ قَصَدَهُ فَأَقَامَ مُدَّةً يُرِيدُ ٱلدُّخُولَ عَلَيْهِ فَلَمْ يَتَهَيَّأْ لَهُ ذٰلِكَ. فَلَمَّا أَعْيَاهُ ٱلْأَمْرُ سَأَلَ بَعْضَ خَدَمِهِ وَقَالَ لَهُ: أَرْجُوكَ إِذَا دَخَلَ ٱلْأَمِيرُ إِلَى ٱلْبُسْتَانِ أَنْ تُعَرِّفَنِي. فَلَمَّا دَخَلَ مَعْنٌ إِلَى بُسْتَانِهِ لِيَتَنَزَّهَ جَاءَ ٱلْخَادِمُ وَأَخْبَرَ ٱلشَّاعِرَ فَكَتَبَ ٱلشَّاعِرُ بَيْتًا مِنَ ٱلشِّعْرِ عَلَى خَشَبَةٍ وَأَلْقَاهَا فِي ٱلْمَاءِ ٱلْجَارِي إِلَى دَاخِلِ

ٱلْبُسْتَانِ . فَٱتَّفَقَ أَنَّ مَعْنًا كَانَ جَالِسًا فِي ذٰلِكَ ٱلْوَقْتِ عَلَى جَانِبِ ٱلْمَاءِ فَمَرَّتْ عَلَيْهِ ٱلْخَشَبَةُ فَنَظَرَ فِيهَا كِتَابَةً فَأَخَذَهَا وَقَرَأَهَا فَوَجَدَ فِيهَا :

أَيَا جُودَ مَعْنٍ نَاجِ مَعْنًا بِحَاجَتِي　　فَمَا لِي إِلَى مَعْنٍ سِوَاكَ سَبِيلُ

فَلَمَّا قَرَأَهَا مَعْنٌ قَالَ لِخَادِمِهِ : أَحْضِرِ ٱلرَّجُلَ صَاحِبَ هٰذِهِ ٱلْكِتَابَةِ . فَخَرَجَ وَجَاءَ بِهِ فَقَالَ لَهُ : مَاذَا كَتَبْتَ . فَأَنْشَدَهُ ٱلْبَيْتَ فَلَمَّا تَحَقَّقَهُ أَمَرَ لَهُ بِأَلْفِ دِرْهَمٍ . ثُمَّ إِنَّ مَعْنًا وَضَعَ تِلْكَ ٱلْخَشَبَةَ تَحْتَ ٱلْبِسَاطِ مَكَانَ جُلُوسِهِ . فَلَمَّا كَانَ ٱلْيَوْمُ ٱلثَّانِي جَاءَ فَجَلَسَ فِي مَجْلِسِهِ فَأَلَمَتْهُ ٱلْخَشَبَةُ فَقَامَ لِيَنْظُرَ مَا أَلَمَهُ فَرَأَى ٱلْخَشَبَةَ فَأَمَرَ خَادِمَهُ أَنْ يَدْعُوَ ٱلرَّجُلَ . فَمَضَى وَجَاءَ بِهِ فَأَمَرَ لَهُ بِأَلْفِ دِرْهَمٍ ثَانِيَةً . ثُمَّ إِنَّهُ فِي ٱلثَّالِثِ خَرَجَ إِلَى مَجْلِسِهِ فَأَلَمَتْهُ ٱلْخَشَبَةُ فَدَعَا ٱلشَّاعِرَ وَأَعْطَاهُ أَلْفَ دِرْهَمٍ أَيْضًا . فَلَمَّا رَأَى ٱلشَّاعِرُ هٰذَا ٱلْعَطَاءَ ٱلزَّائِدَ لِأَجْلِ بَيْتٍ وَاحِدٍ مِنَ ٱلشِّعْرِ خَافَ أَنَّ مَعْنًا يُرَاجِعُهُ عَقْلُهُ وَيَأْخُذُ ٱلْمَالَ مِنْهُ فَهَرَبَ . ثُمَّ إِنَّ مَعْنًا خَرَجَ إِلَى مَجْلِسِهِ فِي ٱلْيَوْمِ ٱلرَّابِعِ فَأَلَمَتْهُ فَخَطَرَ ٱلشَّاعِرُ بِبَالِهِ فَأَمَرَ خَادِمَهُ أَنْ يُحْضِرَهُ وَيُعْطِيَهُ أَلْفَ دِرْهَمٍ . فَمَضَى ٱلْخَادِمُ وَسَأَلَ عَنْهُ فَقِيلَ لَهُ إِنَّهُ سَافَرَ . فَرَجَعَ وَأَخْبَرَ مَوْلَاهُ . فَلَمَّا بَلَغَهُ أَنَّهُ سَافَرَ ٱغْتَمَّ جِدًّا وَقَالَ : وَدِدْتُ وَٱللّٰهِ لَوْ أَنَّهُ مَكَثَ وَأَعْطَيْتُهُ كُلَّ يَوْمٍ أَلْفًا حَتَّى لَا يَبْقَى فِي بَيْتِي دِرْهَمٌ

ابرهيم الموصلي والمهدي

٣١٣ حَدَّثَ إِبْرٰهِيمُ ٱلْمَوْصِلِيُّ قَالَ : كَانَ ٱلْمَهْدِيُّ لَا يَشْرَبُ ٱلْخَمْرَ فَأَرَادَنِي عَلَى مُلَازَمَتِهِ وَتَرْكِ ٱلشُّرْبِ فَأَبَيْتُ فَحَبَسَنِي . ثُمَّ دَعَانِي

يوماً فعاتبني على شربي الخمر في منازل الناس وقال: لا تدخل على موسى وهارون البتة. ولئن دخلت عليهما لأفعلن بك ولأصنعن. فقلت: نعم. ثم بلغه أني دخلت عليهما في نزهة لهما. فسعي بهما وبي إلى المهدي. فدعاني فسألني فأنكرت. فأمر بي فجردت فضربت ثلاثمائة وستين سوطاً. فقلت له وهو يضربني: إن جرمي ليس من الأجرام التي يحل لك بها سفك دمي. فلما قلت له هذا: ضربني بالسيف في جفنه فشجني به وسقطت مغشياً علي ساعة. ثم فتحت عيني فوقعتا على عيني المهدي. فرأيتهما عيني نادم. وقال لابن مالك: خذه إليك. قال: فأخرجني إلى داره وأنا أرى الدنيا في عيني صفراء وخضراء من حر السوط. وأمره أن يتخذ لي شبيهاً بالقبر فصيرني فيه. فدعا بكبش وسلخه. فألبسني جلده ليسكن الضرب. ودفعني إلى خادمة له فصيرتني في ذلك القبر. فتأذيت بالنز وبالبق في ذلك القبر. وكان فيه خلاء أستريح إليه فقلت للأمة: اطلبي لي أجرة عليها فحم وكندر يذهب عني هذا البق. فأتتني بذلك. فلما دخنت أظلم القبر علي وكادت نفسي تخرج من الفم. فاسترحت من أذاه إلى النز فألصقت به أنفي حتى خف الدخان. فلما ظننت أني قد استرحت مما كنت فيه إذا حيتان مقبلتان نحوي من شق القبر تدوران حولي بحفيف شديد. فهممت أن آخذ واحدة بيدي اليمنى والأخرى بيدي اليسرى فإما علي وإما لي. ثم كفيتهما فدخلتا من الثقب الذي

خَرَجْتَا مِنْهُ . فَمَكَثْتُ فِي ذَلِكَ ٱلْقَبْرِ مَا شَاءَ ٱللّٰهُ وَقُلْتُ فِي ٱلْحَبْسِ :

أَلَا طَالَ لَيْلِي أُرَاعِي ٱلنُّجُومَ أُعَالِجُ فِي ٱلسَّاقِ كَبْلًا ثَقِيلَا
بِدَارِ ٱلْهَوَانِ وَشَرِّ ٱلدِّيَارِ أُسَامُ بِهَا ٱلْخَسْفَ صَبْرًا جَمِيلَا
كَثِيرُ ٱلْأَخِلَّاءِ عِنْدَ ٱلرَّخَاءِ فَلَمَّا حُبِسْتُ أَرَاهُمْ قَلِيلَا
لِطُولِ بَلَائِي مَلَّ ٱلصَّدِيقُ فَلَا يَأْمَنَنَّ خَلِيلٌ خَلِيلَا

ثُمَّ أَخْرَجَنِي ٱلْمَهْدِيُّ وَأَحْلَفَنِي (بِكُلِّ يَمِينٍ لَا فُسْحَةَ لِي فِيهَا) أَنْ لَا أَدْخُلَ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ أَبَدًا وَلَا أُغَنِّيَهُمَا وَخَلَّى سَبِيلِي (الاغاني)

المرأة المتظلمة وابن المأمون

٣١٤ حَدَّثَ ٱلشَّيْبَانِيُّ قَالَ : جَلَسَ ٱلْمَأْمُونُ يَوْمًا لِلْمَظَالِمِ . فَكَانَ آخِرُ مَنْ تَقَدَّمَ إِلَيْهِ وَقَدْ هَمَّ بِٱلْقِيَامِ ٱمْرَأَةً عَلَيْهَا هَيْئَةُ ٱلسَّفَرِ وَعَلَيْهَا ثِيَابٌ رَثَّةٌ . فَوَقَفَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ فَقَالَتْ : ٱلسَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةُ ٱللّٰهِ وَبَرَكَاتُهُ . فَنَظَرَ ٱلْمَأْمُونُ إِلَى يَحْيَى بْنِ أَكْثَمَ فَقَالَ لَهَا يَحْيَى : وَعَلَيْكِ ٱلسَّلَامُ يَا أَمَةَ ٱللّٰهِ تَكَلَّمِي فِي حَاجَتِكِ . فَقَالَتْ :

يَا خَيْرَ مُنْتَصِفٍ يُهْدَى لَهُ ٱلرَّشَدُ وَيَا إِمَامًا بِهِ قَدْ أَشْرَقَ ٱلْبَلَدُ
تَشْكُو إِلَيْكَ عَمِيدَ ٱلْقَوْمِ أَرْمَلَةٌ عَدَا عَلَيْهَا فَلَمْ يَتْرُكْ لَهَا سَبَدُ
وَٱبْتَزَّ مِنِّي ضِيَاعِي بَعْدَ مَنْعَتِهَا ظُلْمًا وَفَرَّقَ مِنِّي ٱلْأَهْلَ وَٱلْوَلَدُ

فَأَطْرَقَ ٱلْمَأْمُونُ حِينًا ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيْهَا وَهُوَ يَقُولُ :

فِي دُونِ مَا قُلْتِ زَالَ ٱلصَّبْرُ وَٱلْجَلَدُ عَنِّي وَقُرِّحَ مِنِّي ٱلْقَلْبُ وَٱلْكَبِدُ
هٰذَا أَذَانُ صَلَاةِ ٱلْعَصْرِ فَٱنْصَرِفِي وَأَحْضِرِي ٱلْخَصْمَ فِي ٱلْيَوْمِ ٱلَّذِي أَعِدُ

والمجلس السبت إن يقض الخلوس لنا ننصفك منه وإلا المجلس الأحد فلما كان اليوم الأحد جلس فكان أول من تقدم إليه تلك المرأة . فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته . فقال : وعليك السلام أين الخصم . فقالت : الواقف على رأسك يا أمير المؤمنين . وأومأت إلى العباس ابنه . فقال : يا أحمد بن أبي خالد خذ بيده فأجلسه معها مجلس الخصوم . فجعل كلامها يعلو كلام العباس فقال لها أحمد بن أبي خالد : يا أمة الله إنك بين يدي أمير المؤمنين . وإنك تكلمين الأمير فاخفضي من صوتك . فقال المأمون : دعها يا أحمد فإن الحق أنطقها وأخرسه . ثم قضى لها برد ضيعتها إليها . وظلم العباس بظلمه لها . وأمر بالكتاب لها إلى العامل ببلدها أن يوغر لها ضيعتها ويحسن معاونتها وأمر لها بنفقة (لابن عبد ربه)

المرأة الكريمة

٣١٥ حكي أن عبد الله بن عباس كان من أكابر الأجواد الكرام فنزل منزلا . وكان منصرفا من الشام إلى الحجاز . فطلب من غلمانه طعاما فلم يجدوا . فقال لوكيله : اذهب في هذه البرية فلعلك تجد راعيا أو حيا فيه لبن أو طعام . فمضى بالغلمان فوقعوا على عجوز في حي . فقالوا لها : عندك طعام نبتاعه . قالت : أما طعام البيعة فلا ولكن عندي ما به حاجة لي ولأبنائي . قالوا : فأين بنوك . قالت : في رعي لهم وهذا أوان أوبتهم . قالوا : فما أعددت لك ولهم قالت : خبزة تحت

مِلّتِها. قالوا: وما هو غيرُ ذلكِ. قالتْ: لا شيْء. قالوا: فجودي لنا بشطرِها. فقالتْ: أمّا الشطرُ فلا أجودُ بِهِ وأمّا الكلُّ فخذوه. فقالوا لها: تمنعينَ النصفَ وتجودينَ بالكلِّ. فقالتْ: نعم لأنَّ إعطاءَ الشَّطرِ نقيصةٌ. وإعطاءَ الكلِّ كمالٌ وفضيلةٌ. فأنا أمنعُ ما يضعني وأمنحُ ما يرفعني. فأخذوها ولم تسألهم من هم ولا من أينَ جاءوا. فلمّا جاءوا إلى عبدِ اللهِ وأخبروه بخبرِها عجبَ مِن ذلكَ. ثمَّ قالَ لهمْ: احملوها إليَّ الساعةَ فرجعوا إليها. وقالوا لها: انطلقي معنا إلى صاحبِنا فإنّه يريدكِ. فقالتْ: ومَن صاحبكمْ. قالوا: عبدُ اللهِ بنُ عباسٍ. قالتْ: وأيكمْ هذا هو الشرفُ العالي وذروتُه الرفيعةُ. وماذا يريدُ مني. قالوا: مكافأتكِ وبرّكِ. فقالتْ: أواهِ واللهِ لو كانَ ما فعلتُ معروفًا ما أخذتُ له بدلًا. فكيفَ وهو شيْءٌ يجبُ على الخلقِ أنْ يشاركَ فيهِ بعضهم بعضًا. فلمْ يزالوا بها إلى أنْ أخذوها إليهِ. فلمّا وصلتْ إليهِ سلّمتْ عليهِ فردَّ عليها السلامَ. وقرّبَ مجلسَها ثمّ قالَ لها: ممّنْ أنتِ. قالتْ: مِن بني كلبٍ. قالَ: فكيفَ حالكِ. قالتْ: أسهرُ اليسيرَ وأهجعُ أكثرَ الليلِ وأرى قرةَ العينِ في شيْءٍ. فلمْ يكُ مِن الدنيا شيْءٌ إلّا وقدْ وجدتُه. قالَ: فما ادخرتِ لبنيكِ إذا حضروا. قالتْ: أدّخرُ لهمْ ما قالَه حاتمُ طيٍّ حيثُ قالَ:

ولقدْ أبيتُ على الطوى وأظلُّهُ … حتّى أنالَ بِهِ كريمَ المأكلِ

فازدادَ عبدُ اللهِ منها تعجّبًا. ثمّ قالَ لها: لو جاءَ بنوكِ وهمْ جياعٌ ما

كُنْتِ تَصْنَعِينَ. قَالَتْ: يَا هٰذَا لَقَدْ عَظُمَتْ عِنْدَكَ هٰذِهِ ٱلْخُبْزَةُ حَتَّى أَكْثَرْتَ فِيهَا مَقَالَكَ. وَأَشْغَلْتَ بِهَا بَالَكَ. إِلْهَ عَنْ هٰذَا فَإِنَّهُ يُفْسِدُ ٱلنَّفْسَ وَيُؤَثِّرُ فِي ٱلْخِسَّةِ. فَقَالَ عَبْدُ ٱللهِ: أَحْضِرُوا لِي أَوْلَادَهَا فَأَحْضَرُوهُمْ فَلَمَّا دَنَوْا مِنْهُ رَأَوْا أُمَّهُمْ وَسَلَّمُوا. فَأَدْنَاهُمْ إِلَيْهِ وَقَالَ: إِنِّي لَمْ أَطْلُبْكُمْ وَأُمَّكُمْ لِمَكْرُوهٍ وَإِنَّمَا أُحِبُّ أَنْ أُصْلِحَ مِنْ شَأْنِكُمْ وَأَلُمَّ شَعَثَكُمْ. فَقَالُوا: إِنَّ هٰذَا قَلَّ أَنْ يَكُونَ إِلَّا عَنْ سُؤَالٍ أَوْ مُكَافَأَةٍ لِفِعْلٍ قَدِيمٍ. قَالَ: لَيْسَ شَيْءٌ مِنْ ذٰلِكَ وَلٰكِنْ جَاوَرْتُكُمْ فِي هٰذِهِ ٱللَّيْلَةِ فَأَحْبَبْتُ أَنْ أَضَعَ بَعْضَ مَالِي فِيكُمْ. قَالُوا: يَا هٰذَا نَحْنُ فِي خَفْضِ عَيْشٍ وَكَفَافٍ مِنَ ٱلرِّزْقِ فَوَجِّهْهُ نَحْوَ مَنْ يَسْتَحِقُّهُ. وَإِنْ أَرَدْتَ ٱلنَّوَالَ مُبْتَدَأً مِنْ غَيْرِ سُؤَالٍ فَتَقَدَّمْ فَمَعْرُوفُكَ مَشْكُورٌ وَبِرُّكَ مَقْبُولٌ. فَقَالَ: نَعَمْ هُوَ ذَاكَ. وَأَمَرَ لَهُمْ بِعَشَرَةِ آلَافِ دِرْهَمٍ وَعِشْرِينَ نَاقَةً. فَقَالَتِ ٱلْعَجُوزُ لِأَوْلَادِهَا: لِيَقُلْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ شَيْئًا مِنَ ٱلشِّعْرِ وَأَنَا أَتْبَعُكُمْ فِي شَيْءٍ مِنْهُ. فَقَالَ ٱلْأَكْبَرُ:

شَهِدْتُ عَلَيْكَ بِطِيبِ ٱلْكَلَامِ   وَطِيبِ ٱلْفِعَالِ وَطِيبِ ٱلْخَبَرْ

وَقَالَ ٱلْأَوْسَطُ:

تَبَرَّعْتَ بِٱلْجُودِ قَبْلَ ٱلسُّؤَالِ   فَعَالٌ عَظِيمٌ كَرِيمُ ٱلْخَطَرْ

وَقَالَ ٱلْأَصْغَرُ:

وَحَقٌّ لِمَنْ كَانَ ذَا فِعْلُهُ   بِأَنْ يَسْتَرِقَّ رِقَابَ ٱلْبَشَرْ

وَقَالَتِ ٱلْعَجُوزُ:

فَعَمْرُكَ ٱللهُ مِنْ مَاجِدٍ   وَوُقِيتَ كُلَّ ٱلرَّدَى وَٱلْحَذَرْ

الأعرابي ومالك بن طوق

٣١٦ وَفَدَ أَعْرَابِيٌّ عَلَى مَالِكِ بْنِ طَوْقٍ وَكَانَ زَرِيَّ ٱلْحَالِ رَثَّ ٱلْهَيْئَةِ. فَمُنِعَ مِنَ ٱلدُّخُولِ إِلَيْهِ. فَأَقَامَ بِٱلرَّحْبَةِ أَيَّامًا. فَخَرَجَ مَالِكٌ ذَاتَ يَوْمٍ يُرِيدُ ٱلنُّزْهَةَ حَوْلَ ٱلرَّحْبَةِ. فَعَارَضَهُ ٱلْأَعْرَابِيُّ فَمَنَعَهُ ٱلشُّرْطَةُ ٱزْدِرَاءً بِهِ. فَلَمْ يَنْثَنِ عَنْهُ حَتَّى أَخَذَ بِعِنَانِ فَرَسِهِ ثُمَّ قَالَ: أَيُّهَا ٱلْأَمِيرُ أَنَا عَائِذٌ بِكَ مِنْ شُرَطِكَ. فَنَهَاهُمْ عَنْهُ وَأَبْعَدَهُمْ مِنْهُ ثُمَّ قَالَ لَهُ: هَلْ مِنْ حَاجَةٍ. قَالَ: نَعَمْ أَصْلَحَ ٱللهُ ٱلْأَمِيرَ. قَالَ: وَمَا هِيَ. قَالَ: أَنْ تُصْغِيَ إِلَيَّ بِسَمْعِكَ. وَتَنْظُرَ إِلَيَّ بِطَرْفِكَ. وَتُقْبِلَ عَلَيَّ بِوَجْهِكَ. ثُمَّ أَنْشَدَ:

بِبَابِكَ دُونَ ٱلنَّاسِ أَنْزَلْتُ حَاجَتِي   وَأَقْبَلْتُ أَسْعَى نَحْوَهُ وَأَطُوفُ
وَيَمْنَعُنِي ٱلْحُجَّابُ وَٱللَّيْلُ مُسْبِلٌ   وَأَنْتَ بَعِيدٌ وَٱلرِّجَالُ صُفُوفُ
يَطُوفُونَ حَوْلِي بِٱلْقُلُوبِ كَأَنَّهُمْ   ذِئَابٌ جِيَاعٌ بَيْنَهُنَّ خَرُوفُ
فَأَمَّا وَقَدْ أَبْصَرْتُ وَجْهَكَ مُقْبِلًا   وَأُصْرَفُ عَنْهُ إِنَّنِي لَضَعِيفُ
وَمَا لِي مِنَ ٱلدُّنْيَا سِوَاكَ وَمَا لِمَنْ   تَرَكْتُ وَرَائِي مَرْبَعٌ وَمَصِيفُ
وَقَدْ عَلِمَ ٱلْحَيَّانِ قَيْسٌ وَخِنْدِفٌ   وَمَنْ هُوَ فِيهَا نَازِلٌ وَحَلِيفُ
تَخَطَّيْتُ أَعْنَاقَ ٱلْمُلُوكِ وَرِحْلَتِي   إِلَيْكَ وَقَدْ أَخْنَتْ عَلَيَّ صُرُوفُ
فَجِئْتُكَ أَبْغِي ٱلْخَيْرَ مِنْكَ فَهَزَّنِي   بِبَابِكَ مِنْ ضَرْبِ ٱلْعَبِيدِ صُنُوفُ
فَلَا تَجْعَلَنْ لِي نَحْوَ بَابِكَ عَوْدَةً   فَقَلْبِي مِنْ ضَرْبِ ٱلْعَبِيدِ مَخُوفُ

فَٱسْتَضْحَكَ مَالِكٌ حَتَّى كَادَ يَسْقُطُ عَنْ فَرَسِهِ. ثُمَّ قَالَ لِمَنْ

حَوْلَهُ : مَنْ يُعْطِيهِ دِرْهَمًا بِدِرْهَمَيْنِ وَثَوْبًا بِثَوْبَيْنِ . فَنُثِرَتِ الدَّرَاهِمُ وَوَقَعَتِ الثِّيَابُ عَلَيْهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ حَتَّى تَحَيَّرَ الْأَعْرَابِيُّ وَاخْتَلَطَ عَقْلُهُ لِكَثْرَةِ مَا أُعْطِيَ . فَقَالَ لَهُ مَالِكٌ : هَلْ بَقِيَتْ لَكَ حَاجَةٌ يَا أَخَا الْعَرَبِ . قَالَ : أَمَّا إِلَيْكَ فَلَا . قَالَ : فَإِلَى مَنْ . قَالَ : إِلَى اللهِ أَنْ يُبْقِيَكَ لِلْعَرَبِ فَإِنَّهَا لَا تَزَالُ بِخَيْرٍ مَا بَقِيتَ لَهَا (للقليوبي)

الخارجيّ والمعتصم

٣١٧ أَخْبَرَ بَعْضُهُمْ قَالَ : مَا رَأَيْتُ رَجُلًا عُرِضَ عَلَيْهِ الْمَوْتُ فَلَمْ يَكْتَرِثْ بِهِ إِلَّا تَمِيمَ بْنَ جَمِيلٍ الْخَارِجِيَّ . كَانَ قَدْ خَرَجَ عَلَى الْمُعْتَصِمِ وَرَأَيْتُهُ قَدْ جِيءَ بِهِ أَسِيرًا . فَدَخَلَ عَلَيْهِ فِي يَوْمِ مَوْكِبٍ وَقَدْ جَلَسَ الْمُعْتَصِمُ لِلنَّاسِ مَجْلِسًا عَامًّا وَدَعَا بِالسَّيْفِ وَالنِّطْعِ . فَلَمَّا مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ نَظَرَ إِلَيْهِ الْمُعْتَصِمُ فَأَعْجَبَهُ شَكْلُهُ وَقَدُّهُ وَمَشْيُهُ إِلَى الْمَوْتِ غَيْرَ مُكْتَرِثٍ بِهِ . فَأَطَالَ الْفِكْرَةَ فِيهِ ثُمَّ اسْتَنْطَقَهُ لِيَنْظُرَ فِي عَقْلِهِ وَبَلَاغَتِهِ فَقَالَ : يَا تَمِيمُ إِنْ كَانَ لَكَ عُذْرٌ فَأْتِ بِهِ . فَقَالَ : أَمَّا إِذَا أَذِنَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ (جَبَرَ اللهُ بِهِ صَدْعَ الدِّينِ . وَلَمَّ شَعَثَ الْمُسْلِمِينَ . وَأَخْمَدَ شِهَابَ الْبَاطِلِ . وَأَنَارَ سُبُلَ الْحَقِّ) . فَالذُّنُوبُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ تُخْرِسُ الْأَلْسِنَةَ وَتَصْدَعُ الْأَفْئِدَةَ . وَايْمُ اللهِ لَقَدْ عَظُمَتِ الْجَرِيرَةُ وَانْقَطَعَتِ الْحُجَّةُ . وَسَاءَ الظَّنُّ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْعَفْوُ أَوِ الِانْتِقَامُ . وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَقْرَبُ إِلَى الْعَفْوِ وَهُوَ أَلْيَقُ بِشِيَمِهِ الطَّاهِرَةِ . ثُمَّ أَنْشَدَ :

أَرَى الْمَوْتَ بَيْنَ السَّيْفِ وَالنِّطْعِ كَامِنًا يُلَاحِظُنِي مِنْ حَيْثُ مَا أَتَلَفَّتُ

وَأَكْبَرُ ظَنِّي أَنَّكَ ٱلْيَوْمَ قَاتِلِي ... وَأَيُّ ٱمْرِئٍ مِمَّا قَضَى ٱللهُ يُفْلِتُ
وَمَنْ ذَا ٱلَّذِي يَأْتِي بِعُذْرٍ وَحُجَّةٍ ... وَسَيْفُ ٱلْمَنَايَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ مُصْلَتُ
وَمَا جَزَعِي مِنْ أَنْ أَمُوتَ وَإِنَّنِي ... لَأَعْلَمُ أَنَّ ٱلْمَوْتَ شَيْءٌ مُوَقَّتُ
وَلٰكِنَّ خَلْفِي صِبْيَةً قَدْ تَرَكْتُهُمْ ... وَأَكْبَادُهُمْ مِنْ حَسْرَةٍ تَتَفَتَّتُ
كَأَنِّي أَرَاهُمْ حِينَ أُنْعَى إِلَيْهِمِ ... وَقَدْ لَطَمُوا تِلْكَ ٱلْخُدُودَ وَصَوَّتُوا
فَإِنْ عِشْتُ عَاشُوا سَالِمِينَ بِغِبْطَةٍ ... أَذُودُ ٱلرَّدَى عَنْهُمْ وَإِنْ مُتُّ مُوِّتُوا

قَالَ فَبَكَى ٱلْمُعْتَصِمُ وَقَالَ: إِنَّ مِنَ ٱلْبَيَانِ لَسِحْرًا. ثُمَّ قَالَ: كَادَ وَٱللهِ يَا تَمِيمُ أَنْ يَسْبِقَ ٱلسَّيْفُ ٱلْعَذَلَ وَقَدْ وَهَبْتُكَ لِلهِ وَلِصِبْيَتِكَ وَأَعْطَاهُ خَمْسِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ (ثمرات الاوراق للحموي)

قصة رجل اجار رجلًا استغاث به وكان خائفًا على دمه فجوزي على احسانه

٣١٨ حَكَى ٱلْعَبَّاسُ حَاجِبُ ٱلْمَنْصُورِ قَالَ: لَمَّا مَلَكَ ٱلْعَبَّاسُ ٱلسَّفَّاحُ ٱلْبِلَادَ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ وَٱسْتَوْلَى عَلَى ٱلْخِلَافَةِ قَطَعَ آثَارَ بَنِي أُمَيَّةَ مِنْ جَمِيعِ ٱلْبِلَادِ. فَبَعْدَ مُدَّةٍ قَلِيلَةٍ تَرَاجَعَ ٱلْمُتَعَصِّبُونَ لِبَنِي أُمَيَّةَ وَأَثَارُوا فِتْنَةً عَظِيمَةً فِي ٱلشَّامِ. وَكَانَ ذٰلِكَ بَعْدَ مَوْتِ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْعَبَّاسِ ٱلسَّفَّاحِ وَتَوْلِيَةِ ٱلْخِلَافَةِ لِأَخِيهِ أَبِي جَعْفَرٍ ٱلْمَنْصُورِ. فَقَامَ ٱلْأُمَوِيُّونَ عَلَى ٱلْعَبَّاسِيِّينَ وَقَتَلُوا جَمِيعَ مَنْ وَقَعَ مِنْهُمْ فِي أَيْدِيهِمْ. وَبَلَغَنِي ٱلْخَبَرُ وَأَنَا مَاشٍ فِي شَارِعٍ وَمَاضٍ لِأَبْتَاعَ شَيْئًا أَنَّهُمْ طَلَبُونِي وَأَدْرَكُونِي. فَهَرَبْتُ وَدَخَلْتُ دَارًا وَجَدْتُ بَابَهَا مَفْتُوحًا فَلَقِيتُ فِي سَاحَتِهَا شَيْخًا مَهِيبًا جَالِسًا فَقَالَ: مَنِ ٱلرَّجُلُ. فَقُلْتُ: خَائِفٌ عَلَى دَمِهِ وَقَدْ أَدْرَكَهُ ٱلطَّلَبُ. فَقَالَ:

مَرْحَبًا لَا بَأْسَ عَلَيْكَ ٱدْخُلْ هٰذِهِ ٱلْمَقْصُورَةَ. وَأَشَارَ لِي إِلَى بَابٍ فَدَخَلْتُهُ وَمَضَى مُسْرِعًا وَأَقْفَلَ ٱلْبَابَ وَدَخَلَ حُرَمَهُ وَأَتَانِي مِنْ ثِيَابِهِنَّ وَقَالَ لِي: قُمِ ٱشْلَحْ مَا عَلَيْكَ وَٱلْبَسْ هٰذِهِ ٱلثِّيَابَ لِأَنِّي رَأَيْتُ ٱلطَّلَبَ عَلَيْكَ شَدِيدًا. فَلَبِسْتُ ثِيَابَ ٱلنِّسَاءِ ثُمَّ أَدْخَلَنِي إِلَى مَقْصُورَةِ حُرَمِهِ وَجَعَلَنِي بَيْنَهُنَّ. فَمَا لَبِثْتُ قَلِيلًا أَنْ طُرِقَ بَابُ ٱلدَّارِ وَقَدْ حَضَرَتِ ٱلرِّجَالُ فِي طَلَبِي. فَدَخَلَ ٱلرَّجُلُ عِنْدِي وَقَالَ لِي: لَا تَخَفْ بَلْ كُنْ مُسْتَقِرًّا فِي حَرَمِي. ثُمَّ نَزَلَ وَفَتَحَ ٱلْبَابَ لِلنَّاسِ فَطَلَبُونِي مِنْهُ فَأَنْكَرَنِي وَقَالَ: إِنَّهُ لَمْ يَرَنِي. فَقَالُوا لَهُ: نُفَتِّشُ بَيْتَكَ فَقَالَ لَهُمْ: دُونَكُمْ فَلَكُمْ ذٰلِكَ. فَدَخَلَ ٱلْقَوْمُ وَفَتَّشُوا جَمِيعَ دَارِ ٱلرَّجُلِ إِلَّا ٱلْمَقْصُورَةَ ٱلَّتِي فِيهَا حُرَمُهُ فَلَمْ يَجِدُوا شَيْئًا. فَذَهَبُوا وَأَقْفَلَ ٱلرَّجُلُ بَابَ دَارِهِ وَدَخَلَ عَلَيَّ وَقَالَ: ٱلْحَمْدُ لِلّٰهِ عَلَى سَلَامَتِكَ وَجَعَلَ لَا يَبْرَحُ مِنْ تَأْنِيسِي وَمُجَالَسَتِي وَإِكْرَامِي مُدَّةَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ. فَقُلْتُ لَهُ يَوْمًا: يَا مَوْلَايَ لَقَدْ طَالَ مُقَامِي وَأَنَا أُرِيدُ ٱللَّحَاقَ بِوَلِيِّ نِعْمَتِي. فَقَالَ: أَمَّا إِذَا شِئْتَ فَٱمْضِ مُعَافًى. ثُمَّ إِنَّهُ أَحْضَرَ لِي زَادًا كَثِيرًا وَرَكُوبَةً وَأَعْطَانِي صُرَّةً فِيهَا خَمْسُمِائَةِ دِينَارٍ وَقَالَ لِي: كُلُّ ٱحْتِيَاجِ سَفَرِكَ مُعَدٌّ إِلَّا أَنَّنِي أَخَافُ عَلَيْكَ أَنْ تَمْضِيَ وَتَخْرُجَ مِنَ ٱلْمَدِينَةِ نَهَارًا فَتُعْرَفَ فَأَمْهِلْ إِلَى بَعْدِ ٱلْغُرُوبِ قَبْلَ قَفْلِ أَبْوَابِ ٱلْمَدِينَةِ. فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّ ٱلرَّأْيَ رَأْيُكَ. فَصَبَرْتُ إِلَى أَنْ أَظْلَمَتْ ثُمَّ قُمْتُ وَقَامَ مَعِي وَأَخْرَجَنِي مِنْ بَابِ ٱلشَّامِ وَسَارَ مَعِي مَسَافَةً طَوِيلَةً فَأَقْسَمْتُ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَزِيدَ عَلَى ذٰلِكَ. فَوَدَّعَنِي وَرَجَعَ وَسِرْتُ شَاكِرًا لِلرَّجُلِ

وَمُتَعَجِّبًا مِنْ غَزَارَةِ إِحْسَانِهِ إِلَى أَنْ بَلَغْتُ بَغْدَادَ وَلَحِقْتُ بِأَبِي جَعْفَرٍ الْمَنْصُورِ. فَذَاتَ يَوْمٍ لَمَّا قُمْتُ صَبَاحًا عَلَى عَادَتِي الْفَجْرَ الْعَمِيقَ وَخَرَجْتُ مِنْ دَارِي قَاصِدًا دَارَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمَنْصُورِ وَجَدْتُ رَسُولَهُ فِي الطَّرِيقِ وَهُوَ آتٍ مِنْ عِنْدِهِ يَدْعُونِي لَهُ. فَانْطَلَقْتُ مُسْرِعًا إِلَى أَنْ دَخَلْتُ عَلَيْهِ فَنَظَرَ إِلَيَّ وَقَالَ لِي: يَا عَبَّاسُ. فَقُلْتُ لَبَّيْكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. قَالَ خُذْ هٰذَا الرَّجُلَ وَاحْتَفِظْ بِهِ وَغَدًا ائْتِنِي بِهِ وَاعْلَمْ أَنَّهُ إِنْ فُقِدَ مِنْكَ فَلَا أَرْضَى إِلَّا بِعُنُقِكَ. فَقُلْتُ سَمْعًا وَطَاعَةً يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. فَنَظَرْتُ فَوَجَدْتُ أَمَامَهُ فِي نَاحِيَةِ الْمَكَانِ شَيْخًا مُقَيَّدًا فِي عُنُقِهِ وَيَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ فَأَخَذْتُهُ وَخَرَجْتُ بِهِ فَأَرْكَبْتُهُ وَأَتَيْتُ بِهِ إِلَى بَيْتِي. وَلِكَثْرَةِ حِرْصِي عَلَيْهِ مِنْ أَجْلِ وَصِيَّةِ الْمَنْصُورِ لِي دَعَوْتُ غِلْمَانِي وَأَمَرْتُهُمْ فَفَرَشُوا لَنَا مَقْصُورَةً وَأَجْلَسْتُ الرَّجُلَ فِيهَا وَجَلَسْتُ إِلَى جَانِبِهِ وَوَضَعْتُ طَرَفَ قَيْدِهِ فِي رِجْلِي وَطَبَّقْتُ عَلَيْهَا. كُلُّ ذٰلِكَ حِرْصًا عَلَى الرَّجُلِ لِئَلَّا يَهْرُبَ فَيَرُوحَ عُنُقِي. فَلَمَّا مَضَى النَّهَارُ وَجَاءَ الْمَغْرِبُ أَمَرْتُ غِلْمَانِي فَجَاءُوا بِالْمَائِدَةِ وَعَلَيْهَا الطَّعَامُ وَالشَّرَابُ. فَجَلَسْتُ أَنَا وَالرَّجُلُ فَأَكَلْنَا ثُمَّ غَسَلْنَا أَيْدِيَنَا وَجَلَسْنَا وَقَدْ ضَجِرْتُ مِنَ السُّكُوتِ لِأَنَّ الرَّجُلَ مَهْمُومٌ وَيُفَكِّرُ فِي شَأْنِهِ فَسَأَلْتُهُ مِنْ أَيْنَ هُوَ. فَقَالَ: مِنَ الشَّامِ. فَقُلْتُ: أَتَعْرِفُ فُلَانَ الْفُلَانِيَّ فِي الشَّامِ. فَقَالَ: مَا أَحَدٌ أَعْرَفُ بِهِ مِنِّي لِمَاذَا تَسْأَلُ عَنْهُ. فَقُلْتُ لَهُ: لِأَنِّي أَسِيرُ مَعْرُوفِهِ وَعَبْدُ إِحْسَانِهِ. وَأَخْبَرْتُهُ بِمَا عَمِلَهُ مَعِي فِي زَمَانِ فِتْنَةِ الشَّامِ. فَتَبَسَّمَ الرَّجُلُ فَلَمَّا تَبَسَّمَ تَفَرَّسْتُ فِيهِ فَإِذَا هُوَ هُوَ. فَطَارَ عَقْلِي مِنْ

رَأْسِي فَرَحًا بِهِ فَجَعَلْتُ أَسْأَلُهُ إِلَى أَنْ تَحَقَّقْتُهُ فَقُمْتُ حِينَئِذٍ وَكَسَرْتُ أَقْفَالَ قُيُودِهِ وَهُوَ يَمْتَنِعُ مِنْ ذٰلِكَ. ثُمَّ أَمَرْتُ الْغِلْمَانَ فَأَحْضَرُوا لَهُ ثِيَابًا فَأَبَى لُبْسَهَا فَأَقْسَمْتُ عَلَيْهِ فَلَبِسَهَا. ثُمَّ قَالَ لِي: مَا مُرَادُكَ أَنْ تَعْمَلَ بِي. قُلْتُ: وَاللّٰهِ أُنْقِذُكَ حَتَّى تَصِيرَ بَعِيدًا عَنْ بَغْدَادَ بِمَرَاحِلَ وَتَذْهَبَ فِي حَالِ سَبِيلِكَ. فَقَالَ: أَسْمَعْ هٰذَا لَيْسَ هُوَ الرَّأْيَ الصَّائِبَ لِأَنَّكَ إِذَا مَضَيْتَ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ غَيْرِي يَغْضَبُ عَلَيْكَ فَيَقْتُلُكَ وَأَنَا مَعَاذَ اللّٰهِ أَنْ أَشْتَرِيَ سَلَامَتِي بِمَوْتِكَ فَهٰذَا لَا يُمْكِنُ. فَقُلْتُ لَهُ: وَمَا ذَنْبُكَ أَنْتَ عِنْدَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ. فَقَالَ: اتَّهَمُونِي زُورًا بِأَنِّي أَنَا الَّذِي حَرَّكْتُ الْفِتَنَ فِي الشَّامِ وَأَنَّ لِبَنِي أُمَيَّةَ عِنْدِي وَدَائِعَ. فَقُلْتُ: حَيْثُ إِنَّ هٰذَا فَقَطْ جُرْمُكَ وَاللّٰهِ إِنِّي أُهَرِّبُكَ وَأَنَا لَا أُبَالِي مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ قَتَلَنِي وَإِنْ عَفَا عَنِّي. فَإِنَّ إِحْسَانَكَ السَّالِفَ عَلَيَّ عَظِيمٌ جِدًّا. فَقَالَ لِي: لَا تَظُنَّ أَنَّنِي أُطَاوِعُكَ عَلَى ذٰلِكَ وَلٰكِنْ عِنْدِي رَأْيٌ أَصْوَبُ وَهُوَ: دَعْنِي مَحْفُوظًا فِي مَكَانٍ وَامْضِ قُلْ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مَا شِئْتَ مِنْ هَرَبِي. فَإِنْ عَفَا عَنْكَ فَعُدْ إِلَيَّ وَأَطْلِقْنِي فَأَهْرُبَ وَإِنْ أَمَرَ بِقَتْلِكَ فَعِنْدَ ذٰلِكَ أَكُونُ أَنَا فِي أَمْرِكَ فَتُحْضِرُنِي وَتَفْتَدِي نَفْسَكَ. وَعَدَا هٰذَا لَا أَرْتَضِي مَعَكَ بِشَيْءٍ (قَالَ) فَلَمَّا رَأَيْتُ الرَّجُلَ أَبَى إِلَّا هٰذَا وَضَعْتُهُ فِي مَقْصُورَةٍ خَفِيَّةٍ فِي دَارِي وَأَصْبَحْتُ وَأَبْكَرْتُ إِلَى دَارِ الْخِلَافَةِ. فَدَخَلْتُ فَوَجَدْتُ الْمَنْصُورَ جَالِسًا يَنْتَظِرُنِي. فَلَمَّا رَآنِي وَحْدِي قَامَ عِرْقُ الْغَضَبِ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَرَأَيْتُ عَيْنَيْهِ قَدْ صَارَتَا مِثْلَ النَّارِ غَيْظًا عَلَيَّ وَقَالَ لِي: هِيهِ

يا عباس أين الرجل. فقلت له: مهلاً يا أمير المؤمنين فإن العفو أقرب للتقوى وهذا رجل جرى لي معه كيت وكيت وفعل معي كذا وكذا من الإحسان العظيم فالتزمت لحق إحسانه أن أطلقه أملاً بحلمك واتكالاً على كرمك. قال: فرأيت وجه المنصور قد تهلل وقال لي: لحاك الله يا عباس. أيفعل هذا الرجل معك هذا الإحسان العظيم في زمن الفتنة وتطلقه من غير أن تخبرنا بإحسانه لنقوم بإكرامه ونجزيه عما فعله معك من الخير. وجعل المنصور يتأسف ويفرك يديه تحسراً ويقول: أيذهب منا إنسان له علينا إحسان فلا نوفيه بعض ما استوجب عندنا من عظيم معروفه والله إنها الكبرى. فقلت له: يا أمير المؤمنين بأبي وأمي إن الرجل موجود عندي وقد أبى أن يهرب لخوفه على عنقي منك. فقال لي أن أجعله محفوظاً في مكان وآتيك فأخبرك أنه هرب فإن عفوت وإلا رجعت فأحضرته. فاستبشر وجه المنصور وضرب برجله الأرض وقال: هذا والله يساوي مقدار سالف معروف الرجل إليك. فامض مسرعاً وأتني به مكرماً موقراً. فمضيت وأتيت داري ودخلت على الرجل فقبل الأرض شكراً لله تعالى وقام وجاء معي حتى دخلنا على أمير المؤمنين المنصور فحين رآه رحب به وأجلسه بجانبه وأكرمه وخلع عليه خلعاً نفيسة وقال له: هذا جزاء إحسانك. وسأله إن شاء أن يوليه الشام فأبى وشكره. وأطلقه المنصور موقراً وأرسل معه الكتب لولاته يأمرهم بإكرامه والقيام بحوائجه (للاتليدي)

الباب الخامس عشر
في الفكاهات

٣١٩ أرسل ابن خروف الشاعر إلى ابن شدّاد بحلب يطلب منه فروة:

بهاء الدين والدنيا ونور المجد والحسب
طلبت مخافة الأنوا ء من جدواك جلد أبي
وفضلك عالم أني خروف بارع الأدب
حلبت الدهر أشطره وفي حلب صفا حلبي

٣٢٠ دخل أبو دلامة على المنصور فأنشده:

رأيتك في المنام كسوت جلدي ثيابا جمة وقضيت ديني
فكان بنفسجي الخز فيها وساج ناعم فأتم زيني
فصدق يا فدتك الناس رؤيا رأتها في المنام كذاك عيني

فأمر له بذلك وقال: لا تعد فتحلم فأجعل حلمك أضغاثا (للازدي)

سيد العرب

٣٢١ قال الأصمعي: رأيت بالبادية أعرابية تبكي على قبر وتقول:

فمن للسؤال ومن للنوال ومن للمعالي ومن للخطب
ومن للحماة ومن للكماة إذا ما الكماة جثوا للركب
إذا قيل مات أبو مالك فتى المكرمات فريد العرب

فقلت لها: من هذا الذي مات هؤلاء كلهم بموته. فبكت

وقالت : هذا أبو مالكٍ الحجّام ختنُ أبي منصورٍ الحائك . فقلت : لا جازاكِ اللهُ خيرًا . واللهِ ما ظننتُ إلّا أنّه سيّدٌ من ساداتِ العربِ

ابن المغازلي عند المعتضد

٣٢٢ كان ابنُ المغازلِيِّ رجلًا يتكلّمُ ببغدادَ على الطُّرقِ بأخبارٍ ونوادرَ منوّعةٍ . وكان نهايةً في الحذقِ لا يستطيعُ من سمعه أن لا يضحكَ . قال : وقفتُ يومًا على بابِ الخاصّةِ أُضحكُ النّاسَ وأتنادرُ فحضرَ خلفي بعضُ خدّامِ المعتضدِ . فأخذتُ في نوادرِ الخدمِ فأعجبَ بذلكَ وانصرفَ . ثمّ عادَ فأخذَ بيدي وقالَ : دخلتُ فوقفتُ بينَ يدي سيّدي فتذكّرتُ حكايتَكَ فضحكتُ . فأنكرَ عليَّ وقالَ : مالَكَ ويلَكَ . فقلتُ : على البابِ رجلٌ يُعرفُ بابنِ المغازلِيِّ يتكلّمُ بحكاياتٍ ونوادرَ تُضحكُ الثّكولَ . فأمرَ بإحضارِكَ ولي نصفُ جائزتِكَ . فطمعتُ في الجائزةِ وقلتُ : يا سيّدي أنا ضعيفٌ وعليَّ عيلةٌ فلو أخذتَ سدسَها أو ربعَها . فأبى وأدخلني . فسلّمتُ فردَّ السّلامَ وهو ينظرُ في كتابٍ . فنظرَ في أكثرِهِ وأنا واقفٌ ثمّ أطبقَهُ ورفعَ رأسَهُ إليَّ وقالَ : أنتَ ابنُ المغازلِيِّ . قلتُ : نعم يا مولاي . قالَ : بلغني أنّكَ تحكي وتُضحكُ بنوادرَ عجيبةٍ . فقلتُ : يا أميرَ المؤمنينَ الحاجةُ تفتقُ الحيلةَ . أجمعُ للنّاسِ حكاياتٍ أتقرّبُ بها إلى قلوبِهم فألتمسُ برَّهم . فقالَ : هاتِ ما عندَكَ فإن أضحكتني أجزتُكَ بخمسمائةِ درهمٍ وإن أنا لم أضحكْ أصفعْكَ بذلكَ الجرابِ عشرَ صفعاتٍ . فقلتُ في

نَفْسِي : مَلِكٌ لَا يَصْفَعُ إِلَّا بِشَيْءٍ لَيِّنٍ خَفِيفٍ. وَٱلْتَفَتُّ فَإِذَا بِجِرَابٍ مِنْ أَدَمٍ مُعَلَّقٍ فِي زَاوِيَةِ ٱلْبَيْتِ. فَقُلْتُ : مَا أَخْطَأَ ظَنِّي عَسَى فِيهِ رِيحٌ. إِنْ أَضْحَكْتُهُ رَبِحْتُ وَأَخَذْتُ ٱلْجَائِزَةَ وَإِلَّا فَعَشْرُ صَفَعَاتٍ بِجِرَابٍ مَنْفُوخٍ شَيْءٌ هَيِّنٌ. ثُمَّ أَخَذْتُ فِي ٱلنَّوَادِرِ وَٱلْحِكَايَاتِ وَٱلنَّفَاسَةِ وَٱلْعِبَارَةِ. فَلَمْ أَدَعْ حِكَايَةَ أَعْرَابِيٍّ وَلَا نَحْوِيٍّ وَلَا مُخَنَّثٍ وَلَا قَاضٍ وَلَا نَبَطِيٍّ وَلَا سِنْدِيٍّ وَلَا زِنْجِيٍّ وَلَا خَادِمٍ وَلَا تُرْكِيٍّ وَلَا شَاطِرٍ وَلَا عَيَّارٍ وَلَا نَادِرَةٍ وَلَا حِكَايَةٍ إِلَّا وَأَحْضَرْتُهَا حَتَّى نَفِدَ كُلُّ مَا عِنْدِي وَتَصَدَّعَ رَأْسِي. وَفَتَرْتُ وَبَرَدْتُ وَلَمْ يَبْقَ وَرَائِي خَادِمٌ وَلَا غُلَامٌ إِلَّا وَقَدْ مَاتُوا مِنَ ٱلضَّحِكِ. وَهُوَ مُقَطِّبٌ لَا يَتَبَسَّمُ. فَقُلْتُ : قَدْ نَفِدَ مَا عِنْدِي وَوَٱللهِ مَا رَأَيْتُ مِثْلَكَ قَطُّ. فَقَالَ لِي : هِيهِ مَا عِنْدَكَ. فَقُلْتُ مَا بَقِيَ لِي سِوَى نَادِرَةٍ وَاحِدَةٍ. قَالَ : هَاتِهَا. قُلْتُ : وَعَدْتَنِي أَنْ تَجْعَلَ جَائِزَتِي عَشْرَ صَفَعَاتٍ وَأَسْأَلُكَ أَنْ تُضْعِفَهَا لِي وَتُضِيفَ إِلَيْهَا عَشْرَ صَفَعَاتٍ أُخْرَى. فَأَرَادَ أَنْ يَضْحَكَ ثُمَّ تَمَاسَكَ وَقَالَ : نَفْعَلُ. يَا غُلَامُ خُذْ بِيَدِهِ. ثُمَّ مَدَدْتُ ظَهْرِي فَصُفِعْتُ بِٱلْجِرَابِ صَفْعَةً فَكَأَنَّمَا سَقَطَتْ عَلَيَّ قِطْعَةٌ مِنْ جَبَلٍ. وَإِذَا هُوَ مَمْلُوءٌ حَصًا مُدَوَّرًا فَصُفِعْتُ عَشْرًا فَكَادَتْ أَنْ تَنْفَصِلَ رَقَبَتِي وَطَنَّتْ أُذُنَايَ وَٱنْقَدَحَ ٱلشُّعَاعُ مِنْ عَيْنِي. فَصِحْتُ : يَا سَيِّدِي نَصِيحَةٌ. فَرَفَعَ ٱلصَّفْعَ بَعْدَ أَنْ عَزَمَ عَلَى ٱلْعِشْرِينَ. فَقَالَ : قُلْ نَصِيحَتَكَ. فَقُلْتُ : يَا سَيِّدِي إِنَّهُ لَيْسَ فِي ٱلدِّيَانَةِ أَحْسَنُ مِنَ ٱلْأَمَانَةِ وَأَقْبَحُ مِنَ ٱلْخِيَانَةِ. وَقَدْ ضَمِنْتُ لِلْخَادِمِ ٱلَّذِي أَدْخَلَنِي نِصْفَ ٱلْجَائِزَةِ عَلَى قِلِّهَا وَكُثْرِهَا.

وأمير المؤمنين بفضله وكرمه قد أضعفها. وقد استوفيت نصفي وبقي نصفه. فضحك حتى استلقى واستفزه ما كان سمع. فتحامل له فما زال يضرب بيديه الأرض ويفحص برجليه ويمسك بمراق بطنه حتى إذا سكن قال: عليّ به فأتي به. وأمر بصفعه وكان طويلا. فقال: وما جنايتي. فقلت له: هذه جائزتي وأنت شريكي فيها. وقد استوفيت نصيبي منها وبقي نصيبك. فلما أخذه الصفع وطرق قفاه الوقع أقبلت ألومه وأقول له: قلت لك إني ضعيف معيل وشكوت إليك الحاجة والمسكنة وأقول لك: خذ ربعها أو سدسها وأنت تقول لا آخذ إلا نصفها. ولو علمت أن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه جائزته الصفع وهبتها لك كلها. فعاد إلى الضحك من عتابي للخادم. فلما استوفى نصيبه أخرج صرة فيها خمسمائة درهم وقال: هذه كنت أعددتها لك فلم يدعك فضولك حتى أحضرت شريكا لك. فقلت: وأين الأمانة. فقسمها بيننا وانصرفت (للشريشي)

ابرهيم الموصلي وابرهيم المهدي عند الرشيد

٣٢٣ قال الرشيد لإبرهيم بن المهدي وإبرهيم الموصلي وابن جامع: باكروني غدا وليكن كل واحد قد قال شعرا إن كان يقدر أن يقوله وغنى فيه لحنا. وإن لم يكن شاعرا غنى في شعر غيره. قال إبرهيم بن المهدي: فقمت في السحر وجهدت أن أقدر على شيء أصنعه فلم يتفق لي. فلما خفت طلوع الفجر دعوت بغلماني وقلت لهم:

إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَمْضِيَ إِلَى مَوْضِعٍ لَا يَشْعُرُ بِي أَحَدٌ حَتَّى أَصِيرَ إِلَيْهِ. وَكَانُوا فِي زُبَيْدِيَّاتٍ لِي يَبِيتُونَ فِيهَا عَلَى بَابِ دَارِي. فَقُمْتُ فَرَكِبْتُ فِي إِحْدَاهَا وَقَصَدْتُ دَارَ إِبْرٰهِيمَ ٱلْمَوْصِلِيِّ. وَكَانَ قَدْ حَدَّثَنِي أَنَّهُ إِذَا أَرَادَ ٱلصَّنْعَةَ لَمْ يَنَمْ حَتَّى يُدَبِّرَ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ. وَٱعْتَمَدَ عَلَى خَشَبَةٍ لَهُ فَلَمْ يَزَلْ يَقْرَعُ عَلَيْهَا حَتَّى يَفْرُغَ مِنَ ٱلصَّوْتِ وَيَرْسَخَ فِي قَلْبِهِ. فَجِئْتُ حَتَّى وَقَفْتُ تَحْتَ دَارِهِ فَإِذَا هُوَ يُرَدِّدُ صَوْتًا أَعَدَّهُ. فَمَا زِلْتُ وَاقِفًا أَسْتَمِعُ مِنْهُ ٱلصَّوْتَ حَتَّى أَخَذْتُهُ. ثُمَّ عَدَوْنَا إِلَى ٱلرَّشِيدِ فَلَمَّا جَلَسْنَا لِلشُّرْبِ خَرَجَ ٱلْخَادِمُ إِلَيَّ فَقَالَ: يَقُولُ لَكَ أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ يَا ٱبْنَ أُمِّ غَنِّنِي. فَٱنْدَفَعْتُ فَغَنَّيْتُ هٰذَا ٱلصَّوْتَ وَٱلْمَوْصِلِيُّ فِي ٱلْمَوْتِ حَتَّى فَرَغْتُ مِنْهُ. فَشَرِبَ عَلَيْهِ وَأَمَرَ لِي بِثَلَاثِمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ. فَوَثَبَ إِبْرٰهِيمُ ٱلْمَوْصِلِيُّ فَحَلَفَ بِٱلطَّلَاقِ وَحَيَاةِ ٱلرَّشِيدِ أَنَّ ٱلشِّعْرَ لَهُ قَالَهُ ٱلْبَارِحَةَ وَغَنَّى فِيهِ. مَا سَبَقَهُ إِلَيْهِ أَحَدٌ. فَقَالَ ٱبْنُ ٱلْمَهْدِيِّ: يَا سَيِّدِي فَمِنْ أَيْنَ هُوَ لِي أَنَا لَوْلَا كَذِبُهُ وَبَهْتُهُ. وَإِبْرٰهِيمُ يَضْطَرِبُ وَيَضِجُّ. فَلَمَّا قَضَيْتُ أَرَبًا مِنَ ٱلْعَبَثِ بِهِ قُلْتُ لِلرَّشِيدِ: ٱلْحَقُّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ وَصَدَّقْتُهُ. فَقَالَ لِلْمَوْصِلِيِّ: أَمَّا أَخِي فَقَدْ أَخَذَ ٱلْمَالَ وَلَا سَبِيلَ إِلَى رَدِّهِ. وَقَدْ أَمَرْتُ لَكَ بِمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ عِوَضًا مِمَّا جَرَى عَلَيْهِ. فَأَمَرَ لَهُ بِهَا فَحُمِلَتْ إِلَيْهِ (الاغاني)

٣٢٤ ذَكَرَ ٱلْمُبَرِّدُ أَنَّ ٱلْمُهَلَّبَ بْنَ أَبِي صُفْرَةَ قَالَ يَوْمًا وَقَدِ ٱشْتَدَّتِ ٱلْحَرْبُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْخَوَارِجِ لِأَبِي عَلْقَمَةَ ٱلْيَحْمَدِيِّ: أَمْدِدْنَا بِخَيْلِ ٱلْيَحْمَدِ. وَقَالَ لَهُمْ: أَعِيرُونَا جَمَاجِمَكُمْ سَاعَةً. فَقَالَ: أَيُّهَا ٱلْأَمِيرُ إِنَّ

جماجمهم ليست بفخار فتعار. وأعناقهم ليست بكراث فتنبت. وقال:

يقول لي الأمير بغير جرم ... تقدم حين جد بنا المراس
فما لي إن أطعتك من حياة ... وما لي غير هذا الراس راس

ثقيل وظريف

٣٢٥ أهدى رجل من الثقلاء إلى رجل من الظرفاء جملا ثم نزل عليه حتى أبرمه. فقال فيه:

يا مبرما أهدى جمل ... خذ وانصرف ألفي جمل
قال وما أوقارها ... قلت زبيب وعسل
قال ومن يقودها ... قلت له ألفا رجل
قال ومن يسوقها ... قلت له ألفا بطل
قال وما لباسهم ... قلت حلي وحلل
قال وما سلاحهم ... قلت سيوف وأسل
قال عبيد لي إذا ... قلت نعم ثم خول
قال بهذا فاكتبوا ... إذن عليكم لي سجل
قلت له ألفي سجل ... فاضمن لنا أن ترتحل
قال وقد أضجرتكم ... قلت أجل ثم أجل
قال وقد أبرمتكم ... قلت له الأمر جلل
قال وقد أثقلتكم ... قلت له فوق الثقل
قال فإني راحل ... قلت العجل ثم العجل

يَا كَوْكَبَ ٱلشُّؤْمِ وَمَنْ أَرْبَى عَلَى نَحْسِ زُحَلْ
يَا جَبَلًا مِنْ جَبَلٍ فِي جَبَلٍ فَوْقَ جَبَلْ

(لابن عبد ربه)

سنان بن ثابت والطبيب القروي

٣٢٦ مِنْ ظَرِيفِ مَا جَرَى لِسِنَانِ بْنِ ثَابِتٍ فِي ٱلطِّبِّ فِي ٱمْتِحَانِ ٱلْأَطِبَّاءِ عِنْدَ تَقَدُّمِ ٱلْخَلِيفَةِ إِلَيْهِ بِذٰلِكَ أَنَّهُ أُحْضِرَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مَلِيحُ ٱلْبِشْرَةِ وَٱلْهَيْئَةِ ذُو هَيْبَةٍ وَوَقَارٍ. فَأَكْرَمَهُ سِنَانٌ عَلَى مُوجِبِ مَنْظَرِهِ وَرِفْعَتِهِ. ثُمَّ ٱلْتَفَتَ إِلَيْهِ سِنَانٌ فَقَالَ: قَدِ ٱشْتَهَيْتُ أَنْ أَسْمَعَ مِنَ ٱلشَّيْخِ شَيْئًا أَحْفَظُهُ عَنْهُ وَأَنْ يَذْكُرَ شَيْخَهُ فِي ٱلصِّنَاعَةِ. فَأَخْرَجَ ٱلشَّيْخُ مِنْ كُمِّهِ قِرْطَاسًا فِيهِ دَنَانِيرُ صَالِحَةٌ وَوَضَعَهَا بَيْنَ يَدَيْ سِنَانٍ وَقَالَ: وَٱللّٰهِ مَا أُحْسِنُ أَنْ أَكْتُبَ وَلَا أَقْرَأُ شَيْئًا جُمْلَةً. وَلِي عِيَالٌ وَمَعَاشِي دَارٌ دَائِرٌ وَأَسْأَلُكَ أَنْ لَا تَقْطَعَهُ عَنِّي. فَضَحِكَ سِنَانٌ وَقَالَ: عَلَى شَرِيطَةِ أَنَّكَ لَا تَهْجُمُ عَلَى مَرِيضٍ بِمَا لَا تَعْلَمُ وَلَا تُشِيرُ بِفَصْدٍ وَلَا بِدَوَاءٍ مُسْهِلٍ إِلَّا بِمَا قَرُبَ مِنَ ٱلْأَمْرَاضِ. قَالَ ٱلشَّيْخُ: هٰذَا مَذْهَبِي مُذْ كُنْتُ مَا تَعَدَّيْتُ ٱلسَّكَنْجَبِينَ وَٱلْجُلَّابَ. وَٱنْصَرَفَ. وَلَمَّا كَانَ مِنَ ٱلْغَدِ حَضَرَ إِلَيْهِ غُلَامٌ شَابٌّ حَسَنُ ٱلْبِزَّةِ مَلِيحُ ٱلْوَجْهِ ذَكِيٌّ فَنَظَرَ إِلَيْهِ سِنَانٌ فَقَالَ لَهُ: عَلَى مَنْ قَرَأْتَ قَالَ: عَلَى أَبِي. قَالَ: وَمَنْ يَكُونُ أَبُوكَ. قَالَ: ٱلشَّيْخُ ٱلَّذِي كَانَ عِنْدَكَ بِٱلْأَمْسِ. قَالَ: نِعْمَ ٱلشَّيْخُ. وَأَنْتَ عَلَى مَذْهَبِهِ. قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: لَا تَتَجَاوَزْهُ. وَٱنْصَرِفْ مُصَاحَبًا (لابي الفرج)

حذاء ابي القاسم الطنبوري

٣٢٧ حُكِيَ أَنَّهُ كَانَ فِي بَغْدَادَ رَجُلٌ ٱسْمُهُ أَبُو ٱلْقَاسِمِ ٱلطُّنْبُورِيُّ . وَكَانَ لَهُ مَدَاسٌ صَارَ لَهُ وَهُوَ يَلْبَسُهُ سَبْعَ سِنِينَ . وَكَانَ كُلَّمَا تَقَطَّعَ مِنْهُ مَوْضِعٌ جَعَلَ مَكَانَهُ رُقْعَةً إِلَى أَنْ صَارَ إِلَى غَايَةِ ٱلثِّقَلِ وَصَارَ ٱلنَّاسُ يَضْرِبُونَ بِهِ ٱلْمَثَلَ . فَٱتَّفَقَ أَنَّهُ دَخَلَ يَوْمًا سُوقَ ٱلزُّجَاجِ . فَقَالَ لَهُ سِمْسَارٌ : يَا أَبَا ٱلْقَاسِمِ قَدْ قَدِمَ إِلَيْنَا ٱلْيَوْمَ تَاجِرٌ مِنْ حَلَبَ وَمَعَهُ حِمْلُ زُجَاجٍ مُذَهَّبٍ قَدْ كَسَدَ فَٱشْتَرِهِ مِنْهُ . وَأَنَا أَبِيعُهُ لَكَ بَعْدَ هٰذِهِ ٱلْمُدَّةِ فَتَكْسَبُ بِهِ ٱلْمِثْلَ مِثْلَيْنِ . فَمَضَى وَٱشْتَرَاهُ بِسِتِّينَ دِينَارًا . ثُمَّ إِنَّهُ دَخَلَ إِلَى سُوقِ ٱلْعَطَّارِينَ فَصَادَفَهُ سِمْسَارٌ آخَرُ وَقَالَ لَهُ : يَا أَبَا ٱلْقَاسِمِ قَدْ قَدِمَ إِلَيْنَا ٱلْيَوْمَ مِنْ نَصِيبِينَ تَاجِرٌ وَمَعَهُ مَاءُ وَرْدٍ فِي غَايَةِ ٱلطِّيبَةِ وَمُرَادُهُ أَنْ يُسَافِرَ . فَلِعَجَلَةِ سَفَرِهِ يُمْكِنُ أَنْ تَشْتَرِيَهُ مِنْهُ رَخِيصًا وَأَنَا أَبِيعُهُ لَكَ فِيمَا بَعْدُ بِأَقْرَبِ مُدَّةٍ فَتَكْسَبُ بِهِ ٱلْمِثْلَ مِثْلَيْنِ . فَمَضَى أَبُو ٱلْقَاسِمِ وَٱشْتَرَاهُ أَيْضًا بِسِتِّينَ دِينَارًا أُخْرَى وَمَلَأَهُ فِي ٱلزُّجَاجِ ٱلْمُذَهَّبِ . وَحَمَلَهُ وَجَاءَ بِهِ فَوَضَعَهُ عَلَى رَفٍّ مِنْ رُفُوفِ بَيْتِهِ فِي ٱلصَّدْرِ . ثُمَّ إِنَّ أَبَا ٱلْقَاسِمِ دَخَلَ ٱلْحَمَّامَ يَغْتَسِلُ . فَقَالَ لَهُ بَعْضُ أَصْدِقَائِهِ يَا أَبَا ٱلْقَاسِمِ أَشْتَهِي أَنْ تُغَيِّرَ مَدَاسَكَ هٰذَا فَإِنَّهُ فِي غَايَةِ ٱلشَّنَاعَةِ وَأَنْتَ ذُو مَالٍ مِنْ حَمْدِ ٱللهِ . فَقَالَ لَهُ أَبُو ٱلْقَاسِمِ : ٱلْحَقُّ مَعَكَ فَٱلسَّمْعُ وَٱلطَّاعَةُ . ثُمَّ إِنَّهُ لَمَّا خَرَجَ مِنَ ٱلْحَمَّامِ وَلَبِسَ ثِيَابَهُ رَأَى بِجَانِبِ مَدَاسِهِ مَدَاسًا جَدِيدًا فَظَنَّ أَنَّ ٱلرَّجُلَ مِنْ كَرَمِهِ ٱشْتَرَاهُ لَهُ فَلَبِسَهُ

وَمَضَى إِلَى بَيْتِهِ . وَكَانَ ذٰلِكَ ٱلْمَدَاسُ ٱلْجَدِيدُ مَدَاسَ ٱلْقَاضِي جَاءَ فِي ذٰلِكَ ٱلْيَوْمِ إِلَى ٱلْحَمَّامِ وَوَضَعَ مَدَاسَهُ هُنَاكَ وَدَخَلَ ٱسْتَحَمَّ . فَلَمَّا خَرَجَ فَتَّشَ عَلَى مَدَاسِهِ فَلَمْ يَجِدْهُ فَقَالَ : أَيَا إِخْوَانَنَا أَتَرَوْنَ أَنَّ ٱلَّذِي لَبِسَ مَدَاسِي لَمْ يَتْرُكْ عِوَضَهُ شَيْئًا . فَفَتَّشُوا فَلَمْ يَجِدُوا سِوَى مَدَاسِ أَبِي ٱلْقَاسِمِ ٱلطُّنْبُورِيِّ فَعَرَفُوهُ لِأَنَّهُ كَانَ يُضْرَبُ بِهِ ٱلْمَثَلُ . فَأَرْسَلَ ٱلْقَاضِي خَدَمَهُ فَكَبَسُوا بَيْتَهُ فَوَجَدُوا مَدَاسَ ٱلْقَاضِي عِنْدَهُ . فَأَحْضَرَهُ ٱلْقَاضِي وَأَخَذَ مِنْهُ ٱلْمَدَاسَ وَضَرَبَهُ تَأْدِيبًا لَهُ وَحَبَسَهُ مُدَّةً وَغَرَّمَهُ بَعْضَ ٱلْمَالِ وَأَطْلَقَهُ . فَخَرَجَ أَبُو ٱلْقَاسِمِ مِنَ ٱلْحَبْسِ وَأَخَذَ مَدَاسَهُ وَهُوَ غَضْبَانُ عَلَيْهِ وَمَضَى إِلَى دِجْلَةَ فَأَلْقَاهُ فِيهَا فَغَاصَ فِي ٱلْمَاءِ . فَأَتَى بَعْضُ ٱلصَّيَّادِينَ وَرَمَى شَبَكَتَهُ فَطَلَعَ فِيهَا ٱلْمَدَاسُ . فَلَمَّا رَآهُ ٱلصَّيَّادُ عَرَفَهُ وَقَالَ : هٰذَا مَدَاسُ أَبِي ٱلْقَاسِمِ ٱلطُّنْبُورِيِّ فَٱلظَّاهِرُ أَنَّهُ وَقَعَ مِنْهُ فِي دِجْلَةَ . فَحَمَلَهُ وَأَتَى بِهِ بَيْتَ أَبِي ٱلْقَاسِمِ فَلَمْ يَجِدْهُ . فَنَظَرَ فَرَأَى طَاقَةً نَافِذَةً إِلَى صَدْرِ ٱلْبَيْتِ فَرَمَاهُ مِنْهَا إِلَى ٱلْبَيْتِ فَسَقَطَ عَلَى ٱلرَّفِّ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلزُّجَاجُ وَمَاءُ ٱلْوَرْدِ . فَوَقَعَ ٱلزُّجَاجُ وَتَكَسَّرَ وَتَبَدَّدَ مَاءُ ٱلْوَرْدِ . فَجَاءَ أَبُو ٱلْقَاسِمِ وَنَظَرَ ذٰلِكَ فَعَرَفَ ٱلْأَمْرَ فَلَطَمَ عَلَى وَجْهِهِ وَصَاحَ وَبَكَى وَقَالَ : وَافَقْرَاهُ أَفْقَرَنِي هٰذَا ٱلْمَدَاسُ ٱلْمَلْعُونُ . ثُمَّ إِنَّهُ قَامَ لِيَحْفِرَ لَهُ فِي ٱللَّيْلِ حُفْرَةً وَيَدْفِنَهُ فِيهَا وَيَرْتَاحَ مِنْهُ . فَسَمِعَ ٱلْجِيرَانُ حِسَّ ٱلْحَفْرِ فَظَنُّوا أَنَّ أَحَدًا يَنْقُبُ عَلَيْهِمْ . فَرَفَعُوا ٱلْأَمْرَ إِلَى ٱلْحَاكِمِ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ وَأَحْضَرَهُ وَٱعْتَقَلَهُ وَقَالَ لَهُ : كَيْفَ تَسْتَحِلُّ

أن تنقب على جيرانك حائطهم وحبسه ولم يطلقه حتى غرم بعض المال. ثم خرج من السجن ومضى وهو حردان من المداس وحمله إلى كنيف الخان ورماه فيه فسد قصبة الكنيف ففاض وضجر الناس من الرائحة الكريهة. ففتشوا على السبب فوجدوا مداسا فتأملوه فإذا هو مداس أبي القاسم. فحملوه إلى الوالي وأخبروه بما وقع. فأحضر الوالي أبا القاسم ووبخه وحبسه وقال له: عليك تصليح الكنيف فغرم جملة مال. وأخذ منه الوالي مقدار ما غرم تأديبا له وأطلقه. فخرج أبو القاسم والمداس معه وقال وهو مغتاظ منه: والله ما عدت أفارق هذا المداس. ثم إنه غسله وجعله على سطح بيته حتى يجف. فرآه كلب فظنه رمة فحمله وعبر به إلى سطح آخر فسقط من الكلب على رأس رجل فآلمه وجرحه جرحا بليغا. فنظروا وفتشوا لمن المداس فعرفوه أنه مداس أبي القاسم. فرفعوا الأمر إلى الحاكم فألزمه بالعوض والقيام بلوازم المجروح مدة مرضه. فنفد عند ذلك جميع ما كان له ولم يبق عنده شيء. ثم إن أبا القاسم أخذ المداس ومضى به إلى القاضي وقال له: أريد من حضرة مولانا القاضي أن يكتب بيني وبين هذا المداس مباراة شرعية على أنه ليس مني وأني لست منه. وأن كلا منا بريء من صاحبه. وأنه مهما يفعله هذا المداس لا أؤخذ به أنا. وأخبره بجميع ما جرى عليه منه. فضحك القاضي منه ووصله ومضى (لطائف العرب)

البابُ السادسُ عشر
في النوادر

ابن مقلة والواشي

٣٢٨ حُكِيَ أَنَّ بعضَ الحسدةِ وشى بالوزيرِ الكاتبِ ابنِ مُقلةَ الذي انفردَ في زمانهِ بعلوِّ الخطِّ وحُسْنِه. وادّعى أنّه غدرَ الملكَ في بعضِ الأمورِ. فأمرَ الملكُ بقطعِ يدهِ فلمّا فعلَ بهِ هذا الأمرَ لزمَ بيتَه وانصرفتْ عنهُ الأصدقاءُ والمحبّونَ ولمْ يأتِه أحدٌ إلى نصفِ النهارِ. فتبيّنَ للملكِ أنّ الكلامَ عليهِ باطلٌ. فأمرَ بقتلِ الذي وشى بابنِ مُقلةَ وردّهُ إلى ما كانَ. فلمّا رأى إخوانُهُ أنَّ نعمتَهُ عادتْ إليهِ عادوا لهُ يهنّونهُ وأقبلوا إليهِ يعتذرونَ. فأنشدَ:

تحالفَ الناسُ والزمانُ فحيثُ كانَ الزمانُ كانوا
عاداني الدهرُ نصفَ يومٍ فانكشفَ الناسُ لي وبانوا

ومكثَ يكتبُ بيدهِ اليسرى بقيّةَ عمرهِ. ولمْ يتغيّرْ خطُّهُ حتّى ماتَ

معجزة ظهرت في حصار مدينة وبذ

٣٢٩ خرجَ أميرُ المؤمنينَ أبو يعقوبَ مِنْ إشبيليةَ قاصدًا بلادَ الأذفنشِ. فنزلَ على مدينةٍ لهُ عظيمةٍ تسمّى وبذ. وذلكَ أنّهُ بلغَهُ أنّ أعيانَ دولةِ الأذفنشِ ووجوهَ أجنادهِ في تلكَ المدينةِ. فأقامَ محاصرًا لها أشهرًا إلى أنِ اشتدَّ الحصارُ وبرّحَ بهمِ العطشُ. فأرسلوا إلى أميرِ

ٱلْمُؤْمِنِينَ يَطْلُبُونَ ٱلْأَمَانَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ عَلَى أَنْ يَخْرُجُوا لَهُ مِنَ ٱلْمَدِينَةِ. فَأَبَى ذٰلِكَ عَلَيْهِمْ وَأَطْمَعَهُ فِيهِمْ مَا نُقِلَ إِلَيْهِ مِنْ شِدَّةِ عَطَشِهِمْ وَكَثْرَةِ مَنْ يَمُوتُ مِنْهُمْ. فَلَمَّا يَئِسُوا مِمَّا عِنْدَهُ سُمِعَ لَهُمْ بَعْضَ ٱللَّيَالِي لَغَطٌ عَظِيمٌ وَجَلَبَةُ أَصْوَاتٍ. وَذٰلِكَ أَنَّهُمْ أَخْرَجُوا أَنَاجِيلَهُمْ وَٱجْتَمَعَ قِسِّيسُوهُمْ وَرُهْبَانُهُمْ يَدْعُونَ وَيُؤَمِّنُ بَاقِيهِمْ. فَجَاءَ مَطَرٌ عَظِيمٌ كَأَنَّهُ ٱلْقِرَبُ مَلَأَ مَا كَانَ عِنْدَهُمْ مِنَ ٱلصَّهَارِيجِ. فَشَرِبُوا وَٱرْتَوَوْا وَتَقَوَّوْا عَلَى ٱلْمُسْلِمِينَ. فَٱنْصَرَفَ عَنْهُمْ ٱلْخَلِيفَةُ رَاجِعًا إِلَى إِشْبِيلِيَةَ بَعْدَ أَنْ هَادَنَ ٱلْأَذْفُنْش (للمراكشي)

مشهد الحسين

٣٣٠ وَمِنْ عَجَائِبِ مَشَاهِدِ مِصْرَ ٱلْمَشْهَدُ ٱلْعَظِيمُ ٱلشَّأْنِ ٱلَّذِي بِٱلْقَاهِرَةِ حَيْثُ رَأْسُ ٱلْحُسَيْنِ. وَهُوَ فِي تَابُوتٍ مِنْ فِضَّةٍ مَدْفُونٌ قَدْ بُنِيَ عَلَيْهِ بُنْيَانٌ يَقْصُرُ ٱلْوَصْفُ عَنْهُ. مُجَلَّلٌ بِأَنْوَاعِ ٱلدِّيبَاجِ مَحْفُوفٌ بِأَمْثَالِ ٱلْعَمَدِ ٱلْكِبَارِ شَمَعًا بَيْضَاءَ أَكْثَرُهَا مَوْضُوعٌ فِي أَتْوَارِ ٱلْفِضَّةِ. وَحُفَّ أَعْلَاهُ كُلُّهُ بِأَمْثَالِ ٱلتَّفَافِيحِ ذَهَبًا فِي مَصْنَعٍ شِبْهِ ٱلرَّوْضَةِ. يَبْهَرُ ٱلْأَبْصَارَ حُسْنًا وَجَمَالًا. وَفِيهِ أَنْوَاعُ ٱلرُّخَامِ ٱلْمُجَزَّعِ ٱلْغَرِيبِ ٱلصَّنْعَةِ ٱلْبَدِيعِ ٱلتَّرْصِيعِ مَا لَا يَتَخَيَّلُهُ ٱلْمُتَخَيِّلُونَ. وَٱلْمَدْخَلُ إِلَيْهَا مِنْ مَسْجِدٍ عَلَى مِثَالِهَا فِي ٱلتَّأَنُّقِ. حِيطَانُهُ كُلُّهَا رُخَامٌ. وَأَغْرَبُ مَا فِيهِ حَجَرٌ مَوْضُوعٌ فِي ٱلْجِدَارِ ٱلَّذِي يَسْتَقْبِلُهُ ٱلدَّاخِلُ شَدِيدُ ٱلسَّوَادِ وَٱلْبَصِيصِ يَصِفُ ٱلْأَشْخَاصَ كُلَّهَا كَأَنَّهُ ٱلْمِرْآةُ ٱلْهِنْدِيَّةُ. وَلِتَزَاحُمِ ٱلنَّاسِ عَلَى ٱلْقَبْرِ وَٱنْكِبَابِهِمْ عَلَيْهِ وَتَمَسُّحِهِمْ بِهِ وَبِٱلْكِسْوَةِ ٱلَّتِي عَلَيْهِ مَرْأًى هَائِلٌ (للشريشي)

٣٣١ نُسْخَةُ مُبَايَعَةِ مِلْكٍ كَتَبَهَا ٱلشَّيْخُ عُمَرُ بْنُ ٱلْوَرْدِيِّ نَظْمًا :

بِٱسْمِ إِلٰهِ ٱلْخَلْقِ هٰذَا مَا ٱشْتَرَى ... مُحَمَّدُ بْنُ يُونُسِ بْنِ سُنْقُرَا
مِنْ أَحْمَدَ بْنِ مَالِكِ بْنِ ٱلْأَزْرَقِ ... كِلَاهُمَا قَدْ عُرِفَا مِنْ جِلِّقِ
فَبَاعَهُ قِطْعَةَ أَرْضٍ وَاقِعَهْ ... بِكُورَةِ ٱلْغُوطَةِ وَهْيَ جَامِعَهْ
لِشَجَرٍ مُخْتَلِفِ ٱلْأَجْنَاسِ ... وَٱلْأَرْضُ فِي ٱلْبَيْعِ مَعَ ٱلْغِرَاسِ
وَذَرْعُ هٰذِي ٱلْأَرْضِ بِٱلذِّرَاعِ ... عِشْرُونَ فِي ٱلطُّولِ بِلَا نِزَاعِ
وَذَرْعُهَا فِي ٱلْعَرْضِ مِنْهَا عَشَرَهْ ... وَهْوَ ذِرَاعٌ بِٱلْيَدِ ٱلْمُعْتَبَرَهْ
وَحَدُّهَا مِنْ قِبْلَةٍ مِلْكُ ٱلتَّقِي ... وَحَائِزُ ٱلرُّومِيِّ حَدُّ ٱلْمَشْرِقِ
وَمِنْ شِمَالٍ مِلْكُ أَوْلَادِ عَلِي ... وَٱلْغَرْبِ مِلْكُ عَامِرِ بْنِ حَنْبَلِ
بَيْعًا صَحِيحًا لَازِمًا شَرْعِيَّا ... ثُمَّ شِرَاءً قَاطِعًا مَرْعِيَّا
لَا شَرْطَ فِيهِ فَاسِدٌ فَيُبْطِلُهْ ... وَلَا خِيَارَ لَهُمَا يُدَاخِلُهْ
بِثَمَنٍ مَبْلَغُهُ مِنْ فِضَّهْ ... دَرَاهِمٌ جَيِّدَةٌ مُبَيَّضَهْ
قَبَضَهَا ٱلْبَائِعُ مِنْهُ وَافِيَهْ ... وَعَادَتِ ٱلذِّمَّةُ مِنْهَا خَالِيَهْ
وَسَلَّمَ ٱلْأَرْضَ إِلَى مَنِ ٱشْتَرَى ... فَقَبَضَ ٱلْفِضَّةَ مِنْهُ وَجَرَى
بَيْنَهُمَا بِٱلْبَدَنِ ٱلتَّفَرُّقُ ... وَمَا بَقِي لِأَحَدٍ تَعَلُّقُ
وَأَشْهَدَا عَلَيْهِمَا بِذَاكَ فِي ... سَابِعَ عَشْرَ رَمَضَانَ ٱلْأَشْرَفِ
مِنْ عَامِ سَبْعِمِائَةٍ لِلْهِجْرَهْ ... مِنْ بَعْدِ خَمْسَةٍ تَلِي وَعَشَرَهْ

مروءة اسماعيل الخزرجي

٣٣٢ نَازَعَ ٱلْخَلِيفَةَ عَبْدَ ٱلْمُؤْمِنِ فِي أَمْرِهِ قَوْمٌ مِنْ قَرَابَةِ ٱبْنِ تُومَرْتَ. وَٱنْتَهَوْا

فِي ذَٰلِكَ إِلَى أَنْ أَجْمَعَ رَأْيُهُمْ وَرَأْيُ مَنْ وَافَقَهُمْ عَلَى سُوءِ صَنِيعِهِمْ عَلَى أَنْ يَدْخُلُوا عَلَى عَبْدِ ٱلْمُؤْمِنِ خِبَاءَهُ لَيْلًا فَيَقْتُلُوهُ. وَظَنُّوا أَنَّ ذَٰلِكَ يَخْفَى مِنْ أَمْرِهِمْ. وَأَنَّ عَبْدَ ٱلْمُؤْمِنِ إِذَا فُقِدَ وَلَمْ يُعْلَمْ مَنْ قَتَلَهُ صَارَ ٱلْأَمْرُ إِلَيْهِمْ. لِأَنَّهُمْ أَحَقُّ بِهِ إِذْ كَانُوا أَهْلَ ٱلْإِمَامِ وَقَرَابَتَهُ وَأَوْلَى ٱلنَّاسِ بِهِ. فَأُعْلِمَ بِمَا أَرَادُوهُ مِنْ ذَٰلِكَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ ٱبْنِ تُومَرْتَ مِنْ خِيَارِهِمْ. ٱسْمُهُ إِسْمَاعِيلُ بْنُ يَحْيَى ٱلْهَزْرَجِيُّ. فَأَتَى عَبْدَ ٱلْمُؤْمِنِ فَقَالَ لَهُ: يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِي إِلَيْكَ حَاجَةٌ. قَالَ: وَمَا هِيَ يَا أَبَا إِبْرٰهِيمَ فَجَمِيعُ حَوَائِجِكَ عِنْدَنَا مَقْضِيَّةٌ. قَالَ: أَنْ تَخْرُجَ عَنْ هٰذَا ٱلْخِبَاءِ وَتَدَعَنِي أَبِيتُ فِيهِ وَلَمْ يُعْلِمْهُ بِمُرَادِ ٱلْقَوْمِ. فَظَنَّ عَبْدُ ٱلْمُؤْمِنِ أَنَّهُ إِنَّمَا يَسْتَوْهِبُهُ ٱلْخِبَاءَ لِأَنَّهُ أَعْجَبَهُ فَخَرَجَ عَنْهُ وَتَرَكَهُ لَهُ. فَبَاتَ فِيهِ إِسْمَاعِيلُ ٱلْمَذْكُورُ فَدَخَلَ عَلَيْهِ أُولٰئِكَ ٱلْقَوْمُ فَتَوَلَّوْهُ بِٱلْحَدِيدِ حَتَّى بَرَدَ. فَلَمَّا أَصْبَحُوا وَرَأَوْا أَنَّهُمْ لَمْ يُصِيبُوا عَبْدَ ٱلْمُؤْمِنِ فَرُّوا بِأَنْفُسِهِمْ حَتَّى أَتَوْا مَرَّاكُشَ وَرَامُوا ٱلْقِيَامَ بِهَا. فَأَتَوْا ٱلْبَوَّابِينَ ٱلَّذِينَ عَلَى ٱلْقُصُورِ فَطَلَبُوا مِنْهُمُ ٱلْمَفَاتِيحَ فَأَبَوْا عَلَيْهِمْ. فَضَرَبُوا عُنُقَ أَحَدِهِمْ وَفَرَّ بَاقِيهِمْ وَكَادُوا يَغْلِبُونَ عَلَى تِلْكَ ٱلْقُصُورِ. ثُمَّ إِنَّ ٱلنَّاسَ ٱجْتَمَعُوا عَلَيْهِمْ مِنَ ٱلْجُنْدِ وَخَاصَّةِ ٱلْعَبِيدِ فَقَاتَلُوهُمْ قِتَالًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْ طُلُوعِ ٱلْفَجْرِ إِلَى طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ. ثُمَّ إِنَّ ٱلْعَبِيدَ غَلَبُوهُمْ عَلَى أَمْرِهِمْ. وَلَمْ يَزَلِ ٱلنَّاسُ يَتَكَاثَرُونَ عَلَيْهِمْ إِلَى أَنْ أَخَذُوا قَبْضًا بِٱلْيَدِ فَقُيِّدُوا وَجُعِلُوا فِي ٱلسِّجْنِ إِلَى أَنْ وَصَلَ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ ٱلْمُؤْمِنِ إِلَى مَرَّاكُشَ فَقَتَلَهُمْ صَبْرًا. وَقَتَلَ مَعَهُمْ جَمَاعَةً مِنْ أَعْيَانِ هَرْغَةَ بَلَغَهُ أَنَّهُمْ

قَادِحُونَ فِي مُلْكِهِ مُتَرَبِّصُونَ بِهِ. وَلَمَّا أَصْبَحَ أَبُو إِبْرٰهِيمَ إِسْمَاعِيلُ ٱلْمُتَقَدِّمُ ٱلذِّكْرِ فِي ٱلْخِبَاءِ مَقْتُولًا عَلَى ٱلْحَالِ ٱلَّتِي ذَكَرْنَا أَعْظَمَ ذٰلِكَ عَبْدُ ٱلْمُؤْمِنِ وَوَجَدَ عَلَيْهِ وَجْدًا مُفْرِطًا أَخْرَجَهُ عَنْ حَدِّ ٱلتَّمَاسُكِ إِلَى حَيِّزِ ٱلْجَزَعِ. فَأَمَرَ بِغَسْلِهِ وَتَكْفِينِهِ وَصَلَّى عَلَيْهِ بِنَفْسِهِ وَدُفِنَ (لعبد الواحد المراكشي)

جود حاتم الطائي

٣٣٣ قَالَتْ نَوَارُ ٱمْرَأَةُ حَاتِمٍ: أَصَابَتْنَا سَنَةٌ ٱقْشَعَرَّتْ لَهَا ٱلْأَرْضُ وَٱغْبَرَّ أُفُقُ ٱلسَّمَاءِ. وَرَاحَتِ ٱلْإِبِلُ حَدْبَاءَ حَدَابِيرَ. وَضَنَّتِ ٱلْمَرَاضِعُ إِلَى أَوْلَادِهَا فَمَا تَبِضُّ بِقَطْرَةٍ وَأَيْقَنَّا بِٱلْهَلَاكِ. فَوَٱللّٰهِ إِنَّا لَفِي لَيْلَةٍ صِنَّبْرٍ بَعِيدَةِ مَا بَيْنَ ٱلطَّرَفَيْنِ إِذْ تَضَاغَى صِبْيَتُنَا جُوعًا عَبْدُ ٱللّٰهِ وَعَدِيٌّ وَسَفَّانَةُ. فَقَامَ حَاتِمٌ إِلَى ٱلصَّبِيَّيْنِ وَقُمْتُ أَنَا إِلَى ٱلصَّبِيَّةِ فَوَٱللّٰهِ مَا سَكَتُوا إِلَّا بَعْدَ هَدْأَةٍ مِنَ ٱللَّيْلِ. وَأَقْبَلَ يُعَلِّلُنِي بِٱلْحَدِيثِ فَعَرَفْتُ مَا يُرِيدُ فَتَنَاوَمْتُ. فَلَمَّا تَهَوَّرَتِ ٱلنُّجُومُ إِذَا شَيْءٌ قَدْ رَفَعَ كِسْرَ ٱلْبَيْتِ ثُمَّ عَادَ. فَقَالَ: مَنْ هٰذَا. قَالَتْ: جَارَتُكَ فُلَانَةُ أَتَيْتُكَ مِنْ عِنْدِ صِبْيَةٍ يَتَعَاوَوْنَ عُوَاءَ ٱلذِّئَابِ فَمَا وَجَدْتُ مُعَوَّلًا إِلَّا عَلَيْكَ يَا أَبَا عَدِيٍّ. فَقَالَ: أَعْجِلِيهِمْ فَقَدْ أَشْبَعَكِ ٱللّٰهُ وَإِيَّاهُمْ. فَأَقْبَلَتِ ٱلْمَرْأَةُ تَحْمِلُ ٱثْنَيْنِ وَيَمْشِي جَانِبَهَا أَرْبَعَةٌ كَأَنَّهَا نَعَامَةٌ حَوْلَهَا رِئَالُهَا. فَقَامَ إِلَى فَرَسِهِ فَوَجَأَ لَبَّتَهُ بِمُدْيَةٍ فَخَرَّ. ثُمَّ كَشَطَهُ عَنْ جِلْدِهِ وَدَفَعَ ٱلْمُدْيَةَ إِلَى ٱلْمَرْأَةِ فَقَالَ لَهَا: شَأْنَكِ. فَٱجْتَمَعْنَا عَلَى ٱللَّحْمِ نَشْوِي وَنَأْكُلُ. ثُمَّ جَعَلَ يَمْشِي فِي ٱلْحَيِّ يَأْتِيهِمْ بَيْتًا بَيْتًا فَيَقُولُ: هُبُّوا أَيُّهَا ٱلْقَوْمُ عَلَيْكُمْ بِٱلنَّارِ. فَٱجْتَمَعُوا وَٱلْتَفَعَ فِي ثَوْبِهِ

نَاحِيَةً يَنظُرُ إِلَيْنَا. فَلَا وَاللهِ إِنْ ذَاقَ مِنْهُ مُزْعَةً وَإِنَّهُ لَأَحْوَجُ إِلَيْهِ مِنَّا. فَأَصْبَحْنَا وَمَا عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْفَرَسِ إِلَّا عَظْمٌ وَحَافِرٌ. فَأَنشَأَ حَاتِمٌ يَقُولُ:

مَهْلًا نَوَارُ أَقِلِّي ٱللَّوْمَ وَٱلْعَذَلَا وَلَا تَقُولِي لِشَيْءٍ فَاتَ مَا فَعَلَا
وَلَا تَقُولِي لِمَالٍ كُنْتُ مُهْلِكَهُ مَهْلًا وَإِنْ كُنْتُ أُعْطِي ٱلْإِنْسَ وَٱلْخَبَلَا
يَرَى ٱلْبَخِيلُ سَبِيلَ ٱلْمَالِ وَاحِدَةً إِنَّ ٱلْجَوَادَ يَرَى فِي مَالِهِ سُبُلَا

إيثار ابن مامة الايادي

٣٣٤ خَرَجَ كَعْبُ بْنُ مَامَةَ ٱلْإِيَادِيُّ فِي قَفْلٍ مَعَهُمْ رَجُلٌ مِنْ بَنِي ٱلنَّمِرِ. وَكَانَ ذٰلِكَ فِي حَرِّ ٱلصَّيْفِ فَضَلُّوا وَشَحَّ مَاؤُهُمْ فَكَانُوا يَتَصَافَنُونَ ٱلْمَاءَ. وَذٰلِكَ أَنْ يُطْرَحَ فِي ٱلْقَعْبِ حَصَاةٌ ثُمَّ يُصَبَّ فِيهِ مِنَ ٱلْمَاءِ بِقَدْرِ مَا يَغْمُرُ ٱلْحَصَاةَ. فَيَشْرَبُ كُلٌّ وَاحِدٍ قَدْرَ مَا يَشْرَبُ ٱلْآخَرُ. وَلَمَّا نَزَلُوا لِلشُّرْبِ وَدَارَ ٱلْقَعْبُ بَيْنَهُمْ حَتَّى ٱنْتَهَى إِلَى كَعْبٍ رَأَى ٱلرَّجُلَ ٱلنَّمَرِيَّ يُحِدُّ نَظَرَهُ إِلَيْهِ. فَآثَرَهُ بِمَائِهِ وَقَالَ لِلسَّاقِي: أَسْقِ أَخَاكَ ٱلنَّمَرِيَّ فَشَرِبَ ٱلنَّمَرِيُّ نَصِيبَ كَعْبٍ مِنَ ٱلْمَاءِ ذٰلِكَ ٱلْيَوْمَ. ثُمَّ نَزَلُوا مِنَ ٱلْغَدِ مَنْزِلَهُمُ ٱلْآخَرَ فَتَصَافَنُوا بَقِيَّةَ مَائِهِمْ. فَنَظَرَ إِلَيْهِ كَنَظَرِهِ أَمْسِ. وَقَالَ كَعْبٌ كَقَوْلِهِ أَمْسِ. وَٱرْتَحَلَ ٱلْقَوْمُ وَقَالُوا: يَا كَعْبُ ٱرْتَحِلْ. فَلَمْ يَكُنْ لَهُ قُوَّةٌ لِلنُّهُوضِ وَكَانُوا قَدْ قَرُبُوا مِنَ ٱلْمَاءِ. فَقَالُوا لَهُ: رِدْ يَا كَعْبُ إِنَّكَ وَارِدٌ. فَعَجَزَ عَنِ ٱلْجَوَابِ. وَلَمَّا أَيِسُوا مِنْهُ خَيَّمُوا عَلَيْهِ بِثَوْبٍ يَمْنَعُهُ مِنَ ٱلسَّبُعِ أَنْ يَأْكُلَهُ. وَتَرَكُوهُ مَكَانَهُ فَمَاتَ. فَذَهَبَ ذٰلِكَ مَثَلًا فِي تَفْضِيلِ ٱلرَّجُلِ صَاحِبَهُ عَلَى نَفْسِهِ (اخبار العرب لابن قتيبة)

صنم سومناة

٣٣٥ مِنْ عَجَائِبِ مَدِينَةِ سُومَنَاةَ هَيْكَلٌ فِيهِ صَنَمٌ كَانَ وَاقِفًا فِي وَسَطِ ٱلْبَيْتِ. لَا بِقَائِمَةٍ مِنْ أَسْفَلِهِ تَدْعَمُهُ وَلَا بِعَلَاقَةٍ مِنْ أَعْلَاهُ تُمْسِكُهُ. وَكَانَ أَمْرُ هٰذَا ٱلصَّنَمِ عَظِيمًا عِنْدَ ٱلْهِنْدِ مَنْ رَآهُ وَاقِفًا فِي ٱلْهَوَاءِ تَعَجَّبَ. وَكَانَتِ ٱلْهِنْدُ يَحُجُّونَ إِلَيْهِ وَيَحْمِلُونَ إِلَيْهِ مِنَ ٱلْهَدَايَا كُلَّ شَيْءٍ نَفِيسٍ وَكَانَ لَهُ مِنَ ٱلْوُقُوفِ مَا يَزِيدُ عَلَى عَشَرَةِ آلَافِ قَرْيَةٍ. وَكَانَتْ سَدَنَتُهُ أَلْفَ رَجُلٍ مِنَ ٱلْبَرَاهِمَةِ لِعِبَادَتِهِ وَخِدْمَةِ ٱلْوُفُودِ. وَأَمَّا ٱلْبَيْتُ فَكَانَ مَبْنِيًّا عَلَى سِتٍّ وَخَمْسِينَ سَارِيَةً مِنَ ٱلسَّاجِ ٱلْمُصَفَّحِ بِٱلرَّصَاصِ. وَكَانَتْ قُبَّةُ ٱلصَّنَمِ مُظْلِمَةً وَضَوْءُهَا كَانَ مِنْ قَنَادِيلِ ٱلْجَوْهَرِ ٱلْفَائِقِ. وَعِنْدَهُ سِلْسِلَةُ ذَهَبٍ كُلَّمَا مَضَتْ طَائِفَةٌ مِنَ ٱللَّيْلِ حُرِّكَتْ فَتُصَوِّتُ ٱلْأَجْرَاسُ فَيَقُومُ طَائِفَةٌ مِنَ ٱلْبَرَاهِمَةِ لِلْعِبَادَةِ. حُكِيَ أَنَّ ٱلسُّلْطَانَ يَمِينَ ٱلدَّوْلَةِ لَمَّا غَزَا بِلَادَ ٱلْهِنْدِ وَرَأَى ذٰلِكَ ٱلصَّنَمَ أَعْجَبَهُ أَمْرُهُ وَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: مَاذَا تَقُولُونَ فِي أَمْرِ هٰذَا ٱلصَّنَمِ وَوُقُوفِهِ فِي ٱلْهَوَاءِ بِلَا عِمَادٍ وَعَلَاقَةٍ. فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ عُلِّقَ بِعَلَاقَةٍ وَأُخْفِيَتِ ٱلْعَلَاقَةُ عَنِ ٱلنَّظَرِ. وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحَاضِرِينَ: إِنِّي أَظُنُّ أَنَّ ٱلْقُبَّةَ مِنْ حَجَرِ ٱلْمَغْنَاطِيسِ وَٱلصَّنَمَ مِنَ ٱلْحَدِيدِ. وَٱلصَّانِعُ بَالَغَ فِي تَدْقِيقِ صَنْعَتِهِ وَرَاعَى تَكَافُؤَ قُوَّةِ ٱلْمَغْنَاطِيسِ مِنَ ٱلْجَوَانِبِ. فَوَافَقَهُ قَوْمٌ وَخَالَفَهُ آخَرُونَ. فَلَمَّا رَفَعَ حَجَرَيْنِ مِنْ رَأْسِ ٱلْقُبَّةِ مَالَ ٱلصَّنَمُ إِلَى أَحَدِ ٱلْجَوَانِبِ. فَلَمْ يَزَلْ يَرْفَعُ ٱلْأَحْجَارَ وَٱلصَّنَمُ يَنْزِلُ حَتَّى وَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ (للقزويني)

الباب السابع عشر
في الأسفار

مدح السفر

٣٣٦ قَالَ أَبُو قَاسِم الصَّاحِبُ: لَيْسَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ بَلَدٍ نَسَبٌ فَخَيْرُ الْبِلَادِ مَا حَمَلَكَ. السَّفَرُ يُسْفِرُ عَنْ أَخْلَاقِ الرِّجَالِ فَأَوْحِشْ أَهْلَكَ إِذَا كَانَ فِي إِيحَاشِهِمْ أُنْسُكَ. وَاهْجُرْ وَطَنَكَ إِذَا نَبَتْ عَنْهُ نَفْسُكَ. رُبَّمَا أَسْفَرَ السَّفَرُ عَنِ الظَّفَرِ. وَتَعَذَّرَ فِي الْوَطَنِ قَضَاءُ الْوَطَرِ (اليواقيت للثعالبي)

أَنْشَدَ شُكْرٌ الْعَلَوِيُّ:

قَوِّضْ خِيَامَكَ عَنْ أَرْضٍ تُهَانُ بِهَا ... وَجَانِبِ الذُّلَّ إِنَّ الذُّلَّ يُجْتَنَبُ
وَارْحَلْ إِذَا كَانَ فِي الْأَوْطَانِ مَنْقَصَةٌ ... فَالْمَنْدَلُ الرَّطْبُ فِي أَوْطَانِهِ حَطَبُ

قَالَ آخَرُ:

إِرْحَلْ بِنَفْسِكَ مِنْ أَرْضٍ تُضَامُ بِهَا ... وَلَا تَكُنْ بِفِرَاقِ الْأَهْلِ فِي حُرَقِ
مَنْ ذَلَّ بَيْنَ أَهَالِيهِ بِبَلْدَتِهِ ... فَالِاغْتِرَابُ لَهُ مِنْ أَحْسَنِ الْخُلُقِ
أَلْكُحْلُ نَوْعٌ مِنَ الْأَحْجَارِ مُنْطَرِحًا ... فِي أَرْضِهِ كَالثَّرَى يُنْدُو عَلَى الطُّرُقِ
لَمَّا تَغَرَّبَ نَالَ الْعِزَّ أَجْمَعَهُ ... وَصَارَ يُحْمَلُ بَيْنَ الْجَفْنِ وَالْحَدَقِ

قَالَ غَيْرُهُ:

إِذَا مَا ضَاقَ صَدْرُكَ مِنْ بِلَادٍ ... تَرَحَّلْ طَالِبًا أَرْضًا سِوَاهَا
عَجِبْتُ لِمَنْ يُقِيمُ بِدَارِ ذُلٍّ ... وَأَرْضُ اللهِ مُتَّسِعٌ فَضَاهَا

فَذاكَ مِنَ الرِّجالِ قَلِيلُ عَقْلٍ بَلِيدٌ لَيْسَ يَعْلَمُ مَا طَحاها
فَنَفْسَكَ فُزْ بِها إِنْ خِفْتَ ضَيْماً وَخَلِّ الدّارَ تَنْعَى مَنْ بَناها
فَإِنَّكَ واجِدٌ أَرْضاً بِأَرْضٍ وَنَفْسَكَ لَمْ تَجِدْ نَفْساً سِواها

٣٣٧ كَتَبَ بَعْضُ الكُتّابِ: جَزَى اللهُ الفِراقَ خَيْراً فَما هُوَ إِلّا زَفْرَةٌ وَعَبْرَةٌ. ثُمَّ اعْتِصامٌ وَتَوَكُّلٌ. ثُمَّ تَأْمِيلٌ وَتَوَقُّعٌ. وَقَبَّحَ اللهُ التَّلاقَ. فَإِنَّما هُوَ مَسَرَّةُ لَحْظَةٍ وَمَساءَةُ أَيّامٍ. وَابْتِهاجُ ساعَةٍ وَاكْتِئابُ زَمانٍ. وَإِنِّي لَأَكْرَهُ الاجْتِماعَ وَلا أَكْرَهُ الفِراقَ. لِأَنَّ مَعَ الفِراقِ غُمَّةً يُخَفِّفُها تَوَقُّعُ إِسْعافٍ بِتَأْمِيلِ الأَوْبَةِ وَالرُّجْعَى. وَمَعَ الاجْتِماعِ مُحاذَرَةُ الفِراقِ وَقِصَرُ السُّرُورِ. قالَ بَعْضُ الظُّرَفاءِ: لَوْ قُلْتُ إِنِّي لَمْ أَجِدْ لِلرَّحِيلِ أَلَماً وَلِلْبَيْنِ حُرْقَةً لَقُلْتُ حَقّاً. لِأَنِّي نِلْتُ بِهِ مِنَ العِناقِ وَأُنْسِ اللِّقاءِ ما كانَ مَعْدُوماً أَيّامَ الاجْتِماعِ وَبِهِ مُصافَحَةُ التَّسْلِيمِ. وَرَجاءُ الأَوْبَةِ. وَعِمارَةُ القَلْبِ بِالشَّوْقِ. وَالأُنْسُ بِالمُكاتَبَةِ (للمقدسي)

قالَ أَبُو تَمّامٍ:

وَلَيْسَتْ فَرْحَةُ الأَوْباتِ إِلّا بِمَوْقُوفٍ عَلَى تَرَحِ الوَداعِ

قالَ ابْنُ النَّطْرُونِي:

باتَتْ تَصُدُّ عَنِ النَّوَى وَتَقُولُ كَمْ تَتَغَرَّبُ
إِنَّ الحَياةَ مَعَ القَنا عَةِ لِلْمُقامِ الأَطْيَبُ
فَأَجَبْتُها يا هَذِهِ غَيْرِي بِقَوْلِكِ خُلَّبُ
إِنَّ الكَرِيمَ مُفارِقٌ أَوْطانَهُ إِذْ تُجْدِبُ

وَٱلْبَدْرُ حِينَ يَشِينُهُ نُقْصَانُهُ يَتَغَيَّبُ

ذم السفر

٣٣٨ كَانَ يُقَالُ: فِرَاقُ ٱلْأَحْبَابِ. سَقَامُ ٱلْأَلْبَابِ. حَقٌّ لِلْفِرَاقِ أَنْ تَطِيرَ لَهُ ٱلْقُلُوبُ. وَتَطِيشَ مَعَهُ ٱلْعُقُولُ. وَتَطِيحَ عَلَيْهِ ٱلنُّفُوسُ. وَفِرَاقُ ٱلْحَبِيبِ يُشَيِّبُ ٱلْوَلِيدَ. وَيُذِيبُ ٱلْحَدِيدَ. وَهَوْلُ ٱلسِّيَاقِ. أَهْوَنُ مِنَ ٱلْفِرَاقِ. وَقَالَ ٱلنَّظَّامُ: لَوْ كَانَتْ لِلْفِرَاقِ صُورَةٌ لَرَاعَتِ ٱلْقُلُوبَ وَهَدَّتِ ٱلْجِبَالَ. وَلَجَمْرُ ٱلْغَضَا أَهْوَنُ تَوَهُّجًا مِنْ نَارِهِ. قَالَ بَعْضُهُمْ:

وَمَنْ يَنْأَ عَنْ دَارِ ٱلْعَشِيرَةِ لَمْ يَزَلْ عَلَيْهِ رُعُودٌ جَمَّةٌ وَبُرُوقُ

قَالَ ٱبْنُ ٱلْهَبَّارِيَّةِ:

قَالُوا أَقَمْتَ وَمَا رُزِقْتَ وَإِنَّمَا بِٱلسَّيْرِ يَكْتَسِبُ ٱللَّبِيبُ وَيُرْزَقُ
فَأَجَبْتُهُمْ مَا كُلُّ سَيْرٍ نَافِعًا أَلْحَظُّ يَنْفَعُ لَا ٱلرَّحِيلُ ٱلْمُقْلِقُ
كَمْ سَفْرَةٍ نَفَعَتْ وَأُخْرَى مِثْلُهَا ضَرَّتْ وَيَكْتَسِبُ ٱلْحَرِيصُ وَيُخْفِقُ
كَٱلْبَدْرِ يَكْتَسِبُ ٱلْكَمَالَ بِسَيْرِهِ وَبِهِ إِذَا حُرِمَ ٱلسَّعَادَةَ يُمْحَقُ

سفرة ابن جبير الى جزيرة صقلية (سنة ٥٨١ هجرية و١١٨٧ مسيحية)

ذكر مدينة مسينة من جزيرة صقلية

٣٣٩ هٰذِهِ ٱلْمَدِينَةُ مَوْسِمُ ٱلتُّجَّارِ. وَمَقْصِدُ جَوَارِي ٱلْبَحْرِ مِنْ جَمِيعِ ٱلْأَقْطَارِ. كَثِيرَةُ ٱلْإِرْفَاقِ بِرَخَاءِ ٱلْأَسْعَارِ. لَا يَقِرُّ فِيهَا لِمُسْلِمٍ قَرَارٌ. مَشْحُونَةٌ بِعَبَدَةِ ٱلصُّلْبَانِ تَغَصُّ بِقَاطِنِيهَا. وَتَكَادُ تَضِيقُ ذَرْعًا بِسَاكِنِيهَا. أَسْوَاقُهَا نَافِقَةٌ حَفِيلَةٌ. وَأَرْزَاقُهَا وَاسِعَةٌ بِإِرْغَادِ ٱلْعَيْشِ كَفِيلَةٌ. لَا تَزَالُ

بِهَا لَيْلَكَ وَنَهَارَكَ فِي أَمَانٍ. وَإِنْ كُنْتَ غَرِيبَ ٱلْوَجْهِ وَٱلْيَدِ وَٱللِّسَانِ. مُسْتَنِدَةٌ إِلَى جِبَالٍ قَدِ ٱنْتَظَمَتْ حَضِيضَهَا وَخَنَادِقَهَا. وَٱلْبَحْرُ يَعْتَرِضُ أَمَامَهَا فِي ٱلْجِهَةِ ٱلْجَنُوبِيَّةِ مِنْهَا. وَمَرْسَاهَا أَعْجَبُ مَرَاسِي ٱلْبِلَادِ ٱلْبَحْرِيَّةِ لِأَنَّ ٱلْمَرَاكِبَ ٱلْكِبَارَ تَدْنُو فِيهِ مِنَ ٱلْبَرِّ حَتَّى تَكَادُ تُمْسِكُهُ وَيُنْصَبُ مِنْهَا إِلَى ٱلْبَرِّ خَشَبَةٌ يُتَصَرَّفُ عَلَيْهَا. وَٱلْحَمَّالُ يَصْعَدُ بِحِمْلِهِ إِلَيْهَا وَلَا يُحْتَاجُ إِلَى زَوَارِيقَ فِي وَسْقِهَا وَلَا فِي تَفْرِيغِهَا إِلَّا مَا كَانَ مُرْسِيًا عَلَى ٱلْبُعْدِ مِنْهَا يَسِيرًا. فَتَرَاهَا مُصْطَفَّةً مِنَ ٱلْبَرِّ كَٱصْطِفَافِ ٱلْجِيَادِ فِي مَرَابِطِهَا وَإِصْطَبْلَاتِهَا وَذَلِكَ لِإِفْرَاطِ عُمْقِ ٱلْبَحْرِ فِيهَا. وَهُوَ زُقَاقٌ مُعْتَرِضٌ بَيْنَهَا وَبَيْنَ ٱلْأَرْضِ ٱلْكَبِيرَةِ بِمِقْدَارِ ثَلَاثَةِ أَمْيَالٍ. وَيُقَابِلُهَا مِنْهُ بَلْدَةٌ تُعْرَفُ بِرِيَّةَ وَهِيَ عِمَالَةٌ كَبِيرَةٌ. وَهَذِهِ ٱلْمَدِينَةُ مِسِّينَةُ رَأْسُ جَزِيرَةِ صِقِلِّيَةَ وَهِيَ كَثِيرَةُ ٱلْمُدُنِ وَٱلْعَمَائِرِ وَٱلضِّيَاعِ. وَطُولُ هَذِهِ ٱلْجَزِيرَةِ صِقِلِّيَةَ سَبْعَةُ أَيَّامٍ. وَعَرْضُهَا مَسِيرَةُ خَمْسَةِ أَيَّامٍ. وَبِهَا جَبَلُ ٱلْبُرْكَانِ. وَهُوَ يَأْتَزِرُ بِٱلسُّحُبِ لِإِفْرَاطِ سُمُوِّهِ وَيَعْتَمُّ بِٱلثَّلْجِ شِتَاءً وَصَيْفًا دَائِمًا. وَخِصْبُ هَذِهِ ٱلْجَزِيرَةِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُوصَفَ. وَكَفَى بِأَنَّهَا ٱبْنَةُ ٱلْأَنْدَلُسِ فِي سَعَةِ ٱلْعِمَارَةِ وَكَثْرَةِ ٱلْخِصْبِ وَٱلرَّفَاهَةِ. مَشْحُونَةٌ بِٱلْأَرْزَاقِ عَلَى ٱخْتِلَافِهَا. مَمْلُوءَةٌ بِأَنْوَاعِ ٱلْفَوَاكِهِ وَأَصْنَافِهَا. وَجِبَالُهَا كُلُّهَا بَسَاتِينُ مُثْمِرَةٌ بِٱلتُّفَّاحِ وَٱلشَّاهِ بَلُّوطِ وَٱلْبُنْدُقِ وَٱلْإِجَّاصِ وَغَيْرِهَا مِنَ ٱلْفَوَاكِهِ. وَلَيْسَ فِي مِسِّينَةَ هَذِهِ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ إِلَّا نَفَرٌ يَسِيرٌ مِنْ ذَوِي ٱلْمِهَنِ وَلِذَلِكَ لَا يَسْتَوْحِشُ بِهَا ٱلْمُسْلِمُ ٱلْغَرِيبُ.

وَأَحسن مُدُنِهَا قَاعِدَةُ مُلكِهَا. وَٱلْمُسلِمُونَ يَعْرِفُونَهَا بِٱلْمَدِينَةِ وَٱلنَّصَارَى يَعْرِفُونَهَا بِبَلَرْمَةَ. وَفِيهَا سُكْنَى ٱلْحَضَرِيِّينَ مِنَ ٱلْمُسلِمِينَ

وَبِلَرْمَةَ هٰذِهِ مَسْكِنُ مَلِكِهِمْ غِلْيَام. وَهِيَ أَحفَلُ مُدُنِ صِقِلِّيَة وَبَعْدَهَا مِسِّينَةُ وَشَأْنُ مَلِكِهِمْ هٰذَا عَجِيبٌ فِي حُسْنِ ٱلسِّيرَةِ. وَهُوَ كَثِيرُ ٱلثِّقَةِ بِٱلْمُسلِمِينَ هُمْ أَهلُ دَوْلَتِهِ وَٱلْمُرتَسِمُونَ بِخَاصَّتِهِ. وَعَلَيْهِم يَلُوحُ رَوْنَقُ مَمْلَكَتِهِ. لِأَنَّهُمْ مُتَّسِعُونَ فِي ٱلْمَلَابِسِ ٱلْفَاخِرَةِ وَٱلْمَرَاكِبِ ٱلْفَارِهَةِ. وَمَا مِنْهُمْ إِلَّا مَن لَهُ ٱلْحَاشِيَةُ وَٱلْخَوَلُ وَٱلأَتْبَاعُ. وَلِهٰذَا ٱلْمَلِكِ ٱلْقُصُورُ ٱلْمُشَيَّدَةُ وَٱلْبَسَاتِينُ ٱلأَنِيقَةُ وَلَاسِيَّمَا بِحَاضِرَةِ مُلكِهِ ٱلْمَدِينَةِ ٱلْمَذْكُورَةِ. وَلَهُ بِمِسِّينَةَ قَصرٌ أَبيَضُ كَٱلْحَمَامَةِ مُطِلٌّ عَلَى سَاحِلِ ٱلْبَحْرِ. وَلَيْسَ فِي مُلُوكِ ٱلنَّصَارَى أَتْرَفُ فِي ٱلْمُلكِ وَلَا أَنعَمُ وَلَا أَرفَهُ مِنْهُ. وَهُوَ يَتَشَبَّهُ فِي تَرْتِيبِ قَوَانِينِهِ وَوَضْعِ أَسَالِيبِهِ وَتَقْسِيمِ مَرَاتِبِ رِجَالِهِ وَتَفْخِيمِ أُبَّهَةِ ٱلْمُلكِ وَإِظهَارِ زِينَتِهِ بِمُلُوكِ ٱلْمُسلِمِينَ. وَمُلكُهُ عَظِيمٌ جِدًّا وَلَهُ ٱلأَطِبَّاءُ وَٱلْفُقَهَاءُ وَهُوَ كَثِيرُ ٱلِاعْتِنَاءِ بِهِمْ شَدِيدُ ٱلْحِرصِ عَلَيْهِمْ. حَتَّى إِنَّهُ مَتَى ذُكِرَ لَهُ أَنَّ طَبِيبًا أَوْ فَقِيهًا ٱجْتَازَ بِبَلَدِهِ أَمَرَ بِإِمْسَاكِهِ وَأَدَرَّ لَهُ أَرْزَاقَ مَعِيشَتِهِ. وَمِنْ عَجِيبِ شَأْنِهِ ٱلْمُتَحَدَّثِ بِهِ أَنَّهُ يَقرَأُ وَيَكْتُبُ بِٱلْعَرَبِيَّةِ وَعَلَامَتُهُ عَلَى مَا أَعلَمَنَا بِهِ أَحَدُ خَدَمَتِهِ ٱلْمُختَصِّينَ بِهِ: ٱلْحَمْدُ لِلّٰهِ حَقَّ حَمْدِهِ

وَبِمَدِينَةِ مِسِّينَةَ ٱلْمَذْكُورَةِ دَارُ صَنْعَةٍ تَحْتَوِي مِنَ ٱلأَسَاطِيلِ عَلَى مَا لَا يُحْصَى عَدَدُ مَرَاكِبِهِ. فَكَانَ نُزُولُنَا فِي أَحَدِ ٱلْفَنَادِقِ وَأَقَمْنَا بِهَا تِسعَةَ أَيَّامٍ. فَلَمَّا كَانَ لَيْلَةَ ٱلثُّلَاثَاءِ ٱلثَّانِي عَشَرَ لِرَمَضَانَ رَكِبْنَا فِي زَوْرَقٍ

مُتوجهين إلى مدينة بَلرمة . وسرنا قريباً من الساحل بحيث يُبصره رأي العين . وأرسل الله علينا ريحاً شرقية رخاء طيبة زجت الزورق أهنأ تزجية . وسرنا نسرح اللحظ في عمائر وقرى متصلة وحصون ومعاقل في قنن الجبال مشرفة . وأبصرنا عن يميننا في البحر تسع جزائر قد قامت خيالاً مرتفعة على مقربة من بر الجزيرة اثنان منها تخرج منهما النار دائماً . وأبصرنا الدخان صاعداً منهما ويظهر بالليل ناراً حمراء ذات ألسن تصعد في الجو . وهو البركان المشهور خبره . وأعلمنا أن خروجها من منافس في الجبلين المذكورين يصعد منها نفس ناري بقوة شديدة يكون عنه النار . وربما قذف فيها الحجر الكبير فتلقي به إلى الهواء بقوة ذلك النفس وتمنعه من الاستقرار والانتهاء إلى القعر . وهذا من أعجب المسموعات الصحيحة . وأما الجبل الشامخ الذي بالجزيرة المعروف بجبل النار فشأنه عجيب . وذلك أن ناراً تخرج منه كالسيل العرم . فلا تمر بشيء إلا أحرقته حتى تنتهي إلى البحر . فتركب ثبجه على صفحه حتى تغوص فيه . فسبحان المبدع في عجائب مخلوقاته وحللنا عشي يوم الأربعاء مرسى مدينة شفلودى

(ومدينة شفلودى) هي مدينة ساحلية كثيرة الخصب واسعة المرافق . منتظمة أشجار الأعناب وغيرها . مرتبة الأسواق تسكنها طائفة من المسلمين . وعليها قنة جبل واسعة مستديرة فيها قلعة لم يُر أمنع منها اتخذوها عدة لأسطول يفجأهم من جهة البحر من جهة

ٱلْمُسْلِمِينَ . وَكَانَ إِقْلَاعُنَا مِنْهَا نِصْفَ ٱللَّيْلِ فَجِئْنَا مَدِينَةَ ثِرْمَةَ ضَحْوَةَ يَوْمِ ٱلْخَمِيسِ بِسَيْرٍ رُوَيْدٍ . وَبَيْنَ ٱلْمَدِينَتَيْنِ خَمْسَةٌ وَعِشْرُونَ مِيلًا . فَٱنْتَقَلْنَا مِنْهَا مِنْ ذَٰلِكَ ٱلزَّوْرَقِ إِلَى زَوْرَقٍ ثَانٍ ٱكْتَرَيْنَاهُ لِكَوْنِ ٱلْبَحْرِيِّينَ صَحِبُونَا فِيهِ مِنْ أَهْلِهَا . وَثِرْمَةُ هٰذِهِ أَحْسَنُ وَضْعًا مِنَ ٱلَّتِي تَقَدَّمَ ذِكْرُهَا . وَهِيَ حَصِينَةٌ تَرْكَبُ ٱلْبَحْرَ وَتُشْرِفُ عَلَيْهِ . وَلِلْمُسْلِمِينَ فِيهَا رَبَضٌ كَبِيرٌ لَهُمْ فِيهِ ٱلْمَسَاجِدُ . وَلَهَا قَلْعَةٌ سَامِيَةٌ مَنِيعَةٌ . وَفِي أَسْفَلِ ٱلْبَلْدَةِ أَجَمَّةٌ قَدْ أَغْنَتْ أَهْلَهَا عَنِ ٱتِّخَاذِ حَمَّامٍ . وَهٰذِهِ ٱلْبَلْدَةُ مِنَ ٱلْخِصْبِ وَسَعَةِ ٱلرِّزْقِ عَلَى غَايَةٍ . وَٱلْجَزِيرَةُ بِأَسْرِهَا مِنْ أَعْجَبِ بِلَادِ ٱللهِ فِي ٱلْخِصْبِ وَسَعَةِ ٱلْأَرْزَاقِ . فَأَقَمْنَا بِهَا يَوْمَ ٱلْخَمِيسِ ٱلرَّابِعَ عَشَرَ لِلشَّهْرِ ٱلْمَذْكُورِ وَنَحْنُ قَدْ أَرْسَيْنَا فِي وَادٍ بِأَسْفَلِهَا . وَيَطْلُعُ فِيهِ ٱلْمَدُّ مِنَ ٱلْبَحْرِ ثُمَّ يَنْحَسِرُ عَنْهُ . وَبِتْنَا بِهَا لَيْلَةَ ٱلْجُمُعَةِ . ثُمَّ ٱنْقَلَبَ ٱلْهَوَاءُ غَرْبِيًّا فَلَمْ نَجِدْ لِلْإِقْلَاعِ سَبِيلًا . وَبَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْمَدِينَةِ ٱلْمَقْصُودَةِ ٱلْمَعْرُوفَةِ عِنْدَ ٱلنَّصَارَى بِبَلَرْمَةَ خَمْسَةٌ وَعِشْرُونَ مِيلًا . فَخَشِينَا طُولَ ٱلْمُقَامِ وَحَمِدْنَا ٱللهَ تَعَالَى عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ مِنَ ٱلتَّسْهِيلِ فِي قَطْعِ ٱلْمَسَافَةِ فِي يَوْمَيْنِ . وَقَدْ تَلْبَثُ ٱلزَّوَارِقُ فِي قَطْعِهَا عَلَى مَا أُعْلِمْنَا بِهِ ٱلْعِشْرِينَ يَوْمًا وَٱلثَّلَاثِينَ يَوْمًا وَنَيِّفًا عَلَى ذَٰلِكَ . فَأَصْبَحْنَا يَوْمَ ٱلْجُمُعَةِ مُنْتَصَفَ ٱلشَّهْرِ ٱلْمُبَارَكِ عَلَى نِيَّةٍ مِنَ ٱلْمَسِيرِ فِي ٱلْبَرِّ عَلَى أَقْدَامِنَا . فَتَحَمَّلْنَا بَعْضَ أَسْبَابِنَا وَخَلَّفْنَا بَعْضَ ٱلْأَصْحَابِ عَلَى ٱلْأَسْبَابِ ٱلْبَاقِيَةِ فِي ٱلزَّوْرَقِ . وَسِرْنَا فِي طَرِيقٍ كَأَنَّهَا ٱلسُّوقُ عِمَارَةً وَكَثْرَةَ صَادِرٍ وَوَارِدٍ . وَطَوَائِفُ ٱلنَّصَارَى يَتَلَقَّوْنَنَا فَيُبَادِرُونَ بِٱلسَّلَامِ عَلَيْنَا

وَيُؤْنِسُونَنا. فرأينا من سياستهم ولين مقصدهم مع المُسْلِمِيَّة ما يُوقِعُ العَجَب. حتى انتهينا إلى قصر سعد وهو على فرسخ من المدينة وقد أخذ بنا الإعياء فملنا إليه وبتنا فيه. وهذا القصر على ساحل البحر مشيد البناء عتيقه قديم الوضع من عهد ملكة المسلمين للجزيرة. وبإزائه عين تعرف بعين المجنونة. وله باب وثيق من الحديد. وداخله مساكن وعلالي مشرفة وبيوت منتظمة. وهو كامل مرافق السكنى وفي أعلاه مسجد من أحسن مساجد الدنيا بهاء. مستطيل ذو حنايا مفروشة بحصر نظيفة لم يُرَ أحسن منها صنعة. وقد علق فيه نحو الأربعين قنديلاً من أنواع الصفر والزجاج. وأمامه شارع واسع مستدير بأعلى القصر وفي أسفل القصر بئر عذبة. فبتنا في هذا المسجد أحسن مبيت وأطيبه. وبمقربة من هذا القصر نحو الميل إلى جهة المدينة قصر آخر على صفته يعرف بقصر جعفر. وداخله سقاية تفور بماء عذب. وأبصرنا للنصارى في هذه الطريق كنائس معدة لمرضى النصارى. ولهم في مدنهم مثل ذلك في صفة مارستانات المسلمين. وأبصرنا لهم بعكة وبصور مثل ذلك. فعجبنا من اعتنائهم بهذا القدر. فلما صلينا الصبح توجهنا إلى المدينة فجئنا لندخل فمنعنا وحملنا إلى الباب المتصل بقصور الملك الإفرنجي غليام وأدينا إلى المستخلف ليسألنا عن مقصدنا. وكذلك فعلهم بكل غريب فسرنا في بكك رحاب وأبواب وساحات ملوكية. وأبصرنا من القصور المشرفة

وَالْمَيَادِينِ الْمُنْتَظِمَةِ وَالْبَسَاتِينِ وَالْمَرَاتِبِ الْمُتَّخَذَةِ لِأَهْلِ الْخِدْمَةِ مَا رَاعَ أَبْصَارَنَا . وَأَذْهَلَ أَفْكَارَنَا . وَأَبْصَرْنَا فِيمَا أَبْصَرْنَاهُ مَجْلِسًا فِي سَاحَةٍ فَسِيحَةٍ قَدْ أَحْدَقَ بِهَا بُسْتَانٌ وَانْتَظَمَتْ بِجَوَانِبِهَا بَلَاطَاتٌ . وَالْمَجْلِسُ قَدْ أَخَذَ اسْتِطَالَةَ تِلْكَ السَّاحَةِ كُلِّهَا . فَعَجِبْنَا مِنْ طُولِهِ وَإِشْرَافِ مَنَاظِرِهِ . فَأَعْلَمَنَا أَنَّهُ مَوْضِعُ غِذَاءِ الْمَلِكِ مَعَ أَصْحَابِهِ . وَتِلْكَ الْبَلَاطَاتُ وَالْمَرَاتِبُ حَيْثُ تَقْعُدُ حُكَّامُهُ وَأَهْلُ الْخِدْمَةِ وَالْعِمَالَةِ أَمَامَهُ . فَخَرَجَ إِلَيْنَا ذَلِكَ الْمُسْتَخْلَفُ يَتَهَادَى بَيْنَ خَدِيمَيْنِ يَحُفَّانِ بِهِ وَيَرْفَعَانِ أَذْيَالَهُ . فَأَبْصَرْنَا شَيْخًا طَوِيلَ السَّبَلَةِ أَبْيَضَهَا ذَا أُبَّهَـةٍ . فَسَأَلَنَا عَنْ مَقْصِدِنَا وَعَنْ بَلَدِنَا بِكَلَامٍ عَرَبِيٍّ لَيِّنٍ فَأَعْلَمْنَاهُ . فَأَظْهَرَ الْإِشْفَاقَ عَلَيْنَا وَأَمَرَ بِانْصِرَافِنَا بَعْدَ أَنْ أَحْفَى فِي السَّلَامِ وَالدُّعَاءِ فَعَجِبْنَا مِنْ شَأْنِهِ . وَكَانَ أَوَّلُ سُؤَالِهِ لَنَا عَنْ خَبَرِ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ الْعُظْمَى وَمَا عِنْدَنَا مِنْهُ فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَنَا مَا نُعْلِمُهُ بِهِ . وَخَرَجْنَا إِلَى أَحَدِ الْفَنَادِقِ فَنَزَلْنَا فِيهِ وَذَلِكَ يَوْمَ السَّبْتِ الثَّانِي وَالْعِشْرِينَ لِدِجَنْبَرَ . وَفِي خُرُوجِنَا مِنَ الْقَصْرِ الْمَذْكُورِ سَلَكْنَا بَلَاطًا مُتَّصِلًا مَشَيْنَا فِيهِ مَسَافَةً طَوِيلَةً وَهُوَ مُسَقَّفٌ حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى كَنِيسَـةٍ عَظِيمَةِ الْبِنَاءِ . فَأَعْلَمَنَا أَنَّ ذَلِكَ الْبَلَاطَ مَمْشَى الْمَلِكِ إِلَى هَذِهِ الْكَنِيسَةِ

(ذِكْرُ بَلَرْمَةَ) هِيَ بِهَذِهِ الْجَزَائِرِ أُمُّ الْحَضَارَةِ . وَالْجَامِعَةُ بَيْنَ الْحُسْنَيَيْنِ غَضَارَةٍ وَنَضَارَةٍ . فَمَا شِئْتَ بِهَا مِنْ جَمَالِ مَخْبَرٍ وَمَنْظَرٍ . وَمَرَادِ عَيْشٍ يَانِعٍ أَخْضَرَ . عَتِيقَةٌ أَنِيقَةٌ . مُشْرِقَةٌ مُونِقَةٌ . تَتَطَلَّعُ بِمَرْأًى فَتَّانٍ . وَتَتَخَايَلُ بَيْنَ سَاحَاتٍ وَبَسَائِطَ كُلُّهَا بُسْتَانٌ . فَسِيحَةُ السِّكَكِ وَالشَّوَارِعِ . تَرُوقُ

الأبصار بحسن منظرها البارع عجيبة الشأن. قرطبية البنيان. مبانيها كلها بمنحوت الحجر المعروف بالكذان. يشقها نهر معين ويطرد في جنباتها أربع عيون قد زخرفت منها لملكها دنياه فاتخذها حاضرة ملكه الإفرنجي. تنتظم بلبتها قصوره انتظام العقود في نحور الكواعب. ويتقلب من بساتينها وميادينها بين نزهة وملاعب. فكم له فيها من مقاصير ومصانع. ومناظر ومطالع. وكم له بجهاتها من ديارات قد زخرف بنيانها. ورفه بالإقطاعات الواسعة رهبانها. وكنائس قد صيغ من الذهب والفضة صلبانها. وللمسلمين في هذه المدينة أرباض قد انفردوا فيها بسكناهم عن النصارى والأسواق معمورة بهم وهم التجار فيها ويصلون الأعياد بخطبة ودعاؤهم فيها للعباسيين. ولهم بها قاض يرتفعون إليه في أحكامهم. ولهذه المدينة شبه بقرطبة أن لها مدينة قديمة تعرف بالقصر القديم هي في وسط المدينة الحديثة وعلى هذا المثال وضع قرطبة. وبهذا القصر ديار كأنها القصور المشيدة. لها مناظر في الجو مظلمة تحار الأبصار في حسنها

(كنيسة بلرمة) ومن أعجب ما شاهدناه بها من أمور النصارى كنيسة تعرف بكنيسة الأنطاكي أبصرناها يوم الميلاد وهو يوم عيد لهم عظيم. وقد احتفلوا لها رجالا ونساء فأبصرنا من بنيانها مرأى يعجز الوصف عنه ويقع القطع بأنه أعجب مصانع الدنيا المزخرفة. جدرها الداخلة ذهب كلها وفيها من ألواح الرخام الملون مالم ير

مِثْلُهُ قطُّ قد رُصِعَتْ كُلُّها بِفُصُوصِ الذَّهَبِ وَكُلِّلَتْ بِأَحْجَارِ الْفُصُوصِ الْخُضْرِ وَنُظِمَ أَعْلَاهَا بِالشَّمْسِيَّاتِ الْمُذَهَّبَاتِ مِنَ الزُّجَاجِ. فَتَخْطَفُ الأَبْصَارَ بِسَاطِعِ شُعَاعِهَا وَتُحْدِثُ فِي النُّفُوسِ فِتْنَةً . وَأَعْلَمَنَا أَنَّ بَانِيَهَا الَّذِي تُنْسَبُ إِلَيْهِ أَنْفَقَ فِيهَا قَنَاطِيرَ مِنَ الذَّهَبِ وَكَانَ وَزِيرًا لِجَدِّ هَذَا الْمَلِكِ. وَلِهَذِهِ الْكَنِيسَةِ صَوْمَعَةٌ قَدْ قَامَتْ عَلَى أَعْمِدَةِ سَوَارٍ مِنَ الرُّخَامِ وَعَلَيْهَا قُبَّةٌ عَلَى أُخْرَى سَوَارٍ كُلُّهَا فَتُعْرَفُ بِصَوْمَعَةِ السَّوَارِي وَهِيَ مِنْ أَعْجَبِ مَا يُبْصَرُ مِنَ الْبُنْيَانِ. وَزِيُّ النَّصْرَانِيَّاتِ فِي هَذِهِ الْمَدِينَةِ زِيُّ نِسَاءِ الْمُسْلِمِينَ. فَصِيحَاتُ الأَلْسُنِ مُلْتَحِفَاتٌ مُتَنَقِّبَاتٌ. خَرَجْنَ فِي هَذَا الْعِيدِ الْمَذْكُورِ وَقَدْ لَبِسْنَ ثِيَابَ الْحَرِيرِ الْمُذَهَّبِ وَالْتَحَفْنَ اللُّحُفَ الرَّائِقَةَ وَانْتَقَبْنَ بِالنُّقُبِ الْمُلَوَّنَةِ . وَانْتَعَلْنَ الأَخْفَافَ الْمُذَهَّبَةَ . وَبَرَزْنَ لِكَنَائِسِهِنَّ حَامِلَاتٍ جَمِيعَ زِينَةِ نِسَاءِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ التَّحَلِّي وَالتَّخَضُّبِ وَالتَّعَطُّرِ . وَكَانَ مُقَامُنَا بِهَذِهِ الْمَدِينَةِ سَبْعَةَ أَيَّامٍ . وَنَزَلْنَا بِهَا فِي أَحَدِ فَنَادِقِهَا الَّتِي يَسْكُنُهَا الْمُسْلِمُونَ ... وَخَرَجْنَا مِنْهَا ضَحْوَةَ يَوْمِ الْجُمُعَةِ الثَّانِي وَالْعِشْرِينَ لِهَذَا الشَّهْرِ الْمُبَارَكِ وَالثَّامِنِ وَالْعِشْرِينَ لِشَهْرِ دِجَنْبِرَ إِلَى مَدِينَةِ أَطْرَابُنْش بِسَبَبِ مَرْكَبَيْنِ بِهَا أَحَدُهُمَا يَتَوَجَّهُ إِلَى الأَنْدَلُسِ وَالثَّانِي إِلَى سَبْتَةَ . فَسَلَكْنَا عَلَى قُرًى مُتَّصِلَةٍ وَضِيَاعٍ مُتَجَاوِرَةٍ وَأَبْصَرْنَا مَحَارِثَ وَمَزَارِعَ لَمْ نَرَ مِثْلَ تُرْبَتِهَا طِيبًا وَكَرَمًا وَاتِّسَاعًا . فَشَبَّهْنَاهَا بِقَنْبَانِيَةِ قُرْطُبَةَ أَوْ هَذِهِ أَطْيَبُ وَأَمْتَنُ . وَبِتْنَا فِي الطَّرِيقِ لَيْلَةً وَاحِدَةً فِي بَلْدَةٍ تُعْرَفُ بِعَلْقَمَةَ . وَهِيَ كَبِيرَةٌ مُتَّسِعَةٌ فِيهَا السُّوقُ وَالْمَسَاجِدُ وَسُكَّانُهَا

وسكان هذه الضياع التي في هذه الطريق كلها مسلمون. وقمنا منها سحر يوم السبت فأجتزنا بمقربة منها على حصن يعرف بحصن الحنة وهو بلد كبير فيه حمامات. وقد فجرها الله ينابيع في الأرض وأسالها عناصر لا يكاد البدن يحتملها لإفراط حرها. فأجزنا منها واحدة على الطريق. فنزلنا إليها عن الدواب وأرحنا الأبدان بالاستحمام فيها. ووصلنا إلى أطرابنش عصر ذلك اليوم فنزلنا فيها في دار اكتريناها

(مدينة أطرابنش) وهي مدينة صغيرة الساحة. غير كبيرة المساحة. مسورة بيضاء كالحمامة. مرساها من أحسن المراسي وأوفقها للمراكب. ولذلك كثيرا ما يقصد الروم إليها ولاسيما المقلعون إلى بر العدوة. فإن بينها وبين تونس مسيرة يوم وليلة. فالسفر منها إليها لا يتعطل شتاء ولا صيفا إلا ريثما تهب الريح الموافقة. فمجراها في ذلك مجرى المجاز القريب. وبهذه المدينة السوق والحمام وجميع ما يحتاج إليه من مرافق المدن. لكنها في لهوات البحر لإحاطته بها من ثلاث جهات واتصال البر بها من جهة واحدة ضيقة. والبحر فاغر فاه لها من سائر الجهات. فأهلها يرون أنه لا بد له من الاستيلاء عليها وإن تراخى مدى أيامها. وهي موافقة لرخاء السعر بها لأنها على محرث عظيم. وسكانها المسلمون والنصارى ولكلا الفريقين فيها المساجد والكنائس. وبركنها من جهة الشرق مائلا إلى الشمال على مقربة منها جبل عظيم مفرط السمو متسع. في

أَعْلَاهُ قُنَّةٌ تَنْقَطِعُ عَنْهُ وَفِيهَا مَعْقِلٌ لِلرُّومِ . وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْجَبَلِ قَنْطَرَةٌ وَيَتَّصِلُ بِهِ فِي ٱلْجَبَلِ لِلرُّومِ بَلَدٌ كَبِيرٌ . وَبِهَذَا ٱلْجَبَلِ ٱلْكُرُومُ وَٱلْمَزَارِعُ . وَأُعْلِمْنَا أَنَّ بِهِ نَحْوَ أَرْبَعِمِائَةِ عَيْنٍ مُتَفَجِّرَةٍ . وَهُوَ يُعْرَفُ بِجَبَلِ حَامِدٍ وَٱلصُّعُودُ إِلَيْهِ هَيِّنٌ مِنْ إِحْدَى جِهَاتِهِ . وَهُمْ يَرَوْنَ أَنَّ مِنْهُ يَكُونُ فَتْحُ هٰذِهِ ٱلْجَزِيرَةِ وَلَا سَبِيلَ أَنْ يَتْرُكُوا مُسْلِمًا يَصْعَدُ إِلَيْهِ . وَلِذٰلِكَ أَعَدُّوا فِيهِ ذٰلِكَ ٱلْمَعْقِلَ ٱلْحَصِينَ . فَلَوْ أَحَسُّوا بِحَادِثَةٍ حَصَّنُوا حَرِيمَهُمْ فِيهِ وَقَطَعُوا ٱلْقَنْطَرَةَ . وَٱعْتَرَضَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِي فِي أَعْلَاهُ خَنْدَقٌ كَبِيرٌ . وَشَأْنُ هٰذَا ٱلْبَلَدِ عَجِيبٌ فَمِنَ ٱلْعَجَبِ أَنْ يَكُونَ فِيهِ مِنَ ٱلْعُيُونِ ٱلْمُتَفَجِّرَةِ مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ . وَأَطْرَابُنْشُ فِي هٰذَا ٱلْبَسِيطِ وَلَا مَاءَ لَهَا إِلَّا مِنْ بِئْرٍ عَلَى ٱلْبُعْدِ مِنْهَا . وَفِي دِيَارِهَا آبَارٌ قَصِيرَةُ ٱلْأَرْشِيَةِ مَاؤُهَا كُلُّهَا شَرِيبٌ لَا يُسَاغُ . وَأَلْفَيْنَا ٱلْمَرْكَبَيْنِ ٱللَّذَيْنِ يَرُومَانِ ٱلْإِقْلَاعَ إِلَى ٱلْمَغْرِبِ بِهَا . وَنَحْنُ إِنْ شَاءَ ٱللّٰهُ نُؤَمِّلُ رُكُوبَ أَحَدِهِمَا وَهُوَ ٱلْقَاصِدُ إِلَى بَرِّ ٱلْأَنْدَلُسِ . وَٱللّٰهُ بِمَعْهُودِ صُنْعِهِ ٱلْجَمِيلِ كَفِيلٌ بِمَنِّهِ . وَفِي غَرْبِيِّ هٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ أَطْرَابُنْشَ ثَلَاثُ جَزَائِرَ فِي ٱلْبَحْرِ عَلَى نَحْوِ فَرْسَخَيْنِ مِنْهَا . وَهِيَ صِغَارٌ مُتَجَاوِرَةٌ . إِحْدَاهَا تُعْرَفُ بِمَلِيطَةَ وَٱلْأُخْرَى بِيَابِسَةَ وَٱلثَّالِثَةُ تُعْرَفُ بِٱلرَّاهِبِ نُسِبَتْ إِلَى رَاهِبٍ يَسْكُنُهَا فِي بِنَاءٍ أَعْلَاهَا كَأَنَّهُ ٱلْحِصْنُ وَهُوَ مَكْمَنٌ لِلْعَدُوِّ . وَٱلْجَزِيرَتَانِ لَا عِمَارَةَ فِيهِمَا وَلَا يَعْمُرُ ٱلثَّالِثَةَ سِوَى ٱلرَّاهِبِ ٱلْمَذْكُورِ . ثُمَّ ٱتَّفَقَ كِرَاؤُنَا فِي ٱلْمَرْكَبِ ٱلْمُتَوَجِّهِ إِلَى بَرِّ ٱلْأَنْدَلُسِ . وَنَظَرْنَا فِي ٱلزَّادِ وَٱللّٰهُ ٱلْمُتَكَفِّلُ بِٱلتَّيْسِيرِ وَٱلتَّسْهِيلِ (لابن جبير)

الباب الثامن عشر
في عجائب المخلوقات

في شرح عجب الموجودات

٣٤٠ قالَ القزوينيُّ: العَجَبُ حيرةٌ تَعرِضُ للإنسانِ لقصورِهِ عن معرفةِ سببِ الشيءِ أو عن معرفةِ كيفيةِ تأثيرِهِ فيهِ. مثالُهُ أنّ الإنسانَ إذا رأى خليّةَ النحلِ ولم يكنْ شاهدَهُ قبلُ تعتريهِ حيرةٌ لعدمِ معرفةِ فاعلِهِ. فلو عرفَ أنّهُ من عملِ النحلِ لتحيّرَ أيضاً. من حيثُ إنّ ذلكَ الحيوانَ الضعيفَ كيفَ أحدثَ هذهِ المسدّساتِ المتساويةَ الأضلاعِ التي عجزَ عن مثلِها المهندسُ الحاذقُ معَ الفرجارِ والمسطرةِ. ومن أينَ لها هذا الشمعُ الذي اتّخذتْ منهُ بيوتَها المتساويةَ التي لا يخالفُ بعضُها بعضاً كأنّها أُفرغتْ في قالبٍ واحدٍ. ومن أينَ لها هذا العسلُ الذي أودعتْهُ فيها ذخيرةً للشتاءِ. وكيفَ عرفتْ أنّ الشتاءَ يأتيها وأنّها تفقدُ فيهِ الغذاءَ. وكيفَ اهتدتْ إلى تغطيةِ خزانةِ العسلِ بغشاءٍ رقيقٍ ليكونَ الشمعُ محيطاً بالعسلِ من جميعِ جوانبِهِ فلا ينشفُهُ الهواءُ ولا يصيبُهُ الغبارُ. وتبقى كالبرنيّةِ المضمّمةِ الرأسِ بالكاغدِ. فهذا معنى العجبِ. وكلُّ ما في العالمِ بهذهِ المثابةِ إلّا أنّ الإنسانَ يدركُهُ في صباهُ عندَ فقدِ التجربةِ. ثمّ تبدو فيهِ غريزةُ العقلِ قليلاً قليلاً وهو مستغرقُ الهمِّ في قضاءِ حوائجِهِ وتحصيلِ شهواتِهِ وقد أنسَ بمدركاتِهِ

وَمحسوساتِهِ فَسقط عن نظرِهِ بِطولِ الأُنسِ بها . فإذا رأى بغتة حيوانًا غريبًا أو نباتًا نادرًا أو فعلًا خارقًا للعاداتِ انطلق لسانُه بالتسبيح فقال: سبحان الله . وهو يرى طول عمرِهِ أشياءَ تتحيرُ فيها عقولُ العقلاء وتدهشُ فيها نفوسُ الأذكياء

فمن أراد صدق هذا القولِ فلينظرْ بعينِ البصيرةِ إلى هذهِ الأجسامِ الرفيعةِ وسعتِها وصلابتِها وحفظِها عن التغيرِ والفسادِ فإنَّ الأرضَ والهواءَ والبحارَ بالإضافةِ إليها كحلقةٍ ملقاةٍ في فلاةٍ . ثم ينظرْ إلى دورانِها مختلفًا فإنَّ بعضَها يدورُ بالنسبةِ إلينا رحويةً . وبعضُها حمائليةً . وبعضُها دولابيةً . وبعضُها يدورُ سريعًا . وبعضُها يدورُ بطيئًا . ثمَّ إلى دوامِ حركاتِها من غيرِ فتورٍ . ثمَّ إلى إمساكِها من غيرِ عمدٍ تتعمدُ بهِ أو علاقةٍ تتدلى بها . ثم لينظرْ إلى كواكبِها وشمسِها وقمرِها واختلافِ مشارقِها ومغاربِها لاختلافِ الأوقاتِ التي هي سببُ نشوءِ الحيوانِ والنباتِ . ثمَّ إلى سيرِ كواكبِها وكثرتِها واختلافِ ألوانِها . فإنَّ بعضَها يميلُ إلى الحمرةِ وبعضَها إلى البياضِ وبعضَها إلى لونِ الرصاصِ . ثمَّ إلى مسيرِ الشمسِ في فلكِها مدةَ سنةٍ وطلوعِها وغروبِها كلَّ يومٍ . لاختلافِ الليلِ والنهارِ ومعرفةِ الأوقاتِ وتمييزِ وقتِ المعاشِ عن وقتِ الاستراحةِ . ثمَّ إلى إمالتِها عن وسطِ السماءِ إلى الجنوبِ وإلى الشمالِ حتى وقع الصيفُ والشتاءُ والربيعُ والخريفُ . ثمَّ لينظرْ إلى جرمِ القمرِ وكيفيةِ اكتسابِهِ النورَ من الشمسِ لينوبَ

عنها بالليل. ثم إلى امتلائه وانمحاقه. ثم إلى كسوف الشمس وخسوف القمر وإلى المجرة وهو البياض الذي يقال له سرج السماء. وهو على فلك يدور بالنسبة إلينا رحوية. وعجائب السماوات لا مطمع في إحصاء عشر عشرها وفيما ذكرناه تبصرة لكل عبد منيب

ثم لينظر إلى ما بين السماء والأرض من انقضاض الشهب والغيوم والرعود والبروق والصواعق والأمطار والثلوج والرياح المختلفة المهاب. وليتأمل السحاب الثقيل الكثيف المظلم كيف اجتمع في جو صاف لا كدورة فيه وكيف حمل الماء. وتسخير الرياح فإنها تتلاعب به وتسوقه إلى المواضع التي أرادها الله سبحانه فترش بالماء وجه الأرض وترسله قطرات متفاصلة. لا تدرك قطرة منها قطرة لتصيب وجه الأرض برفق. فلو صبه صبا لأفسد الزرع بخدشه وجه الأرض. ويرسلها مقدارا كافيا لا كثيرا زائدا عن الحاجة فيعفن النبات. ولا ناقصا فلا يتم به النمو. ثم إلى اختلاف الرياح فإن منها ما يسوق السحب ومنها ما ينشرها. ومنها ما يجمعها ومنها ما يعصرها. ومنها ما يلقح الأشجار. ومنها ما يربي الزرع والثمار. ومنها ما يجففها

ثم لينظر إلى الأرض وجعلها وفورا لتكون فراشا ومهادا ثم إلى سعة أكنافها وبعد أقطارها حتى عجز الآدميون عن بلوغ جميع جوانبها. ثم إلى جعل ظهرها محلا للأحياء وبطنها مقرا للأموات. فتراها وهي ميتة فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت وأظهرت

أجناس المعادن وأنبتت أنواع النبات وأخرجت أصناف الحيوان . ثم إلى إحكام أطرافها بالجبال الشامخة كأوتادها لمنعها من أن تميد . ثم إلى إيداع المياه في أوشالها كالخزانات لتخرج منها قليلاً قليلاً فتنفجر منها العيون وتجري منها الأنهار . فيحيا بها الحيوان والنبات إلى وقت نزول الأمطار من السنة القابلة . وينصب فاضلها إلى البحار دائماً

ثم لينظر إلى البحار العميقة التي هي خلجان من البحر الأعظم المحيط بجميع الأرض حتى إن جميع المكشوف من البوادي والجبال بالإضافة إلى الماء كجزيرة صغيرة في بحر عظيم وبقية الأرض مستورة بالماء . ثم لينظر إلى ما فيها من الحيوان والجواهر . ثم لينظر إلى خلق اللؤلؤ في صدفه تحت الماء . ثم إلى إنبات المرجان في صميم الصخر تحت الماء وهو نبات على هيئة شجرة ينبت من الحجر . ثم إلى ما عداه من العنبر وأصناف النفائس التي يقذفها البحر وتستخرج منه . ثم إلى السفن كيف سيرت في البحار وسرعة جريها بالرياح وإلى اتخاذ آلاتها ومعرفة النواتي موارد الرياح ومهابها ومواقيتها . وعجائب البحار كثيرة لا مطمع في إحصائها

ثم لينظر إلى أنواع المعادن المودعة تحت الجبال فمنها ما ينطبع كالذهب والفضة والنحاس والرصاص والحديد . ومنها ما لا ينطبع كالفيروزج والياقوت والزبرجد . ثم إلى كيفية استخراجها وتنقيتها واتخاذ الحلي والآلات والأواني منها . ثم إلى معادن الأرض كالنفط

وَٱلْكِبْرِيتِ وَٱلْقِيرِ وَغَيْرِهَا وَأَجَلُّهَا ٱلْمِلْحُ فَلَوْ خَلَتْ مِنْهُ بَلْدَةٌ لَتَسَارَعَ ٱلْفَسَادُ إِلَى أَهْلِهَا. ثُمَّ لِيَنْظُرْ إِلَى أَنْوَاعِ ٱلنَّبَاتِ وَأَصْنَافِ ٱلْفَوَاكِهِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ ٱلْأَشْكَالِ وَٱلْأَلْوَانِ وَٱلطُّعُومِ وَٱلْأَرَايِيحِ تُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَيُفَضَّلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ مَعَ ٱتِّحَادِ ٱلْأَرْضِ وَٱلْهَوَاءِ وَٱلْمَاءِ. فَتَخْرُجُ مِنْ نَوَاةٍ نَخْلَةٌ مُطَوَّقَةٌ بِعَنَاقِيدِ ٱلرُّطَبِ وَمِنْ حَبَّةٍ سَبْعُ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ. ثُمَّ لِيَنْظُرْ إِلَى أَرْضِ ٱلْبَوَادِي وَتَشَابُهِ أَجْزَائِهَا فَإِنَّهَا إِذَا نَزَلَ ٱلْقَطْرُ عَلَيْهَا ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ. ثُمَّ إِلَى أَشْكَالِهَا وَأَلْوَانِهَا وَطُعُومِهَا وَرَوَائِحِهَا وَٱخْتِلَافِ طَبَائِعِهَا وَكَثْرَةِ مَنَافِعِهَا. فَلَمْ تَنْبُتْ مِنَ ٱلْأَرْضِ وَرَقَةٌ إِلَّا وَفِيهَا مَنْفَعَةٌ أَوْ مَنَافِعُ يَقِفُ فَهْمُ ٱلْبَشَرِ دُونَ إِدْرَاكِهَا. ثُمَّ لِيَنْظُرْ إِلَى أَصْنَافِ ٱلْحَيَوَانِ وَٱنْقِسَامِهَا إِلَى مَا يَطِيرُ وَيَسْبَحُ وَيَمْشِي. وَإِلَى أَشْكَالِهَا وَصُوَرِهَا وَأَخْلَاقِهَا لِيَرَى عَجَائِبَ تَدْهَشُ مِنْهَا ٱلْعُقُولُ. بَلْ فِي ٱلْبَقَّةِ أَوِ ٱلنَّمْلِ أَوِ ٱلْعَنْكَبُوتِ أَوِ ٱلنَّحْلِ فَإِنَّهَا مِنْ ضِعَافِ ٱلْحَيَوَانَاتِ. لِيَرَى مَا يَتَحَيَّرُ مِنْهُ مِنْ بِنَائِهَا ٱلْبَيْتَ وَجَمْعِهَا ٱلْغِذَاءَ وَٱدِّخَارِهَا لِوَقْتِ ٱلشِّتَاءِ وَحِذْقِهَا فِي هَنْدَسَتِهَا وَنَصْبِهَا ٱلشَّبَكَةَ لِلصَّيْدِ. وَمَا مِنْ حَيَوَانٍ إِلَّا وَفِيهِ مِنَ ٱلْعَجَائِبِ مَا لَا يُحْصَى. وَإِنَّمَا سَقَطَ ٱلتَّعَجُّبُ مِنْهَا لِلْأُنْسِ بِهَا بِكَثْرَةِ ٱلْمُشَاهَدَةِ

في جرم الشمس ووضعها

٣٤١ وَأَمَّا ٱلشَّمْسُ فَأَعْظَمُ ٱلْكَوَاكِبِ جِرْمًا وَأَشَدُّهَا ضَوْءًا. وَمَكَانُهَا

الطَّبِيعِي الكُرَةَ الرَّابِعَةَ. (*) زَعَمَ المُنَجِّمُونَ أَنَّ الشَّمْسَ بَيْنَ الكَوَاكِبِ كَالمَلِكِ وَسَائِرَ الكَوَاكِبِ كَالأَعْوَانِ وَالجُنُودِ. وَالقَمَرَ كَالوَزِيرِ وَوَلِيِّ العَهْدِ. وَعُطَارِدَ كَالكَاتِبِ. وَالمِرِّيخَ كَصَاحِبِ الشُّرْطَةِ. وَالمُشْتَرِي كَالقَاضِي. وَزُحَلَ كَصَاحِبِ الخَزَائِنِ. وَالزُّهَرَةَ كَالخَدَمِ وَالجَوَارِي. وَالأَفْلَاكَ كَالأَقَالِيمِ. وَالبُرُوجَ كَالبُلْدَانِ. وَالدَّرَجَاتِ كَالعَسَاكِرِ. وَالدَّقَائِقَ كَالمَحَالِّ. وَالثَّوَانِي كَالمَنَازِلِ. وَهٰذَا تَشْبِيهٌ جَيِّدٌ

وَمِنْ عَجَائِبِ لُطْفِ اللهِ تَعَالَى جَعْلُ الشَّمْسِ فِي وَسَطِ الكَوَاكِبِ السَّبْعَةِ لِتَبْقَى الطَّبَائِعُ وَالمَطْبُوعَاتُ فِي نَظْمِ العَالَمِ بِحَرَكَاتِهَا عَلَى حَدِّهَا الاعْتِدَالِيِّ. إِذْ لَوْ كَانَتْ فِي فَلَكِ الثَّوَابِتِ لَفَسَدَتِ الطَّبَائِعُ بِشِدَّةِ البَرْدِ. وَلَوْ أَنَّهَا انْحَدَرَتْ إِلَى فَلَكِ القَمَرِ لَاحْتَرَقَ هٰذَا العَالَمُ بِالكُلِّيَّةِ. وَلُطْفٌ آخَرُ مِنَ اللهِ تَعَالَى أَنْ خَلَقَهَا سَائِرَةً غَيْرَ مُوَاقِفَةٍ وَإِلَّا لَاشْتَدَّتِ السُّخُونَةُ فِي مَوْضِعٍ وَاشْتَدَّ البَرْدُ فِي غَيْرِهِ فَلَا يَخْفَى فَسَادُهَا. لٰكِنْ تَطْلُعُ كُلَّ يَوْمٍ مِنَ المَشْرِقِ (*) وَلَا تَزَالُ تَغْشَى مَوْضِعًا بَعْدَ مَوْضِعٍ حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى المَغْرِبِ. فَلَا يَبْقَى مَوْضِعٌ مَكْشُوفٌ مُوَازٍ لَهَا إِلَّا وَيَأْخُذُ حَظًّا مِنْ شُعَاعِهَا. وَتَمِيلُ فِي كُلِّ سَنَةٍ مَرَّةً إِلَى الجَنُوبِ وَمَرَّةً إِلَى الشَّمَالِ لِتَعُمَّ فَائِدَتُهَا أَمَّا إِلَى الجِهَةِ

(*) ذلك زعم الأقدمين أمّا المتأخرون فعلى ان الشمس في جوف الفلك ومن حولها تدور سائر الأفلاك واقربها الى الشمس عطارد ثم الزهرة ثم الأرض ثم المريخ ثم المشتري ثم زحل

(*) وهذا من آراء الأوائل. فقد ثبت الآن عند العلماء ان الأفلاك تدور حول الشمس وأبطل ما اعتقده القدماء من ان الشمس تدور من حول الأفلاك

الْجَنُوبِيَّةِ فَتَمِيلُ حَتَّى تَنْتَهِي إِلَى قَرِيبٍ مِنْ مَطْلَعِ قَلْبِ الْعَقْرَبِ . وَهُوَ مَطْلَعُ أَقْصَرِ يَوْمٍ فِي السَّنَةِ . وَأَمَّا إِلَى الْجِهَةِ الشَّمَالِيَّةِ فَتَمِيلُ حَتَّى تَنْتَهِي إِلَى قَرِيبٍ مِنْ مَطْلَعِ السِّمَاكِ الرَّامِحِ وَهُوَ مَطْلَعُ أَطْوَلِ يَوْمٍ فِي السَّنَةِ . ثُمَّ تَرْجِعُ تَمِيلُ إِلَى الْجَنُوبِ

في كسوف الشمس وبعض خواصها

٣٤٢ وَسَبَبُهُ كَوْنُ الْقَمَرِ حَائِلًا بَيْنَ الشَّمْسِ وَبَيْنَ أَبْصَارِنَا لِأَنَّ جِرْمَ الْقَمَرِ كَمِدٌ فَيَحْجُبُ مَا وَرَاءَهُ عَنِ الْأَبْصَارِ . فَإِذَا قَارَنَ الشَّمْسَ وَكَانَ فِي إِحْدَى نُقْطَتَيِ الرَّأْسِ وَالذَّنَبِ أَوْ قَرِيبًا مِنْهُ فَإِنَّهُ يَمُرُّ تَحْتَ الشَّمْسِ فَيَصِيرُ حَائِلًا بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْأَبْصَارِ . ثُمَّ الشَّمْسُ إِذَا انْكَسَفَتْ لَا يَكُونُ لِكُسُوفِهَا مُكْثٌ لِأَنَّ قَاعِدَةَ مَخْرُوطِ الشُّعَاعِ إِذَا انْطَبَقَ عَلَى صَفْحَةِ الْقَمَرِ انْحَرَفَ عَنْهُ فِي الْحَالِ . فَتَبْتَدِئُ الشَّمْسُ بِالِانْجِلَاءِ . لَكِنْ يَخْتَلِفُ قَدْرُ الْكُسُوفِ بِاخْتِلَافِ أَوْضَاعِ الْمَسَاكِنِ بِسَبَبِ اخْتِلَافِ الْمَنْظَرِ . وَقَدْ لَا تَنْكَسِفُ فِي بَعْضِ الْبِلَادِ أَصْلًا

وَأَمَّا تَأْثِيرَاتُ الشَّمْسِ فِي الْعُلْوِيَّاتِ وَالسُّفْلِيَّاتِ فَعَجِيبَةٌ . أَمَّا فِي الْعُلْوِيَّاتِ فَإِخْفَاؤُهَا جَمِيعَ الْكَوَاكِبِ بِكَمَالِ شُعَاعِهَا وَإِعْطَاؤُهَا لِلْقَمَرِ النُّورَ . وَأَمَّا فِي السُّفْلِيَّاتِ فَمِنْهَا تَأْثِيرُهَا فِي الْبِحَارِ . فَإِنَّهَا إِذَا أَشْرَقَتْ عَلَى الْمَاءِ أَصْعَدَتْ مِنْهُ أَبْخِرَةً بِسَبَبِ السُّخُونَةِ . فَإِذَا بَلَغَ الْبُخَارُ إِلَى الْهَوَاءِ الْبَارِدِ تَكَاثَفَ مِنَ الْبَرْدِ وَانْعَقَدَ سَحَابًا . ثُمَّ تَذْهَبُ بِهِ الرِّيَاحُ إِلَى الْأَمَاكِنِ الْبَعِيدَةِ عَنِ الْبِحَارِ فَيُنْزِلُ اللّٰهُ قَطْرًا يُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ

مَوْتِهَا. وَتَظْهَرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَارُ وَٱلْعُيُونُ فَيَصِيرُ سَبَبًا لِبَقَاءِ ٱلْحَيَوَانِ وَخُرُوجِ ٱلنَّبَاتِ. وَمِنْهَا أَمْرُ ٱلنَّبَاتِ فَإِنَّ ٱلزُّرُوعَ وَٱلْأَشْجَارَ وَٱلنَّبَاتَ لَا تَثْبُتُ بِنُمُوٍّ إِلَّا فِي ٱلْمَوَاضِعِ ٱلَّتِي تَطْلُعُ عَلَيْهَا ٱلشَّمْسُ. وَلِذٰلِكَ لَا يَنْبُتُ تَحْتَ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَشْجَارِ ٱلْعِظَامِ ٱلَّتِي لَهَا ظِلَالٌ وَاسِعَةٌ شَيْءٌ مِنَ ٱلزُّرُوعِ لِأَنَّهَا تَمْنَعُ شُعَاعَ ٱلشَّمْسِ عَمَّا تَحْتَهَا. وَحَسْبُكَ مَا تَرَى مِنْ تَأْثِيرِ ٱلشَّمْسِ بِحَسَبِ ٱلْحَرَكَةِ ٱلْيَوْمِيَّةِ فِي ٱلنَّيْلُوفَرِ وَٱلْأَذَرْيُونِ وَوَرَقِ ٱلْخِرْوَعِ فَإِنَّهَا تَنْمُو وَتَزْدَادُ عِنْدَ أَخْذِ ٱلشَّمْسِ فِي ٱلِٱرْتِفَاعِ وَٱلصُّعُودِ. فَإِذَا زَالَتِ ٱلشَّمْسُ أَخَذَتْ فِي ٱلذُّبُولِ حَتَّى إِذَا غَابَتِ ٱلشَّمْسُ ضَعُفَتْ وَذَبُلَتْ ثُمَّ عَادَتِ ٱلْيَوْمَ ٱلثَّانِي إِلَى حَالِهَا. وَمِنْهَا تَأْثِيرُهَا فِي ٱلْحَيَوَانَاتِ فَإِنَّا نَرَى ٱلْحَيَوَانَ إِذَا طَلَعَ نُورُ ٱلصُّبْحِ خَلَقَ ٱللهُ تَعَالَى فِي أَبْدَانِهَا قُوَّةً فَتَظْهَرُ فِيهَا فَرَاهَةٌ وَٱنْتِعَاشُ قُوَّةٍ. وَكُلَّمَا كَانَ طُلُوعُ نُورِ ٱلشَّمْسِ أَكْثَرَ كَانَ ظُهُورُ قُوَّةِ ٱلْحَيَوَانِ فِي أَبْدَانِهَا أَكْثَرَ إِلَى أَنْ وَصَلَتْ إِلَى وَسَطِ سَمَائِهَا. فَإِذَا مَالَتْ عَنْ وَسَطِ سَمَائِهِمْ أَخَذَتْ حَرَكَاتُهُمْ وَقُوَاهُمْ فِي ٱلضَّعْفِ وَلَا تَزَالُ تَزْدَادُ ضَعْفًا إِلَى زَمَانِ غُيُوبِهَا. فَإِذَا غَابَتِ ٱلشَّمْسُ رَجَعَتِ ٱلْحَيَوَانَاتُ إِلَى أَمَاكِنِهَا وَلَزِمَتْهَا كَٱلْمَوْتَى فَإِذَا طَلَعَتْ عَلَيْهَا ٱلشَّمْسُ فِي ٱلْيَوْمِ ٱلثَّانِي عَادُوا إِلَى ٱلْحَالَةِ ٱلْأُولَى (للقزويني)

فصل في القمر وخسوفه وتأثيراته

٣٤٣ وَأَمَّا ٱلْقَمَرُ فَهُوَ كَوْكَبٌ مَكَانُهُ ٱلطَّبِيعِيُّ ٱلْفَلَكُ ٱلْأَسْفَلُ وَهُوَ جِرْمٌ كَثِيفٌ مُظْلِمٌ قَابِلٌ لِلضِّيَاءِ إِلَّا ٱلْقَلِيلَ مِنْهُ عَلَى مَا يُرَى فِي ظَاهِرِهِ.

فَالنِّصفُ الَّذي يُواجِهُ الشَّمسَ مُضيءٌ أبدًا فإذا قارنتِ الشَّمسُ كانَ النِّصفُ المُظلِمُ مُواجِهًا للأرضِ. فإذا بعُدَ عنِ الشَّمسِ إلى المشرِقِ ومالَ النِّصفُ المُظلِمُ مِنَ الجانِبِ الَّذي يَلي المَغرِبَ إلى الأرضِ فيَظهرُ مِنَ النِّصفِ المُضيءِ قِطعةٌ هي الهِلالُ. ثُمَّ يتزايدُ الانحرافُ ويزدادُ بتزايُدِهِ القِطعةُ مِنَ النِّصفِ المُضيءِ حتَّى إذا كانَ في مُقابلةِ الشَّمسِ كانَ النِّصفُ المُواجِهُ للشَّمسِ هوَ النِّصفَ المُواجِهَ لنا. فنَراهُ ثُمَّ يقرُبُ مِنَ الشَّمسِ فيَنقُصُ الضِّياءُ مِنَ الجانِبِ الَّذي بدأَ بهِ على التَّرتيبِ الأوَّلِ. حتَّى إذا صارَ في مُقارنةِ الشَّمسِ يَنمحِقُ نورُهُ ويعودُ إلى المَوضِعِ الأوَّلِ

وسببُ خُسوفِهِ توسُّطُ الأرضِ بينَهُ وبينَ الشَّمسِ فإذا كانَ القمرُ في إحدى نُقطتَيِ الرَّأسِ والذَّنبِ أو قريبًا منهُ عندَ الاستقبالِ توسَّطَ الأرضُ بينَهُ وبينَ الشَّمسِ فيَقعُ في ظِلِّ الأرضِ ويبقى على سوادِهِ الأصليِّ فيُرى مُنخسِفًا. وتأثيراتُهُ عجيبةٌ. زعَموا أنَّ تأثيراتِهِ كُلَّها بواسِطةِ الرُّطوبةِ كما أنَّ تأثيراتِ الشَّمسِ بواسِطةِ الحرارةِ. ويدلُّ عليها اعتبارُ أهلِ التَّجارِبِ. مِنها أمرُ البِحارِ فإنَّ القمرَ إذا صارَ في أُفقٍ مِن آفاقِ البَحرِ أخذَ ماؤُهُ في المَدِّ مُقبِلًا مع القمرِ ولا يزالُ كذلِكَ إلى أن يصيرَ القمرُ في وسَطِ سماءِ ذلِكَ المَوضِعِ. فإذا صارَ هُناكَ انتهى المَدُّ مُنتهاهُ فإذا انحطَّ القمرُ مِن وسَطِ سمائِهِ جزرَ الماءُ. ولا يزالُ كذلِكَ راجِعًا إلى أن يبلُغَ القمرُ مغرِبَهُ فعِندَ ذلِكَ يَنتهي الجَزرُ مُنتهاهُ. ومَن كانَ في لُجَّةِ البَحرِ وقتَ ابتداءِ المَدِّ

أحسّ للماء حركة من أسفله إلى أعلاه ويرى له انتفاخا وتهيج فيها رياح عواصف وأمواج. وإذا كان وقت الجزر ينقص جميع ذلك. ومن كان في الشطوط والسواحل فإنه يرى للماء زيادة وانتفاخا وجريا وعلوّا ولا يزال كذلك إلى أن يجزر ويرجع الماء إلى البحر. وابتداء قوة المدّ في البحار إنما يكون في كل موضع عميق واسع كثير الماء

في المجرّة والكواكب الثوابت

٣٤٤ وهي البياض الذي يرى في السماء يقال له سرج السمـاء إلى زماننا هذا لم يسمع في حقيقتها قول شاف. زعموا أنها كواكب صغار متقاربة بعضها من بعض والعرب تسميها أم النجوم لاجتماع النجوم فيها. وزعموا أن النجوم تقاربت من المجرة فطمس بعضها بعضـا وصارت كأنها سحاب. وهي ترى في الشتاء أول الليل في ناحية من السماء. وفي الصيف أول الليل في وسط السماء ممتدة من الشمال إلى الجنوب. وبالنسبة إلينا تدور دورا رحويا فتراها نصف الليل ممتدة من المشرق إلى المغرب وفي آخر الليل من الجنوب إلى الشمال...

وأما الكواكب الثوابت فإن عددها مما يقصر ذهن الإنسان عن ضبطها. لكن الأولين قد ضبطوا منها ألفا واثنين وعشرين كوكبا. ثم وجدوا من هذا المجمـوع تسعمائة وسبعة عشر كوكبا ينتظم منها ثمان وأربعون صورة. كل صورة منها تشتمل على كوكبها. وهي الصورة التي أثبتها بطليموس في كتاب المجسطي بعضها في النصف

الشَمالِيِ مِنَ الكُرةِ وبعضُها على منطقةِ فلكِ البروجِ التي هي طريقةُ السيّاراتِ. وبعضُها في النصفِ الجنوبيِ. فسمى كلَّ صورةٍ باسمِ الشيءِ المشبَّهِ بها فوجدَ بعضَها على صورةِ الإنسانِ كالجوزاءِ. وبعضَها على صورةِ الحيواناتِ البحريةِ كالسرطانِ. وبعضَها على صورةِ الحيواناتِ البريةِ كالحملِ. وبعضَها على صورةِ الطيرِ كالعقابِ. وبعضَها خارجاً عن شبهِ الحيواناتِ كالميزانِ والسفينةِ. ووجدَ من هذهِ الصورِ ما لم يكنْ تامَّ الخلقةِ مثلَ الفرسِ ومنها ما بعضُهُ من صورةِ حيوانٍ والبعضُ الآخرُ من صورةِ حيوانٍ آخرَ كالرامي... وإنما ألفوا هذهِ الصورَ وسموها بهذهِ الأسماءِ ليكونَ لكلِّ كوكبٍ اسمٌ يُعرفُ بهِ متى أشاروا إليهِ وذكروا موقعَهُ من الصورةِ. وموقعَهُ من فلكِ البروجِ وبُعدَهُ من الشمالِ أو الجنوبِ عن الدائرةِ التي تمرُّ بأوساطِ البروجِ لمعرفةِ أوقاتِ الليلِ والطالعِ في كلِّ وقتٍ

فصلٌ في ارباع السنة

٣٤٥ من جملةِ لطفِ اللهِ بعبادِهِ أن أعطى لكلِّ فصلٍ طبعاً مغايراً لما قبلَهُ في كيفيةٍ أخرى ليكونَ ورودُ الفصولِ على الأبدانِ بالتدريجِ. فلو انتقلَ من الصيفِ إلى الشتاءِ دفعةً لأدى ذلكَ إلى تغييرٍ عظيمٍ في الأبدانِ. فحسبُكَ ما ترى من تغييرِ الهواءِ في يومٍ واحدٍ من الحرِّ إلى البردِ كيفَ يظهرُ مقتضاهُ في الأبدانِ. فكيفَ إذا كانَ مثلُ هذا التغييرِ في الفصولِ. فسبحانَهُ ما أعظمَ شأنَهُ. وأكثرَ امتنانَهُ

أَمَّا ٱلرَّبِيعُ فَهُوَ وَقْتُ نُزُولِ ٱلشَّمْسِ أَوَّلَ بُرْجِ ٱلْحَمَلِ. فَعِنْدَ ذٰلِكَ ٱسْتَوَى ٱللَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ فِي ٱلْأَقَالِيمِ وَٱعْتَدَلَ ٱلزَّمَانُ. وَطَابَ ٱلْهَوَاءُ وَهَبَّ ٱلنَّسِيمُ. وَذَابَتِ ٱلثُّلُوجُ وَسَالَتِ ٱلْأَوْدِيَةُ. وَمَدَّتِ ٱلْأَنْهَارُ وَنَبَعَتِ ٱلْعُيُونُ. وَٱرْتَفَعَتِ ٱلرُّطُوبَاتُ إِلَى أَعْلَى فُرُوعِ ٱلْأَشْجَارِ وَنَبَتَ ٱلْعُشْبُ. وَطَالَ ٱلزَّرْعُ وَتَلَأْلَأَ ٱلزَّهْرُ. وَأَوْرَقَ ٱلشَّجَرُ وَٱنْفَتَحَ ٱلنَّوْرُ. وَٱخْضَرَّ وَجْهُ ٱلْأَرْضِ وَطَابَ عَيْشُ أَهْلِ ٱلزَّمَانِ. وَتَكَوَّنَتِ ٱلْحَيَوَانَاتُ وَدَبَّ ٱلدَّبِيبُ. وَنُتِجَتِ ٱلْبَهَائِمُ وَدَرَّتِ ٱلضُّرُوعُ. وَٱنْتَشَرَ ٱلْحَيَوَانُ فِي ٱلْبِلَادِ عَنْ أَوْطَانِهِ وَصَارَتِ ٱلدُّنْيَا كَأَنَّهَا جَارِيَةٌ شَابَّةٌ تَجَلَّتْ وَتَزَيَّنَتْ لِلنَّاظِرِينَ. وَلَا يَزَالُ كَذٰلِكَ دَأْبُهَا وَدَأْبُ أَهْلِهَا إِلَى أَنْ تَبْلُغَ ٱلشَّمْسُ آخِرَ ٱلْجَوْزَاءِ. فَحِينَئِذٍ ٱنْتَهَى ٱلرَّبِيعُ وَأَقْبَلَ ٱلصَّيْفُ

وَأَمَّا ٱلصَّيْفُ فَهُوَ وَقْتُ نُزُولِ ٱلشَّمْسِ أَوَّلَ ٱلسَّرَطَانِ. فَعِنْدَ ذٰلِكَ تَنَاهَى طُولُ ٱلنَّهَارِ ثُمَّ أَخَذَ ٱللَّيْلُ فِي ٱلزِّيَادَةِ وَدَخَلَ ٱلصَّيْفُ. وَٱشْتَدَّ ٱلْحَرُّ وَسَخُنَ ٱلْهَوَاءُ. وَتَقَوَّى أَكْثَرُ ٱلنَّبَاتِ وَٱلْحَيَوَانِ. وَأَدْرَكَتِ ٱلثِّمَارُ وَجَفَّتِ ٱلْحُبُوبُ وَقَلَّتِ ٱلْأَنْدَاءُ. وَأَضَاءَتِ ٱلدُّنْيَا وَسَمِنَتِ ٱلْبَهَائِمُ. وَٱشْتَدَّتْ قُوَّةُ ٱلْأَبْدَانِ وَكَثُرَ ٱلرِّيفُ. وَٱنْتَشَرَتِ ٱلْحَيَوَانَاتُ عَلَى وَجْهِ ٱلْأَرْضِ لِعُمُومِ ٱلْخَيْرِ وَكَثُرَتِ ٱلدَّبِيبُ. وَطَابَ عَيْشُ أَهْلِ ٱلزَّمَانِ. وَكَثُرَتِ ٱلسَّمُومُ. وَنَقَصَتِ ٱلْأَنْهَارُ وَنَضَبَتِ ٱلْمِيَاهُ. وَيَبِسَتِ ٱلْعُشْبُ وَأَدْرَكَ ٱلْحَصَادُ. وَدَرَّتِ ٱلْأَخْلَافُ وَٱتَّسَعَ لِلنَّاسِ ٱلْقُوتُ وَلِلطَّيْرِ ٱلْحَبُّ وَلِلْبَهَائِمِ ٱلْعَلَفُ. وَتَكَامَلَ زُخْرُفُ ٱلْأَرْضِ وَصَارَتِ

الدنيا كأنها عروس منعمة بالغة كاملة ذات جمال ورونق . فلا يزال الأمر كذلك أن تبلغ الشمس آخر السنبلة فحينئذ أقبل الخريف

وأما الخريف فهو وقت نزول الشمس الميزان فعند ذلك استوى الليل والنهار مرة أخرى . ثم ابتدأ الليل بالزيادة . وكما ذكرنا أن الربيع زمن نشوء الأشجار وبدء النبات وظهور الأزهار فالخريف زمان ذبول النبات وتغير الأشجار وسقوط أوراقها . فحينئذ برد الماء وهبت الشمال . وتغير الزمان ونقصت المياه . وجفت الأنهار وغارت العيون . ويبست أنواع النبات وفنيت الثمار . وأحرز الناس الحب والثمر وعري وجه الأرض من دبيبها . وماتت الهوام وانجحرت الحشرات . وانصرف الطير ويطلب الوحش البلدان الدافئة وأحرز الناس قوت الشتاء ودخلوا البيوت ولبسوا الجلود الغليظة من الثياب . وتغير الهواء وصارت الدنيا كأنها كهلة قد ولت أيام شبابها إلى أن تبلغ الشمس آخر القوس وقد انتهى الخريف وأقبل الشتاء

وأما الشتاء فهو وقت نزول الشمس أول الجدي فعند ذلك تناهى طول الليل وقصر النهار . ثم أخذ النهار في الزيادة واشتد البرد . وخشن الهواء وتعرى الأشجار عن الأوراق . وفنيت بطونها وفات أكثر النبات . وانجحرت الحيوانات في أطراف الأرض وكهوف الجبال من شدة البرد وكثرة الأنداء . ونشأت الغيوم وأظلم الجو وكلح وجه الزمان . وهزلت البهائم وضعفت قوى الأبدان . ومنع

ٱلْبَرْدُ ٱلنَّاسَ عَنِ ٱلتَّصَرُّفِ وَمَرَّ عَيْشُ أَكْثَرِ ٱلْحَيَوَانِ . وَطَالَ ٱللَّيْلُ ٱلَّذِي جَعَلَهُ ٱللهُ سَكَنًا وَلِبَاسًا وَبَرَدَ ٱلْمَاءُ ٱلَّذِي هُوَ مَادَّةُ ٱلْحَيَاةِ . وَٱنْقَطَعَ ٱلذُّبَابُ وَٱلْبَعُوضُ وَعُدِمَ ذَوَاتُ ٱلسُّمُومِ مِنَ ٱلْهَوَامِّ . وَيَطِيبُ فِيهِ ٱلْأَكْلُ وَٱلشُّرْبُ . وَهُوَ زَمَانُ ٱلرَّاحَةِ وَٱلِٱسْتِمْتَاعِ كَمَا أَنَّ ٱلصَّيْفَ زَمَانُ ٱلْكَدِّ وَٱلتَّعَبِ . حَتَّى قِيلَ : مَنْ لَمْ يَغْلِ دِمَاغُهُ صَائِفًا لَمْ تَغْلِ قِدْرُهُ شَاتِيًا . وَصَارَتِ ٱلدُّنْيَا كَأَنَّهَا عَجُوزٌ هَرِمَةٌ دَنَا مِنْهَا ٱلْمَوْتُ . فَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ إِلَى أَنْ تَبْلُغَ ٱلشَّمْسُ آخِرَ ٱلْحُوتِ وَقَدِ ٱنْتَهَى ٱلشِّتَاءُ وَأَقْبَلَ ٱلرَّبِيعُ مَرَّةً أُخْرَى

فصلٌ في تولُّد الانهار

٣٤٦ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْأَمْطَارُ وَٱلثُّلُوجُ عَلَى ٱلْجَبَلِ تَنْصَبُّ ٱلْأَمْطَارُ إِلَى ٱلْمَغَارَاتِ وَتَذُوبُ ٱلثُّلُوجُ وَتَفِيضُ إِلَى ٱلْأَهْوِيَةِ ٱلَّتِي فِي ٱلْجِبَالِ . فَتَبْقَى مَخْزُونَةً فِيهَا وَتَمْتَلِئُ ٱلْأَوْشَالُ مِنْهَا فِي ٱلشِّتَاءِ . فَإِذَا كَانَ فِي أَسَافِلِ ٱلْجِبَالِ مَنَافِذُ ضَيِّقَةٌ تَخْرُجُ ٱلْمِيَاهُ مِنَ ٱلْأَوْشَالِ فِي تِلْكَ ٱلْمَنَافِذِ فَيَحْصُلُ مِنْهَا جَدَاوِلُ . وَيَجْتَمِعُ بَعْضُهَا إِلَى ٱلْبَعْضِ فَيَحْصُلُ مِنْهَا أَوْدِيَةٌ وَأَنْهَارٌ . فَإِنْ كَانَتِ ٱلْخِزَانَاتُ فِي أَعَالِي ٱلْجِبَالِ يَسْتَمِرُّ جَرَيَانُهَا أَبَدًا لِأَنَّ مِيَاهَهَا تَنْصَبُّ إِلَى سَفْحِ ٱلْجِبَالِ وَلَا تَنْقَطِعُ مَادَّتُهَا لِوُصُولِ مَدَدِهَا مِنَ ٱلْأَمْطَارِ . وَإِنْ كَانَتِ ٱلْخِزَانَاتُ فِي أَسَافِلِ ٱلْجِبَالِ فَتَجْرِي مِنْهَا ٱلْأَنْهَارُ عِنْدَ وُصُولِ مَدَدِهَا وَتَنْقَطِعُ عِنْدَ ٱنْقِطَاعِ ٱلْمَدَدِ . وَتَبْقَى ٱلْمِيَاهُ فِيهَا وَاقِفَةً كَمَا تَرَى فِي ٱلْأَوْدِيَةِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي بَعْضِ ٱلْأَيَّامِ ثُمَّ

تَنْقَطِعُ عِنْدَ ٱنْقِطَاعِ مَادَّتِهَا • وَكُلُّ هٰذِهِ ٱلْأَنْهَارِ تَبْتَدِئُ مِنَ ٱلْجِبَالِ وَتَنْتَهِي إِلَى ٱلْبِحَارِ أَوِ ٱلْبَطَائِحِ • وَفِي مَمَرِّهَا تَسْقِي ٱلْمُدُنَ وَٱلْقُرَى وَمَا فَضَلَ يَنْصَبُّ إِلَى ٱلْبِحَارِ • ثُمَّ يَرِقُّ وَيَلْطُفُ وَيَتَصَاعَدُ فِي ٱلْهَوَاءِ بُخَارًا وَيَتَرَاكَمُ مِنْهُ ٱلْغُيُومُ وَتَسُوقُهُ ٱلرِّيَاحُ إِلَى ٱلْجِبَالِ وَٱلْبَرَارِي • وَيُمْطِرُ هُنَاكَ وَيَجْرِي فِي ٱلْأَوْدِيَةِ وَٱلْأَنْهَارِ وَيَسْقِي ٱلْبِلَادَ وَيَرْجِعُ فَاضِلُهُ إِلَى ٱلْبَحْرِ • وَلَا يَزَالُ هٰذَا دَأْبَهُ وَيَدُورُ كَٱلرَّحَا فِي ٱلصَّيْفِ وَٱلشِّتَاءِ

جسم الارض ودورانها وهيئتها

٣٤٧ أَلْأَرْضُ جِسْمٌ بَسِيطٌ طِبَاعُهُ أَنْ يَكُونَ بَارِدًا يَابِسًا • وَإِنَّمَا خُلِقَتْ بَارِدَةً يَابِسَةً لِأَجْلِ ٱلْغِلَظِ وَٱلتَّمَاسُكِ إِذْ لَوْلَاهُمَا لَمَا أَمْكَنَ قَرَارُ ٱلْحَيَوَانِ عَلَى ظَهْرِهَا • وَٱلْهَوَاءُ وَٱلْمَاءُ مُحِيطَانِ بِهَا مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهَا إِلَّا ٱلْمِقْدَارَ ٱلْبَارِزَ ٱلَّذِي جَعَلَهُ ٱللّٰهُ تَعَالَى مَقَرًّا لِلْحَيَوَانِ • ثُمَّ إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ فِي أَيِّ مَوْضِعٍ وَقَفَ عَلَى سَطْحِ ٱلْأَرْضِ يَكُونُ رَأْسُهُ أَبَدًا مِمَّا يَلِي ٱلسَّمَاءَ • وَرِجْلُهُ مِمَّا يَلِي ٱلْأَرْضَ وَهُوَ يَرَى مِنَ ٱلسَّمَاءِ نِصْفَهَا وَإِذَا ٱنْتَقَلَ إِلَى مَوْضِعٍ آخَرَ ظَهَرَ لَهُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مِقْدَارُ مَا خَفِيَ لَهُ مِنَ ٱلْجَانِبِ ٱلْآخَرِ • ثُمَّ إِنَّ ٱلْبَحْرَ ٱلْمُحِيطَ ٱلْأَعْظَمَ أَحَاطَ بِأَكْثَرِ وَجْهِ ٱلْأَرْضِ وَٱلْمَكْشُوفُ مِنْهَا قَلِيلٌ نَاتِئٌ عَلَى ٱلْمَاءِ • عَلَى مِثَالِ بَيْضَةٍ غَائِصَةٍ فِي ٱلْمَاءِ يَخْرُجُ مِنَ ٱلْمَاءِ مُحَدَّبُهَا • وَلَيْسَتْ هِيَ مُسْتَدِيرَةً مَلْسَاءَ وَلَا مُصْمَتَةً بَلْ كَثِيرَةُ ٱلْٱرْتِفَاعِ وَٱلْٱنْخِفَاضِ مِنَ ٱلْجِبَالِ وَٱلتِّلَالِ وَٱلْأَوْدِيَةِ وَٱلْأَهْوِيَةِ وَٱلْكُهُوفِ وَٱلْمَغَارَاتِ وَلَهَا مَنَافِذُ وَخُلْجَانٌ • وَكُلُّهَا

ممتلئة مياهاً وبخارات ورطوبات دهنيــة . وما في الأرض موضع شبر إلا وهناك معدن أو نبات أو حيوان باختلاف أجناسها وأنواعها وصورها ومزاجها وألوانها لا يعلم تفصيلها غير الله تعالى وهو صانعها ومدبرها . ما يسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا يابس إلا في كتاب مبين

وأما هيئة الأرض فقد اختلف آراء القدماء فيها قال بعضهم : إنها مبسوطة في التسطيح وقال بعضهم : هي على شكل الترس ولولا ذلك لما ثبت عليها بناء ولا مشى عليهــا حيوان . والذي يعتمد عليه جماهيرهم أن الأرض مدورة كالكرة . ومن القدماء من أصحاب فثاغورس من قال : إن الأرض متحركة دائماً على الاستدارة والذي يرى من دوران الكواكب إنما هو دور الأرض لا دور الكواكب

في السحاب والمطر وما يتعلق بهما

٣٤٨ زعمــوا أن الشمس إذا أشرقت على الماء حللت من الماء أجزاء لطيفة مائية تسمى بخاراً ومن الأرض أجزاء لطيفة أرضية تسمى دخاناً . فإذا ارتفع البخار والدخان في الهواء وتدافعهما الهواء إلى الجهات وتكون من قدامهما جبال شامخة مانعة ومن فوقها برد الزمهرير ومن أسفلها مادة البخار متصلة فلا يزال البخار والدخان يكثران ويلتطان في الهواء وتتداخل أجزاء بعضها في بعض حتى يثخن فيتكون منهــا سحاب مؤلف متراكم . ثم إن السحاب كلما ارتفع انضمت أجزاء البخار

ثُمَّ تَلْتَئِمُ تِلْكَ ٱلْأَجْزَاءُ ٱلْمَائِيَّةُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ فَتَصِيرُ قَطْرًا . فَثَقُلَتْ وَأَخَذَتْ رَاجِعَةً إِلَى أَسْفَلُ . فَإِنْ كَانَ صُعُودُ ذٰلِكَ ٱلْبُخَارِ بِٱللَّيْلِ وَٱلْهَوَاءُ شَدِيدُ ٱلْبَرْدِ مَنَعَهُ مِنَ ٱلصُّعُودِ وَأَجْمَدَهُ أَوَّلًا فَصَارَ سَحَابًا رَقِيقًا . وَإِنْ كَانَ ٱلْبَرْدُ مُفْرِطًا أَجْمَدَ ٱلْبُخَارَ فِي ٱلْغَيْمِ وَكَانَ ذٰلِكَ ثَلْجًا لِأَنَّ ٱلْبَرْدَ يُجْمِدُ ٱلْأَجْزَاءَ ٱلْمَائِيَّةَ وَتَخْلِطُ بِٱلْأَجْزَاءِ ٱلْهَوَائِيَّةِ وَيَنْزِلُ بِٱلرِّفْقِ فَلِذٰلِكَ لَا يَكُونُ لَهُ فِي ٱلْأَرْضِ وَقْعٌ شَدِيدٌ كَمَا لِلْمَطَرِ وَٱلْبَرَدِ . وَإِنْ كَانَ ٱلْهَوَاءُ دَافِئًا ٱرْتَفَعَ ٱلْبُخَارُ فِي ٱلْغُيُومِ وَتَرَاكَمَ ٱلسُّحُبُ طَبَقَاتٍ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ كَمَا تَرَى فِي أَيَّامِ ٱلرَّبِيعِ وَٱلْخَرِيفِ كَأَنَّهَا جِبَالٌ مِنْ قُطْنٍ مَنْدُوفٍ . فَإِذَا عَرَضَ لَهَا بَرْدُ ٱلزَّمْهَرِيرِ مِنْ فَوْقِ غِلَظِ ٱلْبُخَارِ وَصَارَ مَاءً وَٱنْضَمَّتْ أَجْزَاؤُهَا فَصَارَ قَطْرًا . وَعَرَضَ لَهَا ٱلثِّقَلُ فَأَخَذَتْ تَهْوِي مِنْ سَمْكِ ٱلسَّحَابِ وَمِنْ تَرَاكُمِهَا تَلْتَئِمُ تِلْكَ ٱلْقَطَرَاتُ ٱلصِّغَارُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ حَتَّى إِذَا خَرَجَتْ مِنْ أَسْفَلِهَا صَارَتْ قَطْرًا كَثِيرًا . فَإِنْ عَرَضَ لَهَا بَرْدٌ مُفْرِطٌ مِنْ طَرِيقِهَا جَمَدَتْ وَصَارَتْ بَرَدًا قَبْلَ أَنْ تَبْلُغَ ٱلْأَرْضَ . وَإِنْ لَمْ تَبْلُغِ ٱلْأَبْخِرَةُ إِلَى ٱلْهَوَاءِ ٱلْبَارِدِ فَإِنْ كَانَتْ كَثِيرَةً صَارَتْ ضَبَابًا وَإِنْ كَانَتْ قَلِيلَةً وَتَكَاثَفَتْ فَإِنْ لَمْ يَنْجَمِدْ نَزَلَ طَلًّا وَإِنِ ٱنْجَمَدَ نَزَلَ صَقِيعًا

في الرعد والبرق وما يتعلق بذلك

٣٤٩ زَعَمُوا أَنَّ ٱلشَّمْسَ إِذَا شَرَقَتْ عَلَى ٱلْأَرْضِ حَلَّتْ مِنْهَا أَجْزَاءٌ نَارِيَّةٌ تُخَالِطُهَا أَجْزَاءٌ أَرْضِيَّةٌ وَيُسَمَّى ذٰلِكَ ٱلْمَجْمُوعُ دُخَانًا . ثُمَّ ٱلدُّخَانُ يُمَازِجُهُ ٱلْبُخَارُ وَيَرْتَفِعَانِ مَعًا إِلَى ٱلطَّبَقَةِ ٱلْبَارِدَةِ مِنَ ٱلْهَوَاءِ . فَيَنْعَقِدُ

البخارُ سحابًا ويحتبسُ الدخانُ فيه . فإنْ بقي على حرارتهِ قصدَ الصعودَ وإنْ صار باردًا قصدَ النزولَ . وأمّا ما كان يمزقُ السحابَ تمزيقًا عنيفًا فيحدثُ منه الرعدُ وربّما يشتعلُ نارًا لشدةِ المحاكةِ فيحدثُ منهُ البرقُ إن كان لطيفًا والصاعقةُ إن كان غليظًا كثيرًا (*) فتحرق كلَّ شيءٍ أصابتهُ فربّما تذوبُ الحديدَ على البابِ ولا تضرُّ الخشبةَ وربّما تذوبُ الذهبَ في الخزنةِ ولا تضرُّ الخرقةَ وقد تقعُ على الجبلِ فتشقّهُ وقد تقعُ على الماءِ فيحرقُ فيهِ حيوانهُ . واعلمْ أنّ الرعدَ والبرقَ كلاهما يحدثانِ معًا لكنْ ترى البرقَ قبلَ أنْ تسمعَ الرعدَ وذلكَ لأنّ الرؤيةَ تحصلُ لمحاذاةِ النظرِ وأمّا السمعُ فيتوقفُ على وصولِ الصوتِ إلى الصماخِ وذلكَ يتوقفُ على تموجِ الهواءِ . وذهابُ النظرِ أسرعُ من وصولِ الصوتِ . ألا ترى أنّ القصارَ إذا ضربَ الثوبَ على الحجرِ فإنّ النظرَ يرى ضربَ الثوبِ على الحجرِ . ثمّ السمعُ يسمعُ صوتهُ بعدَ ذلكَ بزمانٍ . والرعدُ والبرقُ لا يكونانِ في الشتاءِ لقلةِ البخارِ الدخانيِّ . ولهذا لا يوجدانِ في البلادِ الباردةِ ولا عندَ نزولِ الثلجِ لأنّ البردَ يطفىءُ البخارَ الدخانيَّ . والبرقُ الكثيرُ يقعُ عندهُ مطرٌ كثيرٌ لتكاثفِ أجزاءِ الغمامِ . فإنّها إذا تكاثفتِ انحصرَ الماءُ فإذا نزلَ نزلَ بشدةٍ كما إذا احتبسَ الماءُ ثمّ انطلقَ فإنّهُ يجري جريًا شديدًا (كلّهُ من عجائب المخلوقات للقزويني)

(*) قد اتضح الآن للطبيعيين المحدثين ان البروق والرعود مسببة عن الكهربائية وقد أتوا على شرح ذلك في كتبهم

الباب التاسع عشر
في المراسلات

فصل في المراسلات بين الملوك والامراء

كتاب المحقق الطوسي الى صاحب حلب بعد فتح بغداد سنة ٦٥٥هـ (١٢٥٢م)

٣٥٠ أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ نَزَلْنَا بَغْدَادَ فَسَاءَ صَبَاحُ ٱلْمُنْذَرِينَ فَدَعَوْنَا مَالِكَهَا إِلَى طَاعَتِنَا فَأَبَى. فَحَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا وَقَدْ دَعَوْنَاكَ إِلَى طَاعَتِنَا فَإِنْ أَتَيْتَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ. وَإِنْ أَبَيْتَ فَلَأُسَلِّطَنَّ مِنْكَ عَلَيْكَ. فَلَا تَكُنْ كَالْبَاحِثِ عَنْ حَتْفِهِ بِظِلْفِهِ. وَٱلْجَادِعِ مَارِنَ أَنْفِهِ بِكَفِّهِ. وَٱلسَّلَامُ

ذكر مراسلة تيمور سلطان عراق العجم ابا الفوارس شاه شجاع

٣٥١ إِنَّ ٱللهَ تَعَالَى سَلَّطَنِي عَلَيْكُمْ وَعَلَى ظَلَمَةِ ٱلْحُكَّامِ وَٱلْجَائِرِينَ مِنْ مُلُوكِ ٱلْأَنَامِ. وَرَفَعَنِي عَلَى مَنْ نَاوَأَنِي وَنَصَرَنِي عَلَى مَنْ خَالَفَنِي. وَقَدْ رَأَيْتَ وَسَمِعْتَ فَإِنْ أَجَبْتَ وَأَطَعْتَ فِيهَا وَنِعْمَتْ. وَإِلَّا فَٱعْلَمْ أَنَّ قُدَّامَ قَدَمِي ثَلَاثَةَ أَشْيَاءَ ٱلْخَرَابَ وَٱلْقَحْطَ وَٱلْوَبَاءَ. وَإِثْمُ كُلِّ ذٰلِكَ عَائِدٌ عَلَيْكَ وَمَنْسُوبٌ إِلَيْكَ (اخبار تيمور لابن عربشاه)

كتاب الحسن بن زكرويه الى بعض عماله

٣٥٢ بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ. مِنْ عِنْدِ ٱلْمَهْدِيِّ ٱلْمَنْصُورِ ٱلنَّاصِرِ لِدِينِ ٱللهِ ٱلْقَائِمِ بِأَمْرِ ٱللهِ إِلَى جَعْفَرِ بْنِ حُمَيْدٍ ٱلْكُرْدِيِّ سَلَامٌ عَلَيْكَ. فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ ٱللهَ ٱلَّذِي لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ. أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ أُنْهِيَ إِلَيْنَا مَا حَدَثَ قِبَلَكَ مِنْ أَخْبَارِ أَعْدَاءِ ٱللهِ ٱلْكَفَرَةِ وَمَا فَعَلُوهُ بِنَاحِيَتِكَ مِنْ

الظُّلْمِ وَالْعَبَثِ وَالْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ. فَأَعْظَمْنَا ذٰلِكَ وَرَأَيْنَا أَنْ نُنَفِّذَ إِلَى مَا هُنَاكَ مِنْ جُيُوشِنَا مَنْ يَنْتَقِمُ لَنَا اللهُ بِهِ مِنْ أَعْدَائِنَا الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا. فَأَنْفَذْنَا جَمَاعَةً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى مَدِينَةِ حِمْصَ وَنَحْنُ فِي إِثْرِهِمْ وَقَدْ أَوْعَزْنَا إِلَيْهِمْ فِي الْمَصِيرِ إِلَى نَاحِيَتِكَ لِطَلَبِ أَعْدَاءِ اللهِ حَيْثُ كَانُوا. وَنَحْنُ نَرْجُو أَنْ يُجْرِيَنَا اللهُ فِيهِمْ عَلَى أَحْسَنِ عَوَائِدِهِ عِنْدَنَا فِي أَمْثَالِهِمْ. فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ قَلْبُكَ وَقُلُوبُ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنْ أَوْلِيَائِنَا وَثِيقًا بِاللهِ وَبِنَصْرِهِ الَّذِي لَمْ يَزَلْ يُعَوِّدُنَا فِي كُلِّ مَنْ مَرَقَ مِنَ الطَّاعَةِ وَانْحَرَفَ عَنِ الْإِيمَانِ. وَتُبَادِرَ إِلَيْنَا بِأَخْبَارِ النَّاحِيَةِ وَمَا يَحْدُثُ فِيهَا وَلَا تُخْفِ عَنَّا شَيْئًا مِنْ أَمْرِهَا. سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَالْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (تاريخ حلب لكمال الدين)

كتاب سلطان مراكش الى سلطان فرنسة لويس الرابع عشر

٣٥٣ صَدَرَ هٰذَا الْمَكْتُوبُ الْعَلِيُّ الْإِمَامِيُّ عَنِ الْأَمْرِ الْعَلَوِيِّ الَّذِي دَانَتْ لِطَاعَتِهِ الْكَرِيمَةِ مَمَالِكُهُ الْإِسْلَامِيَّةُ. وَانْقَادَتْ لِدَعْوَتِهِ الشَّرِيفَةِ الْأَقْطَارُ الْمَغْرِبِيَّةُ. وَخَضَعَتْ لِأَوَامِرِهِ الْعَلِيَّةِ جَبَابِرَةُ الْمُلُوكِ السُّودَانِيَّةِ. وَأَقْطَارُهَا الْقَاصِيَةُ وَالدَّانِيَةُ. إِلَى الْمَلِكِ الَّذِي لَهُ بَيْنَ مُلُوكِ النَّصْرَانِيَّةِ وَالْمِلَلِ الْمَسِيحِيَّةِ الرُّتْبَةُ الْعَالِيَةُ وَالْمَنْزِلَةُ الرَّفِيعَةُ السَّامِيَةُ. سُلْطَانِ فَرَانْصَةَ لُوِيزَ ابْنِ السَّلَاطِينِ الَّذِينَ لَهُمُ الْمَكَانَةُ السَّامِيَةُ الْمَنَارِ

أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللهِ مَوْلَى الْحَمْدِ وَمُسْتَحِقِّهِ فَكِتَابُنَا هٰذَا إِلَيْكُمْ مِنْ حَاضِرَتِنَا الْعَلِيَّةِ مَدِينَةِ مَرَّاكُشَ وَلَا زَائِدَ إِلَّا مَا سَنَّاهُ لِأَيَّامِنَا الشَّرِيفَةِ مِنْ عَوَائِدِ

النصر والإقبال. وصنائع الله الجميلة المفعمة السجال. المتالة في البكر والآصال. لله المنة والشكر. هذا موجبه إليكم التعريف أنه لما ورد خديمكم المرعي الملحوظ الرزيلي على مرسى ثغر أسفي المحروس بالله وأسلم كتابكم المصحوب معه لخدامنا الذين بالثغر بادروا بوصوله إلينا في الفور. فوقفنا منه على جميع ما أودعتم فيه من تقرير المحبة وتأسيس المهدنة بين الجانبين. إلى ما أشرتم إليه في شأن الأسارى الفرانصيين الذين رغبت من مقامنا العلي تسريحهم. فأخذنا في ذلك أتم الأخذ وأكمله. إلى أن استوفي ذلك على أحسن وجه وأجمله. وأجبناكم عن فصول كتابكم كلها فوجهنا به وبالنصارى المذكورين صحبة خديمنا الوجيه الأثير النبيل النبيه القائد يحيى بن محمد الجناتي. قصد أن يلتقي مع خديمكم المذكور إن تأتى له الاجتماع معه في البر. وإن تعذر عليه ذلك يبعث لخديمنا من يقوم مقامه ممن هو مثله وبمثابته في أغراضكم ليسلم له النصارى المذكورين ويتكلم معه في أغراض الجانبين. ثم إن خديمنا المذكور لما بلغ ثغر أسف فقد خديمكم من المرسى فسأل عنه فقيل له: قد أقلع منذ أربعة أيام. فاقتص بعض الخدام أثره في البحر فلم يجد له أثرا. هذا وقد كان خديمكم على علم ويقين أن خديمنا المذكور قادم إليه وفي أثناء الطريق فقلق قبل وصوله. والخديم الذي يكون بصدد أغراض ضيفه لا يستفزه شيء عن قضائها ولا ينبغي له الانزعاج قبل استيفائها. فعرفناكم بالواقع.

لِتُوقِنُوا أَنَّا لَمْ نَقْصُرْ فِي أَغْرَاضِكُمُ ٱلْمُتَلَقَّاةِ لَدَيْنَا بِٱلْقَبُولِ وَبِهِ وَجَبَ ٱلْكَتْبُ إِلَيْكُمْ فِي ٢٦ مِنْ رَبِيعِ ٱلنَّبَوِيِّ سَنَةَ ١٠٤٠ (١٦٣٠ م)

كتاب سلطان مراكش الى لويس السادس عشر سلطان فرنسة

٣٥٤ بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمَانِ ٱلرَّحِيمِ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللهِ. عَنْ أَمْرِ ٱلسُّلْطَانِ ٱلْأَعْظَمِ سُلْطَانِ مُرَّاكُشَ وَفَاسٍ وَكَافَّةِ ٱلْأَقَالِيمِ ٱلْمَغْرِبِيَّةِ خَلَّدَ ٱللهُ نَصْرَهُ. وَأَعَزَّ أَمْرَهُ. وَأَدَامَ سُمُوَّهُ وَفَخْرَهُ. وَأَشْرَقَ فِي فَلَكِ ٱلسَّعَادَةِ شَمْسَهُ وَبَدْرَهُ. إِلَى عَظِيمِ جِنْسِ ٱلْإِفْرَنْصِيصِ ٱلْمُتَوَلِّي أَمْرَهُمُ ٱلرِّي لُوِيزَ ٱلسَّادِسَ عَشَرَ مِنْ إِسْمِهِ. سَلَامٌ عَلَى مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَى أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ وَرَدَ عَلَى حَضْرَتِنَا ٱلْعَلِيَّةِ بِٱللهِ كِتَابُكَ ٱلَّذِي تَارِيخُهُ ثَانِي عَشَرَ مِنْ مَايَةِ عَامِ أَرْبَعَةٍ وَسَبْعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ وَأَلْفٍ ٱلْمُتَضَمِّنُ ٱلْإِخْبَارَ بِمَوْتِ جَدِّكَ ٱلرِّي لُوِيزَ ٱلْخَامِسَ عَشَرَ عَلَى يَدِ نَائِبِ قُونْصُوكُمْ بَرْطُلْمِي دِبُطْنِير. وَبَقِيَ فِي خَاطِرِنَا جَدُّكَ لُوِيزُ كَثِيرًا حَيْثُ كَانَتْ لَهُ مَحَبَّةٌ فِي جَانِبِنَا ٱلْعَلِيِّ وَكَانَ مِمَّنْ يُحْسِنُ ٱلسِّيَاسَةَ فِي قَوْمِهِ. وَلَهُ حَنَانَةٌ فِي رَعِيَّتِهِ وَحِفْظُ عَهْدٍ مَعَ أَصْحَابِهِ. وَفَرِحْنَا حَيْثُ كَانَ بَاقٍ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ مَنْ يَخْلُفُهُ فِي ٱلْمَمْلَكَةِ وَٱلْجُلُوسِ عَلَى سَرِيرِ ٱلْمُلْكِ مِنْ بَعْدِهِ. وَمَا زَالَتْ تَسْعَدُ بِكَ رَعِيَّتُكَ أَكْثَرَ مِمَّا كَانَتْ فِي حَيَاةِ جَدِّكَ وَنَحْنُ مَعَكَ عَلَى ٱلْمُهَادَنَةِ وَٱلصُّلْحِ كَمَا كَانَ مَعَ جَدِّكَ. ثُمَّ فَاعْلَمْ أَنَّ سُفُنًا مِنْ سُفُنِ ٱلْفَرَنْصِيصِ حَرَثُوا بِأَقْصَى إِيَالَتِنَا ٱلْمُبَارَكَةِ فِي ٱلصَّحْرَاءِ وَتَفَرَّقَ جَمِيعُ مَنْ سَلِمَ مِنَ ٱلْغَرَقِ مِنَ ٱلنَّصَارَى فِي أَيْدِي ٱلْعَرَبِ. وَحَيْثُ بَلَغَنَا ذَلِكَ سَيَّرْنَا بَعْضَ

خُدَّامِنَا للصَّحْرَاء لِتُوَجِّهَهُمْ إِلَيْكُمْ بَعْدَ ٱلْإِنْعَامِ عَلَيْهِمْ رَعْيًا لِلْمُهَادَنَةِ وَٱلصُّلْحِ ٱلَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ. وَيَصِلُكَ سِتَّةٌ مِنَ ٱلْخَيْلِ مِنْ عِتَاقِ خَيْلِنَا صِلَةً مِنَّا إِلَيْكُمْ. وَخَدِيمُنَا ٱلْمَذْكُورُ لَا تُبَطِّئُوهُ عِنْدَكُمْ وَوَجِّهُوهُ إِلَيْنَا عَزْمًا بَعْدَ قَضَاءِ ٱلْغَرَضِ ٱلَّذِي وَجَّهْنَاهُ إِلَيْهِ وَنَحْنُ مَعَكُمْ عَلَى ٱلْمُهَادَنَةِ وَٱلصُّلْحِ. ٱنْتَهَى. صَدَرَ ٱلْأَمْرُ بِكَتْبِهِ مِنْ حَاضِرَةِ مِكْنَاسَةِ ٱلزَّيْتُونِ فِي عَاشِرِ جُمَادَى ٱلثَّانِيَةِ عَامَ ١١٨٨ لِلْهِجْرَةِ (١٧٧٥ للمسيح)

في الاشواق وحسن التواصل

فصل لسعيد بن عبد الملك

٣٥٥ أَنَا صَبٌّ إِلَيْكَ سَامِي ٱلطَّرْفِ نَحْوَكَ وَذِكْرُكَ مُلْصَقٌ بِلِسَانِي. وَٱسْمُكَ حُلْوٌ عَلَى لَهَوَاتِي وَشَخْصُكَ مَاثِلٌ بَيْنَ عَيْنَيَّ. وَأَنْتَ أَقْرَبُ ٱلنَّاسِ مِنْ قَلْبِي وَآخَذُهُمْ بِمَجَامِعِ هَوَايَ. صَادَفْتُ مِنْكَ جَوْهَرَ نَفْسِي فَأَنَا غَيْرُ مَحْمُودٍ عَلَى ٱلِٱنْقِيَادِ لَكَ بِغَيْرِ زِمَامٍ لِأَنَّ ٱلنَّفْسَ يَقُودُ بَعْضُهَا بَعْضًا وَقَالَ أَبُو ٱلْعَتَاهِيَةِ:

وَلِلْقَلْبِ عَلَى ٱلْقَلْبِ دَلِيلٌ حِينَ يَلْقَاهُ
وَلِلنَّاسِ مِنَ ٱلنَّاسِ مَقَايِيسُ وَأَشْبَاهُ

كتاب للحسين بن سهل الى صديق له يدعوهُ الى مأدبة

٣٥٦ نَحْنُ فِي مَأْدُبَةٍ لَنَا تُشْرِفُ عَلَى رَوْضَةٍ تُضَاحِكُ ٱلشَّمْسَ حُسْنًا قَدْ بَاتَتِ ٱلسَّمَاءُ تُعِلُّهَا فَهِيَ مُشْرِقَةٌ بِمَائِهَا. حَالِيَةٌ بِنُوَّارِهَا. فَرَأْيُكَ فِينَا لِنَكُونَ عَلَى سَوَاءٍ مِنَ ٱسْتِمْتَاعِ بَعْضِنَا بِبَعْضٍ

(فكتب إليه): هذه صفة لو كانت في أقاصي الأطراف لوجب انتجاعها وحثّ المطيّ في ابتغائها. فكيف في موضع أنت تسكنه وتجمع إلى أنيق منظره حسن وجهك وطيب شمائلك. وأنا الجواب

٣٥٧ كتب إبرهيم بن العبّاس إلى بعض أصحابه: المودّة تجمعنا محبّتها. والصناعة تؤلّفنا أسبابها. وما بين ذلك من تراخٍ في لقاء أو تخلّف في مكاتبة موضوع بيننا يوجب العذر فيه

كتاب اسحاق بن ابرهيم الموصلي الى احمد بن يوسف

٣٥٨ الشوق إليك وإلى عهد أيّامنا التي حسنت كأنّها أعياد. وقصرت كأنّها ساعات لفوت الصفاء. وممّا يجدّده ويكثر دواعيه تصاقب الديار وقرب الجوار. تمّم الله لنا النعمة المجدّدة فيك بالنظر إلى الغرّة المباركة التي لا وحشة معها ولا أنس بعدها (لابن عبد ربّه)

٣٥٩ (كتب بعض الكتّاب إلى أخٍ له): أمّا بعد فإنّه من عانى الظمأ بفرقتك استوجب الريّ من رؤيتك. وإن رأيت أن تجرّد لي ميعادًا بزيارتك أثوق به إلى وقت رؤيتك ويؤنسني إلى حين لقائك فعلت. (فأجابه): أخاف أن أعدك وعدًا يعترض دون الوفاء به ما لا أقدر على دفعه فتكون الحسرة أعظم من الفرقة

٣٦٠ (وكتب في بابه): يومنا طاب أوّله وحسن مستقبله وأتت السماء بقطارها. فحلّت الأرض بأنوارها. وبك تطيب الشمول ويشفى الغليل. فإن تأخّرت فرّقت شملنا. وإن تعجّلت إلينا نظمت أمرنا

٣٦١ كَتَبَ بعضُهُمْ إِلَى أَمِيرٍ: ضَعْنِي أَكْرَمَكَ ٱللهُ مِنْ نَفْسِكَ حَيْثُ وَضَعْتُ نَفْسِي مِنْ رَجَائِكَ. أَصَابَ ٱللهُ بِمَعْرُوفِكَ مَوَاضِعَهُ وَبَسَطَ بِكُلِّ خَيْرٍ يَدَكَ (للقيرواني)

كتاب زبيدة الى المأمون بعد قتله ابنها الامين

٣٦٢ كُلُّ ذَنْبٍ يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِنْ عَظُمَ صَغِيرٌ فِي جَنْبِ عَفْوِكَ. وَكُلُّ زَلَلٍ وَإِنْ جَلَّ حَقِيرٌ عِنْدَ صَفْحِكَ. وَذٰلِكَ ٱلَّذِي عَوَّدَكَ ٱللهُ فَأَطَالَ مُدَّتَكَ وَتَمَّمَ نِعْمَتَكَ. وَأَدَامَ بِكَ ٱلْخَيْرَ وَدَفَعَ بِكَ ٱلشَّرَّ. هٰذِهِ رُقْعَةُ ٱلْوَالِهِ ٱلَّتِي تَرْجُوكَ فِي ٱلْحَيَاةِ لِنَوَائِبِ ٱلدَّهْرِ. وَفِي ٱلْمَمَاتِ لِجَمِيلِ ٱلذِّكْرِ. فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَرْحَمَ ضُعْفِي وَٱسْتِكَانَتِي وَقِلَّةَ حِيلَتِي وَأَنْ تَصِلَ رَحِمِي وَتَحْتَسِبَ فِيمَا جَعَلَكَ ٱللهُ لَهُ طَالِبًا وَفِيهِ رَاغِبًا فَافْعَلْ. وَتَذَكَّرْ مَنْ لَوْ كَانَ حَيًّا لَكَانَ شَفِيعِي إِلَيْكَ

(فلمّا وقف المأمون عليها بكى على أخيهِ الأمين ورقَّ لها وكتب اليها الجواب:)

٣٦٣ وَصَلَتْ رُقْعَتُكِ يَا أُمَّاهُ (حَاطَكِ ٱللهُ وَتَوَلَّاكِ بِٱلرِّعَايَةِ) وَوَقَفْتُ عَلَيْهَا. سَاءَنِي شَهِدَ ٱللهُ جَمِيعُ مَا أَوْضَحْتِهِ فِيهَا. لٰكِنِ ٱلْأَقْدَارُ نَافِذَةٌ وَٱلْأَحْكَامُ جَارِيَةٌ وَٱلْأُمُورُ مُتَصَرِّفَةٌ وَٱلْمَخْلُوقُونَ فِي قَبْضَتِهَا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى دِفَاعِهَا. وَٱلدُّنْيَا كُلُّهَا إِلَى شَتَاتٍ. وَكُلُّ حَيٍّ إِلَى مَمَاتٍ. وَٱلْغَدْرُ وَٱلْبَغْيُ حَتْفُ ٱلْإِنْسَانِ وَٱلْمَكْرُ رَاجِعٌ إِلَى صَاحِبِهِ. وَقَدْ أَمَرْتُ بِرَدِّ جَمِيعِ مَا أُخِذَ لَكِ. وَلَمْ تَفْقِدِي مِمَّنْ مَضَى إِلَى رَحْمَةِ ٱللهِ إِلَّا وَجْهَهُ وَأَنَا بَعْدَ ذٰلِكَ لَكِ عَلَى أَكْثَرَ مِمَّا تَخْتَارِينَ وَٱلسَّلَامُ

ثم أمر بردّ ضياعها وجميع ما أُخِذ منها واقطعها ما كان في يدها واعادها الى حالتها الاولى في الكرامة والحشمة (حديقة الأفراح لليمني)

فصول في الهدايا

كتب رجلٌ الى المتوكل وقد اهدى اليهِ قارورةً من دهن الأُترُج :

٣٦٤ إنَّ ٱلهَدِيَّةَ إِذَا كَانَتْ مِنَ ٱلصَّغِيرِ إِلَى ٱلكَبِيرِ كُلَّمَا لَطُفَتْ وَدَقَّتْ كَانَتْ أَبْهَى وَأَحْسَنَ . وَكُلَّمَا كَانَتْ مِنَ ٱلكَبِيرِ إِلَى ٱلصَّغِيرِ كُلَّمَا عَظُمَتْ وَجَلَّتْ كَانَتْ أَنْفَعَ وَأَوْقَعَ . وَأَرْجُو أَنْ لَا يَكُونَ قَصَّرَتْ بِي هِمَّةٌ أَصَارَتْنِي إِلَيْكَ وَلَا أَحْرِيَ إِرْشَادُ دَلَّنِي عَلَيْكَ وَأَقُولُ :

مَا قَصَّرَتْ هِمَّةٌ بَلَغَتْ بِهَا بَابَكَ يَا ذَا ٱلنَّدَاءِ وَٱلكَرَمِ
حَسْبِي بِوُدِّكَ أَنْ ظَفِرْتُ بِهِ ذُخْرًا وَعِزًّا يَا وَاحِدَ ٱلأُمَمِ

٣٦٥ كتب احمد بن ابي طاهر مع هديةٍ :

مِنْ سُنَّةِ ٱلأَمْلَاكِ فِيمَا مَضَى مِنْ سَالِفِ ٱلدَّهْرِ وَإِقْبَالِهِ
هَدِيَّةُ ٱلعَبْدِ إِلَى رَبِّهِ فِي جِدَّةِ ٱلدَّهْرِ وَإِجْلَالِهِ
فَقُلْتُ مَا أُهْدِي إِلَى سَيِّدِي حَالِي وَمَا خُوِّلْتُ مِنْ حَالِهِ
إِنْ أُهْدِ نَفْسِي فَهْيَ مِنْ نَفْسِهِ أَوْ أُهْدِ مَالِي فَهْوَ مِنْ مَالِهِ
فَلَيْسَ إِلَّا ٱلحَمْدُ وَٱلشُّكْرُ وَٱلْمَدْحُ ٱلَّذِي يَبْقَى لِأَمْثَالِهِ

أهدت جاريةٌ من جواري المأمون تفاحةً لهُ وكتبت اليهِ :

٣٦٦ إِنِّي يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَمَّا رَأَيْتُ تَنَافُسَ ٱلرَّعِيَّةِ فِي ٱلهَدَايَا إِلَيْكَ وَتَوَاتُرَ أَلْطَافِهِمْ عَلَيْكَ فَكَّرْتُ فِي هَدِيَّةٍ تَخِفُّ مَؤُونَتُهَا وَتَهُونُ كُلْفَتُهَا وَيَعْظُمُ خَطَرُهَا وَيَجِلُّ مَوْقِعُهَا . فَلَمْ أَجِدْ مَا يَجْتَمِعُ فِيهِ هَذَا ٱلنَّعْتُ

وَيَكْمُلُ فِيهِ هٰذَا ٱلْوَصْفُ إِلَّا ٱلتُّفَّاحَ فَأَهْدَيْتُ إِلَيْكَ مِنْهَا وَاحِدَةً فِي ٱلْعَدَدِ كَثِيرَةً فِي ٱلتَّقَرُّبِ . وَأَحْبَبْتُ يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنْ أُعْرِبَ لَكَ عَنْ فَضْلِهَا وَأَكْشِفَ لَكَ عَنْ مَحَاسِنِهَا وَأَشْرَحَ لَكَ لَطِيفَ مَعَانِيهَا . وَمَا قَالَتِ ٱلْأَطِبَّاءُ فِيهَا وَتَفَنَّنَ ٱلشُّعَرَاءُ فِي أَوْصَافِهَا حَتَّى تَرْمُقَهَا بِعَيْنِ ٱلْجَلَالَةِ وَتَلْحَظَهَا بِمُقْلَةِ ٱلصِّيَانَةِ . فَقَدْ قَالَ أَبُوكَ ٱلرَّشِيدُ : أَحْسَنُ ٱلْفَاكِهَةِ ٱلتُّفَّاحُ ٱجْتَمَعَ فِيهِ بَيَاضُ ٱلْفِضَّةِ وَلَوْنُ ٱلتِّبْرِ . يَلَذُّ بِهَا مِنَ ٱلْحَوَاسِّ ٱلْعَيْنُ بِبَهْجَتِهَا وَٱلْأَنْفُ بِرِيحِهَا وَٱلْفَمُ بِطَعْمِهَا

فصول في التهنئة

كتب بعض الشعراء الى بعض أهل السلطان في المهرجان :

٣٦٧ هٰذِهِ أَيَّامٌ جَرَتْ فِيهَا ٱلْعَادَةُ بِإِلْطَافِ ٱلْعَبِيدِ لِلسَّادَةِ . وَإِنْ كَانَتِ ٱلصِّنَاعَةُ تَقْصُرُ عَمَّا تَبْلُغُهُ ٱلْهِمَّةُ فَكَرِهْتُ أَنْ أُهْدِيَ فَلَا أَبْلُغَ مِقْدَارَ ٱلْوَاجِبِ . فَجَعَلْتُ هَدِيَّتِي هٰذِهِ ٱلْأَبْيَاتَ وَهِيَ :

وَلَمَّا أَنْ رَأَيْتُ ذَوِي ٱلتَّصَابِي ... تَبَارَوْا فِي هَدَايَا ٱلْمِهْرَجَانِ
جَعَلْتُ هَدِيَّتِي وُدًّا مُقِيمًا ... عَلَى مَرِّ ٱلْحَوَادِثِ وَٱلزَّمَانِ
وَعَبْدًا حِينَ تُكْرِمُهُ ذَلِيلًا ... وَلٰكِنْ لَا يَعِزُّ عَلَى ٱلْهَوَانِ
يَزِيدُكَ حِينَ تُعْطِيهِ خُضُوعًا ... وَيَرْضَى مِنْ نَوَالِكَ بِٱلْأَمَانِي

كتاب السلطان العزيز الى ابن مقشّر الطبيب النصراني يهنئهُ ببرئهِ من مرضهِ

٣٦٨ بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ إِلَى طَبِيبٍ سَلَّمَهُ ٱللهُ سَلَامُ ٱللهِ ٱلطَّيِّبُ وَأَتَمَّ ٱلنِّعْمَةَ عَلَيْهِ . وَصَلَتْ إِلَيْنَا ٱلْبِشَارَةُ بِمَا وَهَبَهُ ٱللهُ مِنْ عَافِيَةِ ٱلطَّبِيبِ

وَبِرِّهِ. وَٱللهِ ٱلْعَظِيمِ لَقَدْ عَدَلَ عِنْدَنَا مَا رُزِقْنَاهُ نَحْنُ مِنَ ٱلصِّحَّةِ فِي جِسْمِنَا أَقَالَكَ ٱللهُ ٱلْعَثْرَةَ. وَأَعَادَكَ إِلَى أَفْضَلِ مَا عَوَّدَكَ مِنْ صِحَّةِ ٱلْجِسْمِ وَطِيبَةِ ٱلنَّفْسِ وَخَفْضِ ٱلْعَيْشِ بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ (لابي الفرج)

في التوصية

كتاب ابي بكر الى يزيد ابن ابي سفيان

٣٦٩ إِذَا سِرْتَ فَلَا تَعْنُفْ عَلَى أَصْحَابِكَ فِي ٱلسَّيْرِ وَلَا تُغْضِبْ قَوْمَكَ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ. وَٱسْتَعْمِلِ ٱلْعَدْلَ وَبَاعِدْ عَنْكَ ٱلظُّلْمَ وَٱلْجَوْرَ. فَإِنَّهُ مَا أَفْلَحَ قَوْمٌ ظَلَمُوا وَلَا نُصِرُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ. وَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ. وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ ٱللهِ. وَإِذَا نُصِرْتُمْ عَلَى عَدُوِّكُمْ فَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا وَلَا شَيْخًا وَلَا ٱمْرَأَةً وَلَا طِفْلًا. وَلَا تَقْرَبُوا نَخْلًا وَلَا تُحْرِقُوا زَرْعًا. وَلَا تَقْطَعُوا شَجَرًا مُثْمِرًا. وَلَا تَعْقِرُوا بَهِيمَةً إِلَّا بَهِيمَةَ ٱلْمَأْكُولِ. وَلَا تَغْدِرُوا إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا إِذَا صَالَحْتُمْ. وَسَتَمُرُّونَ عَلَى أَقْوَامٍ فِي ٱلصَّوَامِعِ رُهْبَانٍ تَرَهَّبُوا لِلهِ فَدَعُوهُمْ وَمَا ٱنْفَرَدُوا إِلَيْهِ وَٱرْتَضَوْهُ لِأَنْفُسِهِمْ فَلَا تَهْدِمُوا صَوَامِعَهُمْ وَلَا تَقْتُلُوهُمْ وَٱلسَّلَامُ (تاريخ الشام للواقدي)

كتاب عمر بن الخطاب لابنه عبد الله

٣٧٠ أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّهُ مَنِ ٱتَّقَى ٱللهَ وَقَاهُ. وَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ كَفَاهُ وَمَنْ شَكَرَ لَهُ زَادَهُ. وَمَنْ أَقْرَضَهُ جَزَاهُ. فَٱجْعَلِ ٱلتَّقْوَى عِمَادَ قَلْبِكَ وَجِلَاءَ

بَصَرِكَ . فَإِنَّهُ لَا عَمَلَ لِمَنْ لَا نِيَّةَ لَهُ . وَلَا أَجْرَ لِمَنْ لَا حَسَنَةَ لَهُ . وَلَا جَدِيدَ لِمَنْ لَا خَلَقَ لَهُ (للقيرواني)

كتاب عُمر بن الخطاب الى عتبة بن غزوان عامله على البصرة

٣٧١ أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ أَصْبَحْتَ أَمِيرًا تَقُولُ فَيُسْمَعُ لَكَ وَتَأْمُرُ فَيُنَفَّذُ أَمْرُكَ . فَيَالَهَا نِعْمَةً إِنْ لَمْ تَرْفَعْكَ فَوْقَ قَدْرِكَ وَتُطْغِيكَ عَلَى مَنْ دُونَكَ فَٱحْتَرِسْ مِنَ ٱلنِّعْمَةِ أَشَدَّ مِنِ ٱحْتِرَاسِكَ مِنَ ٱلْمُصِيبَةِ . وَإِيَّاكَ أَنْ تَسْقُطَ سَقْطَةً لَا شَوَى لَهَا وَتَعْثُرَ عَثْرَةً لَا لَعًا لَهَا (أَيْ لَا إِقَالَةَ) . وَٱلسَّلَامُ

كتاب عُمر الى سعد بن ابي وقّاص ومن معهُ من الاجناد

٣٧٢ أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي آمُرُكَ وَمَنْ مَعَكَ مِنَ ٱلْأَجْنَادِ بِتَقْوَى ٱللّٰهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ . فَإِنَّ تَقْوَى ٱللّٰهِ أَفْضَلُ ٱلْعُدَّةِ عَلَى ٱلْعَدُوِّ وَأَقْوَى ٱلْمَكِيدَةِ فِي ٱلْحَرْبِ . وَآمُرُكَ وَمَنْ مَعَكَ أَنْ تَكُونُوا أَشَدَّ ٱحْتِرَاسًا مِنَ ٱلْمَعَاصِي مِنْكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ . فَإِنَّ ذُنُوبَ ٱلْجَيْشِ أَخْوَفُ عَلَيْهِمْ مِنْ عَدُوِّهِمْ . وَلَوْلَا ذٰلِكَ لَمْ تَكُنْ لَنَا بِهِمْ قُوَّةٌ لِأَنَّ عَدَدَنَا لَيْسَ كَعَدَدِهِمْ وَلَا عُدَّتَنَا كَعُدَّتِهِمْ . فَإِنِ ٱسْتَوَيْنَا فِي ٱلْمَعْصِيَةِ كَانَ لَهُمُ ٱلْفَضْلُ عَلَيْنَا فِي ٱلْقُوَّةِ . وَإِلَّا نُنْصَرْ عَلَيْهِمْ بِفَضْلِنَا لَمْ نَغْلِبْهُمْ بِقُوَّتِنَا . فَٱعْلَمُوا أَنَّ عَلَيْكُمْ فِي سَيْرِكُمْ حَفَظَةً مِنَ ٱللّٰهِ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ فَٱسْتَحْيُوا مِنْهُمْ . وَٱسْأَلُوا ٱللّٰهَ ٱلْعَوْنَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ كَمَا تَسْأَلُونَهُ ٱلنَّصْرَ عَلَى عَدُوِّكُمْ . أَسْأَلُ ٱللّٰهَ ذٰلِكَ لَنَا وَلَكُمْ . وَتَرَفَّقْ بِٱلْمُسْلِمِينَ فِي مَسِيرِهِمْ وَلَا تُجَشِّمْهُمْ مَسِيرًا يُتْعِبُهُمْ . وَلَا تُقَصِّرْ بِهِمْ عَنْ مَنْزِلٍ يَرْفُقُ بِهِمْ حَتَّى يَبْلُغُوا عَدُوَّهُمْ . وَٱلسَّفَرُ لَمْ يُنْقِصْ

قوتهم فإنهم سائرون إلى عدو مقيم حامي الأنفس والكراع . وأقم بمن معك في كل جمعة يوماً وليلة . حتى تكون لهم راحة يحيون فيها أنفسهم ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم . ونح منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق بدينه . وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه . فإن الكذوب لا ينفعك خبره وإن صدقك في بعضه . وليكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم . ثم أذك أحراسك على عسكرك وتيقظ من البيات جهدك . والله ولي أمرك ومن معك وولي النصر لكم على عدوكم . والله المستعان

فصول في الذم

فصل لاحمد بن يوسف

٣٧٣ أما بعد فإني لا أعرف للمعروف طريقاً أوعر من طريقه إليك . فالمعروف لديك ضائع والشكر عندك مهجور . وإنما غايتك في المعروف أن تحقره . وفي وليه أن تكفره

كتاب ابي العتاهية الى الفضل بن معن بن زائدة

٣٧٤ أما بعد فإني توسلت إليك في طلب نائلك بأسباب الأمل وذرائع الحمد فراراً من الفقر ورجاء للغنى وازددت بهما بعداً مما فيه تقربت وقرباً مما فيه تبعدت . وقد قسمت اللائمة بيني وبينك لأني أخطأت في سؤالك وأخطأت في منعي . أمرت باليأس من

أَهْلِ ٱلْبُخْلِ فَسَأَلْتَهُمْ . وَنُهِيتَ عَنْ مَنْعِ أَهْلِ ٱلرَّغْبَةِ فَمَنَعْتَهُمْ

فصل لابرهيم بن المهدي

٣٧٥ إِنَّ مَوَدَّةَ ٱلْأَشْرَارِ مُتَّصِلَةٌ بِٱلذِّلَّةِ وَٱلصَّغَارِ تَمِيلُ مَعَهُمَا وَتَتَصَرَّفُ فِي آثَارِهِمَا . وَقَدْ كُنْتُ أُحِلُّ مَوَدَّتَكَ بِٱلْمَحَلِّ ٱلنَّفِيسِ وَأُنْزِلُهَا بِٱلْمَنْزِلِ ٱلرَّفِيعِ حَتَّى رَأَيْتُ ذِلَّتَكَ عِنْدَ ٱلضَّعَةِ وَضَرَعَكَ عِنْدَ ٱلْحَاجَةِ وَتَغَيُّرَكَ عِنْدَ ٱلْاِسْتِغْنَاءِ وَٱطِّرَاحَكَ لِإِخْوَانِ ٱلصَّفَاءِ . فَكَانَ ذٰلِكَ أَقْوَى أَسْبَابِ عُذْرِي فِي قَطِيعَتِكَ عِنْدَ مَنْ يَتَصَفَّحُ أَمْرِي وَأَمْرَكَ بِعَيْنِ عَدْلٍ لَا تَمِيلُ إِلَى هَوًى وَلَا تَرَى ٱلْقَبِيحَ حَسَنًا

فصل في العتاب لعبد الله بن معاوية ذي الجناحين

٣٧٦ أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ عَاقَنِي ٱلشَّكُّ فِي أَمْرِكَ عَنْ عَزِيمَةِ ٱلرَّأْيِ فِيكَ . ٱبْتَدَأْتَنِي بِلُطْفٍ عَنْ غَيْرِ خِبْرَةٍ وَأَعْقَبْتَهُ جَفَاءً مِنْ غَيْرِ ذَنْبٍ . فَأَطْمَعَنِي أَوَّلُكَ فِي إِخَائِكَ وَآيَسَنِي آخِرُكَ مِنْ وَفَائِكَ . فَسُبْحَانَ مَنْ لَوْ شَاءَ لَكَشَفَ مِنْ أَمْرِكَ عَنْ عَزِيمَةِ ٱلرَّأْيِ فِيكَ . فَأَقَمْنَا عَلَى ٱئْتِلَافٍ . وَٱفْتَرَقْنَا عَلَى ٱخْتِلَافٍ

وله ايضاً في هذا الباب

٣٧٧ لَوْ كَانَتِ ٱلشُّكُوكُ تَخْتَلِجُنِي فِي صِحَّةِ مَوَدَّتِكَ وَكَرِيمِ إِخَائِكَ وَدَوَامِ عَهْدِكَ لَطَالَ عَتْبِي عَلَيْكَ فِي تَوَاتُرِ كُتُبِي وَٱحْتِبَاسِ جَوَابَاتِهَا عَنِّي . وَلٰكِنَّ ٱلثِّقَةَ بِمَا تَقَدَّمَ عِنْدِي تَعْذِرُكَ وَتُحَسِّنُ مَا يُقَبِّحُهُ جَفَاؤُكَ . وَٱللّٰهُ يُدِيمُ نِعْمَتَهُ لَكَ وَلَنَا بِكَ

فصل لابن المدبّر

٣٧٨ وَصَلَ كِتَابُكَ ٱلْمُفْتَتَحُ بِٱلْعِتَابِ ٱلْجَمِيلِ وَٱلتَّقْرِيعِ ٱللَّطِيفِ فَلَوْلَا مَا غَلَبَ عَلَيَّ مِنَ ٱلسُّرُورِ بِسَلَامَتِكَ لَتَقَطَّعْتُ غَمًّا بِعِتَابِكَ ٱلَّذِي لَطُفَ حَتَّى كَادَ يَخْفَى عَنْ أَهْلِ ٱلرِّقَّةِ وَٱلْفِطْنَةِ. وَغَلُظَ حَتَّى كَادَ يَفْهَمُهُ أَهْلُ ٱلْجَهْلِ وَٱلْبَلَهِ. فَلَا أَعْدَمَنِي ٱللهُ رِضَاكَ مُجَازِيًا بِهِ عَلَى مَا ٱسْتَحَقَّهُ عَتْبُكَ. فَأَنْتَ ظَالِمٌ فِيهِ وَعِتَابُكَ لِيَ ٱلْمَخْرَجُ مِنْهُ (لابن عبد ربّه)

كتب صاحب البريد بخراسان الى الرشيد ويحيى جالس بين يديه:

٣٧٩ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بْنَ يَحْيَى مُتَشَاغِلٌ بِٱلصَّيْدِ وَإِدْمَانِ ٱللَّذَّاتِ عَنِ ٱلنَّظَرِ فِي أُمُورِ ٱلرَّعِيَّةِ

فلمّا قرأهُ الرشيد رمى به الى يحيى وقال لهُ: يا أبي إقرأ هذا الكتاب واكتب اليهِ بما يردعهُ عن هذا. فكتب يحيى على ظهر كتاب صاحب البريد:

حَفِظَكَ ٱللهُ يَا بُنَيَّ وَأَمْتَعَ بِكَ. قَدِ ٱنْتَهَى إِلَى أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِمَّا أَنْتَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلتَّشَاغُلِ بِٱلصَّيْدِ وَمُدَاوَمَةِ ٱللَّذَّاتِ عَنِ ٱلنَّظَرِ فِي أُمُورِ ٱلرَّعِيَّةِ مَا أَنْكَرَهُ فَعَاوِدْ مَا هُوَ أَزْيَنُ بِكَ. فَإِنَّهُ مَنْ عَادَ إِلَى مَا يَزِينُهُ أَوْ يَشِينُهُ لَمْ يَعْرِفْهُ أَهْلُ دَهْرِهِ إِلَّا بِهِ وَٱلسَّلَامُ (لابن خلّكان)

كتاب طاهر بن الحسين حين أخذ بغداد الى ابرهيم بن المهديّ

٣٨٠ أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّهُ عَزِيزٌ عَلَيَّ أَنْ أَكْتُبَ إِلَى أَحَدٍ مِنْ بَيْتِ ٱلْخِلَافَةِ بِغَيْرِ كَلَامِ ٱلْإِمْرَةِ وَسَلَامِهَا. غَيْرَ أَنَّهُ بَلَغَنِي عَنْكَ أَنَّكَ مَائِلُ ٱلْهَوَى وَٱلرَّأْيِ لِلنَّاكِثِ ٱلْمَخْلُوعِ. فَإِنْ كَانَ كَمَا بَلَغَنِي فَقَلِيلٌ مَا كَتَبْتُ بِهِ لَكَ. وَإِنْ يَكُنْ غَيْرَ ذَلِكَ فَٱلسَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا ٱلْأَمِيرُ وَرَحْمَةُ ٱللهِ

وبركاته. وقد كتبت في أسفل كتابي أبياتا فتدبرها:

رُكُوبُكَ ٱلْهَوْلَ مَا لَمْ تَلْقَ فُرْصَتَهُ جَهْلٌ رَمَى بِكَ بِٱلْإِقْحَامِ تَغْرِيرُ
أَهْوِنْ بِدُنْيَا يُصِيبُ ٱلْمُخْطِئُونَ بِهَا حَظَّ ٱلْمُصِيبِينَ وَٱلْمَغْرُورُ مَغْرُورُ
فَٱزْرَعْ صَوَابًا وَخُذْ بِٱلْحَزْمِ حَيْطَتَهُ فَلَنْ يُذَمَّ لِأَهْلِ ٱلْحَزْمِ تَدْبِيرُ
فَإِنْ ظَفِرْتَ مُصِيبًا أَوْ هَلَكْتَ بِهِ فَأَنْتَ عِنْدَ ذَوِي ٱلْأَلْبَابِ مَعْذُورُ
وَإِنْ ظَفِرْتَ عَلَى جَهْلٍ فَفُزْتَ بِهِ قَالُوا جَهُولٌ أَعَانَتْهُ ٱلْمَقَادِيرُ

فصول في المدح والشكر

فصل لمحمد بن الجهم

٣٨١ إِنَّكَ لَزِمْتَ مِنَ ٱلْوَفَاءِ طَرِيقَةً مَحْمُودَةً وَعَرَفْتَ مَنَاقِبَهَا وَشُهِرْتَ بِمَحَاسِنِهَا. فَتَنَافَسَ ٱلْإِخْوَانُ فِيكَ يَبْتَدِرُونَ وُدَّكَ وَيَتَمَسَّكُونَ بِحَبْلِكَ. فَمَنْ أَثْبَتَ لَهُ عِنْدَكَ وُدًّا وَضَعَ خَلَّتَهُ مَوْضِعَ حِرْزِهَا

كتب ابن مكرم الى احمد بن المدبر:

٣٨٢ إِنَّ جَمِيعَ أَكْفَائِكَ وَنُظَرَائِكَ يَتَنَازَعُونَ ٱلْفَضْلَ فَإِذَا ٱنْتَهَوْا إِلَيْكَ أَقَرُّوا لَكَ. وَيَتَنَافَسُونَ ٱلْمَنَازِلَ فَإِذَا بَلَغُوكَ وَقَفُوا دُونَكَ. فَزَادَكَ ٱللهُ وَزَادَنَا بِكَ وَفِيكَ. وَجَعَلَنَا مِمَّنْ يَقْبَلُهُ رَأْيُكَ. وَيُقَدِّمُهُ ٱخْتِيَارُكَ. وَيَقَعُ مِنَ ٱلْأُمُورِ بِمَوْقِعِ مُوَافَقَتِكَ. وَيَجْرِي فِيهَا عَلَى سَبِيلِ طَاعَتِكَ. (وله). إِنَّ مِمَّا يُطْمِعُنِي فِي بَقَاءِ ٱلنِّعْمَةِ عِنْدَكَ وَيَزِيدُنِي بَصِيرَةً فِي ٱلْعِلْمِ بِدَوَامِهَا لَدَيْكَ أَنَّكَ أَخَذْتَهَا بِحَقِّهَا وَٱسْتَوْجَبْتَهَا بِمَا فِيكَ مِنْ أَسْبَابِهَا. وَمِنْ شَأْنِ ٱلْأَجْنَاسِ أَنْ تَتَأَلَّفَ. وَشَأْنِ ٱلْأَشْكَالِ

أَنْ تَتَقَاوَمَ . وَكُلُّ شَيْءٍ يَتَقَلْقَلُ إِلَى مَعْدِنِهِ وَيَحِنُّ إِلَى عُنْصُرِهِ . فَإِذَا صَادَفَ مَنْبِتَهُ وَنَزَلَ فِي مَغْرِسِهِ ضَرَبَ بِعِرْقِهِ وَسَبَقَ بِفَرْعِهِ . وَتَمَكَّنَ تَمَكُّنَ الْإِقَامَةِ وَتَفَتَّكَ تَفَتُّكَ الطَّبِيعَةِ

فصل له ايضاً

٣٨٣ أَلسَّيْفُ الْعَتِيقُ إِذَا أَصَابَهُ الصَّدَأُ اسْتَغْنَى بِالْقَلِيلِ مِنَ الْجِلَاءِ حَتَّى تَعُودَ جِدَّتُهُ وَيَظْهَرَ فِرِنْدُهُ لِلِينِ طَبِيعَتِهِ وَكَرَمِ جَوْهَرِهِ . وَلَمْ أَصِفْ نَفْسِي لَكَ عُجْبًا بَلْ شُكْرًا . (وله) زَادَ مَعْرُوفُكَ عِنْدِي عِظَمًا أَنَّهُ عِنْدَكَ مَسْتُورٌ حَقِيرٌ . وَعِنْدَ النَّاسِ مَشْهُورٌ كَبِيرٌ . (أَخَذَهُ الشَّاعِرُ) فَقَالَ:

زَادَ مَعْرُوفَكَ عِنْدِي عِظَمًا ... أَنَّهُ عِنْدَكَ مَسْتُورٌ حَقِيرْ
تَتَنَاسَاهُ كَأَنْ لَمْ تَأْتِهِ ... وَهُوَ عِنْدَ النَّاسِ مَشْهُورٌ كَبِيرْ

فصل للعتابي

٣٨٤ أَنْتَ أَيُّهَا الْأَمِيرُ وَارِثُ سَلَفِكَ وَبَقِيَّةُ أَعْلَامِ أَهْلِ بَيْتِكَ الْمَسْدُودِ بِهِ ثُلَمُهُمُ الْمُجَدَّدِ بِهِ قَدِيمُ شَرَفِهِمْ وَالْمُحْيَا بِهِ أَيَّامُ سَعْيِهِمْ . وَإِنَّهُ لَمْ يَخْمُلْ مَنْ كُنْتَ وَارِثَهُ . وَلَا دَرَسَتْ آثَارُ مَنْ كُنْتَ سَالِكَ سَبِيلِهِ . وَلَا انْمَحَتْ أَعْلَامُ مَنْ خَلَفْتَهُ فِي رُتْبَتِهِ

فصول في التعازي

فصل لعمرو بن بحر الجاحظ

٣٨٥ أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الْمَاضِيَ قَبْلَكَ الْبَاقِي لَكَ وَالْبَاقِي بَعْدَكَ الْمَأْجُورُ فِيكَ . وَإِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (وله) : أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ

فِي ٱللّٰهِ ٱلْعَزَاءَ مِنْ كُلِّ هَالِكٍ وَٱلْخَلَفَ مِنْ كُلِّ مُصَابٍ . وَإِنَّهُ مَنْ لَمْ يَتَعَزَّ بِعَزَاءِ ٱللّٰهِ تَنْقَطِعْ نَفْسُهُ عَنِ ٱلدُّنْيَا حَسْرَةً . (وله) أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ ٱلصَّبْرَ يُعْقِبُهُ ٱلْأَجْرُ وَٱلْجَزَعَ يُعْقِبُهُ ٱلْهَلَعُ . فَتَمَسَّكْ بِحَظِّكَ مِنَ ٱلصَّبْرِ تَنَلْ بِهِ ٱلَّذِي تَطْلُبُ وَتُدْرِكْ بِهِ ٱلَّذِي تَأْمُلُ (لابن عبد ربه)

كتب ابن السماك الى هارون الرشيد يعزيه بولدٍ :

٣٨٦ أَمَّا بَعْدُ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَنْ يَكُونَ لِلّٰهِ شُكْرُكَ حَيْثُ وَهَبَهُ لَكَ فَافْعَلْ . فَإِنَّهُ حَيْثُ قَبَضَهُ مِنْكَ أَحْرَزَ لَكَ هِبَتَهُ . وَلَوْ بَقِيَ لَمْ تَسْلَمْ مِنْ فِتْنَتِهِ . أَرَأَيْتَ جَزَعَكَ عَلَى ذَهَابِهِ وَتَلَهُّفَكَ عَلَى فِرَاقِهِ . أَرَضِيتَ ٱلدَّارَ لِنَفْسِكَ فَتَرْضَاهَا لِٱبْنِكَ . أَمَّا هُوَ فَقَدْ خَلَصَ مِنَ ٱلْكَدَرِ وَبَقِيتَ أَنْتَ مُتَعَلِّقًا بِٱلْخَطَرِ وَٱلسَّلَامُ (الكنز المدفون للسيوطي)

عزى شبيب بن شبّة المنصور على اخيه ابي العباس فقال :

٣٨٧ جَعَلَ ٱللّٰهُ ثَوَابَ مَا رُزِئْتَ بِهِ لَكَ أَجْرًا . وَأَعْقَبَكَ عَلَيْهِ صَبْرًا . وَخَتَمَ ذٰلِكَ لَكَ بِعَافِيَةٍ تَامَّةٍ وَنِعْمَةٍ عَامَّةٍ . فَثَوَابُ ٱللّٰهِ خَيْرٌ لَكَ مِنْهُ وَمَا عِنْدَ ٱللّٰهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْكَ . وَأَحَقُّ مَا صُبِرَ عَلَيْهِ مَا لَيْسَ إِلَى تَغْيِيرِهِ سَبِيلٌ

رسائل الى عليل

٣٨٨ لَيْسَتْ حَالِي أَكْرَمَكَ ٱللّٰهُ فِي ٱلِٱغْتِمَامِ بِعِلَّتِكَ حَالَ ٱلْمُشَارِكِ فِيهَا بِأَنْ يَنَالَنِي نَصِيبٌ مِنْهَا وَأَسْلَمَ مِنْ أَكْثَرِهَا . بَلْ أَجْتَمَعَ عَلَيَّ مِنْهَا أَنِّي مَخْصُوصٌ بِهَا دُونَكَ مُؤْلَمٌ مِنْهَا بِمَا يُؤْلِمُكَ . فَأَنَا عَلِيلٌ مَصْرُوفُ ٱلْعِنَايَةِ إِلَى عَلِيلٍ كَأَنِّي سَلِيمٌ . فَأَنَا أَسْأَلُ ٱللّٰهَ ٱلَّذِي جَعَلَ عَافِيَتِي فِي عَافِيَتِكَ

أَنْ يَخُصَّنِي بِمَا فِيكَ فَإِنَّهَا شَامِلَةٌ لِي وَلَكَ . (وَفِي هٰذَا ٱلْبَابِ) : إِنَّ ٱلَّذِي يَعْلَمُ حَاجَتِي إِلَى بَقَائِكَ قَادِرٌ عَلَى ٱلْمُدَافَعَةِ عَنْ حَوْبَائِكَ . فَلَوْ قُلْتَ إِنَّ ٱلْحَقَّ قَدْ سَقَطَ عَنِّي فِي عِيَادَتِكَ لِأَنِّي عَلِيلٌ بِعِلَّتِكَ لَقَامَ بِذٰلِكَ شَاهِدُ عَدْلٍ فِي ضَمِيرِكَ وَأَثَرٌ بَادٍ فِي حَالِي لِغَيْبَتِكَ . وَأَصْدَقُ ٱلْخَبَرِ مَا حَقَّقَهُ ٱلْأَثَرُ وَأَفْضَلُ ٱلْقَوْلِ مَا كَانَ عَلَيْهِ دَلِيلٌ

فصول في وصاة

كتب الحسن بن وهب الى مالك بن طوق يوصي بابن ابي الشيص :

٣٨٩ كِتَابِي إِلَيْكَ خَطَطْتُهُ بِيَمِينِي وَفَرَّغْتُ لَهُ ذِهْنِي . فَمَا ظَنُّكَ بِحَاجَةٍ هٰذَا مَوْقِعُهَا مِنِّي . أَتُرَانِي أَقْبَلُ ٱلْعُذْرَ فِيهَا أَوْ أُقَصِّرُ فِي ٱلشُّكْرِ عَلَيْهَا . وَٱبْنُ أَبِي ٱلشِّيصِ قَدْ عَرَفْتَهُ وَنَسَبَهُ وَصِفَاتِهِ . وَلَوْ كَانَتْ أَيْدِينَا تَنْبَسِطُ بِبِرِّهِ مَا عَدَانَا إِلَى غَيْرِنَا فَٱكْتَفِ بِهٰذَا مِنَّا . (وَلَهُ) : كِتَابِي إِلَيْكَ كِتَابُ مَعْنِيٍّ بِمَنْ كَتَبَ لَهُ وَاثِقٍ بِمَنْ كَتَبَ إِلَيْهِ . وَلَنْ يَضِيعَ بَيْنَ ٱلثِّقَةِ وَٱلْعِنَايَةِ حَامِلُهُ

فصل للحسن بن سهل

٣٩٠ فُلَانٌ قَدِ ٱسْتَغْنَى بِٱصْطِنَاعِكَ إِيَّاهُ عَنْ تَحْرِيكِي إِيَّاكَ فِي أَمْرِهِ . فَإِنَّ ٱلصَّنِيعَةَ حُرْمَةٌ لِلْمَصْنُوعِ إِلَيْهِ وَوَسِيلَةٌ إِلَى مُصْطَنِعِهِ . فَبَسَطَ ٱللّٰهُ يَدَكَ بِٱلْخَيْرَاتِ وَجَعَلَكَ مِنْ أَهْلِهَا وَوَصَلَ بِكَ أَسْبَابَهَا . (وَلَهُ) : مُوصِلُ كِتَابِي إِلَيْكَ أَنَا فَكُنْ لَهُ أَنَا . وَتَأَمَّلْهُ بِعَيْنِ مُشَاهَدَتِي وَخَلَّتِي . فَلِسَانُهُ أَشْكَرُ مَا أَتَيْتَ إِلَيْهِ وَأَذَمُّ مَا قَصَّرْتَ فِيهِ (لابن عبد ربه)

الباب العشرون

في تاريخ العرب

نظر في امة العرب وطباعهم وسكناهم

٣٩١ إعلم أنّ العرب منهم الأمّة الراحلة الناجعة. الخيام لسكناهم والخيل لركوبهم والأنعام لكسبهم. يقومون عليها ويقتاتون من ألبانها. ويتخذون الدفء والأثاث من أوبارها وأشعارها. ويحملون أثقالهم على ظهورها. يتنازلون حللاً مفترقة ويبتغون الرزق في غالب أحوالهم من القنص وتخطّف الناس من السبل. ويتقلّبون دائمًا في المجالات فرارًا من حمارة القيظ تارة وصبارّة البرد أخرى. وانتجاعًا لمراعي غنمهم. وارتيادًا لمصالح إبلهم الكفيلة بمعاشهم وحمل أثقالهم ودفئهم ومنافعهم فاختصّوا لذلك بسكنى الإقليم الثالث. فعمروا اليمن والحجاز ونجدًا وتهامة وما وراء ذلك لاختصاص هذه البلاد بالرمال والقفار المحيطة بالأرياف الآهلة بمن سواهم من الأمم في فصل الربيع وزخرف الأرض لرعي الكلإ والعشب في منابتها والتنقّل في نواحيها إلى فصل الصيف لمدّة الأقوات في سنتهم من حبوبها. وربّما يلحق أهل العمران أثناء ذلك معرّات من ضرارهم بإفساد السابلة ورعي الزرع مخضرًّا وانتهابه قائمًا وحصيدًا. لا ما حاطته الدولة وذادت عنه الحامية في الممالك التي للسلطان عليهم

فِيهَا. ثُمَّ يَنْحَدِرُونَ فِي فَصْلِ ٱلْخَرِيفِ إِلَى ٱلْقِفَارِ لِرَعْيِ شَجَرِهَا وَنِتَاجِ إِبِلِهِمْ فِي رِمَالِهَا وَمَا أَحَاطَ بِهِ عِلْمُهُمْ مِنْ مَصَالِحِهَا. وَفِرَارًا بِأَنْفُسِهِمْ وَظُعَانِهِمْ مِنْ أَذَى ٱلْبَرْدِ إِلَى دِفْءِ مَشَاتِيهَا. فَلَا يَزَالُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مُتَرَدِّدِينَ بَيْنَ ٱلرِّيفِ وَٱلصَّحْرَاءِ مَا بَيْنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلثَّالِثِ وَٱلرَّابِعِ صَاعِدِينَ وَمُنْحَدِرِينَ عَلَى مَمَرِّ ٱلْأَيَّامِ. شِعَارُهُمْ لُبْسُ ٱلْمَخِيطِ فِي ٱلْغَالِبِ وَلُبْسُ ٱلْعَمَائِمِ تِيجَانًا عَلَى رُؤُوسِهِمْ. لُقِّنُوا مِنْ أُمَمِ ٱلْبَرْبَرِ فِي حَمْلِ ٱلسِّلَاحِ ٱعْتِقَالَ ٱلرِّمَاحِ ٱلْخَطِّيَّةِ وَهَجَرُوا تَنَكُّبَ ٱلْقِسِيِّ (تاريخ ابن خلدون)

ذكر نسب العرب وتقاسيمهم

٣٩٢ قَالَ ٱلْمُطَرِّزِيُّ: ٱخْتُلِفَ فِي نِسْبَتِهِمْ وَقِيلَ إِنَّ ٱسْمَهُمُ ٱشْتُقَّ مِنَ ٱلْإِبَانَةِ لِقَوْلِهِمْ أَعْرَبَ ٱلرَّجُلُ عَمَّا فِي ضَمِيرِهِ إِذَا أَبَانَ عَنْهُ. وَٱلْأَصَحُّ أَنَّهُمْ نُسِبُوا إِلَى عَرَبَةَ فَهِيَ مِنْ تِهَامَةَ وَدُعِيَ جِيلُهُمْ جِيلَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ لِمَا كَانَ عَلَيْهِ ٱلْعَرَبُ مِنَ ٱلْجَهْلِ بِٱللهِ وَشَرَائِعِ ٱلدِّينِ وَٱلْكِبْرِ وَٱلتَّجَبُّرِ. وَقَدْ قَسَمَ ٱلْمُؤَرِّخُونَ ٱلْعَرَبَ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ عَارِبَةٍ وَمُتَعَرِّبَةٍ وَمُسْتَعْرِبَةٍ. أَمَّا ٱلْعَارِبَةُ فَهُمُ ٱلْعَرَبُ ٱلْأُوَلُ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ عَنَّا تَفَاصِيلُ أَخْبَارِهِمْ لِتَقَادُمِ عَهْدِهِمْ. وَأَمَّا ٱلْعَرَبُ ٱلْمُتَعَرِّبَةُ فَهُمْ عَرَبُ ٱلْيَمَنِ مِنْ وُلْدِ قَحْطَانَ. وَأَمَّا ٱلْعَرَبُ ٱلْمُسْتَعْرِبَةُ فَهُمْ وُلْدُ إِسْمَاعِيلَ (نهاية الارب للنويري)

اخبار العرب العاربة او البائدة وهم القسم الاوّل

٣٩٣ هُمْ شُعُوبٌ كَثِيرَةٌ مِنْهُمْ عَادٌ وَثَمُودُ وَطَسْمٌ وَجَدِيسُ وَجُرْهُمُ ٱلْأُولَى. وَقَدْ نُسَمِّي هٰذَا ٱلْجِيلَ ٱلْعَرَبَ ٱلْبَائِدَةَ بِمَعْنَى ٱلْهَالِكَةِ لِأَنَّهُ لَمْ

يبق على وجه الأرض أحد من نسلهم. وقد سمي أهل هذا الجيل العاربة إما بمعنى الرساخة بالعروبية كما يقال ليل أليل وصوم صائم أو بمعنى الفاعلة للعروبية والمبتدعة لها بما كانت أول أجيالها

وأما بنو عاد فكانت مواطنهم الأولى بأحقاف الرمل بين اليمن وعمان إلى حضرموت والشحر وكان أبوهم عاد أول ملك من العرب. وذكر المسعودي: أن الذي ملك منهم من بعد عاد شداد. وهو الذي سار في الممالك واستولى على كثير من بلاد الشام والهند والعراق. ولما اتصل ملك عاد وعظم طغيانهم وعتوهم انتحلوا عبادة الأصنام والأوثان أبادهم الله وهلكوا عن أقصاهم

وأما ثمود فكانت ديارهم بالحجر ووادي القرى فيما بين الحجاز والشام وكانوا ينحتون بيوتهم في الجبال وكانوا أهل كفر وبغي. فأنذرهم بعض الأنبياء فلم يصيخوا إلى دعائه. فهلك جميعهم حيث كانوا من الأرض ودرجوا في الغابرين

وأما جديس وطسم فكانت ديارهم اليمامة وهي إذ ذاك من أخصب البلاد وأعمرها وأكثرها ثمارا وحدائق وقصورا. وكان ملك طسم غشوما مصارا الجديس مستذلا لهم حتى قام الأسود وقتله غيلة

وأما جرهم الأولى فكانت ديارهم باليمن وكانوا يتكلمون بالعبرانية فكانوا على عهد عاد ولتقادم انقراضهم ذهبت عنا حقائق أخبارهم وانقطعت عنا أسباب العلم بآثارهم. وأما جرهم الثانية

فليسوا من البائدة بل هم من ولد قحطان وبهم اتصل إسماعيل بن إبرهيم

العرب المتعربة بنو قحطان وهم القسم الثاني

٣٩٤ وسمّي هذا الجيل العرب المتعربة لنزولهم بالبادية مع العرب العاربة وتخلّقهم بأخلاقهم . وهم بنو قحطان بن عابر بن شالح بن أرفخشد بن سام . وقحطان هذا معرّب يقطان وكان أول من ملك أرض اليمن ولبس التاج (٢٠٣٠ قبل المسيح) وكان بنو قحطان معاصرين لإخوانهم من العرب العاربة ومظاهرين لهم على أمورهم . ولم يزالوا مجتمعين في مجالات البادية مبعدين عن رتبة الملك وترفه الذي كان لأولئك فأصبحوا بمنجاة من الهرم الذي يسوق إليه الترف والنضارة . فتشعّبت في أرض الفضاء فصائلهم وتعدّد في جو القفر أفخاذهم وعشائرهم . ونمى عددهم وكثرت إخوانهم من العمالقة في آخر جيلهم . وزاحموهم بمناكبهم واستجدّوا خلق الدولة بما استأنفوه من عزهم . وكانت الدولة لبني قحطان متصلة فيهم (لابن خلدون)

ملك يعرب ويشجب وسبا بني قحطان

٣٩٥ وكان يعرب بن قحطان من أعاظم ملوك العرب ويسمى يمناً وبه سميت اليمن وهو أول من حيّاه ولده بالتحية : أبيت اللعن وأنعم صباحاً . وقيل إنه أول من نطق بالعربية . قال حسان بن ثابت الأنصاري :

تعلّمتم من منطق الشيخ يعربٍ ... أبينا فصرتم معربين ذوي نفر
وكنتم قديماً ما لكم غير عجمة ... كلام وكنتم كالبهائم في القفر

وملك بعد يعرب ابنه يشجب. وكان واهي العزيمة واستبد أعمامه بما في أيديهم من الممالك. وملك من بعده ابنه عبد الشمس واكثر الغزو في أقطار البلاد فسمّي سبأ. وكانت قاعدة ملكه مدينة صنعاء ومن مدنه مأرب على ثلاث مراحل منها (للنويري وابن الاثير)

سدّ مأرب وتفرع بني سبا

٣٩٦ فبنى سبأ في مأرب سدًّا ما بين جبلين بالصخر والقار فحقن به ماء العيون والأمطار وساق إليه سبعين واديًا وترك فيه خروقًا على قدر ما يحتاجون إليه في سقيهم. وهو الذي يسمّى العرم ومات قبل إتمامه فأتمّه ملوك حمير من بعده فأقاموا في جنّاته عن اليمين والشمال. ودولتهم يومئذٍ أوفر مما كانت وأترف وأبذخ وأعلى يدًا وأظهر. فلمّا طغوا وأعرضوا أجحفهم السيل وأغرق جنّاتهم وخربت أرضهم وتمزّق ملكهم وصاروا أحاديث. وكان هؤلاء التبابعة ملوكًا عدة في عصور متعاقبة وأحقاب متطاولة لم يضبطهم الحصر ولا تقيّدت منهم الشوارد. وربّما كانوا يتجاوزون ملك اليمن إلى ما بعد عنهم من العراق والهند والمغرب. فاختلفت أحوالهم ووقع اللبس في نقل أيّامهم. فلنأت بما صحّ منها متحرّيًا جهد الاستطاعة عن طموس من الفكر واقتفاء التقاييد المرجوع إليها والأصول المعتمد على نقلها وعدم الوقوف على أخبارهم مدوّنة في كتاب واحد. وكان لسبإ من الولد كثير أشهرهم حمير وعمرو وكهلان فيعزى التبابعة إلى حمير والمناذرة إلى عمرو وينتمي

ٱلْغَسَاسِنَةُ إِلَى كَهْلَانَ . وَسَنُورِدُ بِٱلتَّلْخِيصِ أَخْبَارَهُمْ (لابن خلدون)

ملك التبابعة بني حمير في اليمن
(ذكر حمير وشدّاد وتبع الاول)

٣٩٧ قَالَ ٱلْمَسْعُودِيُّ : قِيلَ لِمُلُوكِ ٱلْيَمَنِ تَبَابِعَةٌ لِأَنَّهُ يَتْبَعُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا كُلَّمَا هَلَكَ وَاحِدٌ قَامَ آخَرُ . وَلَمْ يَكُونُوا يُسَمُّونَ ٱلْمَلِكَ مِنْهُمْ بِتُبَّعٍ حَتَّى يَمْلِكَ ٱلْيَمَنَ وَٱلشِّحْرَ وَحَضْرَمُوتَ وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ شَيْءٌ مِنْ هٰذَا فَيُسَمَّى مَلِكًا وَلَا يُقَالُ لَهُ تُبَّعٌ . وَأَمَّا حِمْيَرُ فَقَدْ يُعْرَفُ أَيْضًا بِٱلْعَرَنْجَجِ (١٤٣٠ ق م) . وَقِيلَ هُوَ أَوَّلُ مَنْ تَتَوَّجَ بِٱلذَّهَبِ وَأَخْرَجَ ثَمُودَ مِنَ ٱلْيَمَنِ إِلَى ٱلْحِجَازِ . ثُمَّ مَلَكَ بَعْدَهُ ٱبْنُهُ وَائِلٌ . وَلَمْ يَزَلْ مُلْكُهُمْ عَلَى ٱلْيَمَنِ حَتَّى مَضَتْ قُرُونٌ وَصَارَ ٱلْأَمْرُ إِلَى شَدَّادٍ فَغَزَا ٱلْبِلَادَ إِلَى أَنْ بَلَغَ أَقْصَى ٱلْمَغْرِبِ وَبَنَى ٱلْمَدَائِنَ وَٱلْمَصَانِعَ وَأَبْقَى ٱلْآثَارَ ٱلْعَظِيمَةَ . ثُمَّ ٱضْطَرَبَتْ أَحْوَالُ حِمْيَرَ وَصَارَ مُلْكُهُمْ طَوَائِفَ إِلَى أَنِ ٱسْتَقَرَّ فِي ٱلْحَارِثِ وَهُوَ تُبَّعٌ ٱلْأَوَّلُ وَفِي بَنِيهِ ٱلتَّبَابِعَةِ . وَقَدْ لُقِّبَ ٱلْحَارِثُ بِٱلرَّائِشِ لِأَنَّهُ رَاشَ ٱلنَّاسَ بِٱلْعَطَاءِ مِمَّا كَانَ أَصَابَهُ فِي غَزَوَاتِهِ مِنَ ٱلسَّلَبِ وَٱلْغَنَائِمِ (لحمزة الاصفهاني)

ملك افريقس وذي الاذعار وشرحبيل

٣٩٨ ثُمَّ مَلَكَ أَبْرَهَةُ ذُو ٱلْمَنَارِ ثُمَّ أَفْرِيقِسُ (١٠٩٨ ق م) وَذَهَبَ بِقَبَائِلِ ٱلْعَرَبِ إِلَى أَفْرِيقِيَةَ وَبِهِ سُمِّيَتْ وَسَاقَ ٱلْبَرْبَرَ إِلَيْهَا مِنْ أَرْضِ كَنْعَانَ فَأَنْزَلَهُمْ بِهَا . وَيُقَالُ إِنَّهُ ٱلَّذِي سَمَّى ٱلْبَرَابِرَةَ بِهٰذَا ٱلِٱسْمِ لِأَنَّهُ لَمَّا ٱفْتَتَحَ ٱلْمَغْرِبَ وَسَمِعَ رَطَانَتَهُمْ قَالَ : مَا أَكْثَرَ بَرْبَرَتَهُمْ . فَسُمُّوا ٱلْبَرَابِرَةَ .

ثمَّ ملكَ بعدَ أفريقُس أخوهُ عمرٌو ذو الأذعارِ ولم يُحسنِ السيرةَ في الرعيةِ. ولمّا يعبأ بوصاةِ أبيهِ أبرهةَ وكانَ أنشدهُ عندَ وفاتهِ:

يا عمرُو إنَّكَ ما جهلتَ وصيَّتي إيّاكَ فاحفظها فإنَّكَ ترشدُ
يا عمرُو لا واللهِ ما سادَ الورى فيما مضى إلّا المعينُ المرفدُ
يا عمرُو من يشري العلى بنوالهِ كرمًا يقالُ لهُ الجوادُ السيّدُ
كلُّ امرئٍ يا عمرُو حاصدُ زرعهِ والزرعُ شيءٌ لا محالةَ يُحصدُ

ولمّا ذُعرت حميرُ من جورهِ خلعت طاعتهُ وقلّدتِ الملكَ شرحبيلَ. فجرى بينَ شرحبيلَ وذي الأذعارِ قتالٌ شديدٌ قُتلَ فيهِ خلقٌ كثيرٌ. واستقلَّ شرحبيلُ بالملكِ ثمَّ ملكَ بعدهُ ابنهُ الهدهادُ. (١٠٦٥ ق م)

ملك بلقيس وناشر النعم وشمّر مرعش ومزيقيا

٣٩٩ ثمَّ ملكت بلقيسُ ابنةُ الهدهادِ وكانت على عهدِ سليمانَ ووفدت عليهِ بنفيسِ الهدايا وبقيت في ملكِ اليمنِ عشرينَ سنةً. ثمَّ قامَ بعدها بالملكِ مالكٌ ناشرُ النعمِ. لأنَّهُ قلّدَ أعناقَ رعيّتهِ أطواقَ الإنعامِ والمننِ وسارَ غازيًا إلى المغربِ فبلغَ وادي الرملِ ولم يجد فيهِ مجازًا لكثرةِ الرملِ وعبرَ بعضُ أصحابهِ فلم يرجعوا. فأمرَ بصنمٍ من نحاسٍ نُصبَ على شفيرِ الوادي وكتبَ في صدرهِ بالخطِّ المسندِ: هذا الصنمُ لناشرِ النعمِ الحميريِّ ليسَ وراءهُ مذهبٌ. فلا يتكلّفْ أحدٌ ذلكَ فيعطبَ. ثمَّ ملكَ بعدَ ناشرٍ هذا ابنهُ شمّرُ مرعشٍ سُمّي بذلكَ لارتعاشٍ كانَ بهِ وهذا هو تبّعٌ الآخرُ. وهو المشهورُ من ملوكِ التبابعةِ ذو المغازي

وَٱلآثارِ ٱلْبَعِيدَةِ . فَكَانَ مِنْ أَشَدِّ مُلُوكِ ٱلْعَرَبِ نِكَايَةً فِي ٱلأَعْداءِ وَأَبْعَدِهِمْ مَغَارًا (٨٥٠ قبل المسيح) وَيُقَالُ إِنَّهُ وَطِئَ أَرْضَ ٱلْعِرَاقِ وَفَارِسَ وَخُرَاسَانَ ٱفْتَتَحَ مَدَائِنَهُمْ وَخَرَّبَ مَدِينَةَ ٱلصُّغْدِ وَرَاءَ جَيْحُونَ . فَقَالَتِ ٱلْعَجَمُ شِمْرُ كَنْدَ أَيْ شِمْرُ خَرَّبَ . وَبَنَى مَدِينَةً هُنَالِكَ فَسُمِّيَتْ بِٱسْمِهِ هٰذَا وَعَرَّبَتْهُ ٱلْعَرَبُ فَصَارَ سَمَرْقَنْدَ . وَشَخَصَ مِنَ ٱلْيَمَنِ غَازِيًا وَمَرَّ بِٱلْحِيرَةِ فَتَحَيَّرَ عَسْكَرُهُ . ثُمَّ رَجَعَ إِلَى ٱلْيَمَنِ وَهَابَتْهُ ٱلْمُلُوكُ وَهَادَنُوهُ . وَأَخَذَ بِدِينِ ٱلْيَهُودِيَّةِ بِإِغْرَاءِ بَعْضِ أَحْبَارِ ٱلْيَهُودِ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ . ثُمَّ عَادَ إِلَى غَزْوِ بِلَادِ فَارِسَ فَوَطِئَ ٱلْمَمَالِكَ وَذَلَّلَهَا وَعَمَدَ إِلَى ٱلصِّينِ . قَالَ ٱلنُّوَيْرِيُّ : وَكَانَ لِمَلِكِ ٱلصِّينِ فِي ذٰلِكَ ٱلزَّمَانِ وَزِيرٌ شَدِيدُ ٱلْبَأْسِ سَامِي ٱلْهِمَّةِ . فَلَمَّا بَلَغَهُ مَسِيرُ مَلِكِ ٱلْيَمَنِ جَدَعَ أَنْفَهُ وَلَحِقَ بِأَبِي كَرِبٍ وَسَعَى إِلَيْهِ بِأَمْرِهِ وَتَشَكَّى مِنْ مَلِكِ ٱلصِّينِ . وَتَظَاهَرَ أَنَّهُ يَدُلُّ أَبَا كَرِبٍ عَلَى خَلَلٍ يُمَكِّنُهُ ٱلْفُرْصَةَ لِإِلْقَاءِ بِلَادِهِمْ بِٱلْقِيَادِ وَفَتْحِهَا . فَسُرَّ بِهِ تُبَّعٌ وَبَالَغَ فِي إِكْرَامِهِ وَأَصَاخَ لِقَوْلِهِ . فَنَهَضَ ٱلْوَزِيرُ بِجَيْشِهِ وَهُوَ يَقْدُمُهُمْ حَتَّى ٱنْتَهَى بِهِمْ إِلَى أَرْضٍ سَبِخَةٍ . فَتَوَغَّلُوا فِي فَلَوَاتٍ سَحِيقَةٍ لَا مَاءَ فِيهَا فَأَجْهَدَهُمُ ٱلْعَطَشُ فَهَلَكُوا . ثُمَّ قَامَ بَعْدَهُ ٱبْنُهُ أَبُو مَالِكٍ وَهَلَكَ فِي بَعْضِ غَزَوَاتِهِ . ثُمَّ ٱنْتَقَلَ ٱلْمُلْكُ مُدَّةً إِلَى بَنِي كَهْلَانَ حَتَّى مَلَكَ عَمْرُو بْنُ عَامِرٍ ٱلْأَزْدِيُّ وَقِيلَ لَهُ مُزَيْقِيَا . لِأَنَّهُ كَانَ يَلْبَسُ كُلَّ يَوْمٍ بَذْلَةً فَإِذَا أَرَادَ ٱلدُّخُولَ إِلَى مَجْلِسِهِ رَمَى بِهَا فَمُزِّقَتْ لِئَلَّا يَجِدَ أَحَدٌ فِيهَا مَا يَلْبَسُهُ . وَقِيلَ إِنَّهُ عَلَى عَهْدِهِ صَارَ سَيْلُ ٱلْعَرِمِ (١٠٢ ب م) .

فانفجرت مياه سد مأرب فاحتمل السيل أنعامهم وخرب ديارهم فتفرقت القبائل المجاورة له أيدي سبا (لابن الاثير والمسعودي)

ذكر ذي نواس وشهداء النصرانية في نجران

٤٠٠ ولم تزل تتوالى الملوك على حمير حتى صار الملك إلى ذي نواس. (٤٩٠ ب م) واتفق أهل الأخبار كلهم أن ذا نواس هو ابن تبان أسعد واسمه زرعة. وانه لما تغلب على ملك آبائه التبابعة تسمى يوسف وتعصب لدين اليهودية وحمل عليه قبائل اليمن. فاستجمعت معه حمير على ذلك. وأراد أهل نجران عليها وكانوا من بين العرب يدينون بالنصرانية. ولهم فضل في الدين واستقامة على حكم أهل الإنجيل. ولهم رأس يقال له عبد الله بن ثامر. وكان هذا الدين وقع إليهم قديما من بقية أصحاب الحواريين من رجل سقط لهم من ملك التبعية يقال له فيمون. وكان رجلا صالحا مجتهدا في العبادة مجاب الدعوة وظهرت على يده الكرامات في شفاء المرضى. وكان يطلب الخفاء عن الناس جهده. وكان لا يأكل إلا من كسب يده ويعظم يوم الأحد فلا يعمل فيه شيئا. ففطن لشأنه رجل من أهل الشام اسمه صالح فلزمه وخرجا فارّين بأنفسهما حتى وطئا بلاد العرب. فاختطفتهما سيارة فباعوهما بنجران. وأهل نجران يومئذ على دين العرب يعبدون نخلة لهم طويلة ويعلقون عليها في الأعياد من حليهم وثيابهم ويعكفون عليها أياما. وكان قد ابتاع فيمون رجل من أشرافهم وابتاع

صَالِحًا آخر . فكان فيمون إذا قام في اللَّيل في بيت له أسكنه إياه سيده استسرج له البيت نورًا وهو في غير مصباح حتى يصبح الصباح . فأعجب سيده ما رأى منه فسأله عن دينه . فأخبره به وقال له : إنما أنتم على باطل وهذه الشجرة لا تضر ولا تنفع . ولو دعوت عليها إلهي الذي أعبده لأهلكها وهو وحده لا ند له . فقال له سيده : افعل فإنك إذا فعلت هذا دخلنا في دينك وتركنا ما نحن عليه . فدعا فيمون فأرسل الله ريحًا فجعفت النخلة من أصلها . وأطبق أهل نجران على اتباع دين عيسى فمن هناك كانت النصرانية بنجران . وأما عبد الله بن تامر فكان يجلس إلى فيمون كل يوم ويتعلم منه شرائع النصرانية حتى فقه فيها وظهرت على يده الخوارق والمعجزات ودان الكل بدينه . فسار إليهم ذو نواس بجنوده واستدعى رأسهم عبد الله ابن تامر فأخذه وقال له : أفسدت علي أهل بلدي وخالفت ديني ودين آبائي . ثم أمر به فقتل وعرض على أهل نجران القتل فلم يزدهم إلا اجماحا . فخدد لهم الأخاديد وأوقد لهم نارًا ثم امتحنهم . فجعل يقول للرجل والمرأة : إما أن تترك دينك وإما أن نقذفك في النار فيقول : ما أنا تارك ديني لشيء فيقذف فيها فيحرق . فبقيت امرأة ومعها صبي رضيع عمره سبعة أشهر فجزعت وتهيبت . فقال لها الغلام : يا أماه لا تنافقي فإنك على الحق ولم يكن يتكلم من ذي قبل . فاحترقت . وقتل وحرق ذو نواس حتى أهلك منهم فيما قال ابن إسحاق

عِشْرِينَ أَلْفًا أَوْ يَزِيدُونَ . وَأَفْلَتَ مِنْهُمْ رَجُلٌ مِنْ سَبَأٍ يُقَالُ لَهُ دُوسٌ ذُو ثُعْلُبَانَ فَسَلَكَ ٱلرَّمْلَ عَلَى فَرَسِهِ فَأَعْجَزَهُمْ . فَقَدِمَ عَلَى قَيْصَرَ صَاحِبِ ٱلرُّومِ يَسْتَنْصِرُهُ عَلَى ذِي نُوَاسٍ (معجم البلدان لياقوت)

استيلاء الحبشة على ملك اليمن

٤٠١ فَبَعَثَ قَيْصَرُ إِلَى مَلِكِ ٱلْحَبَشَةِ يَأْمُرُهُ بِنَصْرِهِ . فَجَاءَتْهُ ٱلسُّفُنُ وَأَجَازَ فِيهَا ٱلْعَسَاكِرَ مِنَ ٱلْحَبَشَةِ وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ أَرْيَاطَ رَجُلًا مِنْهُمْ . وَعَهِدَ إِلَيْهِ بِقَتْلِهِمْ وَسَبْيِهِمْ وَخَرَابِ بِلَادِهِمْ . فَرَكِبُوا ٱلْبَحْرَ وَنَزَلُوا سَاحِلَ ٱلْيَمَنِ فَلَقِيَهُمْ ذُو نُوَاسٍ فِيمَنْ مَعَهُ فَٱنْهَزَمَ . فَلَمَّا رَأَى ذُو نُوَاسٍ مَا نَزَلَ بِهِ وَبِقَوْمِهِ وَجَّهَ بِفَرَسِهِ إِلَى ٱلْبَحْرِ وَخَاضَ ضَحْضَاحَهُ . ثُمَّ أَفْضَى بِهِ إِلَى غَمْرَةٍ فَأَقْحَمَهُ فِيهَا فَكَانَ آخِرَ ٱلْعَهْدِ بِهِ وَٱنْقَرَضَ أَمْرُ ٱلتَّبَابِعَةِ . (٥٢٩ ب م) وَوَطِئَ مِنْ ثَمَّ أَرْيَاطُ ٱلْيَمَنَ بِٱلْحَبَشَةِ وَأَذَلَّ رِجَالَاتِ حِمْيَرَ وَهَدَمَ حُصُونَ ٱلْمُلْكِ . ثُمَّ ٱنْتَقَضَ عَلَى أَرْيَاطَ أَبْرَهَةُ أَحَدُ رُؤَسَاءِ جَيْشِهِ وَجَذَبَ مَعَهُ رُعَاعَ ٱلْحَبَشَةِ وَعَصَى أَرْيَاطَ وَدَعَاهُ لِلْحَرْبِ فَٱنْحَازَ إِلَى أَرْيَاطَ عُظَمَاءُ ٱلْحَبَشَةِ وَغَطَارِيفُهُمْ فَٱقْتَتَلُوا . فَحَمَلَ أَرْيَاطُ عَلَى أَبْرَهَةَ وَعَلَا وَجْهَهُ بِٱلْحَرْبَةِ فَشَرَمَ أَنْفَهُ وَبِذَلِكَ لُقِّبَ بِٱلْأَشْرَمِ . وَحَمَلَ أَبْرَهَةُ عَلَى أَرْيَاطَ بِٱلسَّيْفِ وَعَلَا بِهِ رَأْسَهُ فَأَسْرَعَ ٱلسَّيْفُ فِي دِمَاغِهِ وَسَقَطَ عَنْ جَوَادِهِ . فَمَالُوا حِينَئِذٍ جَمِيعًا وَصَارُوا مَعَ أَبْرَهَةَ وَأَقَامُوهُ مَلِكًا . وَكَانَ أَبْرَهَةُ رَجُلًا قَصِيرًا حَادِرًا لَحِيمًا دَحْدَاحًا ذَا دِينٍ فِي ٱلنَّصْرَانِيَّةِ . فَبَنَى بِصَنْعَاءَ إِلَى جَانِبِ غُمْدَانَ كَنِيسَةً مُحْكَمَةَ ٱلْعَمَلِ وَسَمَّاهَا

ٱلْقُلَّيْسَ (*) فَٱنْتَشَرَ خَبَرُ بِنَاءِ هٰذَا ٱلْبَيْتِ فِي ٱلْعَرَبِ. وَلَمَّا هَلَكَ أَبْرَهَةُ (٥٧١ ب م) مَلَكَ مَكَانَهُ ٱبْنُهُ يَكْسُومُ وَبِهِ كَانَ يُكْنَى وَٱسْتَفْحَلَ مُلْكُهُ وَأَذَلَّ حِمْيَرَ وَقَبَائِلَ ٱلْيَمَنِ. فَقَتَلَ رِجَالَهُمْ وَٱسْتَخْدَمَ أَبْنَاءَهُمْ. ثُمَّ هَلَكَ يَكْسُومُ فَمَلَكَ مَكَانَهُ أَخُوهُ مَسْرُوقُ وَسَاءَتْ سِيرَتُهُ وَكَثُرَ عَسْفُهُ (للازرقي)

اخبار سيف بن ذي يَزَن

٤٠٢ وَلَمَّا طَالَ بَلَاءُ ٱلْحَبَشَةِ عَلَى أَهْلِ ٱلْيَمَنِ خَرَجَ سَيْفُ بْنُ ذِي يَزَنٍ ٱلْحِمْيَرِيُّ مِنَ ٱلْأَذْوَاءِ بَقِيَّةُ ذٰلِكَ ٱلسَّلَفِ وَعَقِبُ أُولٰئِكَ ٱلْمُلُوكِ. وَدِيَالُ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْمُوفِضُ لِلْخُمُودِ. وَقَدِمَ عَلَى قَيْصَرَ (مُورِيقِي) يَسْتَنْجِدُهُ عَلَى ٱلْحَبَشَةِ. فَأَبَى وَقَالَ: ٱلْحَبَشَةُ عَلَى دِينِ ٱلنَّصَارَى. فَرَجَعَ إِلَى كِسْرَى وَقَدِمَ ٱلْحِيرَةَ عَلَى ٱلنُّعْمَانِ بْنِ ٱلْمُنْذِرِ عَامِلِ فَارِسَ عَلَى ٱلْحِيرَةِ وَمَا يَلِيهَا مِنْ أَرْضِ ٱلْعَرَبِ فَشَكَا إِلَيْهِ. وَٱسْتَمْهَلَهُ ٱلنُّعْمَانُ إِلَى حِينِ وِفَادَتِهِ عَلَى كِسْرَى وَأَوْفَدَ مَعَهُ وَسَأَلَهُ ٱلنَّصْرَ عَلَى ٱلْحَبَشَةِ وَشَاوَرَ أَهْلَ دَوْلَتِهِ. فَقَالُوا: فِي سُجُونِكَ رِجَالٌ حَبَسْتَهُمْ لِلْقَتْلِ. ٱبْعَثْهُمْ مَعَهُ فَإِنْ هَلَكُوا كَانَ

(*) وكان القُلَّيس مربعاً مستوي التربيع وجعل طولهُ في السماء ستّين ذراعاً وحولهُ سورٌ بينهُ وبين القُلَّيس مائتا ذراعٍ مطيفٌ بهِ من كل جانب وجعل بين ذلك كلّهِ حجارة تسميها اهل اليمن الجروب منقوشة مطابقة لا يدخل بين اطباقها الابرة مطبقة بهِ. وكان لهُ باب من نحاس يفضي الى بيت في جوفهِ طولهُ ثمانون ذراعاً في اربعين ذراعاً معلّق العمل بالساج المنقوش ومسامير الذهب والفضة وعقودهُ مضروبة بالفسيفساء مشجَّرة بين اضعافها كواكب الذهب ظاهرة. ثم يدخل من البيت الى قبَّة جُدُرها بالفسيفساء وفيها صُلُبٌ منقوشة بالذهب والفضة وفيها رُخامة مما يلي مطلع الشمس من البَلَق مربعة تغشي عين مَن نظر اليها من بطن القبة. تؤدي ضوء الشمس والقمر الى داخل القبة. وكان تحت الرخامة منبر من خشب اللبخ وهو الآبنوس مفصل بالعاج ودرج المنبر من خشب الساج ملبسة ذهباً وفضة (لابن اسحاق)

الذي أردت بهم وإن ملكوا كان ملكاً ازددته إلى ملكك. فأحصوا ثمانمائة وقدم عليهم أفضلهم وأعظمهم بيتاً وأكبرهم نسباً وكان وهرز الديلمي. فتواقفوا للحرب وأمر وهرز ابنه أن يناوشهم القتال فقتلوه وأحفظه ذلك. وقال: أروني ملكهم فأروه إياه على فيل عليه تاجه وبين عينيه ياقوتة حمراء. فرماه بسهم فصك الياقوتة بين عينيه وتغلغل في دماغه وتنكس عن دابته وداروا به. فحمل القوم عليهم وانهزم الحبشة في كل وجه. وفني ملكهم في اليمن بعد أن توارثه منهم أربعة في ثنتين وسبعين سنة. (٦٠١) وانصرف وهرز إلى كسرى بعد أن خلف سيفاً على اليمن في جماعة من الفرس ضمهم إليه على فريضة يؤديها كل عام. وجعلهم لنظر ابن ذي يزن وأنزله بصنعاء. وانفرد ابن ذي يزن بسلطانه ونزل قصر الملك وهو رأس غمدان. يقال إن الضحاك بناه على اسم الزهرة وهو أحد البيوت السبعة الموضوعة على أسماء الكواكب وروحانيتها. خرب في خلافة عثمان. ولما استوثق لذي يزن الملك جعل يعتسف الحبشة ويقتلهم حتى إذا لم يبق إلا القليل جعلهم خولاً واتخذ منهم طوابير يسعون بين يديه بالحراب. فخرج يوماً وهم يسعون بين يديه. فلما انفردوا به عن الناس رموه بالحراب فقتلوه. فأرسل كسرى عاملاً على اليمن واستمرت عماله إلى أن كان آخرهم باذان فأسلم وصارت اليمن للإسلام (لابن خلدون)

خبر الملوك المناذرة بني كهلان في العراق
تملك ملك بن فهم وجذيمة الابرش

٤٠٣ أما أخبار العرب بالعراق في الجيل الأول فلم يصل إلينا تفاصيلها وشرح حالها. إلا أنه لما حدث سيل العرم تمزقت عرب اليمن من مدينة مأرب إلى العراق والشام. فكانت تنوخ وقضاعة وهما حيان من أحياء الأزد من بني كهلان ممن تمزق إلى العراق. فقال ملك بن فهم الأزدي لمالك بن القضاعي: نقيم بالبحرين ونتحالف على من نوانا فتحالفوا. فسموا تنوخ وذلك في أيام ملوك الطوائف فنظروا إلى العراق وعليها طائفة من ملوكها وهي شاغرة فخرجوا عن البحرين وسارت الأزد إلى العراق مع ملك بن فهم الأزدي. وسارت قضاعة إلى الشام مع مالك القضاعي

٤٠٤ وأول من تملك على تنوخ في العراق ملك بن فهم (١٩٥ للمسيح) وكان منزله بالأنبار فبقي بها إلى أن رماه سليمة بن مالك رمية بالليل وهو لا يعرفه. فلما علم أن سليمة راميه قال:

جزاني لا جزاه الله خيرا سليمة إنه شرا جزاني
أعلمه الرماية كل يوم فلما اشتد ساعده رماني

فلما قال هذين البيتين فاظ وهرب سليمة ثم ملك من بعد ملك جذيمة الأبرش. (٢١٥ ب م) وكان ثاقب الرأي بعيد المغار شديد النكاية ظاهر الحزم. وهو أول من غزا بالجيوش وشن الغارات على

قَبائِلِ ٱلعَرَبِ وكان بهِ برصٌ فأكبرتهُ ٱلعربُ على أن تنعتهُ بهِ إعظامًا فسمّتهُ جذيمةَ ٱلأبرش وجذيمةَ ٱلوضّاح . واستولى على ٱلسوادِ ما بين ٱلحِيرةِ وٱلأنبار وسائرِ ٱلقرى ٱلمجاورةِ لباديةِ ٱلعربِ وكان يجبي أموالها . وغزا طسمًا وجديسًا في منازلها من ٱليمامةِ . وفيهِ قال ٱلشاعر :

أضحى جذيمةُ في ٱلأنبارِ منزلُهُ قد حازَ ما جمعتْ في عصرِها عادُ

فطال مُلكُهُ إلى أن أدركَ مُلكَ سابورَ بنِ أشك . وكان جذيمةُ ملكَ معدٍ وبعضِ ٱليمنِ وغزا في آخرِ عمرهِ ٱلشامَ فقتلَ عمرَو بنَ حسّانِ ابنِ أذينةَ والدَ ٱلزبّاء ملكةِ ٱلطوائفِ . فانطوت لهُ ٱلزبّاء على طلبِ ٱلثأرِ حتّى قتلتهُ . وكان مُلكُ جذيمةَ نحوَ ستّين سنةً بالتقريبِ (لحمزة الاصفهاني)

ملك عمرو بن عدي

٤٠٥ فورثَ ٱلمُلكَ من بعدهِ ابنُ أختهِ عمرُو بنُ عديٍ (٢٦٨) وأُمّهُ رقاشُ وهو أوّلُ من اتّخذَ ٱلحيرةَ منزلًا من ملوكِ ٱلعربِ . وأوّلُ ملكٍ يعدّهُ ٱلحيريّون في كتبهم من ملوكِ عربِ ٱلعراقِ وملوكُ ٱلعراقِ إليهِ ينتسبون وهمّ عمرٌو بطلبِ ٱلثأرِ من ٱلزبّاء بخالهِ جذيمة . فلمّا أحسّتِ ٱلزبّاء بنيّتهِ تحصّنت في معقلٍ فصارت أمنعَ من عقاب . فعمدَ عمرٌو إلى قصيرٍ وزيرهِ فجدعَ أنفهُ بمواطأةٍ منهُ على ذلك . فلحقَ بالزبّاء يشكو ما أصابهُ من عمرٍو وأنّهُ اتّهمهُ بمداخلةِ ٱلزبّاء في أمرِ خالهِ جذيمة فقال : وما رأيتُ بعدما فعلَ بي أنكى لهُ من أن أكونَ معكِ . فأكرمتهُ وقرّبتهُ حتّى إذا رضيَ منها من ٱلوثوقِ بهِ غرّها واستلمَ حصنها إلى عمرٍو . فلحمها

بِالسَّيْفِ وَأَصَابَ مَا أَصَابَ مِنَ الْمَدِينَةِ وَانْكَفَأَ رَاجِعًا . فَبَقِيَ عَمْرٌو مَلِكًا مُدَّةَ عُمْرِهِ مُنْفَرِدًا بِمُلْكِهِ مُسْتَبِدًّا بِأَمْرِهِ يَغْزُو الْمَغَازِيَ وَيُصِيبُ الْغَنَائِمَ وَتُجْبَى إِلَيْهِ الْأَمْوَالُ وَتَفِدُ عَلَيْهِ الْوُفُودُ دَهْرَهُ الْأَطْوَلَ . لَا يَدِينُ لِمُلُوكِ الطَّوَائِفِ بِالْعِرَاقِ حَتَّى قَدِمَ أَرْدَشِيرُ بْنُ بَابَكَ فِي أَهْلِ فَارِسَ أَرْضَ الْعِرَاقِ . فَضَبَطَهَا وَقَهَرَ مَنْ كَانَ لَهُ بِهَا مُنَاوِئًا حَتَّى حَمَلَهُمْ عَلَى مَا أَرَادَ مِمَّا يُوَافِقُهُمْ وَمِمَّا لَا يُوَافِقُهُمْ . فَكَرِهَ كَثِيرٌ مِنْ تَنُوخَ مُجَاوَرَةَ الْعِرَاقِ عَلَى الصَّغَارِ . فَخَرَجَ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ مِنْ قَبَائِلِ قُضَاعَةَ الَّذِينَ كَانُوا أَقْبَلُوا مَعَ مَلِكٍ فَلَحِقُوا بِالشَّامِ وَانْضَمُّوا إِلَى مَنْ هُنَاكَ مِنْ قُضَاعَةَ . فَكَانَ أُنَاسٌ مِنَ الْعَرَبِ يُحْدِثُونَ أَحْدَاثًا فِي قَوْمِهِمْ أَوْ تَضِيقُ مَعِيشَتُهُمْ فَيَخْرُجُونَ إِلَى رِيفِ الْعِرَاقِ وَيَنْزِلُونَ الْحِيرَةَ فَكَانَ ذٰلِكَ عَلَى أَكْثَرِهِمْ هُجْنَةً . فَصَارَ أَهْلُ الْحِيرَةِ ثَلَاثَةَ أَثْلَاثٍ . الثُّلْثُ الْأَوَّلُ تَنُوخُ وَهُمْ مَنْ كَانَ يَسْكُنُ الْمَظَالَّ وَبُيُوتَ الشَّعَرِ وَالْوَبَرِ فِي غَرْبِيِّ الْفُرَاتِ مَا بَيْنَ الْحِيرَةِ إِلَى الْأَنْبَارِ فَمَا فَوْقَهَا . وَالثُّلْثُ الثَّانِي الْعِبَادُ وَهُمُ الَّذِينَ سَكَنُوا رُقْعَةَ الْحِيرَةِ فَابْتَنَوْا بِهَا . وَالثُّلْثُ الثَّالِثُ الْأَحْلَافُ . وَعَمَرَتِ الْحِيرَةُ أَيَّامَ مُلْكِ عَمْرِو بْنِ عَدِيٍّ بِاتِّخَاذِهِ مَنْزِلًا إِيَّاهَا . وَعَظُمَ شَأْنُهَا إِلَى أَنْ وُضِعَتِ الْكُوفَةُ وَنَزَلَهَا عَرَبُ الْإِسْلَامِ (للنويري وحمزة الاصفهاني)

ملك امرئ القيس البدء والمحرّق والنعمان الاعور السائح

٤٠٦ ثُمَّ مَلَكَ مِنْ بَعْدِ عَمْرِو بْنِ عَدِيٍّ امْرُؤُ الْقَيْسِ الْبَدْءُ وَهُوَ الْأَوَّلُ فِي كَلَامِهِمْ (٢٨٨ ـ ٣٣٨ ب م) وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ تَنَصَّرَ مِنْ مُلُوكِ آلِ

نَصرٍ وعُمّالِ ٱلفُرس. ثُمَّ وَلِيَ مَكانَهُ ٱبْنُهُ عَمْرو (٣٣٨ـ٣٦٣) ثُمَّ عَقَبَهُ أَوْسُ بنُ قَلّامٍ ٱلعِمليقيّ خَمسَ سِنينَ. ثُمَّ ثارَ بِهِ جَحْجَبا أحدُ بَني فازانَ فَقَتَلَهُ. (٣٦٨ ب م) وَوَلِيَ مكانَهُ مُدَّةً ثُمَّ وَلِيَ مِنْ بَعْدِهِ اُمْرُؤُ ٱلقَيْسِ (ٱلثّاني). (٣٦٨ـ٣٩٠ ب م) وَيُعرَفُ ٱمْرُؤُ ٱلقَيْسِ هذا بِٱلمُنْذِرِ وَٱلمُحَرِّقِ لِأنَّهُ أَوَّلُ مَنْ عاقَبَ بِٱلنّارِ وَهُوَ ٱلَّذي ذَكَرَهُ ٱلأَسْوَدُ ٱبْنُ يَعْفُرٍ في قولِهِ: ماذا أُؤَمِّلُ بَعْدَ آلِ مُحَرِّقٍ. ثُمَّ مَلَكَ بَعْدَهُ ٱبْنُهُ ٱلنُّعْمانُ ٱلأَعْوَرُ ٱلسّائِحُ وَهُوَ باني ٱلخَوَرْنَقِ وَٱلسَّديرِ (*) وَكانَ ٱلنُّعْمانُ هذا في أيّامِ يَزْدَجِرْدَ فَدَفَعَ إِلَيْهِ ٱبْنَهُ بَهْرامَ لِيُرَبِّيَهُ وأَمَرَ بِبِناءِ ٱلخَوَرْنَقِ مَسْكَنًا لِٱبْنِهِ فَأَسْكَنَهُ إِيّاهُ. وَأَحْسَنَ تَرْبِيَتَهُ وَتَأْديبَهُ. وَجاءَهُ بِمَنْ يُلَقِّنُهُ ٱلخِلالَ مِنَ ٱلعُلومِ وَٱلآدابِ وَٱلفُروسِيَّةِ حَتّى ٱشْتَمَلَ عَلى ذلِكَ بِما رَضِيَهُ. وَكانَ ٱلنُّعْمانُ مِنْ أَشَدِّ مُلوكِ ٱلعَرَبِ نِكايَةً في ٱلأَعْداءِ وَأَبْعَدِهِمْ مَغارًا قَدْ أَتى ٱلشّامَ مِرارًا كَثيرَةً وَأَكْثَرَ ٱلمَصائِبَ في أَهْلِها وَسَبى وَغَنِمَ. وَكانَ مَلِكُ فارِسَ يُنْفِذُ مَعَهُ كَتيبَتَيْنِ ٱلشَّهْباءَ وَأَهْلُها ٱلفُرْسُ وَدَوْسَرَ وَأَهْلُها تَنوخُ. فَكانَ يَغْزو بِهِما مَنْ لا يَدينُ لَهُ مِنَ ٱلعَرَبِ. وَكانَ صارِمًا حازِمًا ضابِطًا لِمُلْكِهِ قَدِ ٱجْتَمَعَ لَهُ مِنَ ٱلأَمْوالِ وَٱلخَوَلِ وَٱلرَّقيقِ ما لَمْ يَمْلِكْهُ أَحَدٌ مِنْ مُلوكِ ٱلحيرَةِ. وَٱلحيرَةُ يَوْمَئِذٍ ساحِلُ ٱلفُراتِ. وَلَمّا أَتى عَلى ٱلنُّعْمانِ ثَلاثونَ سَنَةً تَنَصَّرَ عَلى يَدِ بَعْضِ وُزَرائِهِ ثُمَّ زَهِدَ وَتَرَكَ ٱلمُلْكَ وَلَبِسَ ٱلمُسوحَ وَذَهَبَ فَلَمْ يوجَدْ لَهُ أَثَرٌ (*)

(*) (راجع الوجه ٢٢١ من الجزء الثاني) (*) (راجع الوجه ١٦ من هذا الجزء)

ملك المنذر الاول والنعمان الثاني والاسود وامرؤ القيس الثالث

٤٠٧ وَلَمَّا تَزَهَّدَ ٱلنُّعْمَانُ تَوَلَّى ٱلْأَمْرَ ٱبْنُهُ ٱلْمُنْذِرُ ٱلْأَوَّلُ (٤٢٠ ب م) وَكَانَ أَهْلُ فَارِسَ وَلَّوْا عَلَيْهِمْ شَخْصًا مِنْ وُلْدِ أَزْدَشِير وَعَدَلُوا عَنْ بَهْرَام لِنَشْئِهِ بَيْنَ ٱلْعَرَبِ وَخُلُوِّهِ مِنْ آدَابِ ٱلْعَجَمِ. وَٱسْتَنْجَدَ بَهْرَامُ بِٱلْعَرَبِ فَجَهَّزَ ٱلْمُنْذِرُ ٱلْعَسَاكِرَ لِبَهْرَامَ لِطَلَبِ مُلْكِهِ. وَحَاصَرَ مَدِينَةَ ٱلْمُلْكِ فَأَذْعَنَ لَهُ فَارِسُ وَأَطَاعُوهُ. وَٱسْتَوْهَبَ ٱلْمُنْذِرُ ذُنُوبَهُمْ مِنْ بَهْرَامَ فَعَفَا عَنْهُمْ وَٱجْتَمَعَ أَمْرُهُ. وَرَجَعَ ٱلْمُنْذِرُ إِلَى بِلَادِهِ وَشُغِلَ بِٱللَّهْوِ إِلَى مَوْتِهِ. (٤٦٢ ب م) وَمَلَكَ مَكَانَهُ ٱلنُّعْمَانُ ٱلثَّانِي وَكَانَ وَزِيرُهُ عَدِيَّ بْنَ زَيْدٍ ٱلنَّصْرَانِيَّ فَتَزَهَّدَا (٤٦٩). (*) وَمَلَكَ مَكَانَهُ أَخُوهُ ٱلْأَسْوَدُ وَهُوَ ٱلَّذِي ٱنْتَصَرَ عَلَى عَسَاكِرِ عَرَبِ ٱلشَّامِ وَأَسَرَ عِدَّةً مِنْ مُلُوكِهِمْ ثُمَّ هَلَكَ (٤٩١). وَمَلَكَ أَخُوهُ مُنْذِرُ ٱلثَّانِي سَبْعَ سِنِينَ ثُمَّ ٱبْنُ أَخِيهِ (٤٩٨) نُعْمَانُ ٱلثَّالِثُ. ثُمَّ ٱسْتُخْلِفَ أَبُو يَعْفُرَ بْنُ عَلْقَمَةَ ٱلذُّمَيْلِيُّ (٥٠٣) وَذُمَيْلُ بَطْنٌ مِنْ لَخْمٍ. ثُمَّ مَلَكَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ ٱلثَّالِثُ (٥٠٦) هٰذَا هُوَ ٱلَّذِي غَزَا بَكْرًا يَوْمَ أُوَارَةَ فِي دَارِهَا فَكَانَتْ بَكْرٌ قَبْلَهُ تُقِيمُ أَوَدَ مُلُوكِ ٱلْحِيرَةِ وَتَعْضُدُهُمْ. وَهُوَ أَيْضًا بَانِي ٱلْعُذَيْبِ وَٱلصِّنَّبْرِ وَفِيهِمَا يَقُولُ جُبَيْرُ بْنُ بُلُوغ:

لَيْتَ شِعْرِي مَتَى تَخُبُّ بِنَا ٱلنَّا قَةُ نَحْوَ ٱلْعُذَيْبِ وَٱلصِّنَّبْرِ

ملك المنذر الثالث والنعمان قابوس

٤٠٨ وَلَمَّا هَلَكَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ ٱلثَّالِثُ مَلَكَ ٱلْمُنْذِرُ ٱلثَّالِثُ ٱبْنُهُ وَهُوَ ذُو

(*) (راجع وجه ١٧ من هذا الجزء)

القرنين لضفيرتين كانتا له من شعره وأمه ماء السماء. قال الجنابي: وكان هذا القبا لأبي عامر الأزدي لأنه كان يقيم ماله مقام القطر أي عطاء وجودًا فغلب على بنيه لأنهم خلف منه. وذكر أن مرة بن كلثوم قتله لخمسين سنة من ملكه. (٥٦٢ ب م) ثم ملك بعده ابنه عمرو بن هند الملقب بالمحرق وهند أمه. وكان شديد السلطان غزا تميما في دارها فقتل من بني دارم مائة يوم أوارة الثاني بأخيه أسعد بن المنذر وكان ملكه ست عشرة سنة. (٥٧٨) ثم ولي شقيقه قابوس أربع سنين في زمن أنوشروان. وكان فيه لين وكان ضعيفا مهينا قتله رجل من يشكر وسلبه. (٥٨٢) ثم ملك المنذر الرابع أخوه سنة واحدة ثم النعمان الرابع أبو قابوس (٥٨٢ ـ ٦٠٤) وهو صاحب النابغة الذبياني الذي بنى الغريين وتنصر (للنويري والمسعودي)

خبر تنصر النعمان

٤٠٩ كان النعمان بن ماء السماء الملقب بأبي قابوس قد نادمه رجلان من بني أسد أحدهما خالد بن المضلل والآخر عمرو بن مسعود فأغضباه في بعض المنطق. فأمر بأن يحفر لكل واحد حفيرة بظهر الحيرة ثم يجعلا في تابوتين ويدفنا في الحفرتين. ففعل ذلك بهما حتى إذا أصبح سأل عنهما فأخبر بهلاكهما. فندم على ذلك وغمه وفي عمرو بن مسعود وخالد بن المضلل يقول شاعر بني أسد:

يا قبر بين بيوت آل محرق جادت عليك رواعد وبروق

أمّا البكاءُ فقلّ عنكَ كثيرهُ ولئن بكيتَ فللبكاءُ خليقُ

ثمّ ركبَ النعمانُ حتى نظرَ إليهما فأمرَ ببناءِ الغريّينِ عليهما . فبُنيا وجعلَ لنفسهِ يومينِ في السنةِ يجلسُ فيهما عندَ الغريّينِ يسمّي أحدهما يومَ نعيمٍ والآخرَ يومَ بؤسٍ . فأوّلُ من يطلعُ عليهِ يومَ نعيمهِ يعطيهِ مائةً من الإبلِ شؤماً أي سوداً . وأوّلُ من يطلعُ عليهِ يومَ بؤسهِ يعطيهِ رأسَ ظربانٍ أسودَ ثمّ يأمرُ بهِ فيُذبحُ ويُغرى بدمهِ الغريّانِ . فلبثَ بذلكَ برهةً من دهرهِ حتى مرّ بهِ رجلٌ من طيءٍ يقالُ لهُ حنظلةُ بنُ أبي عفراءَ . كانَ آوى النعمانَ في خبائهِ يومَ خرجَ إلى الصيدِ وانفردَ عنهُ أصحابهُ بسببِ المطرِ . فرحّبَ بهِ حنظلةُ وهوَ لا يعرفهُ وذبحَ لهُ شاةً فأطعمهُ من لحمها وسقاهُ لبناً . فلمّا نظرَ إليهِ النعمانُ وافداً إليهِ ساءهُ ذلكَ وقالَ لهُ : يا حنظلةُ هلّا أتيتَ في غيرِ هذا اليومِ . فقالَ : أبيتَ اللعنَ لم يكنْ لي علمٌ بما أنتَ فيهِ . فقالَ لهُ : أبشرْ بقتلكَ . فقالَ لهُ : واللهِ قد أتيتكَ زائراً ولأهلي من خيركَ مائراً فلا تكنْ ميرتهم قتلي . فقالَ : لا بدّ من ذلكَ فاسألْ حاجةً أقضيها لكَ فقالَ تؤجّلني سنةً أرجعُ فيها إلى أهلي وأحكمُ من أمرهم ما أريدُ ثمّ أصيرُ إليكَ فأنفذُ في حكمكَ . فقالَ : ومن يكفلُ بكَ حتى تعودَ فنظرَ في وجوهِ جلسائهِ فعرفَ منهم شريكَ بنَ عمرٍو فأنشدَ

يا شريكُ يا ابنَ عمرٍو يا أخا من لا أخا لهُ
يا أخا شيبانَ فكّ اليومَ رهناً قد أنالهُ

يَا أَخَا كُلِّ مُصَابٍ وَحَيَا مَنْ لَا حَيَا لَهْ
إِنَّ شَيْبَانَ قَبِيلٌ أَكْرَمَ ٱللهُ رِجَالَهْ
وَأَبُوكَ ٱلْخَيْرُ عَمْرٌو وَشَرَاحِيلُ ٱلْحَمَالَهْ
رَقَّيَاكَ ٱلْيَوْمَ فِي ٱلْمَجْدِ وَفِي حُسْنِ ٱلْمَقَالَهْ

فوثب شريكٌ وقال: أبيتَ ٱللعنَ يدي بيدِهِ ودمي بدمِهِ وأمرَ للطائي بخمسِ مائةِ ناقةٍ. وقد جعلَ ٱلأجلَ عامًا كاملًا من ذلك ٱليومِ إلى مثلِهِ من ٱلقابلِ. فلمّا حالَ ٱلحولُ وقد بقيَ من ٱلأجلِ يومٌ واحدٌ قالَ ٱلنعمانُ لشريكٍ: ما أراكَ إلّا هالكًا غدًا فداءً لحنظلةَ. فقالَ شريكٌ: فإنْ يكُ صدرُ هذا ٱليومِ ولّى فإنَّ غدًا لناظرِهِ قريبُ. فذهبَ قولُهُ مثلًا. ولمّا أصبحَ وقفَ ٱلنعمانُ بينَ قبري نديميهِ وأمرَ بقتلِ شريكٍ. فقالَ لهُ وزراؤهُ: ليسَ لكَ أنْ تقتلَهُ حتّى يستوفيَ يومَهُ. فتركَهُ ٱلنعمانُ وكانَ يشتهي أنْ يقتلَهُ لينجيَ ٱلطائيَ. فلمّا كادتِ ٱلشمسُ تغيبُ قامَ شريكٌ مجرّدًا في إزارٍ على ٱلنطعِ وٱلسيّافُ إلى جانبِهِ. وكانَ ٱلنعمانُ أمرَ بقتلِهِ فلمْ يشعرْ إلّا براكبٍ قدْ ظهرَ فإذا هوَ حنظلةُ ٱلطائيُّ قدْ تكفّنَ وتحنّطَ وجاءَ بنادبتِهِ. فلمّا رآهُ ٱلنعمانُ قالَ: ما ٱلذي جاءَ بكَ وقدْ أفلتَّ منَ ٱلقتلِ. قالَ: ٱلوفاءُ. قالَ وما دعاكَ إلى ٱلوفاءِ. قالَ: إنَّ لي دينًا يمنعُني منَ ٱلغدرِ. قالَ: وما دينُكَ. قالَ: ٱلنصرانيّةُ. قالَ: فاعرضْها عليَّ. فعرضَها فتنصّرَ ٱلنعمانُ. وتركَ تلكَ ٱلسنّةَ منْ ذلكَ ٱليومِ وعفا عنْ شريكٍ وٱلطائيِّ.

وقَالَ : ما أدري أيكُما أكْرَمُ وأوفى أهذا الّذي نجا مِنَ السَّيفِ فعادَ إليه أم هذا الَّذي ضَمِنَه. وأنا لا أكونُ ألأمَ الثَّلاثة. قالَ الميدانيُّ: وتَنَصرَ مَعَ النُّعمانِ أهلُ الحيرةِ أجمعونَ وبنى النُّعمانُ في حاضِرَةِ مُلكِهِ الكَنائس العظيمة. وقتله كسرى بن هرمز أبرويز (٦٠٤ ب م) وانقطع المُلكُ عَن لخمٍ. ولم يلبث أن ظهر الإسلامُ بعد زمانٍ (الاغاني)

٣

الغساسنة ملوك الشام بنو كهلان

٤١٠ كانَ آلُ جفنةَ عُمّالَ القياصِرَةِ على عربِ الشامِ كما كانَ المَناذِرةُ آلُ نصرٍ في آخرِ أمرِهِم عُمّالًا للأكاسِرَةِ على عربِ العراق. وأصلُهُم مِنَ اليَمَنِ مِنَ الأزدِ بني كَهلانَ لأنّ الأزدَ لمّا أحسّت بمأربَ انتقاضَ العرمِ وخشيتِ السَّيلَ تفرّقت. فتشاءَمَ قومٌ فنزلوا على ماءٍ يُقالُ له غسّانُ فصيّروهُ شربَهُم فسُمّوا غسّانَ. ثمَّ أنزلَهُم ثعلبةُ ابنُ عمرٍو الغسّانيُّ ببادِيةِ الشّامِ والمُلوكُ بها مِن قِبَلِ القَياصِرَةِ. وكانوا يدينونَ بالنَّصرانيّةِ. ولمّا نزلت غسّانُ في أرضِ الشّامِ كانَ بها قومٌ مِن سَليحٍ فضربوا على الغساسِنَةِ الإتاوةَ وكانَ الّذي يلي جبايتَها سبيطًا منهم فاستبطأهُم. فقصدَ سبيطٌ ثعلبةَ رأسَهُم وقالَ: تُعجّلنَ لي الإتاوةَ أو لآخذنَّ أهلَكَ. وكانَ ثعلبةُ حليمًا فقالَ هل لكَ في مَن يُزيحُ علّتَكَ بالإتاوةِ قالَ: نعم. قالَ: عليكَ بأخي جذعِ بنِ عمرٍو. وكانَ جذعٌ فاتكًا. فأتاهُ سبيطٌ وخاطبَهُ بما كانَ خاطبَ بهِ ثعلبةَ فخرجَ عليهِ ومعهُ سيفٌ مُذهَبٌ وقالَ فيهِ عِوَضٌ مِن حقّكَ إلى أن أجمعَ لكَ الإتاوةَ. قالَ:

نَعَمْ . قَالَ : فَخُذْهُ . فَتَنَاوَلَ سُبَيْطٌ جَفْنَ ٱلسَّيْفِ وَٱسْتَلَّ جِذْعٌ نَصْلَهُ وَضَرَبَهُ بِهِ . فَقِيلَ : خُذْ مِنْ جِذْعٍ مَا أَعْطَاكَ فَذَهَبَتْ مَثَلًا . فَوَقَعَتِ ٱلْحَرْبُ بَيْنَ سَلِيحٍ وَغَسَّانَ فَأَخْرَجَتْ غَسَّانُ سَلِيحًا مِنَ ٱلشَّامِ وَصَارُوا مُلُوكًا . وَٱسْتَقَرَّ مُلْكُ ٱلْغَسَاسِنَةِ ٤٠٠ سَنَةٍ بِنَيِّفٍ (*) (لحمزة الاصفهاني)

ملوك كندة

* (لمّا كان من قصدنا استيفاء أخبار العرب اضفنا اليها اخبار كندة) هم بنو زيد بن كهلان . وكانت كندة قبل أن يملك حجرٌ عليهم بغير ملكٍ تأكل القويُّ الضعيف حتى ملك حجرٌ وكان تُبّعٌ حين أقبل سائرًا الى العراق استعمله عليهم . فسدّد أمورهم وساسهم احسن سياسةٍ وانتزع من اللخميين ارضهم وبقي وحده في مملكته مُطاعًا لحسن سيرته (٥٠٣ب م). ثمَّ ملك بعده ابنهُ المقصور لانهُ اقتصر على مُلك أبيهِ . ثمَّ استخلفهُ الحارث وعظم شأنهُ حتَّى ولّاهُ قباذ ملك العجم على العراق مدة ثم طردهُ انوشروان وارجع المنذر الثالث فهرب الحارث من وجههِ ودخل ديار بني كلب ولم يلبث ان مات عندهم . وكان للحارث اربعة بنين ولّاهم على قبائل كندة . وكان حجر اكبرهم متوليًا على بني اسد فنقضوا امرهُ وقتلوهُ . فقام امرؤ القيس واستنجد ببكر وتغلب على بني اسد فانجدوهُ وهربت بنو اسد منهم وتبعهم فلم يظفر بهم . ثم تخاذلت عنهُ بكرٌ وتغلب وتطلّبهُ المُنذر بن ماء السماء . فتفرقت جموع امرىء القيس خوفًا من المُنذر وخاف امرؤ القيس من المُنذر . وصار يدخل على قبائل العرب وينتقل من أناسٍ الى أناسٍ حتَّى قصد السموءل بن عادياء اليهودي فأكرمهُ وأنزلهُ . وأقام امرؤ القيس عند السموءل ما شاء الله . ثم سار امرؤ القيس الى قيصر ملك الروم مستنجدًا بهِ وأودع أدراعهُ عند السموءل بن عادياء المذكور . ومرَّ على حماة وشيزر وقال في مسيرهِ قصيدتهُ المشهورة

بكى صاحبي لمَّا رأى الدرب دونهُ ... وأيقن إنَّا لاحقانِ بقيصرا
فقلتُ لهُ لا تبكِ عينُك إنَّما ... نحاولُ مُلكًا أو نموتَ فنُعذَرا

فمات امرؤ القيس بعد عودهِ من عند قيصر عند جبلٍ يقال لهُ عسيبٌ . ولمَّا علم بموتهِ هناك قال:

أجارتنا إنَّ الخطوبَ تنوبُ ... وإنّي مُقيمٌ ما أقامَ عسيبُ

ولما مات امرؤ القيس سار الحارث بن أبي شمر الغسَّانيُّ الى السموءل وطالبهُ بادرع امرىء القيس وما لهُ عندهُ وكانت الأدراع مائةً وكان الحارث قد أسر ابن السموءل . فلمَّا امتنع السموءل من تسليم ذلك الى الحارث قال الحارث : إمَّا أن تُسلّم الأدراع وإمَّا قتلتُ ابنك . فقال السموءل : لستُ أخفرُ ذمّتي فاصنع ما شئتَ . فذبح ابنهُ والسموءل ينظر اليه

ذكر العرب المستعربة بني اسماعيل وهم القسم الثالث

٤١١ وَهُمْ بَنُو عَدْنَانَ بْنِ إِسْمَاعِيلَ وَنَزَلُوا ٱلْحِجَازَ وَتَوَلَّوْا سِدَانَةَ ٱلْكَعْبَةِ. وَإِنَّمَا ٱلْحِجَازُ وَتِهَامَةُ كَانَا دِيَارَ ٱلْعَمَالِقَةِ. وَكَانَ لَهُمْ مَلِكٌ هُنَالِكَ وَكَانَتْ جُرْهُمُ مِنْ تِلْكَ ٱلطَّبَقَةِ. وَكَانَتْ دِيَارُهُمُ ٱلْيَمَنَ مَعَ إِخْوَانِهِمْ مِنْ حَضْرَمَوْتَ. وَأَصَابَ ٱلْيَمَنَ قَحْطٌ فَفَرُّوا نَحْوَ تِهَامَةَ يَطْلُبُونَ ٱلْمَاءَ وَٱلْمَرْعَى وَعَثَرُوا فِي طَرِيقِهِمْ بِإِسْمَاعِيلَ مَعَ أُمِّهِ هَاجَرَ. فَٱحْتَلُّوا أَسْفَلَ مَكَّةَ وَٱقْتَتَلُوا مَعَ ٱلْعَمَالِقَةِ فَأَبَادُوهُمْ. وَنَشَأَ إِسْمَاعِيلُ بَيْنَ جُرْهُمَ وَتَكَلَّمَ بِلُغَتِهِمْ وَتَزَوَّجَ مِنْهُمْ وَدَعَاهُمْ إِلَى ٱلتَّوْحِيدِ وَتُوُفِّيَ لِمِائَةٍ وَثَلَاثِينَ سَنَةً مِنْ عُمْرِهِ. وَلَمْ يَزَلْ أَمْرُ جُرْهُمَ يَعْظُمُ بِمَكَّةَ وَيَسْتَفْحِلُ حَتَّى وَلُوا ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ. وَكَانُوا وُلَاتَهُ وَحُجَّابَهُ وَوُلَاةَ ٱلْأَحْكَامِ بِمَكَّةَ. وَلَمَّا طَالَتْ وِلَايَةُ جُرْهُمَ ٱسْتَحَلُّوا مِنَ ٱلْحَرَمِ أُمُورًا عِظَامًا وَٱسْتَخَفُّوا بِحُرْمَةِ ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ قَطَعَ ٱللّٰهُ دَابِرَهُمْ لِأَنَّهُ لَمَّا خَرِبَ سَدُّ مَأْرِبٍ سَارَ عَمْرُو بْنُ عَامِرٍ وَقَوْمُهُ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ لَا يَطَأُونَ بَلَدًا إِلَّا غَلَبُوا عَلَيْهِ. فَلَمَّا قَارَبُوا مَكَّةَ أَبَتْ جُرْهُمُ أَنْ تَفْسَحَ لَهُمْ وَٱسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَقَالُوا: مَا نُحِبُّ أَنْ تَنْزِلُوا فَتُضَيِّقُوا عَلَيْنَا مَرَاتِعَنَا وَمَوَارِدَنَا فَٱرْحَلُوا عَنَّا حَيْثُ

وانصرف الملك على يأس. فضرب العرب به المثل في الوفاء. وقال السموءل:

وفيتُ بأدرع الكنديّ إنّي ... إذا ما خان أقوامٌ وفيتُ
بنى لي عاديا حصنًا حصينًا ... وماء كلّما شئتُ استقيتُ
رفيعًا تزلق العقبان عنهُ ... إذا ما نابني ضيمٌ أبيتُ
وأوصى عاديا قدمًا بألّا ... تُهدّم يا سموءل ما بنيتُ

(لابي الفداء)

أخيتم فلا حاجة لنا بجواركم. فاقتتلوا ثلاثة أيام وانهزم جرهم فلم يفلت منهم إلا الشريد فهدر دمه (٢٠٧م). ثم تفرقت قبائل اليمن وانخزعت خزاعة بمكة فولوا أمر مكة وحجابة الكعبة. وسأل بنو إسماعيل السكنى معهم فأذنوا لهم. وتملك عليهم لحي وهو ربيعة ابن حارثة وكان فيهم شريفا سيدا مطاعا وبلغ بمكة من الشرف ما لم يبلغ عربي قبله. وكان قد ذهب اسمه في العرب كل مذهب وقوله فيهم دينا متبعا. وكان أول من أطعم الحاج بمكة سدائف الإبل ولحمانها على الثريد. وعم في تلك السنة جميع حاج العرب بثلاثة أثواب من برود اليمن وهو الذي بحر البحيرة ووصل الوصيلة وحمى الحسام وسيب السائبة ونصب الأصنام حول الكعبة. فكانت قريش والعرب تستقسم عنده بالأزلام. وهو أول من غير الحنيفية دين إبرهيم. وأقامت خزاعة ثلاث مائة سنة في سدانة البيت حتى قام قصي القرشي من بني إسماعيل. وعظم شرفه فرأى أنه أحق بالكعبة وبأمر مكة. وكانت ولاية الكعبة لأبي غبشان الخزاعي فباعها من قصي بزق خمر فقيل فيه أخسر من صفقة أبي غبشان. ثم دعا قصي إليه رجالات قريش وأجمع لحرب خزاعة فتناجزوا وكثر القتل. ثم صالحوه على أن يحكموه الكعبة (٥٠٧ ب م). فصار لقصي لواء الحرب وحجابة البيت وتيمنت قريش برأيه وصرفوا مشورتهم إليه في قليل أمورهم وكثيرها. فاتخذوا دار الندوة إزاء

ٱلْكَعْبَةِ فَكَانَتْ مُجْتَمَعَ ٱلْمَلَإِ مِنْ قُرَيْشٍ فِي مُشَاوَرَاتِهِمْ وَمَعَاقِدِهِمْ. ثُمَّ تَصَدَّى لِإِطْعَامِ ٱلْحَاجِّ وَفَرَضَ عَلَى قُرَيْشٍ خَرَاجًا يُؤَدُّونَهُ. ثُمَّ هَلَكَ قُصَيٌّ وَقَامَ بِأَمْرِهِ بَنُوهُ مِنْ بَعْدِهِ بِٱلْقِيَادَةِ فِي كُلِّ مَوْسِمٍ حَتَّى جَاءَ ٱلْإِسْلَامُ (ملخَّص عن كتاب اخبار مكَّة للازرقي)

(ملحق بتأريخ العرب)

١ اديان العرب

٤١٢ كانت العرب في أوَّل أمرها على دين ابرهيم واسماعيل حتى قدم عمرو بن لحيّ بصنم يقال لهُ هُبَل. وكان من أعظم اصنام قُرَيش عندها فكان الرجل اذا قدم من سفرٍ بدأ بهِ على أهلهِ بعد طوافهِ بالبيت وحلق راسهُ عندهُ. وكان هُبَل من خرز العقيق على صورة انسان وكانت يدهُ اليمنى مكسورةً فأدركتهُ قريش فجعلت لهُ يدًا من ذهب. وكانت لهُ خزانة للقربان. وكانت لهُ سبعة قِداح يضربون بها اذا مسَّتهم الحاجة ويقولون: إنَّا اختلفنا فهب السّراحا. ان لم تقلهُ فمُر القداحا

وكان بالكعبة على يمينها حجر اسود. وما زال هذا الحجر معظَّماً في الجاهليَّة والاسلام. تتبرَّك الناس بهِ وتخرّ دونهُ وتقبّلهُ. وكان بأسفل مكَّة قد نُصب صنمٌ يُعرف بالخَلَصة فكانوا يُلبسونها القلائد ويُهدون اليها الشعير والحِنطة. ويصبّون عليها اللبن ويذبحون لها ويعلّقون عليها بيض النّعام. وكان لهم اصنام نصبوها على اسم السيَّارات من الكواكب. وهي المشتري وقيل ان اصل اسمهِ ذوشراه اي ساطع النور. والزهرة وزُحَل والمرّيخ وغيرها من الثوابت. ومن معبوداتهم أيضاً المَناة واللات وعُزّى. وكانت المناة على ساحل البحر مما يلي قُدَيد. وكانت صخرةً تُراق عليها دماء الذبائح ويلتمسون منها المطر في الجَدب. وكانت اللات ايضاً صخرةً صنماً للشمس اذا مرَّ عليها الحاج يلتونها بالسّويق. وقيل أصلها من لاهَ اي علا وعظُم ومنهُ اسم الجلالة. وأمَّا العزّى فكانت شجرة يعظّمها قريش وبنو كنانة. ويطوفون بها بعد طوافهم بالكعبة ويعكفون عندها يوماً. قال الكلبيُّ: وكانت اللات والعزّى ومناة في كل واحدة منهنَّ شيطان يكلّمهم. وتراءى للسدَنة وهم الحجَبة وذلك من صنع إبليس وأمرهِ. وكان بنو حنيفة في الجاهلية اتخذوا الهًا عبدوهُ دهرًا طويلًا ثم أصابتهم مجاعة فأكلوهُ. فقيل في ذلك:

اكلت حنيفةُ ربَّها زمن التقحّم والمجاعه
لم يحذروا من ربّهم سوء العقوبة والتّباعه

ومن اديانهم المجوسيَّة او الصابئة ونصبوا بحسب تلك الآراء الصابئيَّة اصنام الذهب للشمس وأصنام الفضة للقمر . وقسموا المعادن والأقاليم للكواكب . وزعموا ان قُوى الكوكب تفيض على تلك الأصنام . فتتكلم تلك الأصنام وتفهم وتوحي للناس اعني الأصنام . وتعلم الناس منافعهم وكذلك قالوا في الأشجار التي هي من قسمة تلك الكواكب . إذا أُفردت تلك الشجرة لذلك الكوكب وغرست لهُ وفعل لها كذا فاضت روحانية ذلك الكوكب على تلك الشجرة . وتوحي للناس وتكلمهم في النوم . ومن أديانهم اليهودية في حمير وكنانة وبني الحارث ابن كعب وكندة . واما النصرانيَّة فكانت انتشرت فيهم . قال الفيروزابادي : ان قبائل شتَّى من بطون العرب اجتمعوا على النصرانيَّة بالحيرة وهم العباد . وإن كثيرًا من ملوك اليمن والحيرة تنصَّروا . وأمَّا ملوك غسَّان فكانوا كلهم نصارى وكانت النصرانيَّة في ربيعة وقضاعة وبهرا وتنوخ وتغلب وبعض طي . وكانت قريش نصبت في جملة أصنامها في الكعبة تمثال مريم مزوَّقًا وابنها عيسى في حجرها قاعدًا مزوَّقًا . وذلك في العمود الذي يلي باب الكعبة ولم تُطمَس صورتها بل بقيتا الى عهد ابن زُبير فهلكتا في الحريق (للنويري والازرقي)

٢ علوم العرب وآدابهم

٦١٣ فامَّا علم العرب الذي كانوا يتفاخرون بهِ فعلم لسانهم واحكام لغتهم ونظم الأشعار وتأليف الخطب . وكانوا موسومين بين الامم بالبيان في الكلام والفصاحة في المنطق والذلاقة في اللسان . وكان لهم مع هذا معرفة بأوقات مَطالع النجوم ومغاربها وعلمٌ بانواء الكواكب وامطارها . على حسب ما أدركوهُ بفرط العناية وطول التجربة لاحتياجهم الى معرفة ذلك في اسباب المعيشة لا على طريق تعلُّم الحقائق . وامَّا علم الفلسفة فلم يمنحهم الله شيئًا منهُ ولا هيَّأ طبائعهم للعناية بهِ . وكان الشعر ديوان خاصَّة العرب ومنتهى حكمتها والمنظوم من كلامها والمقيِّد لأيامها والشاهد على حكامها . بهِ يأخذون وإليهِ يصيرون . وكانوا لا يُهنِّئون الَّا بغلام يولد او شاعر ينبغ فيهم اوفرس تنتج . قال الصفديُّ : بل ما كان للعرب ما تفتخر بهِ الَّا السيف والضيف والبلاغة . وكانوا كل حول يتقاطرون الى سوق عكاظ ويتبايعون ويتناشدون ويتفاخرون ويتعاكظون . ولقد بلغ من كلَف العرب بالشعر وتفضيلها لهُ أن عمدت الى سبع قصائد من الشعر القديم فكتبتها بماء الذهب في القباطيّ المُدرجة . فقيل لها مذهَّبات وقد يقال لها معلَّقاتٌ لانها علقت في أستار الكعبة . أمَّا الكتابة فحكوا أنَّ ثلاثة نفر من طيء كانوا على دين عيسى فوضعوا الخط وقاسوا هجاء العربيَّة على هجاء السريانيَّة . فتعلَّمهُ قومٌ من الأنبار وجاء الإسلام وليس أحد يكتب بالعربيَّة غير بضعة عشر إنسانًا . ولقلَّة القراطيس عندهم عمدوا الى كتِف الحيوان فكتبوا عليها . وكان الناس فرقتين أهل الكتاب والاميّون . والاميّ من كان لا يعرف الكتابة . فكانت اليهود والنصارى بالمدينة والاميّون بمكَّة (لابي الفرج والجوهري)

تمَّ بحوله تعالى

فهرس الجزء الثالث من كتاب مجاني الادب

تمّ طبع هذا الكتاب في المطبعة
الكاثوليكية، بيروت، في التاسع
عشر من شهر حزيران سنة ١٩٥٤